د. محمد العمري

أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة



دراسات وحوارات

أفريقيا الشرق

أسئلة البلاغة
في
النظرية والتاريخ والقراءة

دراسات وحوارات

تأليف :د. محمد العمري

عنوان الكتاب: **أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة**

رقم الإيداع القانوني: 2013MO1722

ردمك : 978-9981-25-898-3

أفريقيا الشرق - المغرب

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء

الهاتف : 04 95 25 22 05 - 13 98 25 22 05

الفاكس: 20 29 25 22 05 - 80 00 44 22 05

• النشر والتصفيف:39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء

الهاتف: 54/53 67 29 22 05

الفاكس: 72 38 48 22 05

البريد الإلكتروني : E. mail : africorient@yahoo. fr

د. محمد العمري

أسئلة البلاغة
في
النظرية والتاريخ والقراءة

دراسات وحوارات

أفريقيا الشرق

تقديم

ما البلاغة؟

هذا هو السؤال المحوري الذي يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عنه بعد أربعين سنة من البحث في جوانبَ وقضايا مختلفة منه. قضايا كان بعضها معروفا على الإجمال (الصور البلاغية الشعرية)، وبعضها لَفَّهُ النسيان (الأبعاد التداولية والحجاجية).

فمن خلال الاطلاع على الجهود الحديثة التي بُذلت، مُنذ منتصف القرن الماضي، من قِبَل المشتغلين باللغة والخطاب من اللسانيين (ياكوبصون مثلا) والمناطقة (بيرلمان مثلا) بدأنا ننتبه للمكون المهمل من تراثنا البلاغي، ذلك المكون الذي غطاه الصدأ واختلط تبره بترابه. وعلى هذا الأساس أعدنا الاعتبار للبعد الحجاجي الإقناعي والمعرفي العام للبلاغة العربية، بعد أن عمقّنا البحثَ في بعض الجوانب المهملة من البناء الشعري (البنية الصوتية). اقتضى كشف كل هذا الغنى «تنسيقَ» البلاغة العربية تاريخيا ليكون ذلك النسق حجة على أن البلاغة التي نسعى لبنائها ليست غريبة عن التراث العربي، وهكذا كان كتابُنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، خريطةً لتلك الأرض التي ضاعت من البلاغة في ظروف انكماشها. أعدنا قراءة الجاحظ في سياق مشروعه البياني الخطابي، وأعدنا الاعتبار إلى بلاغة المناسبة والاعتدال عند ابن سنان الخفاجي في مقابل بلاغة الغرابة في «أسرار» الجرجاني...الخ. وكان لزاما أن نعود من حين لآخر لنتساءل:

ما البلاغة؟

وما علاقة البلاغة بالحجاج بمعنييه اللساني والمنطقي؟

وما علاقة البلاغة بالسياسة؟

البلاغة والأدب والنقد الأدبي؟

علاقة الأدب بتحليل الخطاب؟

كيف تجلت مكونات البلاغة التخييلية والتداولية في البلاغة العربية والغربية؟

كيف تفاعل القراء والباحثون مع هذا المشروع من خلال أسئلتهم وحواراتهم ومناقشاتهم؟

هذا الحوار الذي استمر أربعة عقود هو الذي يقدمه هذا الكتاب بثلاث صيغ:

- مناقشاتٌ نظرية تضبط المفاهيم وتضع الحدود (الفصل الأول).
- فحصٌ لتاريخ الأسئلة والأجوبة التي طرحها الخطاب البلاغي في عصور حيويته، قبل أن يدركه الجمود. (الفصل الثاني)
- الإجابة عن أسئلة القراء المختصين ومناقشات الإشكاليات الأساسية في البلاغة العربية التي كانت أحيانا موضع خلاف. (الفصل الثالث)

فبرغم العمل التركيبي الذي قدمناه في كتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، والعمل النسقي التاريخي الذي قدمنا في كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مازال مفهوم البلاغة غامضاً في أذهان الكثير من الباحثين، خاصة في الشرق العربي، وهذا ما لمسته بقوة في الندوات القليلة التي شاركتُ فيها في السنوات الأخيرة، بحيث نجد أنفسنا نتحدث عن شيئين مختلفين. وقد عبَّرت أحياناً عن عدم جدوى الحوار المباشر: ذلك أن الآخر لا يقدم تصوراً متكاملاً يأخذ كل مكونات التراث العربي بعين الاعتبار، بل يكتفي بما وصله مبتوراً من مسار السكاكي وشراحه. فحين نتحدث نحن عن بلاغة عامة ذات جناحين: التخييلِ والتداول، يتحدث هو عن «علم المعاني» و«علم البيان» و«علم البديع»، مخْرجاً الجاحظ وابن سنان وحازم ومن اتصل بهم، أو سار في طريقهم، من مجال تصوره واهتمامه.

ومن حسن الحظ أن جيلاً جديداً من الشباب بدأ يتبنى التصور الجديد للبلاغة العامة، وصار البُعد الحجاجي للبلاغة يحظى بعناية خاصة، وتُسجل برسمه أطروحات جامعية لأول مرة في جامعات شرقية، وقد أتاحت لي وسائل الاتصال الحديثة الاطلاع على مشاريع في العراق وإيران؛ صرح أصحابُها، في رسائل إلكترونية، أنها الأولى من نوعها في تلك البلاد. أما في دول الخليج فقد بدأت عناية بعض الباحثين الشباب بالموضوع منذ سنوات.

لتقوية هذا الجانب سيجد القارئ (في الفصل) تركيزاً على علاقة البلاغة بالحجاج من جوانبَ متعددة نظريةٍ صرف (الحدود)، وتطبيقية (قراءة في الخطاب السياسي). والواقع الراهنُ للعالمِ العربي يقتضي تقوية هذا البعد.

وإذا كان الجانب التاريخي يقدم معرفة بمنابت البلاغتين العربية والغربية، ويصرف النظر عن بعض الأسئلة الزائفة، مثل سؤال الأصل والأثر، فإنه يقدم بدوره الحجة القاطعة على أن البلاغة كانت دائما ذات جناحين: جناح شعري وجناح خطابي، جناح تخييلي وجناح تداولي. وقد دعمنا رغبتنا في إبراز البعد الحجاجي للبلاغة بتطبيقات، تناولت على وجه الخصوص الخطاب السياسي في المغرب. وهذا المجال التطبيقي هو عملنا منذ سنوات. جُمع جانبُ من مواده في كتاب: دائرة الحوار ومزالق العنف، وفي كتاب: منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين، ومنه عشرات المقالات المنشورة في الصحافة الورقية والإلكترونية التي يجد القارئ عينات منها في موقعنا على الأنترنيت. www.medelomari.net

بل إن أولَ لقاء لي ببلاغة الحجاج كان تطبيقيا، ظهر في أول كتاب ألفتُه خارج الأطروحات الجامعية، وهو: بلاغة الخطاب الإقناعي الذي صدر سنة 1985 ومازال يُطبع ويروج.

وقد أدرجت في الكتاب الحالي مناقشة مفيدةً حول قضية المقصدية في الشعر والنقد العربيين لأهمية الأفكار الواردة فيها في دعم تصورنا للبلاغة العامة.

وهذا الكتاب، (بخلاف بعض كتبي التي اتجهَت إلى قضية محدودة، مثل كتاب تحليل الخطاب الشعري، أو الموازنات الصوتية، أو تاريخ البلاغة العربية، إلى حد ما)، يهم جمهوراً واسعاً من القراء: يهم كل من يتناول الخطاب في أبعاده التواصلية (اللسانيون) والحوارية (فلاسفة ومحامون ورجال دين خطباء)

والتخييلية (شعريون ونقاد ...)، بل هو مفيد، إن لم يكم ضروريا، لكل طالب علم، لأن البلاغة العامة مفتاح العلوم كما تصورها السكاكي حين تحدث عن علم الأدب وهو يقصد البلاغة تحت عنوان: مفتاح العلوم.

ولأنه يرصد هذا الجمهور فقد اعتمد مسلكا وطريقةً مُسعفة، تمثلا في البعد عن العقادة المفاهيمية والمصطلحية، وعن الفضول والاستطرادات، وتناول القضايا بصيغ مختلفة. وما على القارئ إلا أن يُعيد أولَ الكتاب على آخره، فالنظري مدعوم بالتاريخي، وهما معاً مفككان بالأسئلة والحوار، والمناظرة. ونظرا لأن مواده أُنتجت في فترات متباعدة وسياقات مختلفة فقد اقتضى الحال إثارة بعض القضايا أكثر من مرة، وبصيغ مختلفة ستساعد القارئ على الفهم والاستيعاب.

إنه مدخلٌ للبلاغة فيه «كفايةُ ألمقتصد، وبدايةُ المجتهد». فالمقتصد سيأخذ تصوراً عن دروب الخطاب وأوجه اشتغاله، والمجتهد سيجد فيه نسقَه ونظامَه، كما سيجد فيه إحالة على أعمالنا الأخرى في كل قضية قضية، وأعمالُنا تحيل على أعمال غيرنا، وبذلك ستنفتح أمام قارئه فضاءات واسعة. وسيكتشف، في نهاية المطاف ـ كما اكتشفنا ـ أنه مجرد تلميذ مجتهد، وتلك هي السعادة.

شكر وامتنان

في سبيل تنقية هذا العمل من الأخطاء المطبعية واللغوية، وغيرها من الشوائب التأليفية، وضعتُ النسخةَ النهائية منه بين يدي خمسة أصدقاء من الباحثين في البلاغة وتحليل الخطاب، تلقيتُ جوابَ ثلاثة منهم: قرأه مصحِّحا ومقترحا الأستاذُ عبد القادر بقشى، والأستاذ إدريس جبري، وقرأ الفصلين الأولين منه الأستاذ عبد الرحيم وهابي. لهم جميعا الشكر والامتنان، لقد أدخلتُ جميع التصحيحات التي نبهوا إليها، واستفدتُ من أكثر المقترحات التي اقترحوها.

وقد شعُر بعضُهم، كما شعرت أنا، أن تقليب القضايا على عدة وجوه لإبراز كل جوانبها وتنوير بعضها ببعض يبرر ما قد يشعر به القارئ من إثارة بعض القضايا في سياقات مختلفة. نتمنى أن يحقق هذا العمل هدفَه، وهو الجواب عن السؤال الذي ما يزال موضوع تخبط: ما البلاغ؟

الفصل الأول

أسئلة النظرية والمنهج

ما البلاغة؟ ما حدودها؟

- 1 -

ما البلاغة؟ :

علم الخطاب الاحتمالي

السؤال

بالرغم من وجود عنصر جوهري يُعيد الأجزاء والتجليات إلى أصل واحد فإن البلاغة ـــ كأغلب العلوم الإنسانية أو كلهاـــ مفهومٌ تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب: فمفهومها عند الجاحظ1 وابن سنان الخفاجي، مثلا، بعيد كلَّ البعد عن مفهومها عند عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، ومفهومها عند كل هؤلاء (أي إلى حدود القرن السادس الهجري) بعيدٌ عن مفهومها عند الصلاح الصفدي وابن حجة وغيرهما من بلاغيي العصور المتأخرة. ونظيرُ هذه الاختلافات ـــ الملحوظة في الثقافة العربية ـــ موجود ومرصود بقوة في الثقافة الغربية؛ من أرسطو إلى بيرلمان. وقد تصدى مجموعة من الباحثين لهذا الموضوع بشكل جلي خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي ساعين لكشف سرِّ البلاغة وجوهرِها الموحَّـــد.

يقول أوليفيي روبول في مقدمة كتاب البلاغة La rhétorique)) الصادر سنة 1984: «الغرض الأول من هذا الكتاب هو مساعدة قارئه على معرفة ما يقصده حينما يستعمل كلمة «بلاغة» (rhétorique). إن للكلمة ، بدون شك، عدةَ دلالات، ولكننا نريد أن ندلل، وهذا هو هدفنا الثاني، على أنها منسجمة، وتحيل علىً حقيقة واحدة، هي البلاغة»[2].

---

1. وقد عرض الجاحظ نفسه عددا من التعاريف منسوبة لأمم مختلفة (الهندي والفارسي) ولعدد من العلماء. (انظر القسم الأول من البيان والتبيين).

2- Olivier Reboul. La rhétorique. P. 5.

وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات يقول ميشيل مايير في كتابه: قضايا البلاغة الصادر سنة 1993: "عرفت البلاغة على مدى تاريخها الطويل، عدداً من التعاريف المتفاوتة القرب والبعد، تتنافى أحيانا ولكنها تتداخل أحيانا أخرى تداخلا جزئيا. وإلى اليوم مازلنا مضطرين لمواجهة غياب الوحدة في هذا المجال، كما لو أن الضبابية واللعنة الأصليتان اللتان ألصقتا بها قديما ما زالتا تطاردانها"[3].

لكل ما تقدم تظهر الحاجة دائما إلى إعادة تعريف البلاغة كلما ظهر إبدال معرفي جديد. وقد عرضنا لبعض مظاهر هذا الاختلاف في كتابنا: البلاغة الجديدة.

وإذا كان بوسع منتجِ الخطاب البلاغي في سياق تاريخي معين أن ينظر من زاوية خاصة فيغلب مكونا على مكون ويعتبره أساسَ البلاغة ـ أو سرَّها كما عبر القدماء ـ فإن مؤرخها، والراصد لنظريتها العامة مطالب باستيعاب كل الرؤى، وفهم سر انتسابها إلى البلاغة؛ أي أنه مطالب بكشف الجوهر المشترك الكامن بين كل التوجهات التي تحمل هذا الاسم، وليس من حقه أن يزكي أحدها، أو يُقصي الآخرَ إلا في إطار عمل نقدي لبناء نسقٍ جديد، أي حين ينتقل من التأريخ إلى التنظير، وقد يحدث ذلك في إطار المؤلَّف الواحد.

هذا هو السؤال الذي قادنا، بعد تحقيق أعمال جزئية في مجال الشعرية (علم الشعر)، والخَطابية (علم الخطابة)، إلى محاولة تنسيق تاريخ البلاغة العربية تنسيقا يستوعب كل توجهاتها ـ في كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ـ وذلك تمهيدا لطرح السؤال الذي أرَّق الباحثين المحدثين: ما البلاغة؟ الذي جاء صريحا في آخر أعمالنا: البلاغة بين التخييل والتداول.

البلاغة والمحيط المعرفي

من أسباب اضطراب مفهوم البلاغة كونُها ملتقًى لعلوم مختلفة لكل منها عُلْقَةٌ بالخطاب وحاجةٌ إلى استنطاقه وكشف جانب من أسراره. ولذلك كان حازم

-3 Michel Meyer. Questions de rhétorique. Langage, raison et séduction. P.15-16.

القرطاجني يَعتبر البلاغة، بحق، «علما كليا» يستند إلى علوم أخرى لا بد من تحقيق الكفاية منها قبل اقتحامه، وهي علوم اللسان بما فيها من نحو واستدلال. ولهذا الاعتبار شبهها بالطب، وشبه المتسرِّعَ في معالجة قضاياها بالشخص الذي قضى ليلة في مطالعة كتب الطب، وفي الصباح حرر وصْفَةً لصديقه المريض فعجَّل برحيله إلى العالم الآخر. وكان حازم ينظر، في هذه الصورة، إلى علماء الكلام الذين ينطلقون من بعض مبادئ البلاغة للحسم في قضايا عقدية عويصة. غير أن الإحاطة بكل العلوم المتدخلة في المجال البلاغي مما تضيقُ به الأعمار وتنقطع دونه أسباب الأفراد. «وكيف يظن إنسان (حسب عبارة حازم نفسه) أن صناعة البلاغة يتأتَّى تحصيلُها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار»[4].

ومن الملاحظ، عبر التاريخ، أن علاقة البلاغة بالعلوم المجاورة علاقة معقدة فهي ــ أي العلوم المجاورة ــ تُمِد البلاغة بالعتاد الذي تحتاج إليه حين تكون للبلاغة سلطة وهيبة، ثم تستفيد من هذه البلاغة في حل معضلاتها الخاصة كل في مجاله، ولكنها ما إن تحسَّ منها بخلل، أو وهن، حتى تبادر إلى الإجهاز عليها، والاستيلاء على أطراف من أراضيها. وهذا ما يمكن ملاحظته في حال البلاغة العربية التي تغذت من النحو والمنطق في لحظة نشأتها وازدهارها، كما بينا في كتاب البلاغة العربية، ثم اختنقت بهما عند انكماشها. كما يلاحظ في أعمال شراح السكاكي، ومنسقي البديعيات، مثل السجلماسي وابن البناء. فقد ساهم الطرفان في فصل البلاغة عن النصوص الإبداعية الحية، شعرية وخطابية.

يمكن تتبع هذا الأمر بجلاء في الثقافة الحديثة، منذ بداية عصر النهضة إلى الآن. فبعد ازدهار وتوسع عرفتهما البلاغة القديمة، عربية وغربية على حد سواء، ساهمت ظروف مختلفة في انكماشها، فتخلت عن مناطق واسعة كانت تحت سلطتها، خاصة في مجال الإقناع. وبذلك صارت مجرد لوائح من الصور البديعية منفصلة عن النص والإنسان (تحمل معها نصا محنطا، في شكل أمثلة مكرورة مفتعلة، وتخاطب إنسانا لم يعد له وجود في هذا العصر، الإنسان الذي

---

4 ـ منهاج البلغاء. 88.

يعرض فاطمةَ وأختَها في باب التخيير: تزوج فاطمة أو أختها)[5]. ولذلك ما إن بدأتْ علومُ الإنسان واللسان تتأسس في عصر النهضة، من مَنطقٍ ولسانيات وعلم نفس واجتماع (..الخ) حتى مدت يدها إلى علم البلاغة لحلِّ بعض مشكلات الخطاب التي تخصُّها فوجدتْ البلاغةَ غائبة عن الميدان، فاقتحمت موضوع الخطاب مُجيبةً عن الأسئلة التي تهمها حينا ومتجاوزة ذلك إلى اقتراح أجوبة تختص بها البلاغة حينا آخر. وبذلك التجاوز كونت لها ما يشبه المستعمرات في أرض البلاغة من قبيل: منطق الحجاج، والتداوليات، ولسانيات النص، وعلم النص (الأدبي)، وسميائيات النص الأدبي، والشعرية اللسانية، والنقد النفسي والسوسيولوجي.. الخ. فمن بين النقاشات التي دارت بين اللسانيين التساؤل: هل ينبغي اشتقاق الشعرية من داخل قواعد نحو اللغة العادية أم ينبغي بناء نحو خاص بها؟

(وزادت المسألة تعقيدا، في المجال العربي، بتعايش هذه المباحث مع المباحث الجزئية التقليدية التي ظلت تحتفظ بكيانها المحنط غير عابئة بما يجري حولها، مثل: علم القافية، وعلم العروض، والمنطق (في بعض البيئات العتيقة). ففي كثير من جامعاتنا تتعايش هذه العناوين أو بعضُها، تعايُشَ تجاهُل، دون ما حرج أو تساؤل عن تداخلها وتخارجها، وعما إذا كان الغرض من تدريسها هو مجرد التأريخ أم التوظيف، إذ لكل من الغرضين طريقةٌ ومنهاج).

وعندما وصلتْ عمليةُ الفصل بين العلوم الإنسانية في العصر الحديث إلى مداها في إطار التخصص وتدقيق البحث عادت الأسئلة النسقية إلى الواجهة؛ فلم يعد السؤال الجوهري هو: أين يقفُ هذا المبحثُ ويبدأ المبحث الآخر، بل صار السؤال هو كيف تتداخل الحقول وتتفاعل في إطار تكامل المعارف وتداخلها؟

ولذلك بدأ المحققون المدققون من الباحثين في مجالي التداول الحجاجي (منطق الحجاج) و"نظرية الأدب" و"علم النص" يكتشفون أن ما يبحثون عنه، في تناولهم لشتّى أنواع الخطابات الاحتمالية المؤثرة، موجودٌ في علم عتيق أصابه الإهمال حتى تلاشت معالمه، هذا العلم هو البلاغة.

---

5. آخر مرة سمعت هذا المثال كانت الأحاديث الحسنية الرمضانية بالمغرب لسنة 2106، استعمله الأستاذ ابن حمزة، وهو، مثلي، من خريجي كلية الآداب بفاس.

نحيل هنا على أربعة من الأعلام الكبار في مجال تنظير الخطاب: هُم عالم المنطق شاييم بيرلمان، والناقدان الأدبيان: تزفيطان تودوروف، وتيري إيگلتوم، وعالم اللسانيات: فان ديك. فالأول، وهو رأسُ مدرسة متميزة في مجال المنطق، يُصرِّح، في مقدمة كتاب مشترك، بعنوان: مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة، ويكرر هذا التصريح في مقدمة كتاب آخر بعنوان: إمبراطورية البلاغة[6]، أنه فوجئ، وهو يسعى إلى وضع منطق للقيم؛ يوازي المنطق الصوري الرمزي، بأن ما كان يبحث عنه موجود في علم قديم اسمه البلاغة، وهو يقصد بلاغة أرسطو بالتحديد. ولذلك عَكَفَ على دراسة هذه البلاغة وإعادة صياغتها في الاتجاه الذي يخدم غرضه، وهو منطق الحجاج، دافعا بريطورية أرسطو نحو الجدل مبعدا إياها عن السفسطة. أما الثاني والثالث (تودوروف ، وإيگلتون) فقد انتهى بهما البحث عن جوهر الأدب ونظريته إلى أن من الأجدى البحث عنهما ضمن نظرية الخطاب، هذه النظرية التي كانت موضوعا لعلم البلاغة باعتبارها نظرية نقدية عامة كما صرح إيگلتون. لقد انتهى تودوروف (وهو عَلَم متميز في مجال البحث عن الأدبية في إطار قراءة نقدية لنظرية الشكلانيين الروس والفرنسيين معا)، بعد استقصاء لتجليات الأدبية عبر التاريخ من نظرية المحاكاة، إلى جمالية القرن الثامن عشر وما بعدها، إلى أن الأجدرَ من البحث عن الأدبية هو البحثُ عن الأدب كجزء من الخطاب[7]. وصرح إيگلتون في نهاية بحثه عن نظرية للأدب أنه تلافيا للجري وراء نظرية قد تكون مجرد سراب يجدر بنا أن نبحث عن الأدب باعتباره ممارسة خِطابية، فبقدر ما هنالك من خطابات هناك طرق لدراستها، ولكن الطريقة التي تلائم الموضوع الذي هو بصدده، بعد كل تلك الرحلة، «هي التي تهتم بأنواع الآثار التي ينتجها الخطاب، وكيف يتوسل إلى إنتاجها»[8]. وهذا «ما تتكفل به على الأرجح (حسب عبارته) أقدم صيغة من صيغ «النقد الأدبي» في العالم، تلك المعروفة باسم البلاغة. فالبلاغة، وهي تمثل

6- Perelman ch. et Olbrechts Tyteka. Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique.
- Perelman ch. L'empire rhétorique.

7- Todorov.T. Questions de poétique.

8- Terry Eagleton. Litterary Theory. An Introduction. P. 207

أقدم صيغة من التحليل النقدي تَلَقَّاها الناسُ من المجتمع القديم إلى القرن الثامن عشر، كانت تقوم بفحص الطرق التي بنيت بها الخطابات من أجل تحقيق آثار خاصة. فهي لم تكن تهتم بما إذا كان موضوع عملها منطوقا أو مكتوبا، شعرا أو فلسفة، رواية أو تاريخا... »[9].

أما العَلَمُ الرابعُ والأخير، أي فان ديك، صاحب النظرية المتميزة في مجال علم النص، فقد صرح في دراسته الموسعة الملخِّصة لمشروعه العلمي بعنوان: النص بنياته ووظائفه، بأن علم النص الحديث هو الوريث الشرعي للبلاغة[10]. هذه مجرد نماذج، لأصحابها قيمةٌ رمزية، كل في مجال تخصصه: المنطق، الشعرية، نظرية الأدب، لسانيات النص.

هذا الذي وقع في النظرية المعرفية الحديثة، وهو نفسُه ما رصدناه في البحث القديم عن نظرية للفهم والإفهام والتأويل وحسن التعبير. فالجاحظ الذي كان يبحث عن البيان بمعنى «الفهم والإفهام»، من أي طريق كان (لغة، إشارة، إلخ) انتهى إلى مقايضة البيان بالبلاغة، ثم قايض البلاغة بالخطابة. والسكاكي الذي حدد هدفَه في أول الكتاب في «علم الأدب»، انتهى إلى أن البلاغة هي مركز هذا العلم ومداره ...الخ وسيجد القارئ بيانا لذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب، فإن احتاج إلى مزيد بيانٍ واحتجاج فما عليه إلا أن يعود إلى كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

وقد اعتقد بعض الباحثين، إلى حين، أن الأسلوبية يمكن أن تُقَدِّمَ بديلا حديثا للبلاغة، بديلا يتسم بالوصفية المنتجة بدلا من الطابع المعياري الذي أُلصق بالبلاغة القديمة، غير أن الأسلوبية ما إن حاولت تثبيت كرسيها على الدكة التي كانت تستقر فيها البلاغة باطمئنان حتى اهتز من تحتها ومال على جانبه لانكسار إحدى قائمتيْه المتمثلة في البعد التداولي، وهذا ما أبرزه هنريش بليت في دراسته المركزة: البلاغة والأسلوبية، التي أسعفنا الحظ بترجمتها[11].

9- Ibid.

10- Van Dijk. « Texte, structures et fonctions » - ترجمنا هذه الدراسة المهمة، وهي منشورة في كتابنا نظرية الأدب في القرن العشرين (ص. 45-85).

11- Henreich Plet. Rhétorique et stylistique.

هكذا إذن تُطل البلاغة القديمة على الدارسين المحدثين كلما حاولوا تدقيق البحث وتنسيقه في مجالي «التداول الخطابي» و«التخييل الشعري» (بالمفهوم العام للشعر المنصرف للوظيفة). ومن هنا بدأ السؤال يُطرحُ حولَ إمكانية قيام بلاغة عامة تستوعب المجالين. (خاصة وقد أدى البحث عن الخصوصية الجوهرية للشعر، فيما ترجم ربما خطأ بلفظ الأدبية، إلى تقليص المجال الشعري وإفقاره - وهذا ما اهتم به بعض الدارسين - مثل ج جينيت - حين حديثهم عن البلاغة المختزلة).

وقد برهنتْ هذه العودة النشيطة للبلاغة على أنها تجيب عن أسئلة لا يمكن للمداخل العلمية الأخرى أن تجيب عنها. إن البلاغة يمكن أن تُغيِّر جلدَها، ولكنها لا تختفي إلا لتظهر في لباس جديد. يقول أوليفيي روبول بهذا الخصوص: «البلاغة ضرورة لا غنى عنها، لذلك فإننا لا نجتث بلاغة إلا لإنشاء بلاغة أخرى. وهذا ما يشهد به التاريخ، فبعد أن سقطت في نسيان يطبعه الاحتقار إلى نهاية القرن التاسع عشر، عادت إلى قوتها خلال الستينيات [من القرن العشرين]، فانتبهنا إلى أننا نستعين بها في الإشهار والسياسة والتعليم...»[12]؟

وبفضل الجهود المبذولة في مجال كشف النسق البلاغي وفاعليته في مجالات الخطاب المتعددة، وبفضل الدقة التي يتميز بها التناول البلاغي للخطاب، نلاحظ أن البلاغة صارت اليومَ منطقةً مشتركةً بين العلوم، تصدِّر مفاهيمها إلى المجالات الأخرى، فأصبح لكل خطاب بلاغة. ذلك أن لا علم يستطيع أن يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة الفهم والإفهام وأداة التأثير والاستمالة.

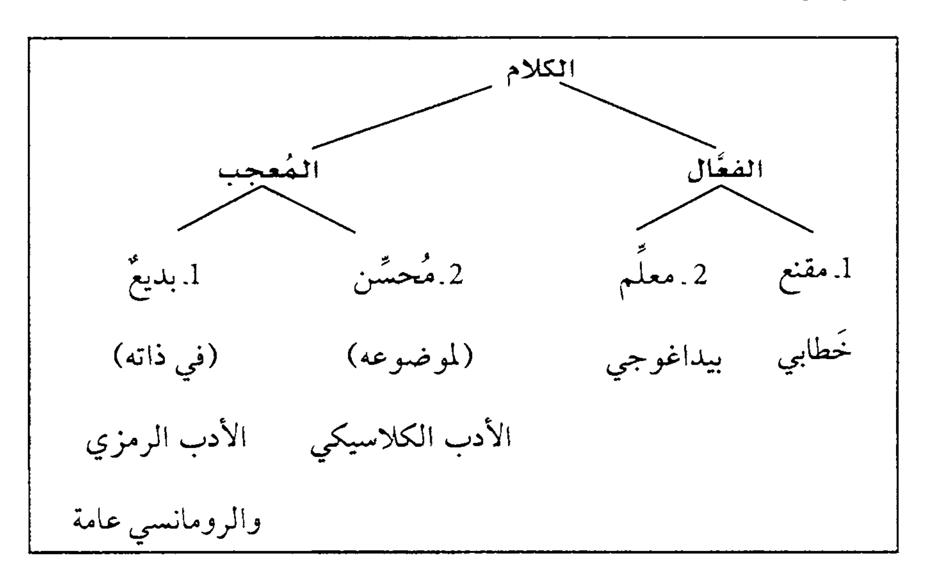
أما بعدَ هذه التمهيدات، فمن حق من درس في جامعاتنا، من المحيط إلى الخليج، أن يسألني الآن: عن أية بلاغة تتحدث؟

12- P. 7. Olivier Reboul. La rhétorique.

لا يتسع المقام لتفصيل الأسباب التي أدت إلى تقهقر البلاغة في المجالين العربي والغربي معا. فهناك الانكماش المعرفي العام، ثم تقليص مفهوم الأدبية بتأثير التوجه اللساني في مجال الشعرية، وهيمنة المفهوم الرومانسي والرمزي على مفهوم الشعر، وكذا هيمنة الفكر الوضعي الديكارتي الذي همش البعد الحجاجي للخطاب (كما عبر بيرلمان). فقد ساهمت هذه العوامل كلها في تضييق مفهوم البلاغة، حتى صارت بلاغة مختزلة كما عبر عن ذلك جيرار جينيت في مقال له مشهور بهذا العنوان: البلاغة المختزلة. Rhétorique restreinte

في البداية، لا بد من الإشارة إلى أن البلاغة تنصرف حسب السياق إلى أحد معنيين، أو إليهما معا:

• **المعنى الأول:** الكفاءةُ التعبيريةُ، أو حُسْن الكلام، وهما يتضمنان الفعالية والإعجاب، فالكلام البليغ هو الكلام الفعَّال أو المُعجِبُ، أو هما معا، بزيادة أو نقص من هذا العنصر أو ذاك.



• **والمعنى الثاني:** هو العلمُ الذي يصفُ هذه الكفاءة وهذا الحسن. وحديثُنا ينصرف إلى المعنى الثاني، ولكنه يستجلبُ من حين لآخر المعنى الأول ويتضمنه تضمُّنَ المنهج لموضوعه.

ومن هنا نقول: البلاغة هي علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال: وأنا أضعُ تحت كلمتي **الاحتمال والأثر** أكثر من خط، وسأحاول بيان المقصود والمناسبة.

الخطاب الاحتمالي، كما قال ريكور، هو الخطاب الذي يمتد بين الاعتباط (أو الهذر)، في أسفل السلم، والاستدلال البرهاني، في أعلاه. الخطاب الذي تستوعبه الصيغة القديمة التي انشغل بها الفلاسفة المسلمون في حديثهم عن "التصديق" و"التخييل". فإذا أبحنا لأنفسنا، في إطار التراث نفسه، أن نقايض مؤقتا لفظ التخييل بلفظ الكذب، كما استعمله القدماء في مجال النقد الأدبي

(في قولهم: أعذب الشعر أكذبه)، وهو ما يُعبَّر عنه أحيانا ب "الكذب الفني"، فيمكن أن نقول بأن الخطاب التداولي (الخطابي) صِدْقٌ يحتملُ الكذب، والخطاب التخييلي (الشعري) كذب يحتمل الصدق، على أن نستحضر لفظ "الادعاء"[13] في الحالتين: ادعاء الصدق فيما يحتمل الكذب، وادعاء الكذب فيما يحتمل الصدق، فالاحتمال وليد الادعاء. (وربما يساعدُ الحوارُ، أو النزاعُ، بين خصوم نص أدبي- تجاوز بعض الحدود- وبين المدافعين عنه في فهم المقصود من "ادعاءَ التخييل" أو "الكذب الفني". فالمدافعون يصرون على أن الشخصيات أو الصور كائنات خيالية لا وجود لها في الواقع، في حين يصر الخصوم على أن النص يمثل حقيقة موقف المنشئ: الكاتب أو الشاعر).

ومن هنا فإن الخطابين التداولي/الحجاجي، والتخييلي/الشعري خطابان احتماليان، وبذلك يكونان موضوعين للبلاغة. ونحن هنا نتحدث عن ثنائية قطبية لضرورة منهاجية، أما من حيث الممارسة فإن التداخل بين الخطابين (التداولي والتخييلي) حقيقةٌ واقعةٌ تتفاوت مسافتها حسب النصوص والتيارات الخطابية عبر الأزمنة والحضارات (الخطابة العربية القديمة مثلا خطابة شعرية، كما بينا في كتابنا في بلاغة الخطاب الإقناعي)[14]. ومن هنا تَحَدَّث كُلٌّ من ريكور وروبول (في مناقشتهما لقضية احتمال قيام بلاغة عامة للحجاجي والشعري، وقبول ذلك عند أحدهما ورفضه عند الآخر)، عن منطقة التقاطع التي استعارا لها معا لفظ région ذا الحمولة الجغرافية، أي الإقليم[15]. وفي هذا النطاق يدخل جهد بعض الباحثين في بيان شعرية الحجة وحجية الصورة. وهذا مبحث في غاية الأهمية والعمق.

ومن المعلوم أن أرسطو كان قد فرق بين عمل الشاعر وعمل المؤرخ من زاوية الواقع والاحتمال، فالمؤرخ يتحدث فيما "وقع"، أما الشاعر فيتحدث فيما "يُحتمل وقوعه". وهو ينظر هنا إلى الشعر الحكائي: التراجيديا والكوميديا أساسا[16].

13ـ انظر انتقال الجرجاني من مفهوم «النقل» إلى مفهوم «الادعاء» في الفصل الثاني.

14ـ بلاغة الخطاب الإقناعي. الفصل الأخير.

15ـ قدمنا وجهتي نظرهما في الفصل الأول من كتاب البلاغة الجديدة.

16ـ يقول مميزا بين الشاعر والمؤرخ: «وإنما يتميزان من حيث كون أحدهما يروي الأحداث التي وقعت فعلا، بينما الآخر يروي الأحداث التي يمكن أن تقع». (فن الشعر ص26).

وكان حازم ـ في أعقاب الفارابي وابن سينا ـ قد ضبط منطقة التداخل والتخارج بين الشعر والخطابة باعتبارهما طرفين في تكوين مفهوم البلاغة باعتبارها علما كليا، كما سبق، قائلا:

"لما كان علمُ البلاغة مُشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعرُ والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع ... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده ... وكانت عُلقة جل أغراض الناس وآرائهم بالأشياء التي اشترك الخاصة والجمهور في اعتقادهم أنها خير أو شر... وجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت عُلْقَتُه بأغراض الإنسان... وكانت نفوس الخاصة والعامة قد اشتركت في الفطرة على الميل إليها أو النفور عنها"[17].

وهذا النص ينقلنا مباشرة إلى الجوهر الثاني للخطاب البلاغي وهو التأثير، في قوله: "وكان القصدُ في التخييلِ والإقناعِ حملَ النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقادهَ".

لا يغيب عنا أن هذا الشرط سيجعلُ يَقينَ المُنظِّر المتحمِّس يهتز قليلا أو كثيرا كلما اقترب من النصوص الشعرية الطليعية، حيث القصدُ والمعنى مُعلقان، وكذا النصوص العلمية الواصفة التي تبدو محايدة. ولكنه لا يلبث أن يربط جأشه، ويحسم في الأمر لصالح موكلته. وهذا هو الإحساس الذي راود كبدي فاركـا وهو يوسع رقعة أجناسِ خطابة أرسطو ويُمدها نحو الشعر والعلم، حين انتهى إلى القول:

"إن النص المجاني [أي غير الحواري] الذي لا يعد بلاغيا بالمعنى الدقيق ممكن التصور على العموم، وهذا شأن شعر مالارمي Mallarmé، أو دونيس روش Denis Roche، كما هو شأن الحجاج العلمي الذي يقترح حقائق عن موضوع غير مناسب علميا. غير أن ذلك غيرُ قابل للتحقيق، فليس هناك نص يشتغل خارج مقام تواصلي. كل نص إلا وهو ينتسب إلى جنس، وليس هناك جنس يمكنه أن يفلت من البلاغة، ذلك أن مفهوم الجنس هو مفهوم اجتماعي»[18].

---

17. منهاج البلغاء. 20-19. تبدو لفظة «على» قلقة في قوله: « قد اشتركت في الفطرة على الميل إليها».

18- «Rhétorique et production ». In Théorie de la littérature.

إن معنى انتساب "النص" إلى مَقام ما هو أنه نص تواصلي أي حواري، أي يَنشُد أثراً. ولذلك اقترحنا الصياغة التّالية لهذه الإشكالية: "**الخطاب الذي تتناوله البلاغة هو كل خطاب يقتضي أثرا وتفاعلا بين متخاطبين فعليين (قائمين) أو مفترضين (متوقعين) درجات من التوقع، قد تقترب من الصفر.** وهذا الأثرُ لا يعدو أن يكون طلباً للتصديقً (أو التسليم بدعوى أو أطروحة)، أو طلبا للتخييل والتوهيم. ومعنى ذلك استيعاب الخطاب التداولي الحجاجي كله: من الإشهار إلى المناظرات، وكل أشكال الحوار والمناقشات من جهة، وكل صور التعبير الأدبي بالمعنى الحصري للأدبية بما فيها الشعر والسرد وما تفرع عنهما، أو بُني عليهما. ثم تتبع توظيف هاتين الآليتين الخطابيتين في كل المجالات التي تُثبِتُ فيه حضورَهما قدراً من الحضور[19].

وقد استحضر حازم، في حديثه السابق، التَّصورُ الأرسطي لمفهوم التحسين والتقبيح والمطابقة كما صاغه ابن سينا، ففي هذه الحالة الثالثة يبتعد الشعر عن الخطابة، ولكنه لا ينفصل عنها، إذ تحمل المطابقةُ نفُسها جُرثومَةَ الميل لهذا الطرف أو ذاك، قال: «وتنقسم التخاييل والمُحاكيات بحسب ما يقصد بها إلى: محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح، ومحاكاة مطابقة؛ لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر والمُلَح في بعض المواضع ... وربما كان القصد بذلك ضربا من التعجيب والاعتبار. وربما كانت محاكاة المطابقة في قوة المحاكاة التحسينية أو التقبيحية... فكأن التخييل بالجملة لم يخل من تحريك النفوس إلى استحسان أو استقباح»[20].

برغم كل هذا التداخل الوظيفي بين الشعري والخطابي، فإن كل واحد منهما يحتفظ بخصوصيته. ومن هنا، يتحدث حازم عن العمدة والتابع في الاتجاهين قائلا: "وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر، تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلةُ هي العمدة. وكذلك الخطابة، ينبغي أن تكون الأقاويلُ المخيلةُ الواقعةُ فيها

---

19. وقد سبق لنا أن تناولنا قضية المعنى في الشعر، عند القدماء والمحدثين، وبينا كيف أن الغموض لا يعني غياب المعنى وانقطاع الصلة بين المرسل والمتلقي. انظر مقالنا: "التلقي وإنتاج المعنى في الشعر". (مجلة فكر ونقد.ع.17. 1999.

20. منهاج البلغاء 92.

تابعة لأقاويل مقنعة، مناسبة لها، مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة"[21].

الحاجة إلى نظام مصطلحي

إن قيام بلاغة عامة يتطلب منظومة مصطلحية تعبر عن المشترك بين التخييل والتداول، من جهة، وتميز بعض الخصوصيات التي لم تأخذ ما تستحقه من اهتمام في الدرس العربي، من جهة ثانية. ومن المصطلحات التي وجدنا حاجة لوضعها أو نفض الغبار عنها مصطلحا المستمَع والإنشاء.

وأولُ ما نحتاج إليه في هذا الصدد كلمة تدل دلالة اصطلاحية على منتج الخطاب بقطع النظر عن كونه خطيبا أو شاعرا (أوكاتباً)، الكلمة التي تقابل لفظ production (أي الإنتاج)، ويشتق منها في الوقت نفسه ما يقابل لفظ (auteur) (أي المؤلف). وقد وجدنا أن اللفظ العربي "الإنشاء" ومنه "المنشئ" يعبر عن هذا المعنى بدقة، فاعتمدناه بعد إعادة تعريفه.

أما "المستمَع"، على وزن مُجتمع فتدل على ما اشتقت منه صيغةً وأصواتاً: أي مستمعون في سياق مكاني محدد، وهي كلمة دقيقة لا تغني عنها كلمة "مقام" ولا كلمة "سياق"، ولا كلمة "مستمعين" ولا "جمهور"، كما في بعض الدراسات.

وللدلالة على الخصوصية النوعية لكل من المجالين التداولي والتخييلي ومدى التداخل والتخارج بينهما احتجنا إلى لفظين يدل كل منهما على الخصوصية الجوهرية لأحد المجالين، لفظين يقابلان المصطلحين اللاتينيين figure وargument. فاستعملنا كلمتي صورة وحجة. وقد اجتهد التداوليون، لسانيين ومناطقة، في بيان الأبعاد الحجية للصورة، (الاستعارة والسخرية خاصة) كما اجتهد البلاغيون في بيان الأبعاد الصورية (أي التخييلية) للحجة. وقد عرضنا إحدى الدراسات المعمقة في هذا الموضوع لأوليفيي روبول في كتاب البلاغة الجديدة[22].

ومن المصطلحات التي اقترحناها لتغطية جانب مهم من بنية التداول الحجاجي مفهوم «الاستهواء» و«الـخَطابية»:

---

21 ـ منهاج البلغاء 135.

22 ـ البلاغة الجديدة. الفصل الأول.

فالاستهواء هو أحد أضلاع مثلث بلاغة الحوار، ففي داخل هذه الدائرة تمارس المشاورة والمناظرة والاستهواء. والاستهواء هو الاستمالة بوسائل موسيقية وتصويرية وتلميحات وغيرها (كما هي الحال في الإشهار)[23].

ولتجاوز الخلط بين مفهوم أرسطو وبيرلمان، لكلمة ريطوريك، والمفهوم الحديث الذي يتسع للخطاب الإقناعي والشعري اقترحنا لريطورية أرسطو وبيرلمان مصطلح «خَطابية» قياسا على كلمة «شعرية» التي ترجمت بها بويتيقا أرسطو.

هذه نماذج من العتاد المصطلحي الذي يقتضيه بناء بلاغة عامة يسهل التخاطب داخلها دون لبس. ففي غياب شبكة مصطلحية من هذا القبيل يلاحظ الكثير من سوء التفاهم بين المتحدثين في الموضوع والمتحاورين فيه.

خاتمة: الموقف من البلاغة

واجهت البلاغة مواقف معادية في القديم وغير متفهمة في الحديث. ولسنا في حاجة للحديث عن اللبس الذي أثاره السفسطائيون، وما ترتب عن ذلك من موقف معادٍ لها من طرف أفلاطون، فذلك متاح في كتب تاريخ البلاغة. وقد أعاد أرسطوً الوضع إلى نصابه حين فرق بين الخطابة والسفسطة من جهة، وبين الخطابة والجدل، من جهة ثانية، معتبرا البلاغة تقنية تقدم الوسائل المناسبة للإقناع في كل حالة على حدة، فهي أشبه بالطب؛ أي أنها لا تقدم الشفاء قطعا وفي جميع الأحوال (كما يزعم السفسطائيون)، بل تقدم وسائل العلاج في كل حالة على حدة.

وفي السياق العربي الإسلامي مواقف متشنجة من البلاغة أو من بعض مكوناتها. نجد أصداءها في رد الجاحظ على من قدحوا في البيان، كما نجده في رد عبد القاهر الجرجاني في مقدمة الدلائل على من «زهد في الشعر وحفظه، وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه[24]».

---

23 ـ انظر تحليل ذلك في كتاب دائرة الحوار.

24 ـ دلائل الإعجاز. ص 11 تح. م شاكر

وقد استمر هذا الموقف إلى العصور المتأخرة، إذ نجد أديبا مغربيا عاش بين القرني 17 و18 (محمد الإفراني) يبذل قصارى جهده لتبرير الاشتغال بشرح أحد أشهر الموشحات الأندلسية قائلا في مستهل عمله: «ولعمري إن كل من لا يتعاطى الأدب، ولا يَنْسُلُ لاجتلاء غرره، واجتلاب درره من كل حدب، ما هو إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مرسله»[25].

وهذا العنف في الرد يدل على مدى المقاومة التي يلقاها المشتغل بالأدب. وقد عقد هذا المؤلف فصلا خاصا للدفاع عن الاشتغال بالموشحات عنوانه: الزهر الغض في الرد على من عاتب في التوشيح أو غض»[26].

أما في العصر الحديث فقد عانت البلاغة من هيمنت الفكر الوضعي حين اعتُمدت البداهةُ واليقينُ شعاراً للعلمية، وقد بنى بيرلمان بلاغته الحجاجية على نقد منهاَج ديكارت. وهذا ما جعلِ الدارسين يربطون عودة البلاغِة بحركة ما بعد الحداثة، وهذا موضوع يطول شرحه.

25 ـ المسلك السهل ص 53. تح م. العمري

26 ـ نفسه. 143.

- II -

البلاغة والحجاج

أو بلاغة الحجاج

تمهيد

ما زالت العلاقةُ بين البلاغة والحجاج ملتبسةً، والحدودُ متحركةً؛ تثير الاختلاف بين الباحثين حسب المواقع التي يقفون فيها، والجهات التي ينظرون منها. هل الحجاج مبحث بلاغي، كما نرى نحن، أم إنه مبحث مستقل قائم الذات، أم هو تابع لمبحث آخر غير البلاغة (اللسانيات أو المنطق)؟ أم إن هناك أنواعاً متباينة من الحجاج: حجاج بلاغي وآخر منطقي وثالث لساني؟

لقد بنينا تصورنا في المبحث الأول، ما البلاغة؟»، على التصور الذي قدمناه في كتابنا: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وعلى استعراضنا لتاريخ البلاغة العربية في كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. ومع ذلك، ما زلنا نصادف، كل يوم، ما يؤكد الحاجة إلى إعادة بسط القول في بعض جوانب الموضوع، وفتح المجال لوجهات النظر الأخرى التي كنا نكتفي بالإشارة إلى تدخلها، ونعتبرُه غيرَ مشروع. كنا نمر على بعض القضايا مَرَّ الكرام اعتماداً على اطِّلاع القارئ المستهدفِ وإلمامه بما طرأ على الموضوع في الدراسات الحديثة. ثم تبين في مناسبات عدة ــ لقاءات علمية ومنشورات ــ أن المشتغلين بالبلاغة لم يعودوا يَلتَقون عندَ مفهوم واحد لها، فأحرى عند مفهوم الحجاج ومدى علاقته بها. كما أن الكثير من المشتغلين بالحجاج ما زالوا يحصرون البلاغة في التحسين البديعي والتهييج السيكولوجي، فيسعون لتخليص الحجاج ــ الذي يريدونه عقلانيا خالصا ــ من شوائبها[27]. لا بد إذن من تحديد ما نقصده بالبلاغة

27ـ في هذا المنحى يندرج الحجاج المنطقي الطبيعي المدعو بلاغة جديدة. وسنناقش هذه القضية في مبحث لاحق.

وما نقصده بالحجاج في الاستعمال الحديث ليظهر مدى التداخل أو التخارج بينهما. فقبل هذا التحديد لا معنى لطرح الاختلاف أو الاتفاق بين كيانين لم تُرسم حدودُهما.

يقول أُوليفيي روبول في مثل هذا السياق: «من الطبيعي أن كل شيء رهينٌ بالتعريف. فماذا نعني بالحجاج، وماذا نعني بالبلاغة؟ يجب أن نعطي الكلمتين معنى دقيقا لكي نستطيع حلَّ مُشكلِ العلاقة بينهما، بل إن ذلك ضروري لوجود المشكل من أساسه»[28].

ولا بد أن يقبل القارئ ما يقع من تداخل حين الحديث عن كل من الطرفين على حدة، فذلك ناتج عن حضور كل منهما في الآخر: فالعمل الواحد يقدِّم نفسه على أنه بلاغة، وعلى أنه حجاج، في الوقت نفسه[29]. كما لا بد من قبول الخلط أحيانا بين المعنيين «الإنشائي» و«الوصفي» حين الحديث عن مكونات البلاغة والحجاج.

1 - ما البلاغة؟

1.1. البلاغة والخطابية

يقتضي الجوابُ عن هذا السؤال ـــ في المجال العربي ـــ وضعَ الكثير من النقط على الكثير من الحروف؛ ذلك أن مفهومي «بلاغة وحجاج» عرفا تطورا كبيرا في الدراسات الحديثة في حوار نقدي مع البلاغة القديمة الخصبة، تطورا ظللنا بعيدين عنه بنفس المسافة التي تفصل بيننا وبين التقدم العلمي في كل المجالات. ولذلك يقتضي الأمر أن نُعيد التذكير ببعض الأوليات، ونقدم بعض البيانات التي تسمو عندنا إلى مستوى البديهيات والمسلمات. أول ذلك ترجمة كلمة ريطوريك rhétorique, rhetoric (أو ريطوريكي [rhêtorikê] اليونانية)

---

28. «هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟»، الترجمة العربية. ملحق بـ-ابنا: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 209.

29. كما هو حال عنوان كتاب بيرلمان وأولبريشت تيتيكا: مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة Traité de l’argumentation, La nouvelle rhétorique..

:نى العربية. فهناك من الباحثين العرب المحدثين من استعمل كلمة "خطابة" مقابلا لها(وهم الأقل)، وهناك من استعمل كلمة بلاغة (وهم الأكثر)، وهناك من ظل متردداً بينهما؛ يستعمل هذه أو تلك حسب السياق وهو الأقرب إلى معاناة المشكل، وهناك من وقف عند حدود الحيرة يورد إحداهما مطلقة والثانية بين قوسين تاركا للقارئ أن يرجح ما يراه مناسبا[30].

الباحثون الذين استعملوا كلمة خطابة راعَوا في ذلك المعنى الأرسطى للكلمة والسياق الخطابي الحجاجي الذي يؤطرها، ولكنهم تجاهلوا كونَ أرسطو لم يستعمل الكلمة مفردة بل مضافاً إليها: فن الخطابة. ((Τέχνη Ρητορική / Tékhné Rhéthorikē فمن الإضافة يتبين أن المقصودَ هو "التقنية" أو "الصناعة" أو "الفن" ـــ حسب ما يلائم كلمة Tékhné ـــ وليس موضوعَ هذه التقنية الذي هو القول الذي يطلب التصديق (الخطابة). ولذلك كان المترجمون العرب القدماء أدقَّ اختيارا، وأكثر توفيقا، حين ترجموها: فن الخطابة، وترجموا نظيرتها: فن الشعر، إذ المقصود هنا أيضا ليس الشعر ولكن طريقة معالجته أي الفن[31].

أما الذين استعملوا لفظ بلاغة، فقد نظروا إلى المعنى الذي تبلور للكلمة في العصر الحديث بعد أن استرجَعت بُعدها الخَطابي التداولي، وطَوَّرتْ بُعدها التخييلي الشعري، وصارت تسترجع ما أُخذ منها تحت أسماء اعتَبرت نفسها وريثا شرعيا للبلاغة، مثل الأسلوبية وعلم الخطاب وسيميائيات النص الأدبي ..الخ حيث صرنا أمام ريطورية عامة (علم الخطاب) وريطوريات خاصة.

من الملموس أن القارئ الغربي لا يعاني كثيرا من هذا الاختلاف بين المعنى الأرسطي للريطورية وبين المعنى الحديث، لأن السياق يُسعفُه في التمييز بينهما. أما القارئ العربي، فإن كلمة بلاغة التي تحُلُّ محل الريطورية قد اتسعت عنده، منذ البداية، لكل أنواع الخِطاب الشعري والخِطابي، ولذلك سيختلط عليه الأمر، لا محالة، حين يجد جانباً من المناطقة (المنطق الطبيعي، والمنطق غير الصوري)

---

30. تجد هذه الحالاتِ كُلَّها في كتاب الحجاج، الصادر حديثا عن دار عالم الكتب بالأردن 2010.

31. من العناوين التي أُنتجتْ في هذا السياق: الصناعتان؛ الشعر والكتابة، لأبي هلال العسكري. وقواعد الشعر لثلعب. فالاهتمام متجه هنا إلى التقنية، وليس إلى المادة.

يفرقون بين البلاغة والحجاج قاصدين بالبلاغة «فن الخطابة»، أي الفن الذي يتكلف الإقناع حسب المقامات مستعينا بالمؤثرات غير النصية المتعلقة بالصورة التي يكونها الخطيب عن نفسه ethos، أو الانفعالات التي يثيرها عند الجمهور pathos، وكل ما يتعلق بـ"المستمَع» auditoire. فالقارئ العربي حين يسمع كلمة بلاغة يستحضر الشعر، في المقام الأول، في حين أنه غائب عند الطرف الآخر المنطقي الحديث، أو مجرد تابع وامتداد في أحسن الأحوال.

لقد وقفتُ عند هذا الإشكال منذ ثلاثة عقود عندما اخترت لمحاضراتي في جامعة فاس عنوان: "بلاغة الخطاب الإقناعي"، مستلهما أرسطو وبيرلمان في قراءة معطيات البلاغة العربية. وقد صدرت تلك المحاضرات في كتاب بالعنوان المذكور سنة 1985. وكان اقتراحُ «بلاغة الخطاب الإقناعي» مؤقتا، لأنه مجرد وصف لا يستوفي متطلبات الاصطلاح العلمي الإجرائي الذي يسمح بالاشتقاق والتشعيب. ولذلك عدتُ إلى الموضوع فاقترحت كلمة «خطابية» مقابلا «لفن الخطابة»، قياسا على «الشعرية» التي حلت محل «فن الشعر» دون حرج. فحين تكونُ الإحالةُ على أرسطو فلا دقة في استعمال أي من الكلمتين: بلاغة وخطابة، فالذي عند أرسطو هو «الخطابية» و»الشعرية»، أو علم الخطابة ونقد الشعر، ومثل ذلك يقال في البلاغة الجديدة عند بيرلمان ومن سار في طريقه، فهي «خطابية»، أي علم للخطاب الإقناعي، لا يتسع للشعر، والتخييل عامة، إلا في حدود خدمة الحجاج[32].

نقول هذا ونحن نعلم أن كلمة بلاغة ــ كما هو الحال بالنسبة لكلمة ريطورية ــ استعملت بمعنيين: معنى إنشائي تعبيري، حين تكون وصفا للكلام والمتكلم: كلام بليغ، ومتكلم بليغ. ومعنى وصفي علمي، حين تكون حديثا عن الخصائص العلمية للكلام البليغ؛ أي حين يكون الكلام وصفا للكلام. والذي يهمنا الآن هو المفهوم الوصفي، أي البلاغة باعتبارها علما، مع الاعتراف بتداخل المفهومين حين الحديث عن المكونات النصية وغير النصية.

32ـ بحثه عن حجية الصور Les figures مثلا،خاصة الاستعارة...الخ.

2.1. التيارات الكبرى للبلاغة الحديثة

في حوار بين متطلبات البحث العلمي الحديث ومعطيات التراث البلاغي القديم تبلورت، في البلاغة الحديثة، ثلاثة تيارات كبرى[33]:

• **تيار شعري بديعي**، يهتم بالصور figures البديعية (بالمفهوم الذي قصده ابن المعتز). من أشهر نماذجه وأبرزها عمل مجموعة Mu، أو مجموعة لييج ببلجيكا، كما تبلور في كتابها: البلاغة العامة. وبرغم استناد هذا التيار إلى الشعرية اللسانية البنيوية التي تفرعت عن جهود الشكلانيين، وانتقلت على يد منظرين كبار، مثل ياكوبسونٍ، إلى التداول العالمي، فإنها تُعتبر في نظر الطامحين إلى بلاغة عامة للخطاب، كلِّ خطاب، مجردَ بلاغة مختزلة، لم تعْدُ تزكية التوجُّه الاختزالي الذي آلت إليه البلاغة وهي تتقلص عبرَ التاريخ، حين صارت بلاغةً للصور، مما يدخل في باب البديع والمحسنات الزخرفية. وعموما، فإن استراتيجية هذه البلاغة كانت واضحة وهي البحث في "الأدبية"، أي ما يجعل نصا ما نصا أدبيا، أي البحث في الشعرية العامة. وقد تحدث جيرار جنيت عن هذا المسار الانحساري في مقال مشهور بعنوان: البلاغة المختزلة[34]. كما تناول رولان بارت

---

33. تحدث روبول في مقاله: «هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟» عن أربعة تعاريف للبلاغة لا يتسع المقام لاستعراضها. بل لا نرى ضرورة لذلك، لأننا نعتبر الثاني والثالث والرابع منها من فصيلة واحدة: من التيار المنطقي، مع اختلافات جزئية؛ أهمها تأكيد البعد البيداغوجي للبلاغة، غير أن هذا البعد يدخل، في نظرنا، في البعدين الحجاجي التداولي والتخييلي. وذلك لقيام البيداغوجيا (وأية عملية تعليمية) على مراعاة أحوال المخاطبين في الإفهام والتأثير والإقناع، من جهة، واعتمادها على الوسائل التخييلية في تقريب المعاني، خاصة التمثيل والاستعارة، وكل صور التشخيص والتجسيد، من جهة ثانية. فالوظيفة البيداغوجية هي وظيفة بلاغية تداولية.

34. انظر تفصيل العملية في كتابنا: البلاغة الجديدة، ص67 وما بعدها. ومما جاء فيه: «اعتبر الدارسون لزمن طويل ــ وربما ما يزالون كذلك ــ أن أحسن مَسرَد لتاريخ «اختزال البلاغة الغربية» (بإهمال أبعادها الحجاجية والمعرفية) هو الذي قدمه رولان بارت؛ فقد اعتمده جل الدارسين وأفتوا به، ومنهم جيرار جينيت وبيرلمان، مع تركيز كل على ما يهمه». وأشار جينيت في حاشية دراسته (La rhétorique restreinte.p. 22) إلى المنحى المخالف الذي سار فيه كبدي فاركا Kibédi Varga في كتابه Rhétorique et littérature حيث اعتمد مؤلفات مغايرة تظهر الاهتمام بالأبعاد الأخرى للبلاغة مما لا يتسع المقام لذكره.

تاريخ انحسار البلاغة في دراسة مشهورة بعنوان: البلاغة القديمة[35]. وقد سبق لي أن تحدثت عن تحنيط البلاغة العربية في الفصل الثاني من كتاب البلاغة الجديدة.

• **تيار خَطابي منطقي**، يهتم بالحجج arguments وسُبل الإقناع. وظَهر أحسنُ نماذجه، هو الآخر ببلجيكا على يد العلامة بيرلمان في عدد من كتبه، خاصة في المعلمة التي أنجزها بمشاركة أولبريشت تيتيكا بعنوان: مؤلف في الحجاج، البلاغة الجديدة[36] (وهناك من يترجمها: الخطابة الجديدة). وهو تيار يعلن ارتباطه بخطابية أرسطو وبناءَه عليها. ويصدق على هذا التيار ما قيل في التيار الأول، فقد اختزل، هو الآخرُ، البلاغة في بُعدها التداولي الحجاجي. فمع كل التفتح على حجية الصور البديعية، فقد ظل الشعرُ خارجَ هذه البلاغة، كما اختزل الخطاب الحجاجي نفسه. يقول في المبحث الأول من كتابه: حقل الحجاج: «إن نظرية الحجاج، كما حددناها، تجعلنا نفكر، على التو، من حيث موضوعها، في البلاغة القديمة، هذه البلاغة التي سأعالجها، مع ذلك، من خلال انشغالات عالم المنطق، وهذا سيضطرني إلى اختزال [جوانب] من أبحاثي وتوسيع أخرى»[37]. وقد ظل مسار بلاغة الحجاج التي دأب بيرلمان على تشييدها من خلال مؤلفات عدة، وفي واجهات مختلفة، يبسط نفوذه، ويُمِد حتى المختلفين معه بعتادٍ لا يمكن الاستغناء عنه.

ووجد بيرلمان في كلام جيرار جينيت ضالته وهو بصدد بيان هيمنة الاتجاه الأسلوبي على البلاغة، فاستأذن القارئ في نقل فقرات منه (الصفحتان 22-21 من مقال جينيت). -قال بيرلمان في إمبراطورية البلاغة: "برغم أن رولان بارت لا يرى في البلاغة القديمة أكثر من موضوع تاريخي، أي أنه متجاوز حاليا، فإنه يؤكد أن حصر البلاغة في صور التعبير يجافي المنطق". L'empire rhétorique، p11.

35 ـ L'ancienne rhétorique. Communication 16. . وقد ترجمت هذه الدراسة القيمة إلى اللغة العربية ترجمتين: الأولى أنجزها عمر أوكان، والثانية قام بها عبد الكبير الشرقاوي. ونشرتا معا بالدار البيضاء.

36- Traité de l'argumentation. Nouvelle rhétorique.. وقد طُبع عددا من الطبعات منذ صدور سنة 1958 إلى الآن.

37- Le champs de l'argumentation. P 13

• **تيار خِطابي**: البلاغة العامة، وهو يسعى إلى دمج التيارين السابقين باعتبارهما «إقليمين» متداخلين في منطقة واسعة، كما عبر أوليفيي روبول في مقال له بعنوان: الصورة والحجة[38] La figure et l'argument.

وقد تدعم هذا المنحى بدراسات قيمة من قبيل دراسة لهنريش بليت بعنوان: البلاغة والأسلوبية[39]، أعاد فيها إلى الواجهة البُعد التداولي الحجاجي للبلاغة القديمة، هذا البعد الذي تفتقده الأسلوبية الحديثة التي تُقدمُ أحيانا باعتبارها وريثا، بل بديلا للبلاغة التي صارت علما معياريا، كما قيل. ومن الباحثين الذين ينسبون حاليا أنفسهم لهذا التيار ويدعمونه نظريا وتطبيقيا الباحثة روث أموسي، كما سيأتي لاحقا.

يجب الاعتراف بأن التيارين، الأول والثاني، قد عمَّقا البحث كلٌّ في المجال الذي تناوله، وسار في استقصائه بشكل طبيعي حتى حام كلٌّ منهما حول حِمَى جاره، بل ربما وقع فيه وأوغل في أعماقه، فظهر الاهتمام بـ«حجاجية» الشِّعر و«شعرية» الحجاج. وهذا ما سهل ظهور التيار الثالث وأوحى بإمكانه، إذ كانت الجسور ممدودة، خاصة وأنهما يستلهمان التراث البلاغي كل من الجانب الذي يهمه، كما سيأتي في الحديث عن الحجاج.

إن حديث الدارسين الغربيين عن هذه التيارات ـ في اتصالها وانفصالها ـ يُحيل على أرسطو وما طرأ عليه من قراءة في التراث اللاتيني حين كانت البلاغة تعتني ببناء الخطاب من خمس خطوات:

- اختيار الحجج invention،
- تنظيمهـــا disposition ،
- سبكها في عبارة élocution،
- ترتيبها في الذاكرة mémoire،
- إلقاؤها شفويا action.

38- Olivier Reboul.. "la figure et l'argument». pp 175-187

39. وقد ترجمنا هذه الدراسة وظهرت في كتاب بعنوان: البلاغة والأسلوبية. وصدرت منها طبعتان. الثانية عن إفريقيا الشرق بالدار البيضاء سنة 2000.

ثم حدث، مع تقلُّص ظل البلاغة وانزوائها، أنْ تَحوَّل البحث في الحجج وتنظيمها إلى دائرة البحث في المنطق، وتأخر شأن التذكُّر والإلقاء بانتشار الكتابة، فبقي للبلاغة موضوع واحد، هو «فن العبارة». ويؤرخ الفرنسيون هذا المسار الاختزالي بظهور كتابين جامعين للصور، هما: كتاب المجازات (Les tropes) لِـ ديمارسي (Dumarçais)، وكتاب صور الخطاب (Les figures du discours.) (1821-1927)) لِ فونتاني (Fontanier) . وبذلك ساءت سمعة البلاغة، وقلَّت أهميتها فحذفت من برامج التعليم الثانوي في فرنسا ابتداء من سنة 1902 [40].

3.1. التيارات الكبرى في التراث العربي

وحين نتأمل التراث العربي - وهو غائب الآن في كتابة تاريخ البلاغة العامة الحديثة - نجد أنه عرف بدوره تيارات ثلاثة مماثلة للتيارات المتحدث عنها آنفا، نشأتْ فيه بشكل عفوي طبيعي.

• **تيارُ صُور البديع**، وكان الأسبقَ في الظهور من حيث الممارسة. غير أن أولَ ظهورٍ له في كتاب مؤلف، حسب ما وصلنا، وحسب تصريح صاحبه، إنما كان مع كتاب البديع لعبد الله بن المعتز، في القرن الثالث الهجري (ت 296هـ). وقد وقف هذا الكتاب، كما هو معروف، عند تسمية مجموعة من الصور البلاغية؛ وضعَ أقلَّها (خمس صور) في درجة البديع؛ أي الجديد، ووضع أكثرَها (12صورة) في رتبة التحسين، وقدَّم أمثلة لها من المنظوم والمنثور. ثم تلته كُتبٌ

---

40 - يرى جيرار جينيت أن البلاغة التقليدية ماتت في الحس الأدبي العام منذ بداية القرن التاسع عشر (مع مجيئ الرومانسية التي صاحبها ميلاد تصور تاريخي للأدب)، ولكن وعْـيَ «التعليم» (أي القائمين على شؤونه) بذلك الواقع تطلب قرنا من الزمن ليتم حذفها سنة 1902 من التعليم الثانوي. (Rhétorique et enseignement. P.24). ونظرا لاقتناعه بأن البلاغة لا تختفي بوجه إلا لتظهر بوجه آخر، أو تترك من ينوب عنها فقد تتبع أقنعة تخفيها ومظاهر تجلياتها الجديدة.

يعزو بعض الباحثين انتشارَ بلاغة «الحجاج في الخطاب» (المنطق غير الصوري) في الفضاء الأنكلوساكسوني (بخلاف المجال الفرانكوفوني الذي هيمن عليه الاتجاه اللساني في الحجاج (الحجاج في اللغة) الرافض للانتماء إلى البلاغة إلى وجود تخصص للدراسات البلاغية في المجال الأول وغيابه في المجال الثاني.

كثيرة سارت على خطته، مثل: البديع لأسامة بن منقذ (ت 584 هـ)، وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع (ت 654هـ)، وخزانة الأدب لابن حجة (ت837هـ)... إلخ. وقد زادَ بعضُها على بعض بالتفريع والتشقيق ومحاولة التعريف، ثم جاء من حاول التجنيس والتنسيق (السجلماسي، وابن البناء). ولكن لا أحد من البديعيين خاض في الأبعاد المقامية والحجاجية لتلك الصور. وكان عمل البديعيين يتغذى من الملاحظات العفوية (الذوقية) والقراءات التطبيقية (الشروح) والخصومات الأدبية (الشعرية)، ويُغذي الكتبَ المنظرة للنقد الأدبي. بل إنه غذّى أيضا كتبَ الإعجاز التي حاولت تأويله وتنظيميه ليستوعبَ البلاغة القرآنية ابتداءً من الرماني والباقلاني وصولا إلى عبد القاهر الجرجاني، كما بينا في كتاب البلاغة العربية، وفي هذا السياق الإعجازي الخطابي أخذَ «البديع» صفة «بلاغة». فكتاب أسرار البلاغة للجرجاني هو قراءة لمجموعة خاصة، محدودة جدا، من صور البديع (التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز) في إطار نظرية المحاكاة.

• **التيار البياني الخطابي**. رغم أن ظهور الخلاف حول القضايا السياسية والدينية، وتكون الفرق والمذاهب، والاطلاع على تراث الأمم الأخرى ــ التراث الأرسطي خاصة ــ والاستعانة به في إطار الجدل والمناظرة جاء متأخرا عن ممارسة نقد الشعر فقد ظهرت النواةُ البلاغية الخطابية الأولى التي توازي كتاب البديع وتعادله في القرن الثالث الهجري هي الأخرى، نقصد بذلك كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت 255هـ). وهو كتاب مُؤسِّس للحجاج وبلاغة الخطاب الإقناعي، ولا علاقة له بنقد الشعر كما بينا في الفصل المخصص له في كتاب البلاغة العربية. لقد تدرج الكتاب في تعريف البيان من الإفهام إلى التأثير والإقناع حسب المقامات. يقول الجاحظ: «مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عَن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[41]. ولذلك كان تقديم صحيفة بشر بن المعتمر حدثا رمزيا حدد استراتيجية الكتاب، كما حددها تعريف البيان ومقايضته بالبلاغة، ثم مقايضة البلاغة بالخطابة، وجعل بلاغة الخطابة في مراعاة المقامات وأحوال

---

41 . البيان والتبيين 1/76. يقارن بتعريف الخطابية عند أرسطو.

المخاطبين. المشكل يكمن في أن كتاب البيان والتبيين لم يُطوَّر كمشروع، بل أُخذ كقطع غيار وأفكار منفصلة عن بعضها، ولم يُلتفتْ إلى نسقه إلا في إطار نظرية المعرفة؛ في قراءة ابن وهب في كتابه: البرهان في وجوه البيان.

ولم يستطع البلاغيون استيعاب ما كان يجري في مجال المناظرة والجدل، إذ ظلت هذه المباحث مرتبطة بعلم الكلام. ولذلك انتقدهم ابن رشد، واعتبر عملهم بعيدا عن «عمود البلاغة» قائلا: «وكل من تكلم في هذه الصناعة ممن تقدمنا فلم يتكلم في شيء يجري من هذه الصناعة مجرى الجزء الضروري، والأمرُ الذي هو أحرى أن يكون صناعيا، وتلك هي الأمور التي توقع التصديق الخطبي، وبخاصة المقاييس التي تسمى في هذه الصناعة الضمائر، وهي عمود التصديق الكائن في هذه الصناعة، أعني الذي يكون عنها أولا وبالذات»[42].

• **تيار البلاغة العامة**. بعد زهاء قرن من الزمن على ظهور كتابي «البديع» و«البيان» ظهرت أولُ محاولة لدمجهما في بلاغة عامة في كتاب دال من عنوانه، هو كتاب الصناعتين[43] لأبي هلال العسكري (ت 395هـ). وقد أثارت انتباهنا هذه المحاولة، في بداية مشوار بحثنا في الموضوع، فحاولنا إبرازها بمقال بعنوان: «الصناعتان»، البحث عن بلاغة عامة[44]. أما النموذج الأمثل لمناقشة التداخل بين البلاغتين في التراث العربي فهو الذي نجده عند حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء، وقد أبرزنا هذه الخصوصية في مناسبات عدة[45].

---

42. تلخيص الخطابة. 4 - 5. وقد بسطنا رأيه في الفصل الثاني من كتابنا: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وهو كلام ثمين.

43. عنوان الكتاب كما هو مطبوع: الصناعتان، الكتابة والشعر، والواقع أنه يتحدث عن الخطابة والشعر.

44. نشر في: حوليات كلية اللغة العربية، عدد خاص بأعمال ندوة: الدرس البلاغي والنص الأدبي، 13-12 فبراير 1993، العدد7، 1996، ص ص-101 -117. وهو موجود بموقعنا على الأنتيرنيت www.medelomari.net ضمن المقالات.

45. انظر كتابنا: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص25. ومما نقلناه هناك قوله: «... كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع ..». (منهاج البلغاء، ص20-19).

خلاصة أولَـــى

من مجمل هذه المقدمات،

وفي تكامل مع ما جاء في المبحث الأول،

ومن استقصاءٍ لأهم الاقتراحات القديمة والحديثة التي تَيسَّر الاطلاع عليها وفهمها، ومن البحثً في طبيعة الخطاب الممتد بين البرهان والهذر...،

اقترحنا تعريفا يبدو ـ والله أعلم ـ جامعا لكل ما اعتُبر بلاغة: «البلاغة هي علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال...والخطاب الاحتمالي، كما قال ريكور، هو الخطاب الذي يمتد بين الاعتباط (أو الهذر)، في أسفلِ السلم، وبين الاستدلال البرهاني في أعلاه. الخطابُ الذي تستوعبُه الصيغةُ القديمةُ التي انشغل بها الفلاسفة المسلمون في حديثهم عن «التصديق» الشعري و«التخييل» الخطابي. فهذا المفهوم الحديث ينسجم مع التصور العربي القديم للبلاغة، فقد «كان علم البلاغة مشتملا (وهذه عبارة حازم) على صناعتي الشعر والخطابة»[46].

نحاول الآن تقديم المفاهيم الكبرى، أو المفهومين الكبيرين للحجاج، لنرى ما يدخل منه تحت هذا التعريف وما يخرج منه، مع أن العرض السابق أبانِ أن الحجاج هو أحد جناحي البلاغة.

2. ما الحجاج؟

تمهيد

يقول أوليفيي روبول: «أعتقد أن هناك إجماعاً، في أيامنا هذه، على تعريف الحجاج عن طريق معارضته بالبرهنة. وإلا لما كان هناك مشكل! قد يكون عندنا حينئذ، برهنة من نمط منطقي ــ رياضي، بدون أية علاقة مع البلاغة، من جهة، وقد يكون هناك، من جهة ثانية، تهييج سيكولوجي ذو علاقة أكيدة بالبلاغة، ولكنه غير ذي علاقة بالحجاج. وفي مقابل ذلك، فإذا ما رأينا في الحجاج خطابا عقليا

46. منهاج البلغاء. ص20-19.

يهدف إلى الإقناع بدون أن تكون له الصرامة الشكلية التي تتمتع بها البرهنة، فحينئذ سيطرح مشكل علاقته مع البلاغة».

برغم حديث روبول عن «الإجماع»، فإن هذا التعريف ينصرف إلى استعمال المناطقة للحجاج. والواقع يشهد بأن اللفظ (argumentation) استعمل أيضا من قِبَل اللسانيين بمعنى آخر مغاير لما ذكر. لقد استُعمل فعلا من قبل التداوليين المناطَقة لتمييز المنطق الطبيعي المنصرف لمعالجة القيم في سلميتها وتراتبها عن المنطق الصوري القائم على البرهان المبني على مسلمات بديهية. ولكنه استُعمل أيضا من طرف التداوليين اللسانيين في البحث عن الفعالية الدلالية للكلام، أو الحوارية السياقية التي أهملها البحث اللساني الحديث حين حصر موضوعه في البنية الداخلية للغة[47]. فالتداوليون المناطقة لجأوا إلى الحجاج لسد الفراغ المعرفي الذي تركه المنطق الصوري، والتداوليون اللسانيون لجأوا إليه لسد الفراغ الذي تركه البحث اللساني المحايث، أو البنيوي الداخلي للغة باعتبارها نسقا منغلقا على نفسه. وكلاهما وجد نفسه يخوض في قضايا الخطاب التي عالجتها البلاغة القديمة من زوايا متعددة.

وقد تنبه البلاغيون المحدثون، بشكل متأخر، إلى أن ما يدعوه الطرفان (المنطقي واللساني) حِجاجًا يندرج في هموم البلاغة، طواه النسيان في ركن من أركانها طوال عصور الانحطاط، أو صار مُنْبَتًّا، خارج النسق. بل يجب الاعتراف بأن المناطقة واللسانيين هم الذين نبهوا البلاغيين إلى أن مادة الحجاج توجد في تراثهم البلاغي، سواء من استأذن وطرق الأبواب معلنا اكتشاف مراده ومبتغاه في بلاغة أرسطو، كما فعل بيرلمان ــ في مقدمة إمبراطورية البلاغة ــ أو من مد يده لِ«علم المعاني» القديم، فأخذ منه حاجته خلسة وبنى عليه، كما فعل أكثر اللسانيين في مجال توليد المعاني بآليات الاقتضاء والاستلزام والتضمّن وغيرها من المصطلحات المعروفة في البلاغة القديمة[48].

47- الأمر شبيه بما وقع مع الأسلوبية التي بناها بالي على هامش لسانيات دو صوسير.

48- السكاكي. مفتاح العلوم. في مقدمة علم المعاني.

ولذلك، فإن أي تَصَدٍّ لتعريف الحجاج يقتضي ابتداءً طَرق بابي المنطق واللسانيات على اختلاف تصوريهما للموضوع. فأين يلتقي الاستعمالان وأين يختلفان؟ وما مدى دخولهما في هموم البلاغة أو خروجهما عنها؟ مع الإشارة من الآن إلى أن التداوليين اللسانيين يصرحون بأن مفهومهم للحجاج يختلف عن المفهوم المنطقي الذي ينتعونه أحيانا بالكلاسيكية.

1.2. الحجاج في التداوليات اللسانية

دون دخول في تفاصيل الفروق بين اجتهادات التداوليين اللسانيين، وما طرأ على أعمالهم من تطورات، فإن عملهم ينصرف إلى البحث في الدلالات السياقية والمفهومية للكلام. يمتد من المعاني المجازية المترتبة على خروج الكلام عن ظاهر لفظه، في الخبر والإنشاء، إلى الحد الأدنى من المعنى السياقي المتجلي في القول بأن ما من كلام إلا ومعناه مرتبط بسياق ما. فقولنا، مثلا: الجو جميل. يحمل معنى سياقيا، أو مقتضى أعلى، وآخر أدنى. المعنى السياقي الأعلى قد يكون:

إذن، يمكن الخروج في نزهة،

هذا إذا كان الجو جميلا فعلا، أما إذا كان بخلاف ذلك مكفهرا أو ممطرا فسيكون الكلام سخرية من شخص ادعى بالأمس أن الجو سيكون جميلا.

أما إذا لم يكن لا هذا ولا ذلك فسيقال حينئذ بأن السياق يكمن في كون هذا الكلام قيل في مكان معين، وزمن معين، فهو محدود بزمنه ومكانه وليس مطلقا[49].

لا شك أن للدلالة الساخرة بُعْدًا حواريا، بل إقناعيا قويا، إذ قُدِّم «الواقع» لدحض ادعاء سابق. كما أن في تضمُّن الكلام للرحلة ما يجعلَ «جمالَ الجو»

---

49. انظر. O.Ducrot. Le dire et le dit. Ed. Minuit P.180.

حين نقول إن عبارة: «الجو جميل» ذات توجيه حجاجي في مستواها الإخباري نفسه مُتضمَّن في أنها قيلت في مكان خاص وليس في كل الأمكنة، فإننا نقترب من مفهوم «المعنى صفر» في الشعر حيث لا نعرف من النص المُعمَّى غيرَ أنه ليس خطبة ولا مسرحية ولا رسالة ولا أقصوصة، أي نعرفه بما ليس هو.

ترى كيربرا أركيوني أن نية التأثير سابقة على الإخبار.. Kerbra Orecchionnie. L'énonciation et la subjectivité dans la langue.Colin. 1980. P.200

حجةً لإمكانها. أما الحديثُ عن الحد الأدنى من الدلالة باعتباره حِجاجا فلا بد من أن يُفلت من هموم بلاغة الحجاج ليبقى في حدود فلسفة التأويلِ. لا شك أن هذا القدر من الحجاج سيظل خارج البلاغة إن كانت اسما على مسمى.

والتداوليون اللسانيون واعون بأن هذا المنحى من البحث يختلف عن المقصود بالحجاج في استعمال المناطقة: «المواجهة بالكلام والمقارعة بالحجة من أجل تحصيل التسليم بقضية، أو تقوية الاعتقاد بها». ومع ذلك ينبغي الاعتراف بأن هذا الأمر دقيق، ذلك أن ملاءمةَ الكلام للسياق، واختيار الألفاظ الدالة في كل حال على حدة، لا يخلو من «توجيه» نحو معنى وغرض في ذهن المرسل، أي أنه يحمل رسائل حجاجية يمكن أن يستسلم لها المتلقي، فينصاع لها، أو يقاومها أو يظل مترددا. أضفْ إلى ذلك أن الحجاج لم يعُد يحمل شرطَ المقابلة والمواجهة بالكلام في عصر غلبت عليه الكتابة، خاصة الصحفيةَ؛ ورقيةً كانت أو إلكترونية، بل لم تكن تلك صفتَه الوحيدة حتى في العصر الشفوي.

والعتبة بين تأويل الدلالة (أو تبيُّنها) وبين التأثُّر بها أو الانصياع لها ليست بالعلو الذي يفضي إلى الفصل بين المجالين. ولعل هذا ما جعل الجاحظ، وهو يحمل هم الإقناع حسب الأحوال، يَرُدُّ البيان، كما سبق، إلى الفهم، ثم يُقايضه بالبلاغة وكأنه يتحدث عن شيء واحد، ثم يرهن البلاغة بمراعاة الأحوال مقايضا إياها بالخطابة[50]. فالبيان هو الفهم، من جهة، وهو إظهار الحجة، من جهة ثانية.

وحين نتأمل استراتيجية كتاب مفتاح العلوم للسكاكي نجده يجعل «علم المعاني» السياقية مكملا للنحو، لا يتم بدونه. كما جعل علمَ تفاوتِ الدلالاتِ على المعاني ـ وسماه «علم البيان» ـ امتداداً لعلم الاستدلال المنتمي للمنطق.

إن الأمر يقتضي وضع سلم يمتد من الفهم إلى التأثير إلى الإقناع ارتباطا بمقاصد المتكلمين ومقامات الخطابات. ومعنى ذلك تصنيف المتن إلى مستويات من الحوارية متفاوتة بل متباينة. وسنشير ذلك بإيجاز بعد عرض مفهوم الحجاج في التداولية المنطقية.

---

50. انظر تفصيل الكلام في ذلك في الفصل المخصص للبيان والتبيين من كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب مزيد بيان.

2.2. الحجاج في التداوليات المنطقية[51]

مهما اختلفت التعريفات في هذا المجال، فإنها تحيلُ على أرسطو وتَستلْهِمُ أكابرَ قرائه قبل أن تجري التعديلات الضرورية على نموذجه، كما فعل بيرلمان وهو أحد هؤلاء القراء الكبار المشار إليهم. يرى كريستوفر تندال ــ وكأنه يكشف استراتيجيات أكثر الباحثين في الموضوع ــ أنه يمكن اليوم إعادة صياغة المكونات الرئيسية لخطابية أرسطو في أفق أوسع، فـ«الخطيب» صار محاججا؛ يتكلم ويكتب في مختلف وسائل الاتصال، و«الخطاب» صار ذا أهمية بالنسبة إلى حقل أشدَّ اتساعا من النشاط الإنساني، ولم يعد محدودا في المحاكمة (الجنس القضائي)، أو اتخاذ القرارات (المداولة الاستشارية)، أو المدح والذم (الاحتفال)، والمستمَعُ يشمل كل «المستهلكين» للحجاج المنتَج سواء صدر عن قصد أو عن غير قصد. إنه يضم جميع المستمعين والقراء الموزَّعين في الزمن والمكان»[52]. ثم يــرُد تياراتِ المنطق الطبيعي المتصلة بأرسطو (الأرسطية الحديثة) إلى ثلاثة تيارات:

---

51. يمكن تلخيص الفروق بين المنطق الصوري والمنطق الطبيعي في عدة نقط: 1) الصياغة المنطقية ضرورية في المنطق الصوري، ممكنة في المنطق الطبيعي، 2) يكتفي المنطق الصوري باستدلال واحد، في حين تتعدد الحجج في الطبيعي، 3) يعتمد المنطق الصوري على قياس صارم قابل للصورنة في حين يعتمد الحجاج على الموضوعات topois. وهي قيم ومعايير ظنية مشهورة أو مقبولة عند الجمهور، 4) البرهان في القياس الصوري ملزم لقيامه على مسلمات، في حين يظل الحجاج موضوع منازعة ...الخ (انظر تفصيل هذه الفروق في: رشيد الراضي. «الحجاج والبرهان»، ضمن كتاب الحجاج 185/3 وما بعدها)

52. Christopher W. Tindale. «Argumentation rhétorique et le problème de l'auditoire complexe».

في العدد الثاني من المجلة الإليكترونية .Argumentation et Analyse du Discours وهو مخصص لدراسة العلاقة بين الحجاج والبلاغة /http://aad.revues.org index493.html.

وبهذا التوسيع صار المستمَع Auditoire يستوعب مصطلحات متعددة منتجة في سياقات مختلفة، لسانية ومنطقية وجمالية، مثل: المستمِع، والمخاطب، والمتلقي، والقارئ، والمتقبل... الخ ويعطيها خصوصية المقام الإقناعي.

• **التيار المنطقي**، وهو البارز. وهو يشدد على مقياس الملاءمة الشكلية أو الصورية. والنظريات المنضوية تحت هذا التيار تَعتبرُ الحجةَ، على العموم، نتيجةَ معاقلةٍ من مقدمات تضرب بجذورها في القياس المَنطقي الأرسطي.

• **التيار الثاني**، هو التيار الجدلي. يهتم بدراسة الإجراءات (أو القواعد) التي تضمن نجاح الحجاج كما وضعها أرسطو في الطوبيقات وأعادها في الخطابة.

• **التيار الثالث**، هو التيار البلاغي في معناه العام. "وهو يركز على مختلف وسائل الإقناع، وعلى طبائع المستمَع. وهذا التيار يلجأ أكثر من غيره إلى المؤثرات الأخلاقية ethos والانفعالية pathos ويعترف بدورهما في تحصيل قبول المستمَع لحجة ما»[53].

والذي يلائم استراتيجيتنا نحن في مدى بلاغية الحجاج هو تقسيمها إلى تيارين: تيار يسعى إلى استبعاد المؤثرات الخارجية المتعلقة بأحوال الخطباء ومقامات الخطاب (ethos، pathos، auditoire) مقرِّبا الخطابة من الجدل والمنطق، ويلتقي فيه التياران الأول والثاني، وتيار يسعى إلى إعمال هذه المؤثرات مستعينا بالكثير من الإجراءات التحصينية لتلافي الوقوع في التهييج المجاني غير العقلي، أو التحكم manipulation.

إن الحرص على المنطقية والعقلانية التي تستبعد السياقات يؤدي حتما إلى تقليص مجال الاستكشاف، وذلك بإقصاء الخطاب الشفوي، والخطاب اليومي، ومن ثم فهو لا يحل المشكل المتمثل في الحاجة إلى ترقية هذا الخطاب وتخليقه. ومن المعروف أن نظريات الحجاج الحديثة نشأت كرد فعل على المنطق الصوري الاستنباطي الذي لا يتسع لضبط مجال القيم التي هي خلافية بطبيعتها. وقد وقف بيرلمان عند هذه الإشكالية وأبرز الحاجة إلى منطق طبيعي يستوعب هذه القيم في مناسبات عديدة.

53- Christopher W. Tindale, ibid. (3ème paragraphe)

3. التداخل والتخارج بين البلاغة والحجاج

يتبين من التعريفين السابقين أن الحجاج في «المفهوم التداولي اللساني» يتناول مادة أولية من قبيل ما تتناوله البلاغة في «علم المعاني»، فهو مبحث جزئي، يجد مادته في كل الخطابات، والخطابات الحوارية بشكل أخص، وبذلك فهو لا يبلور جنسا خطابيا متميزا كما هو حال «الحجاج في المفهوم المنطقي» الذي يعني الخطاب الذي يقع دون البرهان؛ يُلامسُه ويلابسه مستعيرا بعضَ صيغه وأقيسته ثم ينحدر في درجات الاحتمال حتى يتداخل مع الشعر في منطقة واسعة[54]. ومعنى ذلك أن الحجاج في «المفهوم اللساني» ليس أكثر من مادة أولية بالنسبة إلى الحجاج في «التداولية المنطقية» التي تشترك مع البلاغة الجديدة في تجنيس الخطاب.

وقد لَخَّصتْ روث أموسي مواقف التوجهات التداولية الحديثة -المنشغلة بالحجاج- من البلاغة في توجهين كبيرين: توجه الفصل (ومنه جذري ونسبي)، وتوجه الإدماج (الذي تنتمي إليه). وهذه عبارتها ننقلها على طولها لتماسك أطرافها، وعدم قابليتها للاختزال. تقول: «وعموما، فإن المواقف فيما يخص العلاقة بين البلاغة والحجاج تمتد من المطالبة بقطيعة جذرية إلى [القول بوجود] توازن بين ما اعتبر مبحثين متمايزين ومتكاملين إلى حد ما، وصولا إلى اقتراحِ دمجهما في نشاط لغوي واحد.

يستند كل موقف من هذه المواقف إلى تصور مختلف للحجاج، كما يستند إلى فرضيات متمايزة، إن لم تكن متضاربة. فمن جهة هناك الحجاج في اللغة الذي يرفض الحجاج البلاغي المبني على اللغوص Logos معتبراً نفسَه علماً للدلالة sémantique؛ وفي الجهة المقابلة نجد نظيراً له في رفض البلاغة متمثلا في المنطق غير الصوري في مراحله الأولى، حين نذر نفسه لاختبار العقلانية اللغوية وصدقية الحُجج، أو علم الدلالة الدياليكتيكي، في بداياته، حين كان [هو الآخر] يدرس مراحل النقاش النقدي المؤسَّس على العقل. [وبخلاف ما وقع في هذه

---

54. فمن المعروف أيضا أن الحجاج المنطقي يهتم، من جملة ما يهتم به، بمدى حجية الصور البلاغية المخيلة، أي أنه يستوعب الحجاج اللساني ويشغله، والعكس غير صحيح، أي أن الحجاج بالمفهوم اللساني لا يستوعب الحجاج المنطقي.

البدايات] من الإلحاح على العقلانية الخالصة، فإننا نجد أن هذين التيارين صارا يتبنيان اليوم موقفاً أقل تصلبا، ويحاولان إدماج المكون البلاغي، ليجعلاه تابعا للحجاج. في مقابل هذه المواقف نجد مقاربات ترى في البلاغة الإطار الأساسي الذي ينبغي أن يفهم فيه الحجاج ويُدمج إذا ما أريد له ألا يُقطعَ عن استعماله المقامي، هذا الانقطاع الذي يحرمه من الملاءمة العلمية لموضوعه ويُفرغُه من محتواه.

«في الطرف الأقصى من هذا القطب [قطب إدماج المكون البلاغي] يجب التركيز على التيارات التي ترفض الفصل بين الحجاج والبلاغة. وهذا، كما رأينا، ما تقترحه البلاغة الجديدة لبيرلمان الذي أعاد البلاغة إلى معناها الأرسطي المتمثل في الوسائل اللغوية الهادفة إلى اجتلاب تسليم الجمهور (أو انخراطه). وهذا أيضا ما يفهم من كتاب أدم بونهوم (1997) عن الخطاب الإشهاري...وهو بشكل جذري موقف روث أموسي في [كتابها]: الحجاج في الخطاب (2006 [2000])... **ففي هذا الأفق لا مجال لرؤية البلاغة والحجاج مبحثين منفصلين**»[55].

وقد أبلى أوليفيي روبول بلاء حسنا في إثبات بلاغية الحجاج في مقاله المشار إليه آنفا الذي ترجمناه تحت عنوان: هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ مركزا في ذلك على دفع تهمة التحكم والتهييج manipulation التي تُتَّهم بها البلاغة من قبل بعض المناطقة. كما قارع التوجه القائل بالفصل بين الخطابية والشعرية في مقال آخر بعنوان: الصورة والحجة. وقد استثمرنا هذين العملين في كتابنا البلاغة الجديدة بما يغني عن العودة لعرض مضمونهما، وبيان حججهما، ونكتفي بالتأكيد أنهما بداية الاجتهاد والطريقة التي لا محيد عنها.

خاتمة المطاف: درجات الحجاجية؟

تساءلنا سابقا عن معنى الحجاج في المجالين اللساني والمنطقي، ويمكن الآن طرح السؤال من زاوية أخرى، زاوية مستويات الخطاب الحجاجي، وذلك زيادة في التوضيح. من المعلوم، كما سبقت الإشارة، أن الدارسين المحدثين يبحثون

55- Ruth Amossy et Roselyne Koren، «Rhétorique et argumentation : approches croisées». (20et21ème paragraphe). والتشديد مني.

عن الحجاج في متن واسع: من المرافعات القضائية والمفاوضات السياسية إلى الوصلات الإشهارية والقصيدة الشعرية... الخ. غيرَ أنَّ ترك الأمر على هذا الإطلاق لا يفيد منهاجيا، بل الأولى أن يُميَّز، كما يذهب إلى ذلك الحِسُّ المشترك، بين النص الذي يستهدف «المقارعة بالحجة» من أجل تغيير وجهة نظَر، أو ترسيخ فكرة، أو الدفاع عن قضية، وبين النص الإخباري التقريري، أو حتى الإبداعي الأدبي (شعري أو سردي..) الذي يتضمن بُعداً حجاجيا على درجات من القوة والضعف تصل إلى حد الخفاء.

تقول روث آموسي: «في مقابل إشكالية النص الحجاجي وغير الحجاجي نطرح مفهوم درجات الحجاجية المشار إليها أعلاه، كما طورها كريستيان بلانتان Plantin Christian". فهنا يحسن التفريق بين الخطابات التي تستهدف الحجاج والإقناع والخطابات التي لا تستهدف ذلك، ولكنها لا تخلو من بعد حجاجي ناتج عن السياقات الموجهة للخطاب.

"فالبلاغة الكلاسيكية... تتمسك بالمشاريع الحجاجية المصرح بها، لا تعترف إلا بالخطابات ذات الهدف الإقناعي". يكون هناك حجاج حين تتجابه وجهات نظر. "وفي مواجهة التصور البلاغي ترى التداولية المدمجة لأنسكومبر وديكرو أن الحجاج مندرج في المعنى نفسه، بما يعني أن الدلالة توجيه". وبين هذين الطرفين موقف ثالث يرى أن الحجاج يخترق مجمل الخطابات حسب السياقات الخطابية، هناك دائما بعدٌ حجاجي حتى مع عدم وجود برنامج صريح. يقول كريستيان بلانتان: "كل كلام حجاجيٌّ بالضرورة. إنها نتيجة ملازمة للتلفظ في مقام معين. كل تلفظ يستهدف التأثير على المخاطب به، على الآخر، وتحويل نظام تفكيره. كل تلفظ يُرغِمُ الآخرَ ويُلِحُّ عليه من أجل أن يعتقد، ويرى، ويعمل، بشكل مخالف"[56].

وقد اعتُبر هذا الرأي وسطيا لأنه يربط الحجاج بالسياق، غير أن التصريح بأن كل كلام حجاجيٌّ سيعيدنا إلى الحد الأدنى للسياق الذي لا يدخل في انشغالات بلاغة الحجاج، إلى الدرجة صفر من الحجاج: الوثيقة. لا بد إذن، من

56- Plantin 1996. P. 18

نقلته Ruth Amossy في كتابها: L'argumentation dans le discours. P.25

تصنيف دقيق لدرجات الحجاجية في المتن الخطابي: من الصفر إلى مائة بالمائة.
هذا موضوع للتأمل والعمل، إنها أطروحة تنتظر باحثاً نبيهاً.

نشير، في الأخير، إلى أن هذا المقال ينحت مجراه بين دراسات وأبحاث لنا سابقة في الموضوع، بعضها أشرنا إليه، وبعضها لم نشر إليه لضيق المقام، وسيكون الرجوع إليها مفيدا في استكمال التصور[57].

---

57. مما لم نشرْ إليه تصورُنا للحوار الذي عرضناه في كتاب: دائرة الحوار ومزالق العنف، مساهمة في تخليق الخطاب السياسي. حيث يمتد مجال الحوار من الاستهواء إلى المشاورة وصولاً إلى المناظرة، فهو مساهمة في تصنيف المتن الحجاجي. ومقال بعنوان: «بلاغة الحوار المجال والحدود» (ندرجه في المبحث الموالي). تناولنا فيها نهاية العلم وبداية الرأي في نقد الخطاب. وأخر بعنوان «التشبيه بين البيان والتخييل.» (في كتاب البلاغة الجديدة بين الخييل والتداول)، وهذا البحث داخل في جوهر السؤال الذي تتناوله الدراسة الحالية، وكان بالإمكان أن يدرج فيها بشكل ما استكمالا للفائدة.

- III -

البلاغة العامة

بين الأدب والخطاب

نحاول في هذا المبحث إقحام القارئ في الإشكال الذي يجعلنا نتحدث في بعض السياقات عن الأدب والبلاغة وكأنهما شيء واحد، ولماذا نعتبر البلاغة علم الخطاب؟ فأي معنى للأدب الذي يطابق البلاغة أحيانا؟ وبأي اعتبار يكون الخطاب موضوعا للبلاغة. سنركز هنا على تعريف كل من الأدب والخطاب.

1 ـ البلاغة «علم الأدب»: المفهوم، الوظائف، العوائق

تعريف الأدب

قبل الدخول في فحص العلاقة بين الأدب والبلاغة في ضوء التاريخ نسجل واقعاً غير قابل للدفع وهو أن البلاغة والأدب مشتركان في تعرضهما لنكران الجميل والاضطهاد بعد الاستغلال. فالأدب مثل البلاغة (إن لم يكن الأدب هو البلاغة والبلاغة هي الأدب) يساهم في التمهيد للتحولات الفكرية / الأيديولوجية، والعلمية / التقنية ثم يكون أول من يُطلب منه أن يغادر الساحة، أو على الأقل أن «ينصاع». (وتحت ينصاعُ هذه خطٌ عريضٌ؛ إذ الأدبُ هو أصلاً خصمُ الانصياع ونقيضه). طلبت منه ذلك الدياناتُ والأيديولوجياتُ، كما طلبته النزعة الوضعية ومنتجاتها التقنية. وقد يحدث أن يمر الأدب نتيجة ذلك بأزمة غيرَ أنه سرعان ما يبتدع آليات ويُظهر تجليات تناسبُ وظيفته في الأوضاع الجديدة. فإذا كان الوضع لا يسمح بالتصريح لجأ إلى الغموض والرمز، وإذا كان

الاستهلاك الشفوي متعذراً لجأ إلى الكتابة والعكس، ومن الشفوي والكتابي إلى الإخراج المسرحي والسينمائي... الخ، والأدب هو الأدب؟

ها أنت ترى أننا نقول دون حرج: «الأدب هو الأدب»؛ وكأننا نعرف فعلا ما هو الأدب!

خصص كلٌّ من اطلعنا عليهم من المتحدثين عن نظرية الأدب مدخلاً للبحث في هوية الأدب وخصوصيته الجوهرية، بل وصدرت كتب ومقالات بعنوان: ما الأدب، أو مفهوم الأدب[58]. ولكن ذلك لم يَثْنِ مؤلفي كتاب: القضايا العامة للأدب Questions générales de la littérature الصادر سنة 2000، وهما يعالجان مستجدات الواقع الأدبي، عن القول:

«بالرغم من أعمال رومان ياكوبسون، أو بول ريكور، أو بيير بورديو، أو جان باسيير، نلاحظ في الجدل الدائر حول مكانة الأدب في الوضع الراهن غيابَ التفكير في الأدب كأدب، وخصوصاً في كيفية التمييز بين الأدب وغير الأدب، والتي يمكن تصورها من منظورين: منظور علم الاجتماع، ما الذي يعتبره المجتمع، أو فئة اجتماعية في مرحلة ما من التاريخ، شأنا أدبيا؟ ومنظور الشعرية؛ ما الخصائص الشكلية التي تجعل من رسالة ما نصا أدبيا..»[59].

58- من أشهر هذه الكتب في المجال الفرانكوفوني كتاب الفيلسوف جان بول سارتر: ما الأدب Qu'est ce que la littérature ؟ وقد ظهر قبيل منتصف القرن الماضي 1947، ودار حول ثلاثة أسئلة: ما الكتابة؟ وماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟ وقد قرأتُ هذا الكتاب، عند صدور ترجمته العربية، بحماس بحثا عن «الأدب الملتزم». وفي المجال الأنكلوفوني اشتهر كتاب تيري إيكلتوم: مدخل إلى نظرية الأدب

Literary Theorie. An Introduction

وقد ظهر سنة 1983، وأثار انتباهنا اهتمامه بربط نظرية الأدب والنقد الأدبي بالبلاغة القديمة باعتبارها نظرية لتحليل الخطاب، كما بينا في مكان آخر من هذا الفصل. والكتبُ في المجالين بالعشرات، بتأليف فردي وجماعي. أما في المجال العربي فلم أطلع على عمل يتناول نظرية الأدب، أو نظرية الشعر، تناولا نظريا «جـديا». هناك اجتهادات جزئية وتاريخية مفيدة، وهناك بهلوانية علماوية غير نافعة لتقدم البحث العلمي.

59- القضايا العامة للأدب. 8 ـ 9.

«...فالواقع أنه، خلافاً لسائر مواد التدريس، (التاريخ والجغرافيا، والاقتصاد، والتربية المدنية، وعلم الأحياء...الخ) يتناول التلاميذ، أو الطلابُ، مادة الأدب دون تحديد خصوصيته. ويكفي دليلا أن نقارن الكتب المدرسية المختلفة التي يستخدمها هؤلاء، وخصوصا الصفحات التمهيدية المخصصة للتعريف بمادة الدرس»[60].

وهذا الواقع الذي لاحظه المؤلفان فيما يخص الأدب في فرنسا، تدريساً واستهلاكاً، هو واقع الدرس الأدبي في المغرب والعالم العربي، بل الأمر أسوأ؛ نظراً للتخلف المعرفي الاجتماعي المحايث. وقد استفزتني هذه الظاهرة منذ سنوات فكتبتُ دراسة عن الكتاب المدرسي في الثانوي بعنوان: السؤال الأدبي في الكتاب المدرسي، وأخرى بعنوان: مفسدات العقل واللسان في الكتاب المدرسي[61].

• • •

حين يتعلق الأمر بالعملية التعليمية وبالوظيفة الاجتماعية للأدب يجب الخروج من صالون الطلائعيين ودعاة الصفاء العرقي لسلالة الأدب والاستماع إلى الحس العام، من جهة، ومنظري الخطاب الراصدين للمنجز، كل المنجز، من جهة ثانية. (وحتى لا أكون مجرد مدافع عن بيت له أكثر من رب يحميه، ولا أستبضع تمراً إلى هجر أو فحما إلى مناجم نيوكاسيل كما يقال، سيكون تمثيلي من المجال العربي تاريخاً وواقعاً، مع فتح باب المقارنة والاستنارة كلما كان ذلك مفيداً أو ممكنا).

هناك مفهومان متعايشان للأدب، وإن كانا في الغالب غير متعارفيْن؛ مفهوم عام، هو الذي نقصده حين نقول (من الخارج): كلية الآداب[62]، ثم ندلف إلى

60- نفسه 8-9

61 - موجودتان في موقعي على النيت. (مستجدات). الدراسة الأولى محاضرةٌ ألقيت بالمركز التربوي الجهوي، بدرب غلف بالدار البيضاء، يوم 13/04/01، ضمن أنشطة فرع الجمعية المغربية لمفتشي التعليم الثانوي، الفريق التربوي لمادة اللغة العربية، بأكاديمية أنفا. والثانية مقال نشر في الصحافة.

62 - هذا حين نقول كلية الآداب، أما حين نعطف عليها «العلوم الإنسانية» فتلك حكاية أخرى تتسع للتاريخ والفلسفة وعلم النفس والاجتماع، ثم تمتد للجغرافية (البشرية وغير البشرية)، بل للدراسات الإسلامية، وتبقى اللغة صلةَ وصل بين الأدب والإنسانيات.

(داخل الكلية) فندرج ضمن مواد الأدب المقررة للدرس كلا من الشعر والنثر ونقدهما (أونقديهما)، ثم نضيف إلى ذلك البلاغة والعروض، وتحليل الخطاب، وسميائيات النص الأدبي، وصولا إلى المسرح والسينما أحيانا. ونعتمد نفس المفهوم حين نُنشئ اتحاداً، أو رابطة، للأدباء.

هذا عن المفهوم الأول العام، أما المفهوم الثاني الخاص فهو المفهوم الإبداعي المختزل في كلمة «الأدبية» ترجمة لكلمة Littérarité التي هي بدورها ترجمة غير دقيقة ــ كما يقول المختصون ــ لكلمة روسية، أكثر وفاء بالمطلوب.

هذا المفهوم الخاص للأدب التبس بمفهوم كلمة شعرية Poétique الذي رسَّخه ياكوبسون، وهو يبلور التراث الشكلاني في إطار شعرية بنيوية لسانية. وهو مفهوم صار يُلاقي معارضة قوية، خاصة في صيغته التي تُقصِي (أو تهمش) الأبعاد التداولية الحجاجية والواقعية للنصوص المعتبرة أدبية.

وبقدر ما نزع المفهوم الثاني للأدبية نحو "النصية" و"الجمالية الشعرية" بقدر ما ارتبط المفهوم الأول (العام) بمفهومي "الثقافة" و"البلاغة"، والتبس بالمعنى العام لبلاغة الخطاب المتضمِّنة للبلاغات الخاصة المشتملة لعلوم اللغة ومباحث الفلسفة، خاصة المنطق والسوسيولوجيا وعلم النفس.

حين نرجع إلى الأعمال العلمية البلاغية في مرحلة النضج الفلسفي اللساني، أي البلاغة المعضودة بالمنطق والحكمة، (أو «العلم الكلي»، كما أسماها حازم ومارسها السكاكي) نلاحظ تداخلا بين الأدب والبلاغة[63].

لقد أُعتُبر السكاكي أباً للبلاغة المدرسية، أي المقعدة، واختُزل عمله في نواته: علما المعاني والبيان. وقد نسي الناس أو تناسوا أن السكاكي حدد استراتيجية كتابه ــ في الصفحات الأولى منه ــ في البحث عن «علم الأدب». ولعلم الأدب عنده، كما بينا في كتاب البلاغة العربية، ثلاثُ وظائف، مرتبةً في ثلاث مستويات متصاعدة من حيث القيمة:

– **مستوى أدنى**. مداهُ وحدوده معرفة بعض القواعد والمصطلحات، دون معاناة النصوص. وهذا غرض طارئ (جاء مع عملية التأليف والبحث). هذا المستوى أعلى قليلا من مستوى رفع الأمية،

63ـ انظر القسم الثاني من كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

- **مستوى أوسط**، هو مستوى إنتاج النصوص الأدبية السليمة عبارةً، المناسبة حجاجاً. وهذا هو «الغرض الأقدم من علم الأدب» في نظره. مفهوم أقرب من مفهوم الثقافة والمثقف.

- **مستوى أعلى**، وهو مستوى تلقي المراد من الكلام وتأويله: («تلقي مراد الله تعالى من كلامه»، أي المستوى التأويلي). وتحتاج كلمة «**تلقـــي**» في سياق حديث السكاكي وعصره إلى تأمل، فقد كانت أمامه كلماتٌ أكثرُ رواجاً من قبيل **الفهم والتأويل**، فتجنبها واختار **التلقي**.

لاشك أن الوظيفة الأولَى تُعتبرُ تحصيل حاصل عند السكاكي، أو شيئاً ثانويا، في حين ينصرف اهتمامه إلى الغرض الأقدم من الأدب، (أي إنتاج الخطاب)، وإلى الغرض الأسمى، (أي وصف الخطاب وتأويله).

يمكن فهم مقصوده بـ«الغرض الأقدم» من «علم الأدب»، بالرجوع إلى إحصاء القدماء لعلوم الأدب. يقول ابن الأنباري: «علوم الأدب ثمانية: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابهم»[64].

وتقترب هذه العلوم الأدبية من «آلات علم البيان وأدواته» عند ابن الأثير (فمنها عنده: النحو، والصرف، والمعرفة بفصيح الألفاظ والتراكيب، والمعرفة بالأمثال والأخبار، والاطلاع على مؤلفات أصحاب الصنعة، ومعرفة الأحكام السلطانية، وحفظ القرآن واستيعابه، والمعرفة بالعروض والقوافي). ولاشك أن حديث ابن الأثير عن البيان يذكر بمفهوم البيان عند الجاحظ أي «الفهم و«الإفهام».

ها نحن إذن نضع لائحة للعلوم التي يحتاج إليها المتأدب، وهي نفسها شروط حصول البيان: أي حصول الفهم والإفهام. ولابد أن نذكِّر هنا بما سبق أن قررناه في أعمال سابقة من أن الجاحظ قد قايض كلمة البيان بكلمة البلاغة، ثم قايض «البلاغة» بالخطابة. إن هذا التداخل بين الأدب والبيان والبلاغة هو الذي أوجد الحاجة لدى عالم متشعب الثقافة، متشبع بالمنطق، مثل حازم، إلى

---

64 ـ نزهة الألباب 55.

استعمال عنوان تتعاون فيه الكلمتان (بلاغة وأدب)، هو كتاب: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء.**

فهناك عطف يُشعر بوجود قيمة إضافية، وهناك موازاة قوية بين البلغاء والأدباء، من جهة، وبين المنهاج والسراج من جهة ثانية[65]. فالأمر أقرب إلى تضامن المفاهيم لتغطية موضوع شاسع تتجاذب مكوناته من جهة وتتدافع من جهة أو جهات أخرى، خاصة وقد عرف حازم البلاغة باعتبارها العلم الذي يتناول الخطابين التخييلي والإقناعي، وهذا يحول دون حصر مفهوم البلاغة في الخطاب الاستدلالي الإقناعي، وَتخصيص كلمة أدب للخطاب التخييلي الشعري.

ودون أن يَدخل حازم ـــ إن لم يكن قد فعل ذلك في القسم المفقود ـــ في تعداد العلوم الداخلة في البلاغة، فقد صرح بأن البلاغة علم كلي يستوعب علوم اللسان الجزئية.

الملاحظ، إذن، أن السكاكي خرج بعمل عبد القاهر الجرجاني من «المعنى الإبداعي» للأدبية (سر البلاغة) إلى المعنى العام الاجتماعي للأدب باعتباره كفاءة في الفهم والتعبير؛ الفهم والإفهام، والبيان والتبيين. وبذلك خرج من بلاغة الشعر إلى بلاغة الخطاب، أي إلى البلاغة العامة.

وهذا ما نلاحظه أيضا في العصر الحديث، فبتأثير من المباحث اللسانية والفلسفية عرفت بلاغة الخطاب توسعاً في مسارين: مسار الخطاب التخييلي ومسار الخطاب الحجاجي (التداولي).

وقد أدى ذلك إلى وجود بلاغتين: بلاغة شعرية، ذات دعم لساني، وبلاغة خطابية ذات دعم منطقي فلسفي، الشيءُ الذي سمح لبعض الباحثين بالحديث عن بلاغة لسانية وبلاغة فلسفية. الأولى نشطت في امتداد الحركة الشكلانية المتأثرة بلسانيات دوسوسير، والثانية نشأت عن توسيع المنطق نحو الخطاب الطبيعي وفلسفة القيم مع بيرلمان وغيره من الباحثين في هذا المسار.

65- السراج استعارة للمنهاج (المنهاج سراج): كلاهما ينير الطريق، ويهدي إلى الهدف.

ويهمني أن أُذكِّر هنا بظاهرة دالة، وهي الالتقاء غير المبيت بين الباحثين في نظرية الأدب، من جهة، والباحثين في نظرية الإقناع، من جهة ثانية، حول ضرورة الرجوع إلى العلم القديم للخطاب وهو البلاغة[66].

المعرفة الأدبية

تمتد المعرفة الأدبية، حسب المفهوم العام، من تقديم المعارف الجاهزة وشبه الجاهزة وحفظها إلى إنتاج معرفة لم يكن لها تصور قبل الخوض في «الإنشاء». وأفضل هنا استعمال كلمة إنشاء على كلمة «كتابة»، لأن النص الأدبي قد يكون مكتوبا وقد يكون شفويا، وقد يكون خليطا من الشفوية والكتابة، ومن التشكيل والتصوير والتلحين. هذا فضلا عن أن كلمة إنشاء التي ابتذلت، بسبب الاستعمال المدرسي، تدل على الخلق على غير مثال. ومن هنا نسمح لأنفسنا بالقول بأن الأدب يقوم بوظيفتين أساسيتين: حفظ المعرفة وتقديمها (أو تداولها)، من جهة، وإنشاء معرفة خاصة، من جهة ثانية. أي أنه يقوم بالحفظ والتوصيل لما هو معروف، ويقوم بالكشف بالنسبة لما لم يعرف بعد. وللتقديم (أو التوصيل أو التداول) بعدان: بعد بيداغوجي وبعد إقناعي، وهما متداخلان.

وتختلف الأهمية التي نوليها لهذه الوظيفة أو تلك حسب المراحل التاريخية والأجناس الأدبية. وعموما، فإن وظيفة الحفظ والتداول كانت الوظيفة المركزية في الأدب الكلاسيكي ذي الطابع الخطابي، وقد صارت اليوم غير مستساغة في المفهوم الضيق للأدب في العصر الحديث، يقول صاحبا كتاب قضايا أدبية عامة: «يميل النص الحديث إلى افتراض تضاد بين الأدب والمعرفة، اعتمادا على أسبقية الكتابة على المضمون، ولكن قراءة النصوص تقودنا إلى رؤية مختلفة»[67]. وقد قدم الباحثان خلال فصل كامل نصوصا ووقائع أدبية كثيرة تأييدا للقول بوجود وظيفة معرفية للأدب، وهي وقائع لا جدال فيها، غير أنه ينبغي التأكيد على أن القول بأن الكتابة (أو الإنشاء) سابقة على المعرفة، لا يجعل الأدب، حتى بمعناه الضيق، في تضاد مع المعرفة، ذلك أننا لا نبحث، في هذا

---

66 ـ انظر المبحث الأول من هذا الفصل.

67 ـ القضايا العامة للأدب. 9.

المستوى، عن المعرفة القبلية، بل عن المعرفة الناتجة عن عملية الإنشاء نفسه، الإنشاء استكشاف وبناء.

تتم عملية الحفظ والتوصيل من خلال الوسائل الصوتية التوازنية والدلالية الاستعارية والتقابلية وغيرها من الآليات التي تجعل الكلام يستدعي بعضُه بعضا فيستقر في الذاكرة ويتجلى في صور خيالية مثيرة. والآليات الشعرية الأساسية لحفظ المعرفة هي: المنظومات، والمسبوكات (من أمثال وحكم ومأثور كلام بصفة عامة)، والحكاياتِ التي تتماسك أطرافها تماسك افتقار. حيث يلعب التوازن الصوتي والتقابلِ الدلالي والتشخيص التمثيلي وتسلسل الأحداث أدواراً لا محيد عنها في تثبيت المعنى من جهة وإعطائه قوة إقناعية من جهة ثانية، على اختلاف بين المنظومات والمسبوكات في الوقوف عند الحفظ أو تجاوزه إلى التوصيل في أحد مستوييه أو فيهما معا.

لقد كانت هذه الوظيفة أساسية في العصر الشفوي ثم بقيت وستبقى عنصرا ضروريا للتواصل والكفاءة الإقناعية، لأن الإنسان محتاج إلى برامج تشغيل مسجلة في ذهنه لا يمكن تعويضها لا بورق الكتب ولا بشرائح الأقراص الصلبة والمرنة ولا حتى المدمجة، وإلا صرنا ـ بل ربما قد صرنا ـ كمثل الذي يحمل أقراصا، بعد أن كان يحمل أسفار.

والغرض مما سبق هو أن هذه الوظيفة الحفظية ضرورية لكل مرونة خَطابية وخِطابية، وغيابُها هو المفسِّر الثاني للانحباس الخطابي (أو العي) الذي يعاني منه المغَاربيون بصفة عامة. (أما المفسر الأول طبعا فهو الهجنة اللغوية (فصحى، فرنسية وغيرها، دواريج، أمازيغية). فالأدب بمفهومه العام هو ذخيرة البلاغي ورصيده.

ومن المعلوم أن العلوم المختلفة تستعين بالوسائل الأدبية / البلاغية في توصيل معارفها، إما عن طريق التمثيل والاستعارة أو عن طريق الحكي والمسرحة مع مراعاة أحوال المتلقين.

عوائق المعرفة الأدبية

هناك عوائق عدة تحول دون قيام معرفة أدبية تتفرع عن العائق المركزي الذي بدأنا به (أي غياب معرفة بمفهوم الأدب)، من العوائق المقصودة:

أ- التشويش على مفهوم الأدب بمفاهيم أيديولوجية ودينية.

من هذه العوائق الحديث عن أدب إسلامي وأدب نسائي وأدب زنجي ..الخ، بدل الحديث عن هموم هذه الجهات داخل الأدب. فالالتزام بهذه العبارات يؤدي ضرورة إلى الاختيار والتقييم على أساسها فتضيع القيمة الجوهرية للأدب وهي المعرفة المقترنة بالمتعة، والتأثير القائم على مراعاة الأحوال. وقد ظهر ضرر هذه الاعتبارات في إلحاقِ نصوصٍ رديئةٍ مفسدة للذوق بالكتب المدرسية لاعتبارات وطنية ودينية...الخ

ب- الانتقال من الشفوي إلى الصوري

من أسباب ما سأدعوه الأمية الأدبية الانتقالُ ــ في العالم العربي خاصة ــ من الثقافة الشفوية القائمة على الرواية والحكي إلى عالم الصورة والصوت دون تشبع، بل دون ملامسة، لعالم الكتابة. هذه القضية التي يمكن مشاهدتها اليوم مع كل ما يتساقط من هوائيات وفضائيات تراهن على الدهماء وتقيس الأمور بمقياسها. فإذا كان بارث مثلاً يعتبر التخلّي عن الكتابة لصالح الصورة كارثة تاريخية من نوع سياسي، فإن الذي يحدث الآن في العالم العربي أقرب إلى التسميم. عالم من الأميين الكتابيين يقضون عشرات الساعات أمام حكي مكرور (مسلسلات وأفلام...) أو مهاترات غير عقلانية (تسمى حوارات).

وقد لاحظت هذه القضية بقوة منذ حوالي عشر سنوات في بعض بلاد المشرق العربي السباقة إلى توفير أدوات الاتصال الاليكتروني حيث صار الطلبة الباحثون يعتمدون في بحوثهم على ما يلتقطونه من الموسوعات المتوفرة على النِّيت، ويهتمون أكثر بالإخراج والتنميق على حساب العمق الفكري وجمال العبارة، والعاهة في طريق التعميم[68].

68ـ الإشارة هنا إلى أواسط تسعينيات القرن الماضي حيث قضيتُ سنة جامعية في التدريس بجامعة الملك سعود بالرياض. ولم أغادر الجامعة المغربية سنة 2005 حتى كان الطمي قد غطى على الجميع من المحيط إلى الخليج.

إن الأمر لن يجد حلا منحازا لصالح هذه الجهة أو تلك، بل لابد من وجود طريقة للربط بين المكتوب والمرئي كما كان بين المسموع والمكتوب.

ج- غياب المعرفة اللغوية والفلسفية والفنية.

إن غياب هذه المعرفة يُبعد عن الوعي بآليات اشتغال النص الأدبي في مكونيه الأساسين التخييلي والحجاجي، كما أن إلحاق الأدب وجعله تابعا هامشيا لتلك المعرفة يبعدها عن فهم الأدب كمكون ثقافي معرفي مستقل لا تغني عنه لا الفلسفة ولا اللغة ولا الفن.

وهكذا نجد المجال المعرفي الأدبي نهبا بين الانطباع الجاهل والعلماوية المتحذلقة المعطلة للهوية الأدبية البلاغية.

د- المساحة المخصصة للثقافة الأدبية في الصحافة.

المغربية والعربية بصفة عامة. مسموعةً ومرئية ضيقة جداً، بل منعدمة. فبمقارنة بسيطة بين ما تعرضه القنوات الفرنسية مثلا من كتب خلال برامج متنوعة فرجوية ومعرفية وبين ما تقدمه القنوات العربية ندرك الدور المخل للإعلام المغربي والعربي في هذا المجال.

2- البلاغة علم الخطاب[69]

جاء في لسان العرب (مادة: خطب): «الخطاب، والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان». «والمخاطبة مفاعلة، من الخطاب والمشاورة».

69- هذا المقال جوابٌ عن سؤال تاريخي طالما انتظرناه. كان من إيجابيات إصلاح التعليم في أوائل القرن 21 في المغرب إدراج مادة تحليل الخطاب، وقد تقاسمتُ طلبةَ هذه المادة، في كلية الآداب بالرباط، مع الأستاذ محمد مفتاح. فكانت هذه المحاضرة من المقدمات المنهاجية للتعريف بمادة الخطاب والعلم الذي يتناولها، في حين كان تركيزي على تحليل نصوص مختلفة متنوعة.

فالمبدأ في المخاطبة إذن هو المراجعة التفاعلية المطبوعة بالمشاورة. ومن هنا تحدث صاحب الأساس عن «المواجهة بالكلام». وكانت العادة في الجاهلية وجزء من الصدر الأول للإسلام أن يتواجه الخطباء في الأسواق وعلى المنابر للتخاطب في مواطن الاختلاف. ثم صارت هناك مقامات دينية وسياسية وعلمية تفرض الحديث من جهة واحدة، فغلب مفهوم «الخطبة» وحيدة الاتجاه، وهذه هي التي اتخذت موضوعا للتنظير البلاغي عند «علماء الخطابة»، ثم تدخلت عناصر معرفية في تسمية الصنف التفاعلي «مناظرة»، من تبادل النظر في موضوع.

وإلى جانب هذا الخطاب التفاعلي كان هناك صنف آخر من القول بدا وكأنه يسير في اتجاه واحد، هو القول الشعري. وهو مرتبط بالشعور باعتباره معرفة مبنية على المعاناة الشخصية، والإلهام الغيبي: الشاعر هو من يشعر بما لا يشعر به غيره، كما قال ابن وهب في البرهان[70]. وحين جمع الفلاسفة العرب بين الخطابة والشعر استعملوا كلمة «الأقاويل» مفرقين بين الشعر والخطابة من جهتي التخييل والتصديق. ولم تستعمل كلمة خطابٍ في الدلالة على كل الأقاويل - فيما أعلم، إلا نادرا، وفي هامش النظرية.

ولذلك فإن المفهوم الذي نُعطيه اليوم لكلمة خطاب هو ذلك الذي جاء من ترجمة كلمة discours / discourse ذات الأصل اللاتيني. ولعل الذي يسَّر الترجمة هو أن كلمة "دسكور" ارتبطت، هي الأخرى، في مبدأ أمرها، وعند تحولها من الأصل discursus، بالحديث عن أجناس خطابة أرسطو: الاستشارية والقضائية والتقييمية (المحفلية)[71]. فبهذا الاتصال بالخطابة الأرسطية لم تعد دسكور تقف عند مجرد رصف كلام أو أداء فكرة، بل صارت تتطلب، أولا، إحداث أثر.

وبرغم التوسيع الكبير لمفهوم الخطاب من طرف اللسانيات الحديثة، فقد ظل التواصل وما يستتبعه من شروط مقامية داخلا في تعريف الخطاب وشرطا من شروطه في غالب الأحيان (كما في النحو الوظيفي).

---

70 - البرهان في وجوه البيان.

71 - انظر الموسوعة الكونية universalis.

وهكذا نجد الأستاذ أحمد المتوكل ينتهي، في أعقاب فانديك وغيره من الوظيفيين، إلى تعريف الخطاب بقوله: « لنذكر بأن الخطاب، كما حددناه هنا، كل إنتاج لغوي يتم بواسطته التواصل في موقف ما»[72].

وهذا التعريف لا يعدو في نظر المؤلف فرضية للعمل، إذ نبه، منذ البداية، إلى «أن مفهوم الخطاب لم يحظ لحد الآن، فيما نعلم، بتعريف شاف»[73]. ويشير إلى معوق آخر نصادفه في كثير من المؤلفات اللسانية، وهو الالتباس بين الخطاب والنص، «إذ يكادان يستخدمان كمترادفين يتعاقبان»[74]. غير أنه يشير إلى أن تقديم الخطاب على النص يترجح الآن بسبب إيحاء الخطاب، أكثر من النص، «بأن المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية (عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي (الصوتية والتركيبية والدلالية الصرف)، بل كل إنتاج لغوي يُربطُ فيه ربْطَ تبعيةٍ بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (بالمعنى الواسع)»[75].

إن هذا التعريف يقربنا من البلاغة العامة الحديثة في أحد همومها الخطابية، وهو الهم التداولي الذي يركز اهتمامه على مقامات التواصل، ويجعل ما سواها تابعا لها، ساعيا إلى إدماج الخطاب الشعري والحجاجي في البنية اللسانية. وهذا ما جعل فانديك يقول في مقدمة دراسته المطولة: النص، بنياته ووظائفه، بأن علم النص هو الممثل العصري للبلاغة[76]. والذي يهمنا من هذا الكلام هو الإقرار بأن هناك علماً كان يُغطي هذا الموضوع، أما كفاءة قيام غيره بالمهمة نيابةً عنه فدعوى قابلة للمنازعة، بل مرفوضة عندنا.

الخطاب من التواصل إلى الحوار

ثم انضافَ إلى هذا التوسيع اللساني لمفهوم الخطاب استعمالُه في المجال المعرفي الأنتروبولوجي والاجتماعي والفلسفي، حيث تحتل كلمة حوار مكان

---

72 - أحمد المتوكل. قضايا اللغة العربية. بنية الخطاب من الجملة إلى النص.244.

73- نفسه 16.

74 نفسه.

75- أحمد المتوكل. قضايا اللغة العربية. بنية الخطاب من الجملة إلى النص.244

76- النص، بنياته ووظائفه.

الحظوة الذي تحتله كلمة تواصل في المجال اللساني. تقول ديان ماكدونيل: «إن الحوار هو الشرط الأول للخطاب. والكلامُ والكتابة جميعا نشاطٌ اجتماعيٌّ. وتختلف أنواع الخطاب في البلدان المختلفة وعبرها. [كما] تختلف أنواع الخطابات باختلاف المؤسسات والممارسات الاجتماعية التي تتشكل فيها هذه الخطابات، وباختلاف أوضاع أولئك الذين يتحدثون، وأولئك الذين يوجه إليهم الحديث... والخطاب عمل اجتماعي تعتمد فيه العبارة"[77]. وقد «ذهبت الدراسات المتعلقة بالخطاب إلى أبعد من هذا... [مُحوِّلة] اهتمامها إلى ما كان يعد أساسا، حتى ذلك الوقت، منطقة "حيادية": ألا وهي خطابات المعرفة"[78].

وهكذا أصبحنا أمام استعمالات واسعة لكلمة خطاب دالة على الكلام من أسفل السلم إلى أعلاه، مشيرة إلى بنائه أو محتواه: الخطاب الشعري، الخطاب التداولي، الخطاب الديني، الخطاب الفلسفي، الخطاب الروائي، الخطاب المسرحي، الخطاب السنيمائي، الخطاب الإشهاري، وصولا إلى خطاب الصورة وخطاب المقدمات...الخ

فهل نحن مطالَبون بتناول كل هذه الخطابات؟ إن ذلك سيؤدي، في أحسن الأحوال، إلى تكرار ما يقوم به أهل الاختصاص في كل مبحث، وتشويهه في أسوئها، وهو المصير الحتمي لكل من يدعي الإحاطة بالموضوع؟

إن هذا التساؤل لا يعني تعذر الحديث عن الخطاب في كليته!

سيكون التناول ممكنا باستبعاد المفهومين الضيقين للخطاب في المجالين اللساني والفلسفي: **التركيب النحوي والمحتوى الفكري**، على التوالي. فبين الجاذبيتين: التواصلية اللسانية والحوارية الفلسفية يطرح الخطاب الأدبي الشعري الكثير من العوائق باعتباره مركزا آخر يفقد هويته بالاستتباع، أي بجعله مجرد امتداد للتحليل اللساني أو النظر الفلسفي.

وسيكون التناول الشمولي ممكنا، أيضا، بالنظر من زاوية شكلية، أي من زاوية كون الخطاب مقتضيا أثرا وتفاعلا بين متخاطبين فعليين قائمين أو مفترضين

77- ديان ماكدونيل. نظريات الخطاب. ترجمة عز الدين إسماعيل 67.

78- نفسه.

(متوقعين) درجات من التوقع ، قد تقترب من الصفر. وهذا الأثر لا يعدو أن يكون طلبا للتصديق (أو التسليم بدعوى أو أطروحة) أو طلبا للتخييل والتوهيم. ومعنى ذلك استيعاب الخطاب التداولي الحجاجي كله من الإشهار إلى المناظرات وكل أشكال الحوار والمناقشات من جهة، وكل صور التعبير الأدبي بالمعنى الحصري للأدبية بما فيها الشعر والسرد وما تفرع عنهما، أو بني عليهما. ثم تتبع توظيف هاتين الآليتين الخطابيتين في كل المجالات التي تثبت فيه حضورهما قدرا من الحضور.

والعلم الذي اضطلع بالبحث في هذا المجال قديما، بلا منازع ، وحديثا مع منازعين، هو البلاغة. مع اختلاف بين لحظة ولحظة في استيعاب كل المجال أو خروج جانبٍ منه عن السيطرة.

- ١٧ -

بلاغة الحوار

مجالها وحدودها

تذكيـــر

«الحوار، في معناه العام: خطاب (أوتخاطب) يطلب الإقناع بقضية أو فعل. وفي معناه الخاص: كل خطاب يتوخى تجاوبَ متلقٍّ مُعين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما.

صورتُه المُثلى مناقشةٌ بين طرفين أو أكثر، وقد يكون تعقيبا بعد حين على صفحات الجرائد أو غيرها من وسائط الاتصال التي تتيح فرصة للتعليق على رأي الآخرين، وقد يكون في أي صيغة أخرى»[79].

الذي يشغلني، وأنا أقترح هذا التعريف التقريبي، هو الخطاب السياسي في معناه العام، أي الخطاب الذي يتناول تدبير الاختلاف في الحياة المدنية. ولذلك لم أعتمد تعريفا سابقا يقيدني بمرجعيته أو مجال تطبيقه. وأحيل، قصد الاستئناس والمقارنة، على تعريف دوگلاس والتون وهو يهتم بالأنماط الحافة بالحوار النقدي المتداخلة معه، مثل: المناقشات والمفاوضات والتحقيقات والمشاحنات[80]. كما

79- دائرة الحوار. ص7. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2000.

80- Douglas Walton . “Types de dialogues et glissement dialectique en argumentation”. In Figures et conflits rhétorique. Ed de l’université de Bruxelles 1990 .p. 227-239..

وقد عرَّف الحوار في مقابلة مع النقاش برغم اعتباره النقاش حالة من أحوال الحوار. يجري الحوار بين خصمين، على الأقل، من أجل تحقيق هدف معين سلفا، في حين يكون غرض الثاني

أحيل على بيرلمان وأولبريشت تيتيكا، وهما يهتمان، في الطرف المقابل، بالحجاج الجدلي ضمن هَمٍّ منطقي فلسفي، اختارا له اسم البلاغة الجديدة، سنحاوره لاحقا. فبين هذ التعريف والتعريفات الأخرى تداخل في الجوهر واختلاف في التفاصيل. وأستبعدُ، من باب أولى وأحرى، المفهومَ النقديَّ الأدبيَّ لكلمة «حوار» مما يتصل بالتناص، أو حوار النصوص، فهذا مبحث آخر، تهتم به بلاغة الشعر (الشعرية).

وبلاغة الحوار هي العلم الذي يتناول مكونات الحوار وأخلاقياته وآليات اشتغاله. وهي تنتمي إلى النظرية العامة للإقناع التي هي فرع من البلاغة العامة، (أو البلاغة، دون زيادة)، في مقابل فرع التخييل[81]. وقد اقترحنا تصورا لـ«دائرة الحوار» في كتابنا المعنون بهذا الاسم مشفوعة بالتعليق التالي:

«دائرة الحوار هي... دائرةُ الممكن، دائرةُ ما يَتطلَّبُ إنجازُه أخذَ «الآخر» بعين الاعتبار. متعاونا (مشاورات) أو منازعا (مناظرات)، أو منقادا دون روية (استهواء). وخارج هذه الدائرة توجد دائرة المطلق (أو المطلقات). لكُلٍّ صيغة من صيغ الحوار، أو جنس من أجناسه امتداد: ففي امتداد التشاور توجد المعرفة في بعدها التخزيني، أي نشاط الذاكرة بشكل أساسي، وفي امتداد المناظرة يوجد التأمل والاعتبار والمعرفة المنطقية والبرهانية، أي نشاط العقل بصفة أساسية. وفي امتداد الاستهواء يوجد العنف السيكولوجي والرمزي، أي نشاط الوجدان بشكل أساسي»[82].

وهكذا فإن الحوار يجري داخل دائرة الممكن، ولكنه قد ينزلق خارج الدائرة حين يصادر أحد، الطرفين حق الآخر في المعرفة أو النظر أو الاعتبار (حيث يستغفله أو يستخف به). وقد يتم الانزلاق من مقام إلى مقام فيختل الحوار أو يضطرب، كما يحدث حين القفز من المشاورة إلى المنازعة، أو من المناظرة إلى الاستهواء.

(النقاش) الوصول إلى الحقيقة من خلال تبادل الحجج حول رأي مثلا، وبذلك يدخل النقاش في المناظرة العلمية كما يدخل في المشاورة السياسية، أي أنه آلية فحص وتحدٍّ واستكشاف.

81- انظر مقالنا «البلاغة العامة والبلاغات المعممة». في مجلة فكر ونقد. ع.25. الدار البيضاء. 2000 ص. 81-55..

82- دائرة الحوار. الفصل الأول. ونشاط الوجدان مهدد بالامتداد ليصير نشاطا جسديا.

هذه تمهيدات ذكرنا بها، ونحيل الراغبَ في مزيد بيان على المرجع المذكور. ونخصص هذه المناسبة لمعالجة ثلاث نقط وهي:

- مجال الحوار،
- الفرق بين الحوار والحجاج ذي التوجه المنطقي (أو الاستهواء الحواري والحجاج المنطقي)،
- الفرق بين نقد الخطاب الحواري وإبداء الرأي (أو نهاية العلم وبداية الرأي في بلاغة الحوار). وقد بدت لي هذه القضايا، عند تأليف كتاب دائرة الحوار، بديهية، ثم تبين أن عدم وضع النقط على الحروف بصددها يعوق الفهم والتفاهم في هذا المجال. فنحن نجيب هنا عن أسئلة تُطوِّر النقاش، وتُعمِّقُ البحث.

1 . مجال الحوار: تدبير الاختلاف حول القيم

يلتقي منظرو بلاغة الإقناع من أفلاطون إلى بيرلمان في التأكيد بأن مجال التخاطب الحواري (أو الحجاج عامة) هو مجال القيم. فهنا يتدخل الرأي وتؤثرُ المقامات الخطابية (أحوال المتلقين). وقد عُمقت هذه القناعة، حديثا، من طرف نظرية الحجاج. وذلك في مسعى منها لبناء منطق غير شكلي يهتم بالإقناع في مجالات متعدِّدة. يقول ج. مورو في مقال له بعنوان «البلاغة والجدل وأولى الضرورات»:

«قال سقراط لأوطيفرون Euthephron : إذا اختلف رأينا، أنا وأنت، حول العدد (عدد الأشياء الموجودة في سلة)، أو حول الطول (طول قطعة من نسيج)، أو حول الوزن (وزن كيس من قمح)، فلن نتنازع من أجلِ هذا؛ ولن ندخل في نقاش؛ سيكفينا أن نعُدَّ أونقيس أو نَـزنَ وسيُسوَّى الخلافُ. إن الاختلافات لا تتسع وتَتَّسمم إلا حين لا تكون هناك إجراءات للقياس من هذا القبيل، حين تَغيبُ المقاييسِ الموضوعية. وهذا هو الشأن، حسبَ سقراط، حين نختلف حول المُصيب والمُخطئ، والجميل والقبيح، والخيِّر والشرير، وبكلمة واحدة : حول القيم. (Platon.Euthephron.7d)».

وعليه فإذا أردنا، في مثل هذه الحالات تلافي تحول الخلاف إلى أزمة، وتلافي الحل المعتمد على العنف، فليس هناك من سبيل غيرَ الرجوع إلى نقاش عقلاني. ويبدو الجَدَلُ، باعتباره فنا للمناقشة، المنهج الملائم لحل المشاكل التطبيقية، تلك التي تُعنى بالأغراض العملية حيث تتدخل القيم»[83].

وما دام الحوار أو الجدل (لا فرق في هذا المستوى) لا يُتصوَّرُ إلا في مستمَعات (أي بين مستمعين في مكان وزمن محددين) فقد ثار الصراع منذ القديم بين الفلاسفة والبلاغيين حول هوية الميدان: طبيعة الحقيقة الممكنة، ومن هو أجدر بالوصول إليها. فأية حقيقة يُقيمها الفيلسوف في هذا المجال تصبح،

83- «Rhétorique, Dialectique et Exigence première»

نشر ضمن La théorie de L'argumentation, perspectives et applications. Publication du Centre National de Recherches de Logique, Louvain-Paris, Nauwelaerts, 1963, pp. 206-218..

ونقل عنه بيرلمان Perelman باحتفال كبير في كتابه:

Le champ de l'argumentation. Presses Universitaires de Bruxelles 1970. p.14.

وقد ردد بيرلمان، وهو رأسُ نظرية الحجاج الحديثة، كلامَ أفلاطون في أماكن متعددة من مؤلفاته. ونص المحاورة، حسب الترجمة العربية:

«سقراط: وأي ضرب من الخلاف يولد العداوة والغضب؟ أفرض مثلا، يا صديقي العزيز، أنك اختلفت وإياي على عدد، هل هذا النوع من الخلاف يعادي بيننا، ويفرق أحدنا عن الآخر؟ ألسنا نلجأ من فورنا إلى الحساب ونفض ما بيننا من خلاف بعملية حسابية؟

أوطيفرون: هذا حق.

سقراط: أوْ هبنا اختلفنا على طول، ألسنا نسارع إلى القياس لنفض الخلاف؟

أوطيفرون: جد صحيح.

سقراط: كما نمحو ما بيننا من تضاد حول الثقيل والخفيف بأن نلجأ إلى آلة وازنة؟

أوطيفرون: لا ريب في ذلك.

سقراط: ولكن أي أنواع الخلاف لا يمكن تسويتها على هذا النحو، وأيها إذن يثير فينا الغضب ويوقفنا موقف العداوة أحدنا من الآخر؟ أعتقد أن الجواب لا يحضرك الآن، وعلى ذلك فأنا أبسُط رأيي بأن هذه العداوة إنما تنشأ حينما يكون الخلاف هو: العادلُ والظالمُ والخيِّر والشرير، والرفيع والوضيع [من الأمور]. أليست هذه نقط الخلاف بين الناس والتي نشتجر بسببها، إذ نشتجر أنا وأنت وكلنا جميعا، حينما نعجز عن تسوية وجوه الخلاف تسوية مرضية؟». (أوطفرون. ضمن: محاورات أفلاطون. ص 31-30).

من غدها، موضوع خلاف يقتضي المجادلة والإقناع، أي استعمال الأدوات البلاغية المرصودة لمعالجة الرأي وما هو نسبي في إطار المقامات.

بناء عليه، فإن الحوار يُغطي، عندنا، كل المجال الذي يُفلتُ من الصرامة البرهانية المعتمدة على البداهة (أي مجال القيم كما تقدم)، غير أن الحديث عن القيم يطرح إشكال النسبية والإطلاق.

فحين يقال بأن القيم هي مجال الإقناع، يتبادر إلى ذهن غير المختص الاعتراضُ بكونية القيم الكبرى مثل الحق والخير والحرية والجمال... وهي كذلك (أي أنها كونية حقا) بالنسبة لكل العقلاء المندمجين في المسار الحضاري للإنسانية، بل حتى الطغاة لا يتنكرون لها بصريح اللفظ. غير أن إطلاقية هذه القيم وكونيتها لا تتجاوز مستوى النظر والشعار الذي ينبغي رفعه والذود عنه على الدوام. فبمجرد ما نحاول تنزيل هذه القيم على الواقع، فإنها تصبح موضوع أخذ ورد حسب المستمَعات (les auditoires) عبْر تدرُّج من المستوى التشريعي إلى المستوى العملي الحياتي. فما تراه الطبقات الفقيرة عدلا (توزيع الثروات) تراه الطبقات المتحكمة في الثروة مصادرة لحرية الكسب والمبادرة (أي ظلما لها). وليس من حل في هذه الحال غيرُ الحوار العقلاني الذي يحتكم لترتيب الأضرار والمنافع بالنسبة للمجموعة ككل حسب موازين القوى الآنية. قد تتغير هذه الموازين لاحقا فيُستأنفُ الحوارُ من أجل تراتبية جديدة حسب الأسبقيات أو الضغوط. ومع عملية الترتيب تبدأ التنازلات: يتنازل كل طرف عن جوانب لتحصيل جوانب أخرى؛ يتنازل عنها الطرف الآخر راغبا أو مُضطرا. ويتم هذا الحوار ضمن عملية تنظيم المجتمع كَكُلٍّ لأسبقياته حسَبَ الإمكانيات والإكراهات.

ولذلك اعتبر بلاغيو الحجاج ترتيبَ القيم أهمَّ من معرفتها وتمجيدها. قال بيرلمان: «لا شك أن تراتبيات القيم، منظورا إليها من وجهة نظر البنية الحجاجية، هي أكثر أهمية من القيم نفسها. فالواقعُ أن أكثرَ القيم مشتركٌ بين عدد كبير من المستمَعات. وتكمنُ خصوصيةُ كل مُستمَع في الطريقة التي يرتب بها هذه القيم أكثرَ مما هي كامنة في القيم التي يقبلها[84]». والبلاغة هي العلم المؤهل

-84 Traité de l'argumentation p.109.

لتحقيق تخاطُب إيجابي في مثل هذه المقامات الملتبسة. ليس ببيان كيفية الدفاع عن الحقوق فحسب، كما كان مَبْدأ أمرها عند اليونان، ولكن بكشف أساليب التضليل والمغالطة الهادفة إلى سَلْبها أيضاً.

فمن القيم النبيلة التي تُغتال بها حريةُ الشعوب في العصر الحديث مفهوم «المواطنة». وذلك حين يَختزله المستبدون في ضمير «نا». موهمين الاشتراك في السراء والضراء، والحال أن «نا» هذه أشْبَهُ بحصان طروادة الذي يَقتحمُ به المستغلون قلعةَ المستضعفين. وهذه هي المعركة البلاغية اليوم بين الشعوب العربية وحكامها: معركة «نا»(أو معركتُ«نا»)، حيث نجد الصوت العالي اليوم هو: اخرجوا من طريقنا لنواجه أعداءنا. وهذا أمر وعاه البعض وبحث عن مخرج، وتجاهله البعض فوقع في الحرج[85].

وفي خضم الصراع العملي أفرزت المجتمعات هيئات تحكيمية؛ انبثقت عنها مؤسسات تشريعية؛ تمثل هذه الهيئاتُ الصمامَ الأول لضبط العلاقة بين المطلق والعابر. فالتداول أو الحوار بين المشرعين ليس من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلقة، بل من أجل ضبط الحد الأدنى (أي التطبيقي السياسي) مُوقَّتا في انتظار أن تتغير مُعطيات الحياة أو يختل التوازن بين المتحاورين[86]، وهذا ما يجري عادة في تجديد الدساتير والقوانين والمدونات، حيث يُلتجأ، في الأخير إلى الاستفتاء، ليسلم الأمر للأغلبية، وليس للحقيقة المطلقة التي لا وجود لها إلا في أذهان الطغاة. وقد قضى المغاربة نصف قرن من الصراع من أجل حق الحوار حول الدستور.

وكما يستعمل المتداولون في شأن القوانين والدساتير كل كفاءاتهم الإقناعية في التقريب بين آرائهم، مؤولين وموجهين للمرجعيات المعتمدة لديهم، سيقوم المطبقون في المستوى العملي (السياسي) بجهد مماثل في تأويل النصوص

---

85. بعد سنوات قليلة من كتابة هذا المقال رُفع شعار «ارحل».
ومن القيم النبيلة أيضا التي تُقتحم بها حرية الإنسان، وتُنتهك بها كينونته وحرمتُه الدين، حين يضيفه القراصنة إلى أنفسهم، فيقولون: دينُ«نا». ومن هنا جاءت عبارة: «المهربون الدينيون». وقد بدأت عملية تهريب خطيرة في المغرب بعد الدستور الجديد، حيث فهم البعض أنهم ملكوا المغاربة.

86. أعدْ تأملَ هذه الفقرة في ضوء الأجواء التي أُعِدَّ فيها الدستور المغربي الجديد 2012. لم يتجاوز المشرعون «الحد الأدنى» «الموقت»: زرعوا الغموض وتركوا الأمر لما سيقع... الخ

التشريعية وتوجيهها طالبين التسليم والقبول من محاوريهم في المقامات الخاصة، ثم متتبعيهم في المقام التحكيمي، أي المصوتين.

إن هذه العملية التحويلية الإقناعية (من المطلق إلى النسبي) عملية معقدة يلتبس فيها الفكر باللغة والحقيقة بالخير. ورفض هذا المسلسل أو التحايل عليه طريق معبد نحو العنف المادي.

2. الاستهواء الحواري والحجاج المنطقي

قد يؤدي حديثنا عن الاستهواء في الخطاب الحواري الإقناعي إلى الارتياب، خاصة إذا ما وقف نظر المتلقي عند النظرية الحجاجية الفلسفية المعروفة باسم «البلاغة جديدة» التي نستفيد منها إلى أقصى الحدود، ولذلك لزم توضيح المقصود منه ووجه العناية به.

لعل القارئ لا يجد صعوبة في فهم المقصود عامة من الاستشارة والمناظرة؛ فلا مانع من الربط، موقتا، بين ما يلوح من مفهوميهما هنا وبين الخطابة الاستشارية (المشاجرية)، والقضائية (الاحتكامية) عند أرسطو. كما أنه لا مانع من انصراف الذهن موقتا إلى مفهوم المناظرة في التراث العربي وعلاقتها بالجدل، لا مانع من كل ذلك ما لم يفكر في المطابقة بين هذا وذاك، وإلا صارت تلك المُلابِسات (بالكسر) عائقاً للفهم. فنحن نهتم بالانزلاقات في الخطاب السياسي أساساً.

لقد حاولنا، بعدَ عمل تطبيقي موسع على النص الخطابي الحديث (في كتاب دائرة الحوار)، أن نجد كلِّمة تستوعبُ ما لا يستوعبُه الاستعلامُ والتشاور، من جهة، والمنازعةُ الحِجاجية المحتكمة إلى العقل والمسلمات المشتركة للطرفين، من جهة أخرى، فكادَ ذلك يتعذر. وترجع هذه الصعوبةَ إلى أن مكونات المنطقة التي لا يُغطيها التشاورُ والتناظر مختلفةً في طبيعتها، متباينة في قيمتها الوجدانية والأخلاقية : الاستمالة والمشاحنة والمغالطة (يستقر طرف منها داخل دائرة الحوار، ويمتد طرف آخر خارج الدائرة). وبعد تأمل طويل استقر رأينا على كلمة «استهواء»، من الهوى أي الميل النفسي، خيراً كان أو شراً، دون احتكام إلى العقل والعرف وما هو مشترك. والمجال الأثير للاستهواء هو الإشهار؛ إشهار البضائع والمواقف والأفكار... الخ

وبهذا الامتداد الاستهوائي ينزاح تصورنا للحوار عن نظرية الحجاج الفلسفية ذات الهم المنطقي (كما نبين في الفقرة الموالية)، مع اعترافنا بعظيم الفائدة التي تقدمها لنا هذه النظرية سواء في التأطير النظري أو في وصف التقنيات الحجاجية وتصنيفها؛ إننا معها وضدها في الوقت نفسه.

لقد ميز بيرلمان وأولبريشت تيتيكا فعلا بين مستويين من التسليم (أو القبول بالرأي المعروض): التسليم الآتي من الخارج حسب المقام وتترجمه كلمةpersuasion ، والتسليم المنبعث من داخل النفس باطمئنان وتترجمه كلمة conviction[87]. وهذا النوع الثاني(conviction) هو الذي يَنتج عن مخاطبة مُستمَع كوني حيث تلتقي أفهام العقلاء. وهو موضوع الحجاج بمعناه الحق في نظرهما؛ ففي إطاره تتحقق الحرية، (أي الإفلات من الإكراهات الخارجية). ونص كلامهما في ذلك: «إن الحجاج غير الملزم Non contraignant وغير الاعتباطي هو وحده القمين بأن يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار عاقل. فأن تكون الحرية تسليما اضطراريا [إلزاميا] بنظام طبيعي مُعطىً سلفا معناه انعدام كل إمكان للاختيار. فإذا لم تكن ممارسة الحرية منبنية على العقل، فإن كل اختيار سيكون ضربا من الخور، ويستحيل إلى حكم اعتباطي يسبح في فراغ فكري»[88].

غير أن صواب هذا النظر الفلسفي (وهو يدمج العلمي والخلقي) لا يمكن أن يشغل البلاغي (والبلاغي الواصف على وجه التحديد) عن واقع إنتاج الخطاب وأحوال متلقيه، ويظلٍ الحوار النقدي الذي يجري في المقام الكوني، حيث تلتقي العقول السليمة، غايةً يسعى البلاغي نحوها دون أن يرتهن بها وجوداً وعدما. فقديما لاحظ أرسطو أن الحاجة إلى الأسلوب نابعة من أن عامة الناس «يتأثرون بمشاعرهم أكثرَ مما يتأثرون بعقولهم»[89].

---

87 ـ بعد مشاورة واجتهاد اقترح له الحسين بنو هاشم، في أطروحته للدكتوراه، مقابلا يبدو موفقا: التيقين. وذلك بتعدية فعل «يَـقِـن»، قياسا على فعل «علِم»، فنقول: يقَّنه يُيقِّنه، كما نقول علَّمه يعلمه، وهما معا من يقن وعلم. تحت الطبع بعنوان: بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية.

88. Traité de l'argumentation .p. 682 . اعتمدنا ترجمة المرحوم عبد الله صولة في مقاله: «الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال الخطابة الجديدة» لبيرلمان وتيتيكا. ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. تونس1998. ص. 301.

89. انظر كتابنا:في بلاغة الخطاب الإقناعي. ط2. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء2002. ص87.

ويرجع هذا التقارب والتباعد (بيننا وبين بلاغة بيرلمان) إلى الالتقاء في الموضوع والغرض(الإقناع)، والاختلاف في مجال التطبيق. فمن حيث المنطلق نلتقي في استلهام خطابة أرسطو. فقد قادت طبيعة الموضوع هؤلاء المناطقة - كما قادتنا النصوص الخطابية المختلفة - إلى رحاب البلاغة الأرسطية. يقول بيرلمان في كتابه: حقل الحجاج: «موضوع نظرية الحجاج هو دراسة التقنيات الخطابية الهادفة إلى حث النفوس على التسليم بالأطروحات المعروضة عليها، أو تقوية ذلك التسليم. كما تفحص أيضا الشروط التي تسمح بانطلاق الحجاج ونموه، وكذا الآثار المترتبة عنه»[90].

فهذا التعريف يستلهم التعريف الأرسطي المشهور الذي نلتقي حوله. وهو، حسب الترجمة العربية القديمة: «الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[91].

غير أننا في الوقت الذي نسعى فيه نحن إلى استيعاب كل الخطابات الشفوية والكتابية ومراعاة خصوصياتها، وكذا الاهتمام أكثر ب«الكوارث» الخطابية، فإن البلاغة الحجاجية (= الخطابية) تقلص موضوعها بحسب الهموم المنطقية، وهذا ما صرح به بيرلمان رابطا لاحق كلامه بسابقه:

«إن نظريةً للحجاج من هذا القبيل توجه الذهن، حين النظر إلى موضوعها، إلى البلاغة القديمة، ولكنني إذ أعالجها من زاوية هموم عالم المنطق سأضطر لتقليص مباحثي من جانب وتوسيعها من جانب آخر»[92].

فمن الجوانب التي تتضمن توسيعا وتضييقا في الوقت نفسه المتن (أو المدونة)، حيث يتم إهمال خصوصيات الخطاب الشفوي واستيعابُ الخطاب المكتوب اقتصارًا على الحجج المقنعة فيهما معا الموصلة إلى الإذعان. ويكمن وراء هذا الإجراء عدم إيلاء أهمية كبيرة للمحافل الخطابية في مقابل الامتداد إلى المحاجة الخاصة؛ مع شخص واحد أو حتى مع الذات؛ يتداول المرء مع نفسه حول الـ«مع» و«الضد» لاختبار مدى قيمة أطروحة وصلابة حجة.

90- Perelman ch. Le champ de l'argumentation. P. 13.

91- وفي الترجمة الحديثة لعبد الرحمن بدوي: «يمكن أن نَحُدَّ الخطابة بأنها: الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان». (الخطابة لأرسطو29).

92- Perelman ch. Le champ de l'argumentation. P. 13

وبهذا التوجه تقترب نظرية الحجاج الحديثة من مبحث الجدل أكثر من قربها من مبحث البلاغة ببعديها الشعري والتداولي، وذلك برغم اختيار الانتماء لما سمي بلاغة جديدة. يقول:«من هنا احتلت الطوبيقات الأرسطية (باعتبارها صياغة للجدل السُّقراطي القائم على السؤال والجواب والنقد والدحض) حيزا من النظرية الفلسفية للحجاج. فمن الملاحظ، أن فن الحجاج (كما نما وتطور مع جورجياس، وبروطاغوراس وزينون) يهتم دائما بإحداث التسليم بأطروحات توجد في حالة تعارض. فيُقوي هذا التسليم أو يُنقص من قوته بواسطة حجج متنوعة، إذ يعتمد التأثيرُ على الشخص في كليته ليدْفعه نحو الفعل، «ففي الحجاج لا يفرق بين الإرادة والفعل، ولا بين النظرية والتطبيق»[93].

من البين، إذن، أننا نلتقي مع البلاغة الجديدة (= الخطابية) في توسُّعها نحو المناظرة والمكتوب، ونبتعدُ عنها في إبعادها للاستهواء والخطاب الشفوي. فنحن نعتني بالخطاب الشفوي سواء في المحافل الخطابية من النمط القديم أو المنقولة على الشاشات. ومن هنا يُصبح لدينا امتدادٌ ثالث نحو «الصورة»[94] باعتبارها عنصرا أساسيا في بلاغة الحوار، وبالموسيقى أيضا كما هو الحال في الخطاب الإشهاري. وعموما، فإن الحديث عن الاستهواء يَستعيد بعدا غائبا عن «البلاغة الجديدة» وعن علم المناظرة الإسلامي على حد سواء، وهو البعد التخييلي الشعري. وهو استرجاع طبيعي بحسب اختلاف الاستراتيجيات الموجِّهة؛ ففي المناظرة والحجاج يحضر التشريع والمنطق ويغيب التخييل، والتخييل عندنا قسيمُ التداول في امتلاك أرض البلاغة. فهما يشتركان في ملكية أرض «المحتمل» كما بينا في مقال سابق بعنوان: البلاغة العامة والبلاغة المعممة[95].

93-نفسه. ص.13-14.

94-الصورة بمعانيها الثلاثة: photo، image، figure

95-أنظر مجلة: فكر ونقد. ع 25. الدار البيضاء 2002. ص55-81.

وقد برر أرسطو الاستعانة بالأسلوب بكون عامة الناس «يتأثرون بمشاعرهم أكْثرَ مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثرَ من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرءُ ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي (الخطابة. الكتاب 3. وانظر النقد الأدبي 1/ 104 (ترجمة م صبحي). والنقد الأدبي الحديث لغنيمي هلال). وقد شبه «الأسلوب المناسب للمحافل الشعبية... برسم المنظور، فكلما زاد عدد المشاهدين بعدت

وهكذا فإننا بقدر ما نعمل على استرجاع المكون التداولي إلى موطنه الأصلي (البلاغة) بقدر ما نُصرُّ على حفظ البعد الوجداني الانفعالي لهذا المكون، البعد الذي يتقاطع فيه مع الشعر، في هذا اللقاء بين العقل والوجدان توجد عاصمة البلاغة العامة التي تتقاطع فيها كل البلاغات الخاصة: الغرابة والمناسبة.

وبقدر ما تنجذب الخطابية المنطقية نحو الجدل بقدر تستحضرُ خطابية الحوار الآفاق السفسطائية مُؤمنةً بأن الوقاية لا تُغني دائما عن العلاج: لا يكفي أن تُعلم الناس كيف يتحاورون، بل لا بد أن تبين العقابَ الذي ينتظرهم حين يخطئون. هذا هو مجال الحوار، فما حدوده؟

3. نهاية العلم وبداية الرأي في بلاغة الحوار

من القضايا التي تعتبر بديهية في المجال التداولي الحجاجي التباسُ الأداة بالموضوع، فهذا أمر معروف عند المنظرين والمؤرخين على حد سواء. ويرجع ذلك، في الأساس، إلى التباس اللغة بالفكر، والتباس الخطاب بالقصد والفعل. ولا يتسع المقام هنا للخوض في إشكال «اللوغوس» اليوناني و«المنطق» العربي (من النطق)، فضلا عن «الكلام» ملفوظاً وعلماً للحجاج (علم الكلام)، كما لا يتسع للحديث عن تغير التراكيب حسب المقاصد، كما هو معلوم في مبحث «علم المعاني». فقد تجاوز المنظرون هذا الإشكال بوضع الحدود بين الحقول. ولذلك فقد كان يبدو لنا بديهيا، أثناء تأليفنا كتاب دائرة الحوار، أن القراء المستهدفين سيميزون تلقائيا بين التحليل البلاغي العلمي والموقف السياسي، غير أنني فوجئت بوجود من التبستْ عليه هذه الحدود، أو فرضت عليه الظروف

النقطة التي منها يكون النظر. ولهذا، فإن دقة التفاصيل لا داعي لها، وسيكون أثرها في الرسم كما في الخطبة رديئا. بيد أن الخطابة في ساحة القضاء تقتضي زيادة في التدقيق، خصوصا إذا كان المرء أمام قاضٍ واحد» (الخطابة. 227).

وبالنظر إلى المتن الخطابيِّ العربي، فلا ينبغي أن ننسى أن الخطابة العربية نشأت في محيط شعري، بل ربما جاز القول بأنها أحد الأفلاك المنفصلة عن الشعر المشدودة إليه بجاذبية أسلوبية قوية (انظر كتابنا: في بلاغة الخطاب الإقناعي، 97-100).

تجاهلَها تمثلا بالحكمة: «الباب اللي يجيك منو الريح سدو واستريح»، فوجب البيان[96].

صور التعرض لنقد الخطاب التداولي

صور التعرض لـ «نقد الخطاب الحجاجي» مُتعددةٌ يمكن إجمالها في منحيين كبيرين: التعرض من الداخل والتعرض من الخارج،:

أ - التعرض من الداخل (النقد الوجيه)

يعني التعرض من داخل منطق الخطاب، وهذا يكون من زاويتين: أولاهما: مناقشة المستندات النظرية، والثانية: مناقشة الإجراءات التطبيقية. وهذا هو الطريق القويم الذي لا اعتراض عليه، ومن أجل التفاهم فيه كانت الاجتهادات التنظيرية في مجال البلاغة والإقناع.

فينبغي، في نظري، أن يتوجه النقد إلى صريح دعوى الخطاب، فالذي يقدم دعوى علمية أو فرضية واضحة، أو يشغل آليات مَعروفةً في منطق الجدل والمناظرة والنظرية الحجاجية عامة يُناقش من خلال هذه النظرية. وذلك بدحضها أو التشكيك في ملاءمتها، أو بيان الخلل في تطبيقها، وما سوى ذلك هروب. ومن المؤسف أن هذا النوع من النقد غائب، ولذلك لن نُطيلَ الحديث فيه، إلى حين ظهوره. وهو غائب لأنه مُكلف: يتطلب وجود عتاد نظري، وتمرس طويل على تحليل الخطاب.

96- أشير إلى أن هيئة تحرير مجلة المناهل (ويشرف عليها أساتذة وزملاء أكن لهم الاحترام التام، الذي لا يتعارض مع ذكر هذا الحدث ولا يتأثر به) كانت قد وجدتْ حرجا في نشر الأمثلة المغربية الحية المُستثمَرة في بناء المبحث الأول من كتاب دائرة الحوار، فاعتذرت عن نشره مع التنويه بقيمته العلمية شفويا وكتابة. وذلك استنادا إلى كون المجلة حكومية. ثم جاءت الأحداث الأليمة (16 ماي) فصارت المحاكم وشاشة التلفزة الحكومية وشبه الحكومية منابرَ لتقويم خطورة ذلك الخطاب الذي حاولنا كشف ما ينطوي عليه من عنف قبل أن يخرج أصحابه من القول إلى الفعل.

ب ـ التعرض من الخارج (التعرض غير الوجيه)

وهو الذي يشغلنا هنا؛ لأنه يشكل عائقا علميا. ونقصد به التعرض باعتبارات من خارج منطق الخطاب، مع عدم إنكار ذلك المنطق، بل مع التنويه به أحيانا. وقد ظهر لنا منه صورتان، أو عاينا منه صورتين: التعرض بالمقاصد، والتعرض بالمثيل.

ب.1 . التعرض بالمقاصد

صورته:

يقول الخطيب : انتقدتَ منطقَ خِطابي لأنك تخالفني الرأي!

فيجيب البلاغي : رأيكَ خاصٌ، وقواعدُ البلاغة عامةٌ، فهي تتناول رأيكَ ورأيي ورأيَ غيرنا، على حد سواء.

التعرض بالمقاصد هو المستوى الأدنى من مستويات التعرض من الخارج، وأجْلى صُوره الهروب إلى المقاصد السياسية والمواقع الفئوية. كأن يقال ــ وهذا مثال حي ــ بأن فحص الخطاب الدائر حول خطة إدماج المرأة في التنمية، فيما سميته: «الإعنات والمغالطة، في مقام الأخذ والعطاء» ينطوي على رأي، أي على موقف فكري، ثم يَنـزلق الاعتراض في حمأة السجال من كلمة «ينطوي» إلى عبارة حاسمة، وهي: «ليس إلا..»! وشتان ما بين الصيغتين؛ ما بين وجود موقف مَطويٍ، أي «كامن» لا يطغى على «الحكم» (المفترضِ بناؤُه على قواعد عامة مسلمة)، وبين أن يحل الموقف محل «الحكم». فالقاضيَ نفسُه قد يتعرض للتنازع بين رأيه الشخصي وميله العاطفي، وبين القواعد العامة التي ارتضت المجموعة الاحتكام إليها، وكلفته بتطبيقها، فيختار الحكم بحسب القواعد المشتركة إخلاصا لصفته(حكم)، وقد يُضيع صفته بالميل مع هواه، فيخرج من دائرة القضاء، ويُعرض نفسَه للتقريع والتشنيع.

فعلى فرض صحة ادعاء وجود اعتبارات خارج النص (خارج ـ نصية) فالأمر لايعدو محاسبة النوايا، ولا يُعفي صاحبَ (أو أصحاب) الخطاب المختل حجاجيا من المآخذ المتعلقة ببناء الخطاب. فالتخاطُب الإيجابي في تدبير الاختلاف يقتضي حتماً الارتقاء إلى مستوى «المناظرة» لتلافي العنف القائم على التهافت

والسفسطة، وإلا فلا جدْوى من الحوار أصلا. والحَكَم في هذه اللعبة ككل لعبة، هو الخبير بها، العالمِ بقوانينها. وإذا ما لجأ أحد الأطراف إلى استعمال العنف وعُوقب من طرف الحكم فهو المسؤول عما أصابه.

وعموما، فليس من المعقول الدخول في جوهر الموقف المعبَّر عنه (أي موضوع الخلاف) مع مَن لا يحترم المبادئ الأولية لتخاطب العقلاء. لا بد من ضبط قواعد اللعبة أولا. والطغاةُ وحدَهم من يفضل اللعبَ بدون قواعد.

ومن الملائم جدا، ولغرض التقريب مع شيء من التسامح، تشبيهُ قضية الحوار بعملية التقاضي، بل الحوار تقاض فعْلا، كما نص أرسطو. فمن المعروف أن القَضاءَ الذي يحترم نفسه يرفض النظر في الدعوى التي تشوب مسطرتها عيوبٌ، فيُعتبر ذلك رفضا من حيث الشكل، أو لعيْب مسطري.

فاحترام «الشكل» شرط مقدم للنظر في المضمون. إن استعمال العنف الرمزي من تهافت وسفسطة (فضلا عن الكذب والإشاعة والقذف والتهديد الصريح والمبطن) يوازي استعمال العنف الجسدي والمعنوي في تكوين ملف الاتهام. فلا فرق بين أن يُكرهَ «الظنين» على تحمُّل تهمة ملفقة عن طريق التعذيب البدني والنفسي، وبين العنف المنطقي المُضلل / المعنت الهادف إلى الإكراه لإجبار الآخر المخالف على السكوت، أو قبول أفكار أو مواقف زائفة[97]. بل يمكن الاستئناس بما هو أكثر من ذلك بما نراه في المحاكمات الجنائية حيث يعترض المحامي والاتهام معا على الأسئلة الاستدراجية الهادفة إلى الإيقاع بأحد المتقاضين أو الشهود، وللقاضي أن يقبل الاعتراض وله أن يرفضه[98].

97- في ظروف تنسيق مادة هذا الكتاب، قبل دفعه إلى المطبعة، نشرتُ على النيت (هيسبريس) مقالا بعنوان: «مكافأة المرتشين تخريب للضمير». وهو ينتقد ربط الزيادة في أجور القضاة بشيوع الرشوة بينهم. وقد تميزت الردود القليلة التي أزعجها المقال باستعمال العنف: أحدها هددني بالاعتقال بتهمة إهانة هيئة منظمة، وآخر ادعى أني قد أكون متابعا في ملف البنك العقاري والسياحي، وثالث قال: إني معلم» ظانا أن صفة المعلم تقلل من شأني، ورابع قال إني «بغيل» بالتصغير.

98- قد يبادر غيرُ العارف بمجالات بلاغة الحجاج إلى الاعتراض على القياس بادعاء وجود فارق، ومثل هذا المعترض يُنصح بالرجوع إلى مؤلفات بيرلمان للاطلاع على المجالات المختلفة التي تخوض فيها البلاغة الجديدة.

إن موضوع النظر بالنسبة للبلاغي هو الخطاب في بنيته، في شروط الإقناع المطلوبة في كل حالة ضمن إطار عام من القيم الأخلاقية التي لا ينبغي أن يَتنكر لها من قَبِل أن يعيش في الإطار المدني بين بني البشر، من عدل وحرية وكرامة ...الخ، وتصريف ذلك هو مجال الرأي، وطريق الرأي الإقناع بالحوار ضمن قواعد اجتهد العقلاء في بلورتها واعتبارها مبادئ عامة منذ أقدم العصور. فما الذي يعنيه إسكات نقد الخطاب التداولي الحجاجي بشتى صور الكيد؟

قد نفهم، في سياق حضاري مُحدَّد بأشراطه، عدمَ الحاجة إلى مناقشة «خطاب توجيهي عام»؛ يتناول القيمَ المُجمعَ عليها في مناسبة عاطفية دينية أو وطنية (خطاب إمام مسجد، أو رئيس دولة)، أما حين يدخل الخطاب في مجال تدبير الممكن فإنه ينزع عن نفسه صفة القدسية، ويصبح عُرضة للأخذ والرد.

لقد اختلف المُسلمون في تنزيه الأنبياء والرسل وعصمتهم من الخطأ، مع إيمانهم باتصال هؤلاء االأنبياء والرسل بعالم الغيب، واليوم ــ يا للمفارقة المحزنة! ــ نتحرج من نشر مغالطات زعماء سياسيين وخطباء دين أكثرُهم استهوته السهولةُ وطال عليه أمد استسلام المخاطبين، ومداهنة المقربين[99].

ب. 2. التعرض بالمثيل

صورته:

يقول البلاغي (للخطيب) : في كلامك خلل حجاجي!

فيجيبه الخطيب :يوجد مثله عند غيري! لست الوحيدَ!

يمثل التعرض بالمثيل المهرب الثاني للمتهافتين والسفسطائيين والمغرضين. وهذا كثير في النقاشات السياسية، وفي ممارسة الحياة الاجتماعية: يجوِّزون ما لا يجوز بحجة ممارسة الآخرين. ويتصل بهذا الاعتراض بحثُ عن المثيل في خطاب المنتقد إن كان طرفا معروفا في القضية، أو الجهة التي هو محسوب عليها أيديولوجيا أو سياسيا.

99- عالجنا قضية الإطلاق والنسبية في الخطاب السياسي نظرا وتطبيقا في عدة مناسبات.

وقد تكون لهذا التعرض مشروعية نسبية حجاجية انطلاقا من مبدأ «القُدوة الحسنة» الدالة على الصدق، في حال ما إذا عمد المنتقدَ إلى مقارنة خطاب فئة مُعينة منعوتة بالعيب بخطاب فئة أخرى، ولكنه، أي الاعتراض بالمثيل، لا يقوم دليلا على مشروعية التهافت، بل هو اعتراف بشمول الإعاقة، والتعميم لا يُهوِّن المصابَ في هذه الحالة[100]. وقد يكون هذا المسلك بداية لتلافي العيوب من الطرفين.

غير أن الخطير في أحوال مثل هذه هو ميل الأطراف المتهافتة إلى التساكت والمسالمة كتابة ونشرا معتمديْن حُصول «الغفلة بين البايع والشاري»، ما دام الضحيةُ طرفاً ثالثا؛ هو عموم الجماهير التي ينظر إليها المتهافتون المغالطون كدهماء عاجزة عن النقد، حظها الانقياد. وقد يعدو الأمر ذلك إلى ما هو أشنع: الصمت الكيدي (الانتقام بوسائل أخرى).

100- من الأمثال الشائعة في المغرب: «الله إيجيب الغفلة بين البايع والشاري». وهي دعوى غير محمودة رغم أن بعض رجال الدين يجد لها سندا.

- ٧ -

الخطاب السياسي

الهوية والرسالة[101]

1ـ الهوية البلاغية للخطاب السياسي (تذكير).

يتسع الخطاب السياسي لأنواع عديدة من التناول الفلسفي والسوسيولوجي واللساني والأنتروبولوجي حسب الزاوية التي يَنظرُ منها الدارس: أي الثقافة التي تؤطره والأسئلة التي تقوده والمتن الذي يختاره.

غير أن الوظيفةَ الإقناعية لهذا الخطاب، وطبيعته الحجاجيةَ، تجعل المدخلَ الرئيسي إليه هو المدخلَ البلاغي، في حين تظل المداخل الأخرى المذكورة ثانوية أو جانبية. ومن المهم، في هذا الصدد، أن المدخل البلاغي لا يستبعد المداخل الأخرى، بل يوظفها ويستفيد منها في حدود ما يتطلبه إبرازُ الخصوصية الجوهرية للخطاب السياسي. فالخطابُ السياسيُّ ينتمي إذن إلى المجال البلاغي باعتباره خطابا ينشد التأثير والاستمالة قصد الانخراط أو الفعل. ولا بد أن نفتح قوساً هنا للتذكير بما نقصده بالبلاغة.

للبلاغة معنيان: فهي في معناها الأول ممارسةٌ نصية إنشائية (تخييل شعري وحجاج خطابي)، تقوم هذه الممارسة على الاحتمال وتنشد التأثير، وذلك حسب سُلَّم من ظهور القصد وخفائه واسع الدرجات. وفي معناها الثاني هي اللغةُ

101- هذا نص محاضرة ألقيت بدار الثقافة بمدينة المحمدية تحت إشراف فرع اتحاد الكتاب. ولذلك اقتضى الموقف التذكير أولا ببعض المعطيات الأولية التي وردت في المباحث السابقة. وتدخل هذه الدراسة في خانة تفريع وتوظيف بلاغة الحجاج، فالبحث تطبيقي أساسا.

الواصفة لهذه الممارسة الخطابية، أي علم النص. فنحن إذن نتحدث عن بلاغة عامة تمتد بين قطبين: قطب التخييل الشعري وقطب التداول الخطابي الحجاجي.

ومن المعروف تاريخيا أن القطب الثاني، أي القطب التداولي، هو الذي كان يحمل الاسم الإغريقي اللاتيني ريطوريكي أو ريطوريك (وفي الفرنسية والإنجليزية rhétorique وrhetoric) وهو اللفظ الذي تقابله الآن الكلمة العربية "بلاغة"[102]. وقد ترجمت الكلمة إلى العربية في مبدأ الأمر بصورتها الصوتية: الريطوريقا، كما ترجمت بـفن الخطابة. وظل تقسيم أرسطو لهذا القطب إلى ثلاثة أجناس خطابية مهيمنا:

- خطابة تقييمية محفلية تهتم بالتزيين والتقبيح، تُـلقَى في الأماكن العامة، وهي أقربُ إلى المجال التخييلي، وتُعتبرُ أدبية لاعتمادها على الصور الأسلوبية،
- وخطابة قضائية (أو مشاجرية حسب ترجمة القدماء) تجري في المحاكم، ناظرة في الوقائع الماضية من وجهة العدل والظلم، وتعتمد الأقيسة الخطابية أساسا،
- وخطابة استشارية سياسية تنظر في القضايا المستقبلية من زاوية النفع والضرر، وتعتمد المثل بوجه أساسي.

ويمثل الخطابُ السياسيُّ مركزَ بلاغة الحجاج، وذلك باعتباره الفضاءَ اللغويَّ الذي تُـنْـشرُ فيه وتُـبْسطُ كلُّ قضايا تدبير الحياة المدنية، أي كل ما يتعلق بتنظيم حياة إنسانية جماعية، من جهة، ولكون الجنسين الآخرين اللذين يقتسمان معه الموضوع (أي الخطاب التقييمي المحفلي والخطاب القضائي) يمتدان إما نحو التخييل الشعري أو البرهنة والاستدلال.

بناء على ما تقدم، كان من الطبيعي أن تكون بلاغة الخطاب الاستشاري أي السياسي هي بلاغة الحوار، أي العلم الذي يتناول مكونات الحوار وأخلاقياته وآليات اشتغاله. وهي تنتمي إلى النظرية العامة للإقناع التي هي فرع من البلاغة العامة، (أو البلاغة، دون زيادة).

102- انظر تدقيق المسألة في كتابنا البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. ط2.

ويجري الحوار السياسي داخل دائرة الممكن كما وصفناها في كتابنا "دائرة الحوار ومزالق العنف"[103].

يجري الحوار داخل دائرة الممكن، ولكنه قد ينزلق خارج الدائرة حين يصادر أحد الطرفين حق الآخر في المعرفة أو النظر أو الاعتبار (حيث يستغفله أو يستخف به). وقد يتم الانزلاق من مقام إلى مقام فيختل الحوار أو يضطرب، كما يحدث حين القفز من المشاورة إلى المنازعة، أو من المناظرة إلى الاستهواء. وقد بينا هذه القضايا في مناسبات سابقة.

2. موضوع الحوار: في ماذا نتحاور؟

موضوع الحوار السياسي هو تحويل القيم من قيم مطلقة إلى ممارسة نسبية مقبولة وذلك بترتيبها في سلم الترجيح حسب المنافع العامة والخاصة، كما بينا في المبحث الثاني من هذا الفصل، حيث أوردنا محاورة لأفلاطون في الموضوع[104].

فحيث يمكن إجراء قياس مادي موضوعي (في المساحات والأعداد والمكاييل) يكون حسم النزاع يسيرا، وإنما يتعقد الأمر حين تقاس الأشياء قيميا بالنظر إلى مواقع المتحاورين ومصالحهم، أي في المجال المدني. فحين يوضع مفهوم العدل والحرية مثلا (وقد لا ينازع أحد فيهما مبدئيا) على مائدة المفاوضات بين أطراف متعارِضة المصالح، مثل العمال وأرباب العمل يصبحان نسبيين: ما يراه العاملُ عدلاً يراهُ ربُّ العمل مَسًّا بحريته في المبادرة والكسب، وتطاولا على ملكه الخاص، والعكس صحيح. وتلافيا للمواجهة العنيفة التي تضيع فيها

103- إسعافا لمن لم يطلع عليه نقتطف الفقرة التالية: «دائرة الحوار هي... دائرةُ الممكن، دائرة ما يتطلب إنجازه أخذ "الآخر" بعين الاعتبار. متعاونا (مشاورات) أو منازعا (مناظرات)، أو منقادا دون روية (استهواء). وخارج هذه الدائرة توجد دائرة المطلق (أو المطلقات). لكل صيغة من صيغ الحوار، أو جنس من أجناسه امتداد: ففي امتداد التشاور توجد المعرفة في بعدها التخزيني، أي نشاط الذاكرة بشكل أساسي، وفي امتداد المناظرة يوجد التأمل والاعتبار والمعرفة المنطقية والبرهانية، أي نشاط العقل بصفة أساسية. وفي امتداد الاستهواء يوجد العنف السيكولوجي والرمزي، أي نشاط الوجدان بشكل أساسي".

104- أوطفرون. ضمن: محاورات أفلاطون. ص 31-30.

مصالح الطرفين يبدأ الحوار بين الطرفين يعقبه تنازل متبادل. وتنتهي المفاوضات بعدل نسبي وحرية مقيدة، أي بعدل وحرية مرتبطين بالظروف المحيطة، وحالما تتغير الظروف يُستأنف الحوار لتعديل الاتفاق، وهكذا. وهنا يستعين المتحاوران بالأعراف والدساتير وتجارب الأمم.

وبهذه الطبيعة النسبية يبتعد الخطاب السياسي خاصة، والخطاب البلاغي عامة، عن خطابات تحتكم إلى مقاييس عقلية رياضية أو مخبرية تجريبية ، كما يبتعد عن الخطاب الديني الذي يطلب التلاؤم مع المتعالي، مع الوحي. وهو، أي الخطاب السياسي، يقترب من الخطاب الفلسفي، ويتقاطع مع الخطاب الشعري في منطقة واسعة ولكنه يختلف عنهما من جهات أخرى كما سنعرج على ذلك في نهاية هذا المبحث، بعد أن نقف على بعض الإشكاليات التي يطرحها الخطاب الديني في السياق الوطني والقومي الراهن، نعرض لذلك في سياق الحديث عن الهوية.

3. وظيفة الخطاب السياسي

يقول أحد الدارسين المحدثين: «إن الرهان الأسمى للخطاب السياسي ليس، كما يمكن أن يُعتقد، هو حملَ رسالة أو نشرَ أيديولوجية، أو التحريكَ من أجل فعل، بل هو تأكيد هوية خطيب من أجل تسهيل انخراط مستمَع»[105].

وهذا رأي قابل للتصديق إذا فهمناه على أساس المفاضلة بين عدة وظائف ينجزها الخطاب السياسي في سياقات مختلفة، لا على أساس إلغاء هذه الوظيفة أو تلك. ومعنى ذلك أن الخطاب السياسي يحمل رسالة فعلا، وينشر أيديولوجيا مهما كانت صراحتُها، ويحرك نحو الفعل مباشرة أو تمهيدا، ولكنه يهتم أكثر من ذلك، أو بالأحرى من خلال ذلك، ببناء هُويةِ خطيب أو مجموعة سياسية. ذلك أن الرسالة والأيديولوجيا حين تترجمان واقعيا تعنيان المضامين والبرامج،

105- - Damon Mayaffere. Dire son identité. Etude du discours politique français aux XX siècle. Cahier de la Méditerrané. Vol 66. L'autre et l'image de soi. WWW.cdlm.revues.org/document.htm?id=119

والمضامين والبرامج جزء من الهوية، كما أن الفعل هو المصب النهائي لكل ذلك. فالتفريق بين الرسالة والهوية اجتهاد ينطوي على تسامح من أجل بيان أهمية الهوية في الخطاب السياسي الحديث).

ولمزيد من توضيح مفهوم الهوية في هذا الخطاب، نقول بأن الغرض من الخطاب السياسي هو خلق فضاء لساني يستقطب مجموعة ذات تصور مشترك (أو يخلق ذلك التصور) من أجل الفعل في الحياة الجماعية، فضاء يتعارف فيه الأعضاء ويتماسكون من خلاله (أي أن كل من يتكلم ذلك الخطاب يكشف عن ذلك الانتماء ويهيئ انتماء الآخرين). فالكيان السياسي لغة وكلام، أي خطاب، قبل أن يكون أشخاصا ومقرات ومنابر.

ولا شك أن الاهتمام بالهوية راجع إلى أن الخطاب السياسي الحديث لا يمكن أن يكون إلا «متحيزا إلى فئة»، أي خطابا حزبيا. (فالذين يكفرونِ الأحزاب من السلفيين المعاصرين يعرفون ما يفعلون، إنهم يرفضون عصرا يحكم الناس، في حين أن الحكم لله).

واعتبارا لهذا الطابع «التحيزي (من الانتماء لحيز معين) للعصر الحديث فإن أي خطاب يخوض في تدبير الشأن العام متحدثا من خارج المواقع الحزبية وجهات النظر الخاصة في سياق تاريخي محدد لا يعدو أن يكون خطابا توجيهيا أو وعظيا متعاليا. ولذلك يلزمُه الامتناعُ عن الخوض في القضايا التطبيقية، أي في السياسة، بحيث لا يتجاوز تَحليةَ القيم المطلقة إيجابا أو سلبا: يمدح الخير ويذم الشر، ويترك للسياسيين تحديد المقادير والكيفيات. هذا مثلا هو المقدار المتاح للخطاب الديني في الجُمَع والأعياد وغيرها من المناسبات، إذ البديل لذلك (أي الخوض في الخلافيات) هَو أن يؤسس كل حزب مسجده، أو يُصليَ البعضُ في المسجد والبعض في العراء، كما وقع في غزة أخيرا، أو تُتبادل الكلمات (ثم اللكمات) بين الإمام والمصلين، وقد يكون من بينهم من يفوقه علما ويختلف معه رأيا. وفي هذا السياق يُفسَّر معنى كون الخطابات الملكية في البرلمان لا تناقش،

فهي لا تناقش لأن المفروض أن تكون توجيهية غير متحزبة[106]، وتكون قد اجتازت مرحلة التنازع بالمشاورة المسبقة. ولا نلتفت إلى الأنظمة ما قبل الحزبية فحسابها مع التاريخ.

ومهما يكن هناك من فرق بين مقدَّس ومقدِّس؛ مقدس منزه عن الشريك والمشير؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومقدس يستعين بالمستشارين والخبراء المعرضين للخطأ والغش أحيانا فإني أتساءل مثل ما قد تتساءلون: إلى أي حد يمكن للخطاب السياسي ألا يتموقع، أي أن يكون بدون لون؟! (ونسمع في الواقع المغربي أحيانا خطابا سياسيا سرياليا: حين يقول زعماء أحزاب إنهم سيحكمون ليطبقوا سياسة صاحب الجلالة، إنه اعتراف صريح بانعدام الهوية السياسية، والأولى بمن يقول مثل هذا الكلام أن يعلن إفلاسَه ويكف عن الضحك على الناس).

ونظرا لأن الهويات الخطابية الكبرى في العصر الحديث آخذة في التبلور نحو ثنائيات: "يمين" و"يسار"، مع تنويعات خطابية جانبية في أقصي اليمين واليسار وفي الوسط أحيانا، فإن تشتت الخارطة المغربية إلى ثلاثة وثلاثين حزبا يكشف عما يمكن أن يكون هناك من أزمة هوية. إذ لا تعدو هوية بعض الأحزاب رمزها الانتخابي، ثم تستعير ما سوى ذلك (أو تسرقه) من الأحزاب الأخرى الأكثر تجذرا في العمل السياسي، حتى الأسماء متناسخة. هذه حال الكثير من الأحزاب التي سبق وجودُها ماهيتَها. وهذه حالةٌ شاذةٌ، الزمنُ كفيلٌ بمعالجتها. ومع ذلك، لا تفهم هذه (الأحزاب) سبب فشلها في إنتاج صحافة مقروءَة تتحدث باسمها أو تتعاطف معها، ولا تفهم لماذا لا تستطيع أن تكون صوتا معارضا متميزا.

والذي يثير الاهتمام أكثر في مجال الحديث عن الخطاب السياسي باعتباره فضاء للهوية هو طغيان العناصر الذاتية (الوجدانية والدينية والأسطورية...) على العناصر الواقعية (البرامج والمقترحات). حيث يكون المهم هو تنمية الـ"نحن"

106- لا تنسَ أن ممارسة السياسة لا تتم من خارج الأحزاب السياسية. كان هذا الخطاب ممكنا بالإشارة والتحليل العلمي، ثم أمكن طرحه، بعد ذلك، في إطار الربيع العربي تحت شعار الملكية البرلمانية. لا يمكن مراجعة السياسة خارج التدافع الحزبي إلا في مستوى التوجيه والتنوير الذي يترك للمخاطبين حرية التفاعل معه. (تعليق لاحق).

ضد "الآخر". يقع هذا في المنعرجات التاريخية الكبرى حيث تقوم دعوى سياسية على مجموع شعارات غائية من قبيل: الثورة، والإنقاذ، والتصحيح... الخ، في مقابل الإفلاس والسقوط وغياب الأيديولوجية والتغريب والانحراف عن الطريق القويم..الخ. وأنا أحيل بذلك على بعض الألفاظ التي أنتجها الخطاب اليساري الماركسي من أواخر الستينيات وطوال السبعينيات، وينتجها الخطابُ الديني الآن. إنه خطابٌ عمادُه (+الذات ، ـــ الآخر")، من ذلك مثلا أننا سمعنا في الحملة الانتخابية الأخيرة (2007) وما أعقبَها من نتائج غير مُرضية بالنسبة للبعض عبارات من قبيل: "كنا في مقابل تجار المال"، "مَن وَجد أحسنَ منا، فليُصوتْ عليه"، "نحن نقترح أناسا صالحين وهم يقترحون الفاسدين المفسدين" [بن كيران]، وما يشبه ذلك من عبارات تزكية الذات وتأثيم الآخر على الإطلاق، ودون تمييز[107]. (فالعبارة الأولى تجعل الآخرين بدون استثناء تجارَ انتخابات فاسدين. والثانية تنطوي على تحدٍّ، أو تعجيز: ليس أحد أحسنَ منا، وهكذا. وهذا مستوى من الخطاب الساذَج الذي يَنتج ويُنتج، مع الأسف، في البيئة الفقيرة مادةً وفكراً، وهذا مرجع نعتِه بَالشعبوية).

هذا في الوقت الذي لا تجد، لا في خطابنا نحنُ ماركسيي السبعينيات، ولا في خطاب إسلاميي هذا الزمن أجوبةً دقيقةً عن أسئلة العصر السياسية والاقتصادية...الخ. ولذلك كثيرا ما نسمع محاوري زعماء الحركات الإسلامية من صحافيين وخصوم يتهمونهم بغياب برنامج سياسي دقيق واقعي يتعاطى مع الإشكاليات الحية. ومن جملة الأسئلة التي تُطرح في هذا السياق قضيةُ تطبيق الحدود الشرعية. فقد سُجِّل مرارا التباسُ الخطاب السياسي الإسلامي حيثُ يُقدِّم هوياتٍ غامضة سياسيا ملتبسة بالخطاب الدعوي التبشيري والوعظي[108].

---

107 ـ سمعتُ أحد شيوخ السلفية الجهادية المفرج عنهم أخيرا (2012) يحمد الله على أن الشؤون السياسية المغربية «آلتْ إلى أيـــد متوضئة». الوضوء عند هذه العينة من المتطرفين مرتبط بالتغوط والنجاسة، وهي الصفة الّتي يتركونها للأيدِ الأخرى. كناية تهدف إلى ترسيخ مقابلة بين طهارة الذات والعشيرة ونجاسة الآخرين؛ آثمين وكفارا. (تعليق لاحق).

108 ـ بعد الانتخابات الأخيرة (25/11/2012) التي أعطت الأسبقية في تشكيل الحكومة لحزب العدالة والتنمية، وبعد الخطاب الذي بادر به حزب النهضة في تونس الميال إلى ترك أمور الشريعة للتدافع الاجتماعي، ظهرت تصريحاتٌ تفرِّق بين العمل الحكومي والدعوي، بين

إذ يتم تأخير البت في القضايا العملية والتطبيقية إلى حين الإمساك بمقاليد الأمور، إذ يجعلون تطبيق حد قطع يد السارق مثلا موقوفا لحين تحقق المجتمع الإسلامي الحق. وقِسْ على ذلك حُكمَ الرق! فهو لم يُحرَّم، لحَدِّ الآن، من داخل الخطاب الفقهي الإسلامي، بل فُرِض من الخارج، من داخل منظومة حقوق الإنسان التي مازال المتحزبون الإسلاميون يقاومون زحفها.

ولسدٍّ باب المهاترة لا بد من توضيح المقصود من "التلاؤم مع الوحي" الذي يصادم طبيعة الخطاب السياسي. فمن الطبيعي أن يأخذ المسلم ثقافته الدينية بعين الاعتبار، كما يفعل أي متدين بدين آخر عن وعي أو غير وعي، ومن الطبيعي أن يسعى لعدم مناقضة مقاصدها العليا ومبادئها الكبرى، ويبذل قصارى جهده (في الإطار الوطني والكوني) لإقناع محاوريه (شركائه) من ذوي المرجعيات الأخرى الدينية والدنيوية (العلمانية) إقناعا عقليا وواقعيا بجدوى مُضمراته دون أن يكون بحاجة إلى التلويح بالنصوص وكشف المرجعيات. إن هذا المسعى مشروع ومحبذ، والإنسانية في حاجة إليه. غير أنه تحدٍّ كبير يتجاوز إمكانيات الحركات الإسلامية لأسباب ذاتية واستراتيجية (ضعف أُطرها والمنتمين إليها من الناحية الفلسفية والمعرفية عامة، وكذا استعجال النتائج والخوف من الذوبان)[109]. أما التلاؤم الذي يُصادم روح الخطاب السياسي فهو ما يعنيه السلفيون المعاصرون حين يرفضون استعمال الرأي والتأويل في تنزيل الأحكام مشهرين قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ، وَلَا مُؤْمِنَةٍ، إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا، أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا»[110]. فهم يسدون باب الحوار حول ما يعتبرونه صريحَ الشرع، ثم يتجاوزون ذلك إلى تكفير الفرق الإسلامية التي تخالفهم في فهم النصوص الدينية.

ما سيقوم به أعضاء الحكومة من حزب العدالة والتنمية، وبين ما سيوكل لذراعه الدعوي التوحيد والإصلاح، وما سيتم تفويته لبعض الحلفاء المرحليين (السلفيون الجهاديون والمرجئون)، الذين سيستعملون فزاعةً في وجه النظام حتى لا يغير تحالفه. (تعليق لاحق).

109 - وأضيف إلى ذلك تسرُّب الكثير من «المُدَبْلَمِينَ» الفاشلين إلى صفوفها. (لاحق).

110 - الأحزاب 36.

والفرق بين الخطابين في مجال الممارسة هو الفرق بين من يقول (ولو من باب التقية): نحن حزب سياسي، أو حزب مدني بمرجعية إسلامية، ولا نعتزم تطبيق الشريعة الآن لعدم توفر شروطها (ولكننا لا نشطب شيئا منها)، وبين من يقول انطلاقا من الآية السابقة: لا اجتهاد مع النص، لا بد من تطبيق النصوص على وجهها حتى ولو لم تظهر الحكمة من أحكامها، فالله أعلم بمصلحة خلقه: المصلحة ستظهر بعد التطبيق لا قبله، والجزاء سيكون يوم القيامة، وليس الآن. ولذلك لا مجال لإفساد النصوص باجتهاد عقول قاصرة.

إن غاية الخطيب من هذا الخطاب الهوياتي الذي يعطي الأسبقية للعناصر الذاتية والأسطورية هو إقامة شخصية أخلاقية ethos وطمأنة المستَمع بالانتماء إلى مجموعة من الأفكار والكلمات: ديموقراطي، ليبرالي، إسلامي. ولذلك يقال بأن الهوية السياسية هي على الدوام هوية خطابية ناشئة عن تصور ذاتي (مبني): ما يتصوره الأفراد والجماعات عن أنفسهم، حين ينسجون قصصا يروونها، أو خرافات ورُؤًى يتداولونها، يحفظون بها البقاء إلى حين، (والمهدوية أحسن مثال في هذا الصدد). يكون هذا الأمر سهلا بالنسبة للأحزاب العتيدة فعلا، أو تلك التي استطاعت (أو حكمت لها الظروف) بأن تبقى الوريث الوحيد الذي ظل في بيت العائلة الكبيرة بعد مغادرة جميع الورثة، فيظل يقتات من الأمجاد القديمة حتى يأتي عليها: "يأكل من البرذعة"، كما يقال. وفي الحركات المعارضة كثيراً ما يكون العنصر الخطابي الموحد لهوية المجموعة عنصرا مأساويا: تعميق الشعور بالظلم، وهو عنصر كان دائما أساسيا في مقاومة المستبدين: وهو العنصر الموحد في خطاب السلفيين حين يتحدثون عن "الطاغوت" والمستضعفين، كما كان، طوالَ التاريخ، في مركز الهوية الشيعية. ويجتهد بعض نشطاء الأمازيغية الآن في تجميع حججه دون نجاح كبير.

نعود، بعد هذه الوقفة المطولة نسبيا عند العلاقة بين الخطاب السياسي والديني، إلى ما وعدنا به سابقا من بيان وجه اختلاف الخطاب الحواري السياسي عن كل من الخطاب الفلسفي والخطاب الشعري. فإذا جاز القول بأن الخطاب الفلسفي هو أيضا خطاب حواري، فإن الفرق بين حواريته وحوارية الخطاب السياسي، والإقناعي عامة، يكمن في أن الخطاب السياسي يتداول في "قضايا"

propositions، في حين أن الخطاب الفلسفي يفحص "أطروحات" thèses. فالفيلسوف يحاورُ نفسَه أولا عارضاً ومعترضاً ساعيا للملاءمة بين المعطيات في إطار نظام العقل. أما الخطيب، فإن همه كُله ينصبُّ على ملاءمة أدواته الحجاجية للمقام وأحوال المخاطبين (المستمَع auditoire). على أن المسافة قد تضاءلت حديثا بين الخطاب الفلسفي والخطاب البلاغي (وفي مركزه الخطاب السياسي) نتيجة اهتمام الفلاسفة بقضايا اللغة وأساليبها في علاقتها بالتكوينات الذهنية الشعورية واللاشعورية، من جهة، وانفتاح البلاغة على المجالات المعرفية المجاورة وتناولها لقضايا الحياة المختلفة حتى صارتْ لغةً مشتركةً بين المعارف المختلفة، من جهة أخرى.

أما الخطاب الشعري، فبرغم التقائه مع الخطاب الحواري السياسي في كونهما خطابين بلاغيين يقومان على الاحتمال ويرصدان تواصلا مؤثراً، فإنهما يختلفان في "زاوية الاحتمال" و"قصدية التأثير". فالخطاب السياسي يدعي الصدق (الواقعية) ويحتمل الكذب (كما سبق في تعريف البلاغة)، والخطاب الشعري يدعي الكذب (التخييل) ويحتمل الصدق. ولا شك أن القصدية تتضاءل في الخطاب الشعري حتى لتكاد تضمحل عند قطبه الأقصى وتتعالى في الخطاب السياسي لتكون دعوة صريحة إلى الفعل: التهييج، ثم يتداخل الخطابان في منطقة واسعة؛ فيخطب الشاعر ويشعر الخطيب. وهذه قضية انتبه إليها البلاغيون العرب ونقاد الشعر مبكرا.

أما بعد

فإن صعوبة الحديث عن الخطاب السياسي تكمن في التباس النظر العلمي فيه بالممارسة العملية، فأنت حين تتحدث عن الخطاب لا تلبث أن تجد نفسك تتحدث عن وقائع وكيانات حية وكأنك تتخذ مواقف منها تُدينها أو تُنوِّه بها، وهذا ما لا يستسيغه المتلقُّون لأنه يمس مصالح عملية آنية. وقد ذكرتُ سابقا ما أثاره مقالي الذي اقترحتُ فيه خطاطة دائرة الحوار من التباس، حاولت تجاوزه في المبحث السابق.

- VI -

سؤال المصطلح البلاغي والنسق المعرفي

نتناول هنا إشكالية إنتاج المصطلح في مجال الدرس الأدبي / البلاغي؛ نتناوله من زاويتين: أولاهما ضرورة ارتباط المصطلح بالنسق المعرفي: ببنية التخصص العلمي الذي ينتمي إليه، ويُكوِّن لبنة من لبناته، والثانية العوائق القائمة دون إنتاج مصطلحات أدبية / بلاغية دقيقة، ومستقلة عن المجالات المعرفية المجاورة. وهذه أسئلة واجهناها في عدة مستويات ومناسبات، والتفاهم بشأنها حاسم في كشف المزيفين توجيه النقاش توجيها علميا نافعا ومنتجا.

1- المصطلح والنسق المعرفي[111]

يعتمد تقدم البحث في مجال الدراسات الأدبية / البلاغية، كما هو الشأن في ميادين أخرى تبدو بعيدة عنه؛ مثل البيولوجيا والكيمياء، على إجراءين متكاملين متفاعلين:

أولهما، العملُ الميداني الاستكشافي حيث يتم تعقب الوقائع، ورصدها، ومعالجتها مقوليا من حيث المادة والكثافة والفضاء (في الزمن والمكان) والعلائق وما إلى ذلك مما يساعد على الوصف الدقيق للطبائع والوظائف،

والإجراء الثاني، هو وضع الأسماء وبناء الأنساق.

111 . ألقي الجزء الأول من هذا البحث (1) في مكتبة القاهرة سنة 1997 ضمن أعمال ندوة المصطلح الأدبي، وقُدم الجزء الثاني (2) في محاضرة في مكتب التعريب بالرباط في تاريخ لاحق.

وفي حوار بين الأنساق الطامحة إلى الانغلاق والتناظر، وبين الوقائع المتجسدة التي لا يتم إدراك كل العلاقات الخفية التي تربط بينها تُثارُ الأسئلةُ تلوَ الأسئلة: فالنسقُ يُصرُّ على الاكتمال، والوقائع تتشعب وتتجدد فتظل مستعصيةَ على الانصياع.

يمكن أن نفكر هنا في المجهود الجبار الذي بذله الخليلُ بنُ أحمد في كشف نسق العروض العربي والعوالم التي استحضرها لبناء ذلك العالم:

- المدرك بالعين الملموس باليد
- المدرك بالبصر والبصيرة غير الملموس باليد، أو البعيد المنال على أقل تقدير.

إن ضبط الأسماء والأنساق يفتح مجالات أخرى للبحث: فعن طريقه نتحرر من الحضور العيني للوقائع، ونكتشف الخانات التي تتطلب مزيدا من التنقيب؛ يمكن هنا التفكير في المتحقق والمهمل من تقليبات المعجم عند الخليل نفسه.

إن الوضع الراهن للبحث الأدبي في مجال المصطلح ما زال في حاجة إلى استلهام المفاهيم التي اعتمدها الباحثون في مجال علم الأحياء، تلك الجهود التي أدت إلى تنظيم الواقع ضمن منظومات مصطلحية سَهّلت على الباحثين التقدم إلى الأمام للمعالجة والتنظير. فهذه العلوم هي نفسها التي ألهمت اللسانيات لدعم علم جديد هو علم المصطلحية terminologie. كما أنتجت هذه الأبحاث مصطلحين، ما أحوجنا إلى الاهتمام بهما، هما : النسقيات (أو النسقية) systématique، والمنظومة (الاسمية) nomenclature . وإذا كانت المنظومة تعني مجموعة المصطلحات الخاصة بعلم معين، فإن النسقية تعتني أيضا بالعلاقة بين المفاهيم والأسباب التي أدت إلى تآلفها أو اختلافها. يقول عالم الحيوان E. Mayr: «النسقيات هي دراسة تنوع الكائنات الحية وبيان أسباب هذا التنوع، أي التحولات التي قادت إليها»[112].

• • •

112. انظر Univesalis: Systématique

يرتبط تفكيرنا في المصطلح الأدبي / البلاغي، كما ترتبط انشغالاتنا الراهنة به، بِ **بُعدين متفاعلين تفاعل تجاذب حينا وتنابذ حينا آخر**: البعد التراثي العربي، وهو غني بشكل يجعل تجاهله مجافيا لروح البحث المنهاج ـ بقطع النظر عن الاعتبارات الأخرى العائدة إلى الهوية والانتماء ـ والبعد الحديث الذي يُنجَز في واقعنا الراهن خارجَ اللغة العربية، ونسعى لامتلاكه واستثماره في بيئتنا الحضارية (تبييئ المعرفة). وقد عانيت شخصيا من هذه الإشكالية من الزاويتين: محاولة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة بنائية، والاجتهاد في ترجمة نصوص تأسيسية من البلاغة الغربية.

إن العمل ضمن هذه الرؤية، وفي إطار هذه الإشكالية الحضارية، يقتضي، في مرحلة أولى، إنجاز منظومات مصطلحية تجسد الأنساق المفهومية في الطرفين (العربي الحديث)، وصولا في مرحلة ثانية إلى المنظومة الموحدة التي تمثل قراءتنا في عصرنا الراهن، والتي يمكن أن تساعدنا على الانخراط في المسار العالمي الحديث، وهذا الطموح مشروع مبدئيا، ويسيرٌ عمليا في مجال الأدب والفن. إن وضع منظومات مصطلحية نسقية ولو كهيكل غير مكتمل هو الشرط الضروري لقيام حوار بناء بين ما أنجز في اللغة العربية وبين منجزات الدرس الأدبي الحديث. ومن الأكيد أن ليس في الإمكان تكوين هذا النسق بعيدا عن أسئلة العصر ومنجزاته العلمية. وذلك أن اللاحق من الجهود العلمية، محليا كان أو كونيا، هو الذي يساعد في كشف المعاناة الإنسانية في بناء النماذج والأنساق، وهو الذي يكشف الإكراهات والعوائق التي عانى منها البحث العلمي في مسيرته نحو تحقيق شروطه الذاتية وإجرائيته المنهاجية. وليس سرا أننا حين نتحدث عن المنظومة المصطلحية، نتحدث في الوقت نفسه عن التقطيع المفهومي للوقائع أي عن نسق المفاهيم . غير أن الحديث عن المفاهيم يقتضي قدرا كبيرا من اختزال الجهد الوصفي التجريبي أو البرهاني المستعمل للتعرف على المفهوم ونسقه. وهذه هي الخدمة التي يقدمها المصطلح.

النسق المصطلحي عبارة عن خطاطة قابلة للتعديل من عصر لعصر ومن حضارة لأخرى حسب التقطيع المتصور أو المرتضى للوقائع . لذلك نرى الموضوع جديراً بالمعالجة من الزوايا التالية:

• مدخل نظري يبين ارتباط المصطلح بالنسق ارتباطَ وجود وعدم. حيث تُكوِّن المصطلحاتُ شبكةً يوصِّلُ بعض أجزائها إلى بعض أفقيا وعموديا. وبذلك يُحدِّد بعضُها بعضا، وهذا ما يميز «المصطلحية» عن «ثبتً الأسماء»، بل عن اللغة الطبيعية. ويشار هنا إلى غياب هذا المفهوم عن كثير مما ينجز حاليا في المصطلحية العربية في مجال الدرس الأدبي.

• ضرورة ضبط الأنساق لفهم تقطيع الوقائع:

- حسب الأزمنة (البديع عند ابن المعتز والبديع عند ابن أبي الإصبع مثلا)،
- وحسب الحضارات (انظر مثلا المقابلات الفرنسية التي تغطي المادة التي تغطيها كلمتا: كناية ومجاز مرسل في البلاغة العربية. وقد عرضنا لهذه القضية في حاشية ترجمتنا لـ البلاغة والأسلوبية[113]. وفي إطار تطور المشاريع العلمية (اللفظ عند الجرجاني مثلا من الأسرار إلى الدلائل، والعقل (المعقول) في أول كتاب الأسرار وفي آخره مثلا).

• تشعب المنظومة المصطلحية وتراكب مستوياتها بالنظر إلى تعدد المكونات والوظائف. وكثيرا ما يبدو الأمر عند غياب الوعي بالمكونات وآليات الاشتغال وكأنه مجرد تضخم مصطلحي. (انظر مثلا أسس إنتاج مصطلح التوازن الصوتي في كتابنا الموازنات الصوتية. القسم الأول بعنوان «المفهوم والمصطلح»).

• تقاطع الأنساق المعرفية وتداخل منظوماتها المصطلحية (نشير هنا إلى تقاطع البلاغة(بمفهومها الواسع) مع النحو والمنطق، واتصال موضوعها بالموسيقى والتصوير...). كثيرا ما يؤدي (التداخل المذكور) إلى تشويش الهوية الأدبية بنية ووظيفة. كما يشوشها دخول النسق المذهبي والأيديولوجي. ويمكن التعبير عن مجمل الأفكار الداخلة في هذا الموضوع بـ: الإغراءات والإكراهات. فالنحو واللسانيات والمنطق تغري الأدب بما يبدو في مباحثها من الدقة فيستعير مصطلحاتها ثم يهيمن البحث في الأصل على البحث في الفرع ، والمذاهب

---

113 ـ البلاغة والأسلوبية. ط2. ص88 الحاشية 76. وسياق الكلام.

والإيديولوجيات تفرض فهمها للموضوع (مفهوم الكلام مثلا عند المعتزلة والأشاعرة وأثره في البلاغة العربية) أو للوظيفة (الالتزام مثلا في الواقعية الاشتراكية). فيسافر المصطلح ومعه مضمون غريب كلا أو بعضا عن الموضوع المستقبل. إلى غير ذلك من الإشكاليات التي يطرحها حضور النسق وغيابه.

الواقع الراهن

إن امتلاك «النسق المعرفي» واستحضاره شرطٌ لوضع شبكة من المصطلحات تنير جوانب الموضوع وتسمح بإثارة المزيد من الأسئلة، لهذا السبب العلمي نلح على ضرورة الانطلاق منه قبل الخوض في أي عملية تهم المصطلح. وهناك سبب آخر يدعو إلى الإلحاح وإثارة الانتباه، وهو ما نلاحظه اليوم من توجه إلى فصل المصطلح عن نسقه، والإصرار على العودة به، بدل ذلك، إلى أصوله اللغوية. فنحن، وإن كنا لا ننكرُ ما يمكن تحصيله من فائدة بالعودة إلى الأصول اللغوية، مُقتنعون بأن فهم المصطلح لا يمكن أن يتم إلا في إطار النسق المعرفي الذي يشتغل فيه. بل قد تساعدُ الأنساق الحافةُ، أو المقتفاةُ (أو المحاكاة) في إنارة سبيله أكثرَ مما يفيده الرجوع إلى الأصل اللغوي. وقد تجلت كلُّ العيوبِ الممكنِ توقُّعها من تغييب النسق في أبحاث عديدة أنجزها الأستاذ الشاهد البوشيخي ومن اقتفى طريقه من الطلبة الباحثين[114].

114 ـ من كتبه مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين. ومصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين. كما أنجزت تحت إشرافه رسائل جامعية كثيرة تسلك نفس الطريق الانتقائي. وقد أدى هذا المسلك إلى إهمال المصطلحات الداخلة في جذع شجرة نسق البيان والتبيين مثل: المقام والخطابة، وإثبات مصطلحات ليست لها قوة إجرائية فيه. (مثل: «المرثية» (ص 172)، و«الشوارد»، من الأشعار (ص181)، و«الفكرة»، من مطلق التفكير (ص208)، و«الأول»، ضد الأخير (ص78) ... الخ). وهكذا ساهم في تحريف نظر آخرين عن موضوع الكتاب، فبحثوا فيه عن نظرية شعرية، واحتطبوا ليلا ما شاءوا من مصطلحات الشعر. ويكاد هذا المسلك يكون طابع جميع الرسائل الجامعية المنجزة تحت إشرافه وإشراف آخرين تعاونوا معه، لا فائدة من ذكر أسمائهم.

يمكن تناول هذا الموضوع من عدة زوايا:

• اختلاف الأنساق بين اللغات (الترجمة). (البلاغة والأسلوبية)

• إنتاج المصطلح من زوايا مختلفة:

- الفضاء - التفاعل - الكثافة

• تطور البحث في الموضوع (الجرجاني)

• المصطلحات الرابطة بين الأنساق المعرفية، مثل: البيان، والحجاج

• يقتضي وضع منظومة مصطلحية كشف العلاقات الرابطة بين أجزاء العلم، وبيان الوظيفي منها من غير الوظيفي. وتشجير المبحث انطلاقا من المصطلحات المركزية إلى الفرعية ثم ما دونها.

• المعجمية عمل وصفي ترميزي ضروري للبرمجة وتبادل المعارف. وقد صار هذا المطلب ملحا في العصر الراهن استجابة لمتطلبات الثورة المعلوماتية الحالية القائمة على التواصل عبر «مداخل» و«أنساق» ذات «مفاتيح». واليوم حين يُطلبُ من باحث فتحُ نافذة على الأنتيرنيت فإنما يُطلبُ منه إدراجُ مفاتيحَ للولوج إلى النسق الذي يعمل فيه لا إلى متراكماته أو متراكمات عصره من المعلومات. وهذه المداخل تبدأ بالعناوين وتنتهي بالكلمات الدالة أو المفاتيح. وليس المفتاح شيئا آخر غير اللفظ الدال على رأس النسق أي الجنس الأعلى أو على أجناس متوسطة أو دنيا.

• النسق المصطلحي (أو النَّسْمُصُ) هو علامة قيام علم، أي وجود هوية رمزية للأشياء والوقائع غيرِ ما هي عليه في وجودها العيني، هوية قابلة للانتقال. فللواقع والوقائع أسماء وجَودية، وللعلم بها أسماء أخرى.

2. خصوصيات وعوائق

نتجه في هذا الجزء الثاني من هذه الدراسة إلى تشخيص الصعوبات النوعية والمعرفية التي تعوق بناء نظام مُصطلحي دقيق لوصف الظاهرة الأدبية / البلاغية عامة، وفي المرحلة الراهنة من تاريخ الدرس الأدبي خاصة.

يمكن تقسيم العوائق إلى ذاتية موجودة في طبيعة الأدب، وظرفية موجودة في طبيعة المرحلة، نسمي الأول: التباس المجال الأدبي، ونسمي الثانية: هجنة الواقع العلمي.

(سنقايض كلمة الدرس الأدبي بكلمة بلاغة بناء على توضيح لاحق).

1-2. التباس المجال الأدبي

يمكن رصد هذا الالتباس في مستويين: خارجي، يكمن في التباس بالمجالات المعرفية الحافة، وداخلي، ناتج عن تداخل المفاهيم.

أ . الالتباس الخارجي: الالتباس بالمجالات المعرفية الحافة

ننطلق من مُسلمة أبرزناها في مناسبات عدة، وهي أن الاسم المُستوعب لمجالَ الدرس الأدبي، أو علم الأدب، كما سماه السكاكي، هو البلاغة. في مقابل علوم اللغة: (اللسانيات)، والمنطق، باعتبارهما علمين أقرب إلى الدقة في ضبط نظام اللغة والعقل. فالبلاغة تعالج مجالا أكثرَ مرونةً، يتصلُ بهما ويمتد فيهما، كما يمتد في اختصاصات أخرى مثل علم النفس والاجتماع والأنتروبولوجيا والأخلاق.. الخ. حيث تجد ظواهره عمقاً وتفسيراً.

يمكن رفع اللبس هنا بالإحالة على مُصطلح بَلاغيٍّ مُتأصِّل يُعتبر جوهرَ الشعر وهو الاستعارة، فهي تشكل مَبحثاً عند المدققين المتعمقين في جميع هذه المجالات، ويرجع ذلك إلى بروز البعد المعرفي لهذه الصورة البلاغية، حيث تتناول المجال المرن من المعرفة باعتماد المماثلة والتناسب في شتى الحالات من حدود القياس المنطقي إلى تخوم التوهم والهذيان والتصور الأسطوري.

وأعتقد أن المجال الآخر الذي تتقاطع فيه العلوم الإنسانية مع البلاغة تقاطعاً كبيراً (خاصة المنطق واللسانيات) هو المجال التداولي، فالتداوليات هي بلاغة الخطاب الإقناعي، أي أنها المبحث الأول الذي استُعملتْ فيه كلمة وريطورية Rhétorique عند اليونان، وكلمة بلاغة العرب، بل هي قطعة الأرض الأولى التي أعلنت عليها استقلالها.

نظرا لوجود البلاغة في هذه المنطقة الملتبسة بين هذه العلوم اعتبرها حازم القرطاجني، كما سلف، علما كليا يستوعب علوم اللسان الجزئية. ومن المفروض في هذه الحالة أن تكون مسؤولة عن مد الجسور بين هذه العلوم ببلورة المفاهيم التي تخصها مما هو خاص بالحيز الملتبس من النفس الإنسانية حيث تشتغل المشابهة والملابسات كما تقدم، مبرزة جوهرها المشترك الممتد في غيرها، في حين تهتم العلوم الحافة بالبلاغة بتنمية الأبعاد الإقناعية أو المعرفية الموجود في الآلية البلاغية، فيعود ذلك على البلاغة بالنفع ما كانت قادرة على هضمه وتحويله، وبالتشويش والإفقار ما كانت عاجزة عن ذلك؛ حيث تُدمِجُه، على علاته، بمفاهيمه ومصطلحاته، فيسوء هضمها، وتعتل صحتها.

ومن الملاحظ أن الازدهار العلمي يبدأ عادة في المجالات الجزئية الدقيقة، وفي المجال الفلسفي العام قبل أن يتحول إلى معرفة قابلة للاستيعاب والتحويل في المجال البلاغي، لذلك تبادر العلوم الحافة باقتحام هذا المجال وهي توسِّع جانبا من بنائها، غير منتبهة لحدود ملكية جيران غائبين عن الساحة، وهكذا نجد مجال الدرس الأدبي، أو البلاغة، مخترقاً من حين لآخر بالمصطلحات النحوية (واللسانية) والمنطقية، وفي امتدادهما تدخل مصطلحات البيولوجيا والكيمياء والفيزياء، هذا فضلا عن شريك قديم صار مثل صاحب الدار وهو الموسيقى. هذا التداخل يؤدي لا محالة إلى تغيير جوهر الظاهرة ككل.

ونظرا لاستحالة استيعاب البلاغة لأي واحد من هذه المجالات الحافة، وإلاَّ صارت إياهُ (أي تحول الأدبُ إلى تخاطب معياريٍّ، وتحولت البلاغة إلى نحو أو منطق)، **فإن السعي إلى استيعاب المجال الأدبي في النسق المصطلحي لتلك العلوم يؤدي إلى ضياع جوهر البلاغة**. البلاغة تشكل التخوم القصوى للمنطق والنحو.

وقع ذلك الاقتحام قديما ووقع حديثا؛ فقد شكا مؤرخو البلاغة القديمة من هيمنة المنطق من خلال أقيسة علم الكلام، وهيمنة النحو من خلال مَقامية علم المعاني، فضاع البعد التخييلي الإيهامي في متاهة البحث عن «الحقيقة» المقابلة للمجاز، وقد تنبه بعض المجتهدين من القدماء إلى هذه الخسارة حين واجهتهم أمثلة تستعصي عن التأويل انطلاقا من حقيقة أولية، أو سابقة، فاقترحوا مُصطلح

الادعاء بديلا لمفهوم **النقل**. إن الممكن بالنسبة للمنطقي في مفهومه الدقيق أو التقليدي هو الانتقال من معنى إلى معنى لوجود علاقة قابلة للوصف، ولكن الشاعر يبتدع أو يختلق معنى ليس من السهل دائماً تشخيص مُبتداه أي «حقيقته»، وهذا مثال جيد لاخْتلاف الاستراتيجيتين. وقد دُعِّم مسارُ إعادة المصطلح البلاغي نحو جوهرَ الأدب في العصر الحديث بالتحول من **النقل** إلى **التفاعل**. ومن المعلوم في تاريخ الأشكال أن جوهر الظاهرة الأدبية ما انفك يتكشف عبر التاريخ[115].

من المعلوم، كما أبرزنا ذلك في: البلاغة العربية، أن السكاكي جعل علم المعاني تتميماً لعلمي الاشتقاق والتركيب (أي الصرف والنحو)، ثم اعتبره النواة الصلبة للبلاغة، يُكمله علم البيان والبديع، ومن هنا امتدت المصطلحات النحوية عنده إلى مجال البلاغة مُحتفظةً بموقعها النحوي كأصل لازم لاشتغالها في البلاغة، من ذلك: الاستفهام، التقديم والتأخير، الحذف، النداء..الخ. صار الدرس البلاغي متكونا من شقين: الشق الأول مفهومُ هذه المصطلحات في النحو، والشق الثاني دراسة ما يطرأ عليها من تحول حين تأخذ هوية البلاغة[116].

لقد حاول بعض النسقيين المتأخرين الخروج من هذا الأسر بإدخال محتوى تلك المصطلحات تحت مفاهيم كلية بعيدة عن النحو، كما فعل ابن البناء، ولكنه دخل في أسْر ثان، أسْر التقسيمات المنطقية في غياب «سر الصناعة». لم يبق النحو والمنطق عنصرين مساعدين يغنيان البلاغة، بل صارت البلاغة أسيرة لديهما.

ووقع مثل ذلك في العصر الحديث حين نشرت اللسانيات جهازها المصطلحي في المجال البلاغي مستغلة الضعف النسقي التفسيري للبحث البلاغي، فأصبحنا أمام نحو للشعر بكل عتاده المصطلحي. واستعانت اللسانيات بمفاهيم الأنتروبولوجيا، فعمم مفهوم التوازي على البنية اللسانية للشعر.

وكما ثارت البلاغة مع حازم القرطاجني، من أجل نسقها الخاص مستعينة بالمنطق باعتباره أداة للتنظيم والتنسيق فقط، فقد حاولت في العصر الحديث،

115 ـ نشير بالمناسبة إلى أن هذا الأمر التبس على بعض الدارسين فاعتبروا مفهوم الادعاء نكسة للبلاغة العربية. انظر جابر عصفور. الصورة الفنية. ص 244 ومابعدها.

116 ـ انظر أمثلة لذلك في كتاب: أساليب بلاغية، لأحمد مطلوب.

بالكثير من التوفيق، استرجاع مجالها وأدواتها الاصطلاحية ابتداء من الحركة الشكلانية، إلا في العالم العربي حيث ما زالت الهجنة عامة وعارمة لعدة أسباب.

توضيحات: المتأصل والمغترب من المصطلحات

يمكن تقسيم المصطلحات البلاغية إلى قسمين: مصطلحات متأصلة، أصلها في الأدب، وفرعها في المجالات المعرفية المجاورة، ومصطلحات مغتربة زائرة، أو مستوطنة[117]: أصلها خارج الأدب وفرعها أو امتدادها في الأدب: من الصنف الأول، كما تقدم، الاستعارة والجناس، ومن الثاني التقديمُ والتأخير، والحذفُ، ونحْوُ الشعر..الخ

إننا لا نتحدث هنا عن مجرد أخذ مصطلح من مجال إلى مجال لوجود ملابسات، يتمُّ بعد ذلك دمج ذلك المصطلح في النسق الجديد نهائيا دمجا يجعل الأصل مجرد ذاكرة غير حية تُسترجعُ عن طريق المعاجم التاريخية من حين لآخر لتسجيل التطور الذي وقع مع النقل، وعبر التاريخ أيضا، بل يتعلق بإعَارة يَدُ المُعيرِ عليها شديدة قوية، ودفتر التزاماتها في العناية والاستعمال صارم. وإلاَّ فالعلوم تستعير من المجال الحسي والذهني بدون قيود، من أحسن ذلك مصطلحات العروض، خاصة: البيت، العروض، السبب، الوتد، وغير ذلك من مستلزمات بيت الشعر. وأذكر أني «اصطدمت» مع أحد الزملاء المناطقة سنوات حول سجل ميلاد الكثير من المصطلحات البلاغية الواردة من المنطق، خاصة الاستعارة، فهو يعطي أهمية لمعنى المصطلح في المجال الذي جاء منه، وأنا أصر على فهمه داخل السؤال البلاغي.

من السهولة التعرف على المستعار منه، ونسيانه بعد ذلك لصالح التعريف الجديد، أما مصطلح النسق العلمي المجاور الذي لا يتأتى فهمه إلا بالإحاطة بذلك العلم من طرف ذوي الاختصاص الدقيق، فإن انتقال المصطلح منه قد خلق ارتباكا كبيرا في الدرس الأدبي العربي الحديث لتفاوت المعرفة بين المجال المستقبل (العربي) والمرسل (الغربي الحديث). والترجمة أحسن تشخيص لذلك.

---

117. بدل «المغترب» يكاد المرء في الظرف الراهن، يقدم لفظ «المستوطن» بالمفهوم الذي يكون فيه المستوطن شاذا في موقعه؛ يرفض الاندماج لشدة ارتباطه بجهة أخرى أجنبية.

على أنه ينبغي التمييز عند الاستيراد بين مستويين، مستوى المفاهيم المركزية المولدة التي تحكم أصل العلم موضوع الدرس وتتصل بكل نظرياته. ومستوى المفاهيم الفرعية المرتبطة ببعض نظرياته. ف«من المفيد للبحث العلمي تأكيد هذين المستويين بالبحث عن المشترك الذي يضمن وحدة المبحث أو العلم مهما عظم الاختلاف بين النظريات المتعاونة أو المتصارعة فيه..» فلابد من جذر يجعل الأدب والبحث الأدبي ذا هوية، فالمطلوب عند الاستيراد في المستويات الدنيا حسب عبارة ليلى المسعودي «ألا يحدث هذا الانتقال بلبلة واضطرابا في الأنساق الداخلية، وفي التماسكِ المفهومي للشبكة المفاهيمية من حيث تقطيعها وتسلسلها التراتبي»[118].

ب ـ الالتباس الداخلي، تداخل المفاهيم وتعقدُ الأنساق

من أغراض المرحلة الانتقالية الهجينة التي يعيشها البحث البلاغي غياب التصور النسقي برغم كل ما قدمت اللسانيات للدراسة المصطلحية في مستوى الاشتقاق والتعريف، فقد ظل البُعد النسقي في ضبط المصطلح عائقاً في طريق بناء منظومة مصطلحية متعارفة؛ أي يذكِّر بعضها ببعض ويُعرِّفه. وقد أدى هذا الأمر إلى حدود التشكيك في جدوى التعريف نفسه، حيث يصير عائقا في وجه تطور العلم.. وهذه قضية عرضنا لها في القسم الأول من هذا المبحث (القسم أ).

إن غياب القراءة النسقية يؤدي إلى كثير من التشويش والخلط. نأخذ مثالا لذلك (ليس من الهامش بل من المركز) قراءةَ بلاغي حديث كبير، جابر عصفور لبلاغي قديم أكبر؛ عبد القاهر الجرجاني. أصدر جابر عصفور حكما على موقف الجرجاني من التشبيه بالمقارنة مع الاستعارة غيرَ منتبه إلى أن لفظ التشبيه (ومشتقاته) استعمل عند الجرجاني استعمالين: «المشابهة» بوجه عام، وهذا المفهوم يشمل الاستعارة، والمشابهة بالمعنى الخاص الذي يختلف عن الاستعارة، حيث يقال: «الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه». ولكل من المعنيين سياق وروده. فالتشبيه بمعنى المشابهة هو المقصود في المقدمات الأولى في أسرار البلاغة حيثَ جعلت البلاغة مراتب في المشابهة من الحسية إلى «العقلية»،

118 ـ ليلى المسعودي: المصطلح الطبي وتقاطع المجالات. ص33-34.

والمعنى الثاني هو الذي ورد في سياق التمييز بين مستويات التركيب (تشبيه‡ تمثيل)، والحذف والذكر (تشبيه‡ استعارة).

إن إصدار حكم لصالح الاستعارة (أو ضد التشبيه) اعتمادا على حديثه عن المشابهة بالمفهوم العام يشوش على القارئ[119].

ومن ذلك اعتبارُه «الادعاء» دخيلا من أرض علم الكلام ـ كما سبق ـ والواقع أن الادعاء هو ابنُ الدار الحقيقي الذي فرضهُ النظر في النصوص الشعرية المستعصية على التفسير اعتمادا على مفهوم النقل. وهو المفهوم الذي يُلبي مطلب التفاعلية ولا يُعاديه كما ظهر للباحث. في سياق نقده للنظرة التقليدية.

يظهر لي، والله أعلم، أن الغائبَ عن نظر الباحث في تلك المرحلة المبكرة من حياته العلمية هو أن أفق أسرار البلاغة هو أفقُ طليعي برغم الخلفيات المذهبية (أو ربما بفضلها)، باعتماده التأويل العربي لمفهوم المحاكاة في المماثلة وحدها، وباعتماد مفهوم الذهنية مساراً (من الحسي إلى الذهني)، وباعتماده التأويل فارقاً بين البسيط القريب (التشبيه) المدرك، والمركب (التمثيل) المؤول. فباختياره ذلك كان قد أخذ طريق القمة، أي النماذج العباسية الأكثر تخييلا وتركيبا عند ابن الرومي وغيره، ففي هذا السياق وصل إلى مفهوم «التناسي» و«البناء» الذي يفسر الصُّورَ الأكثرَ التباساً عند أبي تمام وغيره، وهو مفهوم استعمله جزئيا بعض نقاد الخصومات الأدبية، ورُفض من طرف المنظرين المحافظين مثل ابن سنان الخفاجي (انظر البلاغة العربية أصولها وامتداداتها).

إن عمل عبد القاهر الجرجاني مثل عمل ابن سنان الخفاجي عمل تجريبي انطلق من فرضية «المعاني» في الأسرار، باعتبارها مفسرة للبلاغة، ثم وسع المجال مُدخلا مفهوم «النظم» باعتباره مُهيمنا، فاقتضى ذلك إعادة تأويل المعنى بمفهومين ومصطلحين جديدين «صورة المعنى»، «ومعنى المعنى». وهذان المفهومان هما اللذان استعمل اللفظ عند القدماء (قبله) للدلالة عليهما لا المعنى الذي فهمه المتأخرون من اللفظ وهو المسموع من الأصوات، هذا المعنى الذي حاربه في الأسرار.

---

119 ـ انظر كتابه: الصورة الفنية.

هكذا إذن تحول مفهوم اللفظ والمعنى في مشروع الجرجاني من موقع النقيض للنقيض.

اللفظ = الصوت. (مرفوض في الأسرار)

اللفظ = الصورة/ المعنى الأول عند التلقي. (مقبول في الدلائل)

والمعنى العقلي (ضد الحسي) محمود (أول الأسرار)

والمعنى العقلي (ضد التصوري) مرفوض (آخر الأسرار)

النسق والتنسيق:

استعملنا كلمة نسق للدلالة على النظام الذي ينْبني على السؤال الداخلي الجوهري في المبحث، ونستعمل التنسيق للدلالة على النظام الذي يغلب عليه الشكل المنطقي في التناسبات والتعارضات وغير ذلك من آليات الجمع والتفريق دون إدراك، جزئيا أو كليا، لجوهر المبحث وآليات اشتغاله.

فابن رشد نسق بلاغة الشعر حسب مفهوم عام رآه مفسِّراً لجميع صورها معتمداً على مفاهيم مسعفة عند من سبقه من أرسطو إلى ابن سينا، وهو مفهوم «التغيير»، وتحت التغيير مفاهيمُ رئيسية تستوعب كل ما تحتها، في عُقد متفرعة إلى نهاية لائحة الصور البلاغية[120]. فهذا عملٌ نسقيٌّ مثلُه مثل عمل جان كوهن في اعتباره الانزياح مُنطلقا[121]. والاختلاف بينهما يأتي لاحقا في الخطوة الثانية، حين استعار كوهن من اللسانيات مفهوم المستويين الصوتي والدلالي. في حين استمر ابن رشد في التفريع بناء على العلاقات المنطقية بين المكونات. وقبل ابن رشد وكوهن كان الجرجاني يبحثُ عن السر، أي عن النسق، بطريقة استكشافية في كتاب الأسرار، اعتمادا على التصور الفلسفي العربي لنظرية المحاكاة، فوصل إلى مفهوم العدول القائم على الادعاء، ثم أعاد تنسيق العدول ضمن النظم في بحثه عن دلائل الإعجاز.

120ـ انظر تشخيصنا لعمله في خطاطة بصرية في كتاب البلاغة العربية.

121ـ انظر مقدمة الترجمة العربية لكتاب بنية اللغة الشعرية.

ويمكن اعتبار عمل السجلماسي في المنزع البديع وابن البناء في الروض المريع عملين تنسيقيين؛ أي أنهما نسَّقا الصور البلاغية وسمياها دون احتكام إلى مفهوم، أو مفاهيم تفسيرية أعلى (مثل الانزياح أو التغير)، مع تفاوت في حفظ الانسجام وعدم التداخل بين الأجناس العُليا. وهذا لا يقلل من قيمة مسعاهما باعتباره مطلبا منهاجيا. وإن كان بالإمكان وصف جوانب من عملهما بالتلفيق.

ولابد من التنبيه إلى أن ابن البناء تحدث عن الخطاب عامة («المخاطبات كلها) دون تقيُّد بخصوصيات الشعر، بل دون تطرق إليها كما صرح في خاتمة الكتاب[122].

وبين هذين الموقعين (موقع صدور النسق من السؤال الجوهري، وموقع التنسيق في غيابه، أو عدم بلورته بوضوح)، يقف عمل حازم القرطاجني الذي بنى عمله على أربعة مفاهيم هي: اللفظ والمعنى والنظم والأسلوب انطلاقا من مفهوم التخييل، حيث يلوح هذا المفهوم ويختفي حسب السياقات.

وقد أُستُعمل المنطق كأداة لتنظيم المادة البلاغية تحت مراقبة خفيفة (غير غائبة) للمكون الجوهري: التخييل، التخييل المقيد بالاستدلال أو الذي يشوبه الاستدلال. وهذه خاصية مشروع حازم، ولذلك ظل مفتوحاً، فهو يشابك الأجزاء، ويشعب ويُعرِّف حتى لتكاد المادة المعرفية تختفي، دون أن تغيب عن بال اللبيب المستوعب، ولذلك أصاب من قال بأن الشعر كله حجة له على قلة أمثلته[123].

122-قال: «وبهذا الذي ذكرناه في هذا الكتاب يُعرف التفاضلُ في البلاغة والفصاحة، وهو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله، وفي سنة نبيه، وفي المخاطبات كلها، لم يشذَّ منه إلا ماهو من موضوع صناعة العروض وصناعة القوافي، وبعضُ مايختص بالشعر من حيث هو شعر» (الروض المريع .174).

وقد يكون من المفيد التنبيهُ إلى أنه يعتبر الشعر والسفسطة خارجين من باب العلم وداخلين في باب الجهل، في مقابل البرهان والجدل والخطابة التي «تستعمل في طريق الحق» (نفسه 81-82).

123 ـ انظر مقدمة المحقق. وقد نسقنا عمله من خلال إعادة تمثل الجزء المفقود من الكتاب انطلاقا من نصوص منقولة منه وقرائن دالة على أجزائه. (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها).

وإذا استثنينا عملَ السكاكي الذي وصل إلى نظام مُصطلحي بلاغي انطلاقاً من البحث عن «علم للأدب» (لا الشعر أو الشعرية) فإننا نلاحظ أن المشاريع النسقية البلاغية تنتمي إلى المسار الفلسفي في المغرب العربي. وهي تحاول أن تعالج حالة من التفتت والتشتت هَيمنتْ على المجال البلاغي فيما عُرف بالبديع والبديعيات، حيث أصبحنا أمام مئات المصطلحات التي لا يربط بينها رابط؛ غاب النسق وغاب السؤال وتقلصت الأمثلة إلى مثال أو مثالين يتكرران في جميع المؤلفات، فماتت البلاغة.

لقد أدى انحسارُ سؤال الجوهر وعدم التفريق تفريقاً دالاً بين الشعر والخطاب غير الشِعري (الخطابة والكتابة) إلى العشوائية في التفتيت، والغربة في التنسيق (الغربة عن الموضوع). فضاع في الحالتين التواتر المطلوب في المصطلحات الجوهرية المولدة للنظرية.

وجاءت الكتب المدرسية والجامعية، مع بداية القرن العشرين، فبنت على تلك الأزمة مكتفِية بنسق السكاكي، وهو نسق واحد له استراتيجية خاصة: علم الأدب. وهذا هو المعتمد في الكتاب الأبيض لوزارة التربية الوطنية الصادر سنة 2001.

التبسيط وضياع الجوهر

إن السعي إلى التبسيط باعتماد تعريف جامع مانع دون نظر إلى تشابك أجزاء الموضوع وحيويتها يؤدي لا محالة إلى إفلات جانب أو جوانب هامة من الظاهرة الموصوفة، ويعوق النظر في مستجدات الواقع وإدراك جوانبه. مثال ذلك أن التركِيز في التفريق بين الكناية والمجاز على «إمكان المعنى الأول» في الكناية وتعذُرِه في المجاز يُضحِّي بالبُعد المجازي للكناية، أي يُضيعُ «آلية اشتغالها» من أجل «تَفريق ثانوي». وكان الأجدر أن يُعتبرا معاً مجازاً كما ذهب إلى ذلك الكثير من البلاغيين دون أن يُلتفت إليهم استسلاما لجاذبية التفريع والتفتيت. ثم يفرق بينهما، بعد ذلك، باعتماد اسمين جديدين. ويمتد هذا الإشكال إلى الاستعارة، التي هي أيضا مجاز باعتبار عدم إمكان المعنى الأول، ولكنها تقابل مَفهوماً آخر اسمه المجاز (المرسل) وهذا يخلق التباسا. وكان الطبيعي لتوحيد المجال الاشتقاقي أن يقال:

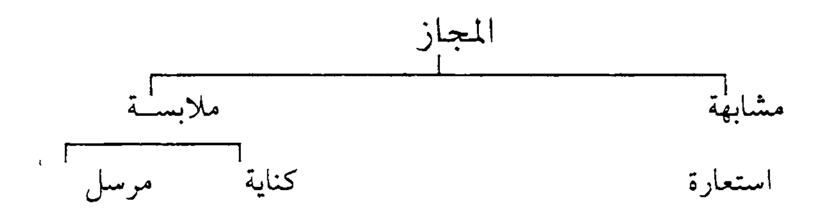
استعـــــارة = مجاز تشبيهي

مجاز مُرسل = مجاز ملابسة

كنايـــــة = مَجاز مُلابسة

وبعد ذلك يأتي التفريق من زاوية إمكان المعنى الأول أو عدمه، وهي قضية دقيقة.

فيكون القاسم المشترك بينهما هو: المجاز، فنصبح أمام هذه المنظومة:



وقل مثل ذلك عن التفريق بين التشبيه والاستعارة بالنظر من زاوية حضور الطرفين وغياب أحدهما فقط.

إن كلمة "مرسل" ليست تعريفا، بل هي حلٌ موقت، تحَوَّل إلى واقع. فَـ"المرسل" يعارضُ "المقيد". فالذي أدرك وفُهم، وهو المشابهة، سمي استعارة، والـذي تعـددت صُوره، ولـم يُعـرف أسـاس فاعليته (أو لم يُلتفت إليه) تُرك مُرسلاً، وظل كذلك، لم يفكر أحد في تقييده[124]. ويزيد من تعقيد المسألة أن اسم مجاز المشابهة (الاستعارة) جاء من اعتبار آخر: الأخذ على نية الإرجاع.

هذا هو المفهوم الذي وصل إليه الجرجاني بعد مخاض شديد، ولكن من جاءوا بعده أضاعوا المغزى. وهكذا يتأكد مدى تعقد المسألة، إن التعامل مع الاستعارة معقد لكونها حلقة بين مجال المشابهة ومجال النقل والأخذ، وهما

124ـ ظهر هذا التقسيم عند بعض اللغويين الأوائل، وفي العصر الحديث اعتمد ياكوبسون ثنائية الاستعارة والكناية: علاقة المشابهة وعلاقة المجاورة.

مبحثان مستقلان، من جهة، متداخلان من جهة ثانية. وقد أحس الجرجاني بذلك، فقدم التشبيه ثم ختم بالمجاز، وبينهما الاستعارة[125].

ونعيد القول هنا بأن الضعف الفلسفي وهيمنة التقعيد أديا إلى تبسيط التعاريف وتقليص الأمثلة، بحيث نجد صوراً بلاغية لا تتجاوز مثالا واحداً عند جميع المؤلفين[126]، وفي الكتب المدرسية خاصة، إذ ضاع النص في الواقع الملموس، فضاعت المرونة النظرية فمات العلم.

هجنة المرحلة التاريخية

بسطنا مظاهر هذه الهجنة في الفقرة (أ)، ونكتفي هنا بإضافة التعليق التالي:

لقد كان بالإمكان تدارك التفاوت الحضاري بيننا وبين حال العصر الحديث في مجال تنسيق البلاغة وعلم الأدب لو سارت الأمور في اتجاه تحديثي كما بدأ في مصر منذ قرن، ولكن النكسات المتوالية في مجال الاجتماع والسياسة، وقصور النظر في مجال التعليم أدت مجتمعة إلى رِدَّة ملموسة في مجال التواصل العلمي الإيجابي الفعال مع العصر الحديث، سواء في مجال الأدب أو في مجال العلوم الإنسانية عامة. فانشطر الباحثون في الأدب إلى شطرين: تراثيون يُعيدون إحصاء مصطلحات البلاغيين القدماء في غير نسق دال (وهذا شأن المؤلفات القليلة المطبوعة، وعشرات الرسائل والأطروحات المخطوطة، خاصة في كليتي الآداب بفاس والرباط). وحداثيون يترجمون مصطلحات الأنساق النظرية الحديثة بالتقسيط (خارج أنساقها) اعتمادا على المتاح، عامدين في الغالب إلى نحت مصطلحات جديدة بقطع النظر عما ورد في التراث العربي، بل حتى دون استقصاء عمل من سبقهم إلى الموضوع.

125ـ ومن المعروف أن لدى البلاغيين نوعا من الاستعارة بالكناية، أو الاستعارة المكنية، ومعنى ذلك أن الاستعارة مفهوم يتسع أيضا للكناية. هي التي حذف فيها المشبه به وكني عنه بشيء من لوازمه.

126 ـ من ذلك الكناية عن نسبة.

عدمُ استيعاب التراث: وشعار القطيعة

أبدأ باستثناء باحثين عشقوا التراث العربي وفهموه، وهم يقرؤونه بلغة مرنة ذكية تتحدث من وراء المصطلحات دون أن تعلنها، مثل الأستاذ عبد الفتاح كليطو. ثم استسمح في القول بأن عدم استيعاب التراث البلاغي من طرف الجيل الأول من دارسي الأدب الحديث المغاربة، سواء من داخل شعب اللغة العربية، أو من المجتهدين من شعب اللغات الأجنبية. أدى في الكثير من الأحيان إلى ترسيخ مفهوم القطيعة بين الأشكال الأدبية القديمة والحديثة، حيث لم يكن أحد منهم يقبل أن يربط التأمل في أي مفهوم حديثٍ (مثل المسرح، الرواية) بأي شكل من أشكال التعبير القديمة، وقد سمعنا مرات عديدة هذه العبارة: «هذا مفهوم جديد، ظهر في كذا، لا علاقة له بالمفاهيم القديمة». وكنا نحن في بداية الطريق محتاجين إلى من يستعمل التراكم التراثي الذي جئنا به من التعليم الثانوي، الأصلي خاصة، وكلما بدت فرصة للمقايسة قيل لنا: ليس هذا بعشك فادرجي.

لقد تغير الحال اليوم، إذ أدى استيعاب النظريات الأدبية الحديثة حول جوهر الأدب وتجلياته، في أعقاب الاطلاع على الشكلانية وامتداداتها، إلى ظهور باحثين يهتمون بامتداد الظواهر في تجليات مختلفة ومتنوعة، بل صار ذلك الربط دليلا على الحذق وسعة الاطلاع. صار من الممكن سَفَرُ المصطلح الحديث في هجرة مُعاكسة لوصف تجليات قديمة (ربما جنينية أحيانا أو مختلفة، انطلاقا من أشكال مُكتملة حديثة، مثل: الحكي والسرد والسارد.. الخ)، وسَفَرُ المصطلح القديم نحو الأشكال الحديثة، كسفر الاستعارة نحو الرواية والموازنات الصوتية نحو الشعر الحر والإشهار. يتم ذلك بسهولة تحت مراقبة المبدأ وهو التخييل، فالمجال هو المجال التخييلي. ولذلك فليس من مجافاة روح العلم في شيء سفر المصطلح وإقامته عموديا (بين القديم الحديث)، وأفقيا (بين الشعر والسرد مثلا) ما دام في نفس الأرض والوطن.

لقد هيمن على المرحلة السابقة عدم استيعاب الأصول الأكاديمية والتراثية للمفاهيم المنقولة عن تيارات هي تنويعات لأصول مَخْفيةٍ، أو مسكوت عنها، دون أن تكون غائبة. فنتج عن هذا الواقع، من جملة ما نتجٍ، ظهور مقابلات عدة

لنفس المصطلح، من ذلك ترجمة كلمة écart، فقد اُقْتُرِحتْ لها مقابلات عدة، من قبيل: بُعد، فجوة، عدول، انحراف، انزياح..الخ

لاشك أن كلمات: "بُعْد" و"فجوة" و"خرق" و"انحراف"...الخ مجردُ مقابلات لغوية بسيطة؛ لم ينتبه أصحابُها إلى وجود مقابلات عربية قديمة أجدر منها، من قبيل: انزياح، وعدول، و"تغيير"، و"إبدال"، وتوسع...الخ.

فعدول واردة عند البلاغيين خاصة عند عبد القاهر الجرجاني، وهي تكاد ترادف كلمتين أخريين هما المجاز والتوسع (المجاز بمعناه اللغوي الواسع في مؤلفات النحاة الأوائل: أبو عبيدة، والتوسع، أو الاتساع، في اللغة، كما عند سيبويه).

كنا شرعنا في استعمال كلمة عدول في ترجمة كتاب بنية اللغة الشعرية، ثم عدلنا عنها إلى كلمة انزياح لتلافي الحصر الذي خضعت له كلمة عدول (في مجال الإبدال الدلالي).

إذ عُمِّم مفهوم écart في البلاغة الحديثة ليشمل كل حالات الخروج عن منطق اللغة (في قيم المخالفة والاقتصاد) بما في ذلك التجنيس وغيره من الموازنات الصوتية[127].

لقد بذلت البلاغة الغربية الجديدة أقصى الجهود لاستيعاب سجلاتِ المصطلح البلاغي القديم في إطار أنساق جديدة، وتحت مفاهيم مولِّدة، كبيرة كما فعل هنريش بليت في: البلاغة والأسلوبية، وجان كوهن في بنية اللغة الشعرية.

---

127 ـ التقيتُ بلفظ انزياح مقابلا لكلمة écart، لأول مرة، في كتاب الأستاذ عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب. الصادر سنة 1977. ص158ـ 161. وقد أشار، في مستهل كلامه عنه، إلى أنه لم يلق بعدُ قبولا من اللسانيين والأسلوبيين. كما أشار إلى إمكان تعويضه بلفظ "عدول" الذي استعمله البلاغيون العرب في سياق دلالي محدد. ثم عرَّف بالمجال الواسع الذي يغطيه مصطلح écart. وعندما ترجمنا كتاب بنية اللغة الشعرية (أوائل الثمانينيات)، وهو مبني على هذا المفهوم، اعتمدنا لفظ الانزياح، في نهاية المطاف. وبعثنا بنسخة منه إلى الأستاذ المسدي، فرد برسالة منوهة بالترجمة. وقد كان لوضوح تصور كوهن ونسقية عمله دورٌ حاسمٌ في تثبيت مصطلح «الانزياح». ثم خصصت مجلة دراسات سيميائة محورا للشعرية البنيوية تضمن دراستين مهمتين: الأولى بعنوان: «نظرية الانزياح عند جان كوهن. لـِ نزار التجديتي، والثانية بعنوان: «فكرة «العدول» في البحوث الأسلوبية المعاصرة»، للَمرحوم عبد الله صولة. (العدد 1 خريف 1987. ص 41ـ72، 73ـ101).

وعملهما مبني على أعمال تمهيدية في إعادة صياغة البلاغة مثل صور الخطاب لفونتاني[128].

أما في الجامعات العربية فهذه الجهود نادرة ومبتورة، ومغمورة في لجة الجمود، وغير مسموعة، إذ الطابع الغالب المهيمن هو الإعادة، من جهة، والاقتراض على نية التملك، من جهة ثانية.

128- Fontainier. Les figures du discours.

الفصل الثاني

أسئلة تاريخ البلاغة
في النشأة والتطور

تمهيـد

تناولنا تاريخ البلاغة العربية في عملين أكاديميين مرصعين بالوثائق، قائمين على مبدأ المساءلة: المشاريع والمنجزات. أنجزنا ذلك بشكل جزئي في كتاب الموازنات 1الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، ثم تحولنا إلى قراءة شاملة في كتاب البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها. وقد اعتمدنا في الكتاب الثاني، خاصة، على المقارنة بين المشاريع والمنجزات: ما يعلنه البلاغي ويهفو إليه، وما تسعفه الظروف في تحقيقه، ثم اعتمدنا قراءة اللاحق للسابق. وقد وظفنا في قراءتنا هذه دون ضجة «إشهارية» مبدأ قرائيا ملائما، هو مبدأ السؤال كما بسطه ياوس، خاصة في كتابه: من أجل تأويلية أدبية[129]. وكان تاريخ البلاغة العربية فعلا تاريخ أسئلة: أسئلة مباشرة وضمنية. وبموازاة مع هذا العمل الأكاديمي الموجه للمختصين ظهرت الحاجة إلى تقديم صيغة أخرى مخففة تقنيا، مشحونة فكريا، ومحلاة بلاغيا، تستهوي القارئ، وتغريه بالقراءة دون أن تفقد شيئا من صلابتها العلمية. وفي إطار هذه الهم جاءت المقالات المكونة لهذا الفصل. فهي تلتقي مع العمل الأكاديمي في جوهر الأسئلة والقضايا، وتساعد على الدخول إليه لمن أغراه الموضوع. إنها صيغة أخرى في الكتابة تدخل فيما سماه ابن رشد بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

129- Hans Robert Jauss. Pour une Herméneutique littéraire

ويتكون هذا الفصل من المباحث التالية:

I- أسئلة النشأة:

1- أصـول البلاغة العربية ومنابتها

2- سؤال الانزياح في مهد البلاغة

II- المشاريع والمنجزات

1- من البيان إلى الخَطابية: المشروع والمنجز في بيان الجاحظ

2- من الغرابة الشعرية إلى المناسبة التداولية

III- البلاغة المأسورة

IV- رحلة البلاغة الغربية

V- من النقد الانطباعي إلى التأسيس البلاغي في المغرب

1- الخطاب النقدي حول الشعر المغربي الحديث

2- التراث البلاغي بين إعادة الإنتاج وإعادة القراءة

- ا -

أسئلة النشأة

1 ـ أصول البلاغة العربية ومنابتها

حَلَّى رائدُ البلاغة الجديدة (الخطابية) شاييم بيرلمان أحد كتبه بعنوان: إمبراطورية البلاغة (الخطابية)[130]، وهو عنوان قائم على استعارة تريد أن تبرز الاتساع والقوة والهيمنة الملازمة لكلمة إمبراطورية. وإذا علمنا أن بيرلمان يحصر اهتمامه في بلاغة الحجاج والإقناع (أي فيما صرنا ندعوه خَطابية) علمنا أن بلاغته لا تغطي سوى نصف أرض البلاغة العامة، بلاغة الخطاب، التي فكر فيها عالم بلاغي عربي كبير، هو حازم القرطاجني، حين اعتبر البلاغة «علما كليا»، قائلا:

«ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروبُ التناسب والوضع، فيُعرفُ حالُ ما خَفيتْ به طرق الاعتبارات، من ذلك، بحال ما وضحت فيه طرق الاعتبار»[131].

ينظر حازم هنا من زاوية المكونات، ولذلك يقول في مكان آخر: «هذه الصناعة تتشعب وجوه النظر فيها إلى ما لا يحصر كثرة. فقلما يتأتى تحصِيلها بأسرها والعلم بجميع قوانينها لذلك. وسائرها من العلوم ممكن أن يَتحصَّل كله أو جله[...] إذ أكثر ما يُستحسن ويُستقبح في علم البلاغة له اعتبارات شتى بحسب المواضع»[132].

130- المقصود هو كتاب: L’empire rhétorique. وريطوريك تعني عنده بلاغة الخطابة التي انتهينا إلى ترجمتها بمصطلح جديد: خَطابية.

131 ـ منهاج البلغاء226.

132 ـ منهاج البلغاء88. كلمة في منتهى الدقة، لا يعرف قيمتها وخطورتها إلا من تصدى لتحليل النصوص القديمة والحديثة؛ شعرية ونثرية. فالنصوص لا تتوقف عن مساءلة المحلل وتحدِّيه.

تعرضنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، وفي مؤلفاتنا السابقة إلى الاعتبارات التي أشار إليها حازم، والثقافة المطلوبة ممن يتصدى للنظر البلاغي في النصوص، وذلك في سياقات مختلفة. أما الآن فسننظر من زاوية تاريخية، زاوية نشأة البلاغة العربية وامتدادها في مجالات مختلفة، وهي نشأة تُبينُ طبيعتَها التوسعية التي تجعلها تصطبغ، في نهاية المطاف، بشتى الألوان؛ بألوان المجالات التي تشكلت فيها واحتضنت نشأتها، فهي تتأثر وتؤثر، تُعطي وتأخذ.

تبدو البلاغة العربية شبيهة بنبتة تكتسح كل الحقول، فحيث يوجد النص[133] توجد، وحيث يُعالَج الخطابُ تقترح وصفة لعلاج عرَض من أعراضه، وفتوى لنازلة من نوازله. وتبدو خارجة من فجاج وشعاب بعيدةً عن فجاجها وشعابها.

والبلاغة إذ ترتبط بالنص، فإنها تتولد مباشرة من أسئلته، من ملاحظة انزياحاته، ومن ملاحظة فاعليته السحرية وحكمته الآسرة. «إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة». وسيأتي بيان كيف وقع ذلك: السؤال والجواب. ولذلك لا يمكن أن تكون مستوردة مائة بالمائة، خاصة في العصر الذي نشأت فيه البلاغة العربية، ولكنها يمكن أن تكون مُحفَّزة ومحتضَنة من قِبَل المحيط الثقافي المجاور لها. فالأسئلة البلاغية تزداد وتتقوى بتوسع المعرفة والتفاعل مع بيئات أخرى! الأسئلة الواردة تزعزع تطابق الكائن مع بيئته، بل مع نفسه، وتساهم في تكييف تصوره. وهذا ما وقع عند لقاء اللغة العربية مع التراث الكوني، وخاصة اليوناني. وقع ذلك التفاعل والتخصيب حين توسع المجال الجغرافي والحضاري للغة العربية، حيث أخذت طابعا كونيا.

ومقتضى هذا الكلام ونتيجتُه هي أن سؤال الصفاء والهجنة، أو الاصالة والاغتراب، سؤال زائف، تحركه نزعات غير علمية. فللبلاغة العربية جذورٌ مَحليةٌ قويةٌ تَظهرُ في وجودها الجنيني في «النقد التطبيقي» قبلَ تأسيس دعوته وعند التأسيس، وتظهر في وجودها العملي في سؤال «القاعدة» و«المعيار» عند تأسيس النحو، وتظهر في وجودها في أسئلة فهم النص الديني ورفع ما يثار حوله

133- النص الشعري والنص الديني والنص الخطابي والنص المكتوب والنص الفلسفي والنص التشريعي والبيداغوجي ...الخ.

من شبهات، ولكنها تغذت أيضا بأسئلة الثقافة اليونانية الفلسفية، أولا، والبلاغية (شعرية وخطابية) ثانيا. تغذتْ من تلك الأسئلة وهي تخوض في قضايا التنزيه (علم الكلام)، وقضايا الإقناع (المقام الخطابي)، وقضايا سؤال الفاعلية الشعرية (المحاكاة والتخييل). لِنرْصُدْ ذلك تاريخيا.

I-1 البلاغة والنقد الأدبي (المهد الأول)

اهتم مؤرخو النقد الأدبي العربي بالمراحل التي سبقت عصر التأليف[134]، يحذوهم في ذلك هَمٌّ أكاديميٌّ حينا، وهَمٌّ قوميٌّ شوفيني أو محافظ أحيانا كثيرة[135]. يوردون في ذلك مجموعة من الوقائع الدالةِ علي «ملاحظة» الخصوصيات الشعرية «قبل الاتصال بتراث اليونان»، كما يذكرون بالتقاليد المتبعة في الاحتفال بالكلام ونقده في العصر الجاهلي[136].

وقد ارتبط هذا النقد التطبيقي بالمفاضلات والموازنات والخصومات بين الشعراء وأنصارهم. وصلت هذه الخصومات درجة الاصطفاف المذهبي بين القدماء والمحدثين في القرن الثالث الهجري فبدأت تظهر لوائح بألفاظ تصف فعالية الشعر. في شكل كتب سميت بديعا ثم بديعيات. ابتداء من البديع لعبد الله بن المعتز، والبديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ، وتحرير التحبير لابن أبي الأصبع، وخزانة الأدب لابن حجة. فانتقلتْ صورُ البديع من بضع عشرة صورة إلى العشرات، ثم المِئات. واعتبر هذا المسار عربيا صرفا. وهو مسار وصفي قوامه الملاحظة والتسمية والتمثيل، ولم ينحُ منحى «التنسيق» إلا في عصور متأخرة،

134 ـ حيث يُربط التأثيرُ والتأثر بحركة التأليف، وبترجمة أعمال أرسطو ومدى فهمها. وهذه قضية تتعلق بدرجة التأثير والتأثر وكيفيته، وليست قضية مبدأ. فالأفكار كانت تنتقل وتُتداول قبل ذلك، خاصة خلال القرن الأول والثاني الهجريين.

135 ـ من أوائل الكتب التي ألفت في الموضوع كتابُ تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري. لطه أحمد إبراهيم. وقد تتبع الشاهد البوشيخي الأشعار التي تحمل معنى نقديا في الشعر القديم في كتابه: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

136 ـ نقصد بوجه خاص الأسواق التي يقع فيها الاحتكام للشعراء الكبار مثل النابغة الذبياني.

ولكن تنسيقه كان في الغالب منطقيا شكليا خارج السؤال البلاغي[137]. ما تقدم في مبحث المصطلح من الفصل الأول.

سارت هذه اللوائح البديعية جنبا لجنب مع كتب النقد التقويمي الخالص (الفحولة للأصمعي، وقواعد الشعر لثعلب، وعيار الشعر لابن طباطبا). بل شَدتْ إليها كتبَ النقد الأدبي وألزمتها باقتسام المجال، فنجدها تحضُر عند قدامة كشريك، ثم تستولي على الساحة النقدية عند حازم، حيث يمكن القول بأن النقد قدً صيغ صياغة بلاغية. إن حازما يَعتبر نفسه بلاغيا كما تقدم من حديثه عن البلاغة كعلم كلي، والناس يتحدثون عنه كناقد، وهم غير مخطئين، فالقول بأن البلاغة هي التي عُجنت وصيغت صياغة نقدية، أو شُغِّلتْ داخل خطة نقدية ظاهرُ الوجاهة بالنسبة لحالة حازم. إن بلاغة حازم لا تبعد عن النقد لأنها بلاغة معضودة بالمنطق والحكمة، وفي ذلك يقول: «ينبغي لمن طمحت به همته إلى مرقاة البلاغة المعضودة بالأصول المنطقية والحكمية، ولم تَسفَّ به إلى حضيض صناعات اللسان الجزئية، المبني أكثرُ آرائها على شفا جرف هَار، ألا يعتقد في وزن من الأوزان أنه مفتقر في وضعه إلى أن يفكّ من نظام آخر»[138].

إن هذا الشرط الذي وضعه حازم ليبدو في عصره، وما جاء بعده شرط تعجيز، ولذلك لا عجْب أن يكون هذا الزواج الاندماجي بين البلاغة والنقد في كتاب منهاج البلغاء آخر الغزوات البلاغية المظفرة قبل أن تُجرد البلاغةُ من أسلحتها وتوضعَ في الأسر وهذا موضوعٌ مبحث لاحق من هذا الفصل.

إن هذا الامتداد الطبيعي: من الملاحظة النقدية السابقة، إلى تأمل الظاهرة، إلى دخول تلك الصور في منظومات، ثم تشغيلها في مشاريع نظرية، هو الذي جعل بعضَ مؤرخي النقد يعتبرون هذا المسار عربيا في مقابل مسار آخر يوناني جعلوا قدامة على رأسه. والواقع أن الأمر يتعلق كما ذكرنا، بجنين أحتُضِن في بيئة جديدة ليُعطي خَلْقا جديدا، لا هو عربي ولا يوناني خالص.

---

137 ـ نشير هنا إلى عمل السجلماسي في المنزع البديع، وابن البناء في الروض المريع.

138 ـ منهاج البلغاء 231.

1-2 البلاغة والنحو

قد يبدو غريبا أن تتولد البلاغةُ، أو مكوِّن من مكوناتها، في مَهْد النحو وهو نقيضُها، أي المعيارُ الذي تنزاح عنه[139]. ولكن الذي وقع تاريخيا هو أن الظواهر البلاغية وقفت، في وقت مبكر، في وجه الصرامة العلمية التي نُعِتَ بها القياس النحوي واطراد القواعد، فأوقفتْ ذلك القياس الصارم عند حدوده، تحمل في يدها اليمنى نص القرآن الكريم وفي يدها اليسرى ديوان الشعر العربي، تُعطل بهما وصول القياس إلى نهايته.

لم يُسايرِ المطلبُ البلاغي المتأصلُ في تكوين الإنسان ما أراد النحاةُ اطرادَه من قواعد نحوية؛ كان يخرقها باطراد، فكان أن فتح سيبويه باب «التوسع» في اللغة، وتحدث ابن جني، بعده، عن «شجاعة العربية»..الخ. وبذلك قَبِل النحاةُ مقاسمةَ المكان مع البلاغة حيث خرج أولُ جيلٍ بلاغي من صفوف اللغويين. فكان من أوائلِ الأماكن التي احتلتها البلاغةُ سَكَناً مُوقتا: مجازُ القرآن، وضرورةُ الشعر. لقد ولِدَ شيءٌ ينزاحُ عن القياس النحوي. وظهرَ، في وقت مُبكر، أن هناك مجالاً آخرَ للبحث؛ على النحو أن يتسع له أو يَضيقَ عنه، ولكل من المَوقفيْن ثمنُه. النحويُّ يريد الاستبداد باللغة، بقضِّها وقضيضها، والبلاغةُ تصادم اللغةَ بالمرونة الإنسانية، فتُحدث صدًى وطنينا يسمعه بعض النحاة (مثل ابن جني)، ولا يسمعه آخرون (مثل ابن فارس). فمنهم من يؤمن بوجوده، ومنهم من يكفر.. ولكن لا مفر، لقد حسَم أبو عبيدة (بكتابه: مجاز القرآن) هذا الأمرَ، وتبعه الفراء بمعاني القرآن، وتوالت التأليف، بعد سيبويه، في الضرورة الشعرية. وهذه أولُ لبنة قوية «نظرية» في البلاغة العربية، بلاغة الشعر، أو الشعرية. وسيأتي مزيد بيان في سياق آخر.

1-3 البلاغة والمعرفة البيانية

بعد النحو اتجه البيانيون خاصة الجاحظ (وهو الذي يهمنا هنا ـ ت 255) إلى بناء نظرية للمعرفة انطلاقا من اجتهادات أوائل الأصوليين، مثل الشافعي،

---

139 ـ هذا هو أساس نظرية الانزياح écart كما صاغها جان كوهن في كتابه: بنية اللغة الشعرية.

واعتمادا على أصداء المنطق الأرسطي. فنظروا في أصناف الدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ، هذا ما فعله الجاحظ على وجه التحديد في البيان والتبيين حيث حصر البيان في الفهم والإفهام، ووسع أصناف الدلالة لتتسع للفظ وغير اللفظ (الإشارة والخط والعقد والنصبة) في مشروع طموح جعل بعض الدارسين المحدثين يُدخله ضمن السيميائيين.

غير أن المعرفة المتاحة، في عصر الجاحظ، كانت شعرية، في المقام الأول، وخَطابية، في المقام الثاني. فبرغم أن العصر الأموي كان العصر الذهبي للخطابة العربية فإنها كانت ما تزال قمرا دائرا في فلك الشعر.

تحت ضغط الخطبة نصا ومطلبا بدأ الجاحظ في التراجع عن مشروعه البياني الواسع من صفحة لصفحة عبر كتاب البيان والتبيين: قايض البيان بالبلاغة في أول الأمر، ثم قايض البلاغة بالخطابة، فأعطانا أولَ، وربما آخر، صياغة لخطابة إقناعية، ابتداء من جهاز نطق الخطيب وعيوبه الفيزيولوجية النطقية، وانتهاء بالأحوال والمقامات الخطابية، وملاءمة اللغة للمقاصد، مع ما يتطلبه ذلك كله من ثقافة ومعرفة بالإنسان واللغة.

لقد خنقت البلاغةُ طموح مشروع «البياني» عند الجاحظ باعتباره نظرية للمعرفة، فلم يبق منه غير الخطة الأولى والطموح الشخصي. وقد تنبه البلاغيون، بعده، إلى ذلك فقال ابن وهب، الذي أعاد النظر في الموضوع، بعد وفاة الجاحظ بعدة عقود: «أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتخلة، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان. فكان عندما وقفتَ عليه غيرَ مستحق لهذا الاسم الذي نُسب إليه»[140].

لقد جر التيارُ أباعثمان عمْرو بنَ بحر الجاحظ إلى وجهة غير وجهته، فاكتشف جزيرة غير التي قصدها في منطلق رحلته، وكانت هي الجزيرة المَناسبة لمسار التيار العربي الذي جرفه، ولذلك لقيَ كتابُه من العناية ما لم يلقه كتابُ ابن وهب الذي حاول ردَّه إلى طريق البيان ذي النزوع المنطقي. ولم يهتم الناس كثيرا بالمفارقة

140 ـ البرهان 49.

بين المشروع والمنجز من كتابه، فتلك حكاية ألفوها. وسنبين مسار هذا التحول في مبحث لاحق.

4-1 البلاغة وأسئلة النص المقدس

أ- البلاغة والإعجاز القرآني

حين شرع البلاغيون في تفصيل القول في معجزة النبوة (القرآن الكريم) ذكروا البلاغة ضمن مجموعة كبيرة من الفضائل والمعجزات التي تتحدى علمَ الإنسان وقدرتَه، غير أننا لا نتقدم إلا خطوات قليلة في التاريخ حتى نجد البلاغة تُهيمن على الموضوع، وعلى اجتهادات الباحثين فيه. لقد كيَّفتْ ذاتها، عبْرَ مسلسل طويل، لكي تلائم الموضوع وتُدخله ضمن ترابها.

يمكن ملاحظةُ هذا التحول بالانتقال التدريجي من خطاب («المُتكلمين ـ البلاغيين») إلى خطاب («البلاغيين المتكلمين»)، بالانتقال من جهود الخطابي والرماني والباقلاني والقاضي عبد الجبار (في القرن الرابع) إلى تصور عبد القاهر الجرجاني الذي فصَل بين الاعتبار البلاغي وغيره، فخصص للاعتبارات غير البلاغية رسالة صغيرة (الرسالة الشافية)، في حين أفرغ جُعبته وكفاءتَه العلمية والسجالية في الـ«دلائل الإعجازية» للبلاغية، فانتهى به المطاف إلى تأسيس أحد ركائز البلاغة العربية، أي «علم المعاني»، الذي استخرجه السكاكي من مفهوم النظم عند الجرجاني.

ب ـ البلاغة وعلم الكلام والأصول

ولم ينته المتكلمون من مناقشة «مشكل القرآن» حتى كانوا قد أبدوا وأعادوا في المجاز وعلاقته باللغة وبمصدر الخطاب، كما خاض الأصوليون في البحث عن أنواع الحقائق الشرعية واللغوية والعرفية، فأعطت البلاغة ــ وكانت قد تعلمت الكلام ــ في ذلك وأخذت. أخذت تعميق الحديث في المجاز عامة، ولكنها أخذت ضمنه «الحرجَ» في نسبة الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، الحرجَ الذي أدى إلى ظهور مبحث لا يصمد للنقد: المجاز العقلي عند الجرجاني. وقد عانى الجرجاني من هذا المفهوم في آخر الأسرار.

إن البلاغة في سعيها لابتلاع كل شيء تجده أمامها، قد ابتلعت أشياء كثيرة عسيرة الهضم. وهذا ما وقع لجميع الإمبراطوريات في التاريخ القديم والحديث.

5-1 البلاغة ونظرية المحاكاة الأرسطية

بكل العدة والعتاد النصي المذكور آنفا، وبكل الأسئلة المحلية المشار إليها، اقتربت البلاغة العربية من النظرية الأرسطية فخاطبتها بالعربي الفصيح وألزمتها الفهم، ففهمت بالتي هي أحسن. وصار لها كلامٌ في الشعر الغنائي والخطابي عند العرب لم نجده في كلام أرسطو، أو لم يخطر له على بال. فصارت صور التشبيه والتمثيل والاستعارة تَعني، بالنسبة للشعر العربي، ما تعنيه الحكاية والتشخيص الدرامي للتراجيدية اليونانية، وصار الوزن عنصرا ممهدا للمحاكاة، ثم أدمج فيها مباشرة باعتباره عنصرا من عناصر «التغيير»، هذا المصطلح الذي بنى عليه ابنُ رشد مفهوما كبيرا يوازي مفهوم الانزياح في الدراسات البلاغية الحديثة.

لقد لاحظ حازم القرطاجني هذا الغزو البلاغي الذي خاضته البلاغة مع الفارابي وابن سينا (إن لم يكن اطلع أيضا على ابن رشد) فقال:

«ولو وجد هذا الحكيمُ أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحُّرَهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها، ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم، وحسن مآخذهم ومنازعهم، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية»[141].

قام الفلاسفة العرب بعملية تحويل لمركز بلاغة أرسطو من خشبة المسرح إلى تركيب اللغة، من «التمثيل» الدرامي إلى التشبيه والاستعارة والمجاز، وأعادوا تعريف التراجيديا والكوميديا بالمدح والهجاء بعد تجريدهما إلى

141 ـ منهاج البلغاء. 68ـ69.

تحسين وتقبيح، وقايضوا المحاكاة بالتخييل ترجيحا للأثر على الكيفية. وفي بيئتهم طُرحتْ نظريةُ الشعر والخطابة بشكل علمي نظري لأول مرة في تاريخ العرب[142]، تجلت همومُ هذا المنحى في الكتب المؤثرة في تاريخ البلاغة العربية: أسرار البلاغة، وسر الفصاحة، ومنهاج البلغاء. في حين تأثرتْ كتبٌ أخرى بالمنطق العام: نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، المنزع البديع للسيجلماسي، الروض المريع لابن البناء..الخ.

2 ـ سؤال الانزياح في مهد البلاغة

«الانزياح» هو السمة العامة، والبنيةُ المفسِّرة للخطاب الشعري / التخييلي حسب الشعرية اللسانية البنيوية الحديثة، وهو يُقابل «المقامَ» الذي يُعتبر أساسَ تشكل بنية الخطاب الإقناعي / الخَطابي من أرسطو إلى اليوم. ومعنى ذلك أن إثارة سؤال الانزياح يُعتبر إثارة لنصف السؤال البلاغي، في حين تمثل إثارة سؤال المقام النصف الثاني. وقد أثير السؤال الأول في بيئة النحو، كما سنرى، بعد أن تمت ملاحظته بشكل عفوي من خلال التلقي (النقد الذوقي التطبيقي)، ومعنى ذلك أنه أثير في سياق داخلي محلي، في حين أثير سؤالُ المقام في بيئة كلامية / منطقية تحمل هموما بيداغوجية معرفية وحجاجية إقناعية، ولا شك أن السؤال مُحفَّز في الحالة الثانية بالمعرفة المنطقية والخطابية المستقاة من الاطلاع على منطق أرسطو وبلاغته، فالسؤال هنا خارجي إلى حد ما. والمجالان (الانزياحي والمقامي) متقاطعان بقدرما هما متمايزان، وإنما العبرة بانفصال نواتيهما واستقلال عاصمتيهما، لا بتداخل تخومهما. نتناول هنا سؤال الانزياح، ونتناول سؤال المقام في سياق الحديث عن المشاريع والمنجزات تجنبا للتكرار.

يقول تودوروف: «إن ميلاد البلاغة كعلم خاص هو أولُ شهادة لميلاد التفكير في اللغة، في التراث الغربي» [143]. ويبدو أن تاريخ البلاغة العربية يقدم

---

142 ـ خصصنا للقراءة العربية لفن الشعر لأرسطو فصلا مطولا من كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. وأنجز الباحث عبد الرحيم وهابي أطروحة مهمة في الموضوع، مطبوعة.

143- Oswald Ducrot et Tzevtan Todorov. Dictionnaire encyclopédique des sciences de langage. P. 99.

أنصع الحجج على هذه المعاينة. فإذ كان لهذا القول من سند قوي يؤيده فهو «ملاحظةُ» المتلقين للانزياح، وإحساسهم الطبيعي به، و«تسويغهم» له، ثم محاولة بعضهم «تفسيره». فالانزياحُ يلاحَظ بشكل طبيعي عفوي؛ لأنه خروج عن المألوف المستساغ، أو المنطقي. يلاحظ كخطأ، ولكنه خطأ سائغ يمكن تجاوزه بالتأويل، بل يُثمن باعتباره زيادة في المعنى (فائدة عند الجرجاني) نُطبِّعها بالتأويل، وبين الملاحظة والتسويغ تلاحظ الغرابة فيكون العجب. قد يلتبس بعضُ الانزياحات على بعض المتلقين، أو في لحظة تاريخية، ثم يأتي من يبين وجه تسويغه وتثمينه.

وبعد التسويغ والعجب يأتي السؤال: لماذا؟، ليكون حافزا للبحث عن منطق هذه العملية التأويلية التي تتحايل من أجل «تسويغ» ما يبدو غير سائغ، ومنطقة ما يبدو غير منطقي. في هذا الرحم تُخصَّبُ بويضة البلاغة، ويمكن بعد ذلك أن تُحضن في أي مَحضن فلسفي أو عقدي أو فني، وتُنشَّـأ أي تنشئة، فتأخذ لون محضَنِها ومنشئها: فلسفي، منطقي، نحوي، شعري، خطابي، علامي... الخ

من المعروف عند منظري الانزياح أن وراء كل صورة بلاغية / شعرية معيارا تنزاح عنه [144]، ولكن الصورةَ المثلى للانزياح، الصورة التي تشخصه أكثرَ من غيرها هي صورة المجاز: أي العدول [145] عن صيغة في التعبير إلى صيغة أخرى لمُشابهة أو ملابسة تسمح بتذكر المعدول عنه، وتجعل استحضارَه ضروريا

144 – من أشهر صيغ البحث في تفسير الانزياح لسانيا، وبيان المنزاح عنه، العملُ الذي قام به جان كوهن في كتابه: Structure du langage poétique. وقد ترجَمناه، بمشاركة ذ محمد الولي، تحت عنوان: بنية اللغة الشعرية. (1985).

145 – العدول هو المصطلح الذي ينافس مصطلح الانزياح، ولكننا نرى أنه أكثرُ تعبيرا عن الانزياح الدلالي، المجازي أساسا، حيث تُترك صيغة من أجل صيغة أخرى تحقق زيادة في المعنى (شجاع، كأنه أسد شجاعة، كأنه أسد، هو أسد، أسد، يفترس الأقران، كشر عن أنيابه، أنشب أظفاره ..الخ)، في حين يؤدي الانزياح هذا المعنى ويتعداه إلى المعنى الشامل للخصوصية الشعرية، أي مطلق البعد عن المعيار أو المألوف، سواء أمكن تصور الصيغة المعدول عنها أم لم يمكن (كما في بعض صور الشعر الحديث). وقد كان الجرجاني دقيقا في استعمال العدول في أسرار البلاغة، فاستحضار المعدول عنه ممكن في الشعر الكلاسيكي عموما. والمجاز قريب من العدول في معناهما المعجمي: فتجاوَز الشيءَ إلى غيره، هو نفسُه عدل عنه إلى غيره. أما الانزياح فلا يستلزم وجود المنزاح عنه. هذا هو الاجتهاد الذي جعلني أرجح لفظ انزياح في ترجمة كلمة écart.

لتطبيع المعنى (جعله مقبولا)، وتخصيبه (جعله خصبا مفتوحا للتأويل). وسنقدم هنا مثالا يبين كيف طُرِح هذا السؤالُ البلاغيُّ الواقع في قلب السؤال الشعري، وكيف عولج بلاغيا قبلَ أن يكون للبلاغة عنوان قار [146]. وقد تمت العملية في إطار الجواب عن سؤالٍ.

قصة اكتشاف المجاز (حدث رمزي)

يكاد الدارسُ يجد عند كل منعرج من تاريخ البلاغة العربية سؤالاً طُرِح على المُؤلف مباشرة، أو أثير أثناء النقاش، أو اتخذ شكلِ حدَث عابر، أو خصومة بين مذهبين...، إن هذه الأسئلة الصريحة والضمنية، الواقعية والمتخيلة، ليست سوى مفاتيح حجاجية / بيداغوجية.

يُروى أن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب سـأل أبا عبيدة معمر بن المثنى (حوالي سنة188هـ) قائلا :

«قال الله عز وجل :

«طلعها كأنه رؤوس الشياطين» [147].

وإنما يقع الوعد والإيعـاد بما عُرف مثلُه، وهذا لم يُعرف !

قال أبو عبيدة: «إنما كلَّم اللهُ تعالى العربَ على قدرِ كلامهم. أمَا سمعتَ قول امرئ القيس :

أيقتلني والمَشرفيُّ مُضاجعي ومَسْنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغْوالِ

«وهم لم يروا الغولَ قطُّ. ولكنهم لما كان الغول يَهُولُهم أُوعِدوا به»

---

146 - ذكرنا في كتاب: البلاغة العربية، أن أول عنوان قار، وصندوق بريد معروف للبلاغة العربية، هو الذي ثبته الجرجاني. صحيحٌ أن الجاحظَ ذكر في البيان والتبيين أن البلاغة يمكن أن تكون هنا أو هناك أو في مكان آخر مرجحا أن تكون في «المقام» الخطابي، ولكنه لم يوف كل شروط الإقامة.

147 - الصافات 37، الآية 65 . والضمير يعود على شجرة الزقوم. وصلة الكلام: «أذلك خير نُزُلا أم شجرة الزقوم؟ إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رءوس الشياطين، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون".

قال أبو عبيدة: «وعزمتُ، منذ ذلك اليوم، أن أضع كتاباً في القرآن، في مثل هذا وأشباهه، وما يُحتاجُ إليه من عِلمه. فلما رجعتُ إلى البصرة عَمِلتُ كتابي الذي سميته المجـــاز» [148].

الغريب هو أن أبا عبيدة لم يتطرق لهذا الخبر حين مروره بالآية المذكورة («طلعها كأنه رؤوس الشياطين»).

فهل اكتفى أبو عبيدة بالرد المُباشر على سؤال السائل، أم تُـراه أوردَ الخبر في مكان آخر، أم تُـرى السؤالَ متأخراً عن الكتاب، ومستنبطا منه؟ الأمران سواءٌ عندنا، فالسؤال موجود في الجواب: أي في تحليلات أبي عبيدة.

وبخلاف ذلك نجد الفراء يتوقف عند هذه الآية في كتابه: معاني القرآن، ويقترح، كما سيأتي، عدةَ أوجه لتخريجها دون إثارة سؤال.

إن السؤال المُنطلَقَ لمشروع أبي عبيدة يثيرُ إشكالا، لأنه نظر من زاوية واحدة، وهي زاوية المناسبة التداولية التي انزاح عنها الخطاب[149]. في حين أحال الفراء سائله على بعد آخر (البعد التصويري التخييلي العاطفي). لم يُسمِّ أبـــو عبيدة مرصده وزاوية نظره، لأن الوقت لم يحن بعدُ لذلك، ولكنه صنَّفه من خلال تأنيس الصيغةِ القرآنية بصيغةٍ أخرى واردةٍ في كلام العربِ (الشعر) [150].

كأني بأبي عبيدة يقول للسائل، الذي قد يكون هو الآخر مسؤولاً (كما هو حال سائل الفراء):

إن هناك بعداً آخر للخطاب القرآني، ومرصدا آخر ينبغي رصده منه. انطلاقا من كونه مخاطبةً لقوم بلسانهم وحسب ما يفهمون من كلامهم («إنما كلمَ الله تعالى العَرب على قدر كلامهم»).

كانت هذه هي الحجة الأولى، أما الحجة الثانية فتقوم على تفسير فاعلية الصورة التعبيرية وبيان وجه تلك الفاعلية، على وجه العموم. فهنا نظر أبو عبيدة

---

148 - ينظر معجم الأدباء لياقوت الحموي. دار المأمون. القاهرة. ص. 158 / 19.

149 - المناسبُ تداوليا أن يُشبَّه المجهول بالمعلوم، ولكن الآية القرآنية انزاحت عن هذه القاعدة العملية لمزية بلاغية (إثارة انفعالات خاصة)، فشبهت المعلوم بالمجهول.

150 - المرحلة مرحلة استكشاف تلعب فيها المقايسات دورا أساسيا، أما التنظير فلاحق، وقد اقتحم الفراء هذه العتبة، كما يبدو من كلامه اللاحق.

نظرة ثاقبة حيث بنى الصورة على المتخيل لا على القائم في الوجود. فالناس يتأثرون بما يُخيَّلُ إليهم، ويقع في أذهانهم أحيانا أكثرَ مما يتأثرون بالواقع. خاصة في المجال العاطفي والخيالي. فالمسألةُ عند أبي عبيدة ليست، كما تصورها السائلُ، مسألةَ إفهام أو تعليم، بل هي مسألة تأثير عن طريق الصورة المختزنة في المخيلة. إن اكتشاف القمر وتصوير البتور البركانية المشوهة في وجهه، لمْ يوقف الشعراء والمحبين عن التغني بجماله.

هذا هو منحى أبي عبيدة. وقد نظر بعضُ اللغويين في عصره من الزاوية المعجمية أيضاً محاولين البحث عن مرجع للصورة في الواقع لا في الخيال وما استقر في النفس، مع الاحتفاظ بالاحتمال الآخر. وهذا ما نجده عند الفراء، حين قال:

«إن فيه في العربية ثلاثةَ أوْجهٍ:

◄ أحدُها أن تُشبِّه، طلعتُها في قبحه، برؤوس الشياطين، لأنها موصوفة بالقبح وإن كانت لا ترى. وأنت قائل للرجل: كأنه شيطان إذا استقبحته.

◄ والآخرُ أن العرب تسمي بعض الحياتِ شيطاناً. وهو حية ذو عَرْفٍ كما قال الشاعر، وهو يذم امرأة:

عجـــردُ تحلِـــف حيـــن أُحلِـــف
كـمثـــل شيـطـــان الحـمــاطِ أعــرَفُ

◄ ويقال أنه نبتٌ قبيحٌ يُسمى برؤوسِ الشياطين.

والأوجه الثلاثة تذهب إلى معنىً واحدٍ في القبح»[151].

لقد ركز الفراء نظره على المعجم، كما تقدم، محاولاً محاصرة الجانب التصويري بجعل الشيطانِ حيةً، أو نبتةً، محتفظا بصفة القبح في كل الأحوال.

---

151 ـ معاني القرآن.

التوجيه الذي ذهب إليه الفراء منسجم مع ثقافته كما يُصورها كتابُه معاني القرآن (اللغة + النحو + الروايات والقراءات) ومنسجم مع السؤال الذي طُرح عليه أو طَرحه هو على نفسه:

فقد رُوِيَ، في تأليف معاني القرآن، «أن عمر بن بُكَير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل. فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل رُبما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيتَ أن تَجمعَ أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجعُ إليه فيه فعلتَ»، فأملى الفراءُ كتابَه[152].

لاشك في أن الأمثلة التي طُرحت على أبي عبيدة، ومَن في موقع أبي عبيدة من العلماء، كثيرةٌ جداً. إنها الأسئلة الناشئةُ عن الحوار بين النص المنجز السابقِ على القاعدة، والقاعدة الناشئة التي خُيلَ لأصحابها أنهم احتووا بها بنيةَ الكلامَ ونسقَه، ولو من استقراءَ غير تَام للنصوص. فالنحو، حسب كلام ابن السراج "علمٌ استخرجه المتقدمون فيه مًن استقراء كلام العرب حتى وقفوًا منه على الغرض الذي قصدَه المبتدئون بهذه اللغة"[153]. فباستقراءَ هذا الكلام عُلم أن الفاعلَ مَرفوع والمفعولَ منصوبٌ «و أن فعَل مما عينُه ياءٌ أو واو تقلبُ عينه، من قولهم: قام وباع»[154].

غير أن هذا الاستقراءَ لم يُؤدِ إلى معرفة الأشياء غير المطردة على هذه الشاكلة. فبقيت أشياءُ كثيرةٌ خارج النظام الجديد للغة الذي سُميَ نحواً، كما بقيت لغاتٌ وألفاظٌ كثيرةٌ خارج المعجم الذي سارت الحياة الجديدة في انتقائه ليكون دليلا للفصيح وغير الفصيح ...الخ.

الأسئلة كثيرة كما يوحي بذلك تنوع الأجوبة التي قدمها أبو عبيدة والفراءُ وغيرُهما، تناولت مختلف قضايا اللغة (النحو: اطرادُ القياس أو عدمه + المعجم: المتداول الذي لا يحتاج إلى شرح، وغير المتداول) كما تناولتْ قضايا المنطق (انسجام الخطاب).

---

152 ـ نقله محققا الكتاب (محمد علي النجار، وأحمد نجاتي) عن الفهرست لابن النديم، في مقدمة طبعة معاني القرآن. 1983. عالم الكتب. ص. 1/ 12.

153 ـ الأصول 1/ 34.

154 ـ نفسه.

إذا كان الأمر كذلك فلماذا اختار أبو عبيدةُ (أو اختار غيره) أن يكون السؤال المفسرُ هو هذا السؤال المنطقي- البلاغي (أو التداولي الإقناعي)؟

قد يكون في هذا السؤال شيء من الرمز المقصود أو غير المقصود إلى رؤوسِ الشياطين التي بدأتْ تطل في ذلك العصر لإثارة الشُبَهات حول ما تشاكلَ من القرآن ابتغاء ألفتنة وابتغاء تأويله. وقد حكى ابن قتيبة مجموعة من أسئلة المشككين في مقدمة «تأويل مشكل القرآن» وتصدى لها بالرد.

هذا التأويل بعيد، وإن كان غيرَ مُستبعد بالنسبة إلى تعقيد التفاعلات داخل النفس الإنسانية حيث يقوم البناء الرمزي على أحوال شبيهة بالأحلام، فيحمل أعمق الدلالات.

والقريب من الأمر أن يُدخل اختيار السؤال في باب اختيار العناوين، لقد أراد أبو عبيدة (أو غيره) أن يكون هذا السؤال موجِّها في قراءة الكتاب زيادة على العنوان العادي: المجاز.

فالتشبيه والتمثيل والنقل (الاستعارة) تشكل مستوى من مستويات المجاز التي تحدث عنها أبو عبيدة، بل هو المستوى الإشكالي الذي سيثير أشد النقاش وأكثر الخصومات عنفاً بين الظاهريين والمؤولين.

فمن هنا قد يكون اختيار السؤال من باب تسمية ديوان شعري أو مجموعة قصصية بإحدى القصائد أو القصص الممثلة لروح المجموعة. هذا أمرٌ يعلمه (أو يُحسه) المؤلف، ويأخذ الناقد نفسَه بكشفه. إنه نوع من مجاز الملابسة / المجاز المرسل، حيثُ يُطلقُ الجزء البارز من الصفة الأقدر على التعبير عنها على الكل، مثل إطلاق القوافي على القصائد في قول الشاعر:

فنُحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماءُ

ذكر القوافي وأراد القصائد، كما يقال في تقرير هذا النوع من المجاز.

ونظير ذلك قولُهم ألقى كلمة في الجمع أي خطبةً.

لقد اعتنى أبو عبيدة بالجانب التشبيهي والتمثيلي، كما اعتنى بصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر بشكل يجعلنا نُحِسُّ أنه يقدم هذا المستوى البلاغي منارة أمام صور المجاز الأخرى مهما بعُدَت عن المفهوم الذي سيستقر عليه المجاز بتوجيه المتكلمين.

ارتبط المجاز عند أبي عبيدة بالجواز. قال، بعد استقصاء المجازات الممكنة: «وكل هذا جائزٌ معروف، قد تكلموا به»[155].

حين نقرأ عمل أبي عبيدة بتعاطف نحس مدى استحضاره لسلطة المعايير واجتهاده في الخروج من ضروراتها، مع البقاء داخلَ كلامِ العرب، إنه يبحث عن وجه ومخرج لكل صور الخروج عن التوازي والتطابق مثل إيراد المفرد للجمع والجمع للمفرد..الخ، وإيراد ما للحي للموات (أو الجماد)، واستعمال الأدوات بعضها محل بعض مثل قوله تعالى «لأصلبنكم في جذوع النخل»..الخ

لقد قام أبو عبيدة بعمليةٍ الرصد والتأنيس بالأمثلة العربية من الشعر القديم. دون أن يُقدِّم في أكثر الأحوال تفسيراً لكل ظاهرة على حدة، فقد اعتبر انتماءَ الحالات التي سجلها من القرآن الكريم إلى المجاز تفسيراً في حد ذاته، لأن المجاز حاز شرعيته بوجوده في شعر العرب الفصحاء.

ثم عكف البلاغيون المنشغلون بالإعجاز، في القرن الرابع الهجري خاصة، على تفسير الصور (المجازية) التي أوردها أبو عبيدة فأبرزوا الكثير من مزاياها البلاغية. كما نجد عند الرماني مثلا. انظر تفسيره للحذف في قوله تعالى:«ولو أن قرآنا سيرت به الجبالَ، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، بل لله الأمر جميعا»[156].

لقد عكفَ البلاغيون على المتن «المجازي» الذي استخرجه أبو عبيدة[157]، فاستخلصوا من منه قواعدَ للبيان والمعاني، وحين وصلت عملية التجريد نهايتها تسلحَ عالمٌ كبير من المعتزلة هذه المرة، هو الزمخشري، بهذه المعرفة وعاد بها مرة أخرى إلى النص القرآني، في تفسيره المشهور الكشاف. فانتقل من المثال الجلي إلى الإنجازات الدقيقة الخفية في البنية الدلالية للنص القرآني، فكان تفسيرُه من أهم الأعمال التطبيقية في تاريخ البلاغة. كان عمق تحليلاته يشغل الخصوم عن محتوى آرائه الاعتزالية.

---

155 ـ مجاز القرآن 16/1.

156 ـ في النكت.

157ـ بعد أن عزلوا عنه القضايا التوثيقية والقرائية التي اضطلع الكلاميون بتفصيل القول فيها ضمن الدفاع عن النبوة ودلائلها.

أما بعدُ فلعل القارئَ ينظر الآن إلى ما تبقى من فقرات هذا المقال ويتساءل: أين نماذج هذا الحوار البلاغي الذي نشب قبل وجود البلاغة؟

قبل أن نقدمَ ما يسمح به الحيز من ذلك نقول: إنْ لم توجدِ البلاغة في ذلك الوقت المبكر (القرن الثاني هـ) كعلم قائم الذات، فلقد وجد السؤال البلاغي الجوهري: ما طبيعة هذه الظواهر الخِطابية المنزاحة عن المعايير النحوية والمنطقية؟

إن هذا السؤال القديم سؤالٌ حديث أيضاً. ولذلك لا غرابة أن يكون في الأجوبة القديمة أحياناً جوهرُ الأجوبة الحديثة المؤطَّرة نظريا.

لنستمعْ إلى أبي عبيدة وهو يجرد من مجموعة من الأمثلة مفهومَ تداخلِ عالمِ الإنسان وعالم الحيوان والموات:

- قال تعالى:«قالتا أتينا طائعين».

قال أبو عبيدة: «هذا مجاز الموات والحيوان الذي يُشبَّه تقديرُ فعله بفعل الآدميين»[158].

- وقال مُوسعا هذا المفهوم في أول الكتاب : ومن مجاز ماجاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس قال:«رأيتُ أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر، رأيتهم لي ساجدين». وقال قالتا: «أتينا طائعين». وقال للأصنام: «لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون». وقال: «يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمانُ . . .»[159].

- قال تعالى:«قالتْ نملة يا أيها النملُ اُدخلوا مساكنكم»

قال أبو عبيدة: «هذا من الحيوان الذي خرج مخرجَ الآدميين، والعربُ قد تفعل ذلك، قال:

شربتُ إذا ما الديكُ يدعو صِحابَه إذا ما بَـنُو نعشٍ دَنَـوا فتصوَّبوا»[160]

---

158 ـ مجاز القرآن 197/1

159ـ نفسه10/1-11.

160ـ نفسه93/2.

وقد سلك الفراء مسلك أبي عبيدة فخرَّج مجموعة من الآيات على هذا الأساس بمثل قوله في الآية القرآنية: «**فما ربحت تجارتهم...**»

ربما قال القائل: كيف تربح التجارة؟ وإنما يربح الرجل التاجرُ.

وذلك من كلام العرب: ربح بيعُك وخسر بيعُك. فحسُن القولُ بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعُلم معناه.

ومثله من كلام العرب : «هذا ليلٌ نائمٌ». ومثله من كتاب الله :«فإذا عزم الأمر». إنما العزيمة للرجال..فلو قال قائل : «قد ربحت دراهمُك ودنانيرك، وخسر بزك ورقيقك، كان جائزا لدلالة بعضهم على بعض»[161].

المؤسف هو أن هذا النقاشَ العميق في مرجعية الصورة وعواملها قد ضاع مع استقلال البلاغة عن أسئلة النص، وحُصر التحليلُ في نطاق العلاقات بين مكونات الجملة.. لقد زُيِّف السؤالُ البلاغي، فيما بعد، باعتبارات عقائدية ومذهبية، فغاب العمق الذي أثاره السؤال الجوهري.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن أبا عبيدة تعرض لنقد شديد من بعض معاصريه الذين أخذوا عليه استعمال الرأي في تفسير القرآن. (انظر مقدمة محققَي معاني القرآن).

---

161 ـ معاني القرآن1 / 14-15

- II -

المشاريع والمنجزات

تمهيد:

لا شك أن القارئ الحديث الذي يحاول أن يأخذ وجهة نظر منسجمة عن البلاغة العربية سيصاب بالدوار أمام الآراء المتضاربة التي صدرت في حق البلاغيين الكبار الذين ساهموا في عملية تشييد صرح البلاغة العربية، مثل الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، وحازم القرطاجني، بل وابن خلدون: فأنت تجد الرأي وضدّه ينسبان للبلاغي الواحد دون اهتمام بتفسير ذلك، وترى الحكم يطلق إطلاقا، وهو عند صاحبه مقيد، أو معدل أو منسوخ أصلا. وهذا كله ناتج، في نظرنا، عن غياب القراءة النسقية المستندة إلى الأسئلة والخلفيات والإحراجات التي حكمت أعمال هؤلاء الأعلام. إننا نعاين اليومَ، بالمعايشة، مقدارَ النقد والإحراجات التي تعرض لها كبار منظري الشعرية الحديثة وجمالية التلقي، وكيف ساهم الحوار بشتى أنواعه في تعديل وجهات نظرهم: نعرف، مثلا، كيف وسَّع ياكوبسون دائرة الشعرية اللسانية[162]، ونعرف كيف انتقل هانس روبيرت ياوس من القول بالتلقي إلى القول بالأثر والتلقي معا[163]، ونعلمُ كيف عدَّل ميكائيل ريفاتير أسلوبيته وطورها في حوار مع النقد، إلى غير ذلك... الخ

162ـ بسطنا هذه القضية في مقدمة كتابنا: تحليل الخطاب الشعري.

163 ـ وضحنا هذه المسألة في مقال بعنوان: «الرواية والاختيار». منشور ضمن أعمال ندوة القراءة والتلقي . جامعة محمد الخامس بالرباط.

ولكننا لا نجد ما يكفي من الوثائق والآثار لتصور مقدار الضغط والحرج الذي تعرض له عبد القاهر الجرجاني مثلا ليعدل نظريته في البلاغة، أو يقلبها رأسا على عقب: بالانتقال من الأسرار إلى الدلائل! لا نجد غيرَ ما نستشفه من معاناته داخل الكتابين، أو ما نفهمه من مشروع نقيض لمشروعه؛ لا يُحيل أحدهما على الآخر، هو مشرع بلاغة الأصوات (الفَصاحَة) عند ابن سنان. قد تسمح حالاتٌ خاصة بفهم حالة السابق من قراءة اللاحق، كما سنلاحظ من قراءة ابن وهب للجاحظ، ولكن هذه الإمكانية غير متوفرة على الدوام.

نقدم فيما يلي زبدة[164] قراءة نسقية مركزة للمشاريع النظرية العربية القديمة الجديرة بالاعتبار، آملين مساعدة القارئ (الذي يحتاج إلى مساعدتنا) في قراءة هذه الأعمال قراءة إشكالية؛ أي باعتبارها مشاريع لا مجرد تراكم معارف، أو كشكول آراء وأخبار.

1ـ من البيان إلى الخَطابية: المشروع والمنجز في بيان الجاحظ

ما البيان؟

قد لا يكون من السهل الحسمُ في أمر السابق واللاحق داخل ذهن الجاحظ: هل فكَّـر أولا في «المقام» الخطابي، ثم حاول تأطيره داخل مفهوم البيان، أم إن البيان بمعناه المعرفي العام هو المنطلقُ لتفكيره، ثم انحسَر وضاق حتى لم يبقَ منه إلا البيان باللغة، فاحتكم فيه إلى المقام. نترك السؤال معلقا ونرصد التحولات داخل كتاب البيان والتبيين.

ما هو البيان؟ وما هي طرق تحقيقه؟ وما وظيفته؟

يتردد معنى كلمة «بيان» عند الجاحظ بين الدلالة على «العملية الإدراكية»، وبين «الأداة» التي تحققها:

164ـ ولمن أراد التوسع في الموضوع وضبط حيثياته أن يرجع إلى كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

• البيان هو «العملية»: «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان»[165].

• والبيان هو الأداة نفسها: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى..»[166]. وفي تحديد هذه الأشياء (الأدواء) يقول:

«وجميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقد ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبة»[167].

• ومدار البيان على «الفهم والإفهام»[168].

بعد هذا التعريف الذي وضع البيان في أفق معرفي / إدراكي عام تبدأ عملية التراجع. إذ سرعان ما قايض البيان بالبلاغة موردا تعريفات من آفاق شتّى، ثم قايض البلاغة بالخطابة دون إعلان، أو بيانِ علاقةِ هذه بتلك: كان يتّحدث عن البيان، ثم صار يتحدث عن البلاغة، ثم انَتقل إلَى المقام الخطابي، وامتد في الحديث عن الخطابة والخطباء إلى نهاية الكتاب.

لماذا وقع هذا التحول؟

إن ما يشوب كتاب البيان والتبيين من تردد بين الإطلاق والتقييد، والتعارض بين المشروعِ المفكر فيه والمنجز الملموس، يرجع إلى تعايش مفهومين كبيرين؛ يقتضي ضبط الحديث في الموضوعِ التمييزَ بينهما:

– **مفهوم البيان** باعتباره بحثاً في المعرفة والتواصل عامة: كيف نعْرف؟ وكيف نوصل ونؤثر؟.

---

165 ـ البيان والتبيين 1 / 75. وبين العلمِ والبيان ارتهان. «قالو: البيانُ بصرٌ، والعيُ عَمًى، كما أن العلمَ بصر والجهلُ عمًى، والبيانُ من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهلَ». (ص1 / 77). وقالوا: «البيان ترجمان العلم»، «وحياة العلم البيان». (ص1 / 77).

166- البيان والتبيين. 1 / 76.

167- نفسه 1 / 76. العقد: الحساب بعقد أصابع اليدين بهيئات تدل على الأرقام. والنصْبة: هي الحال الدالة، وتسمى أيضا الاعتبار، أي استخلاص العبرة من الأحوال. وفي القرآن: «فاعتبروا يا أولي الأبصار».

168- نفسه 1 / 75. وأداته غير محددة: «فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع». (نفسه).

ولاشك أن هذا المفهوم الذي عبر عنه الجاحظ في الحيوان، من خلال النص المشهورِ نفسه الذي اعتمده في البيان والتبيين[169] يُشكلُ روحَ أعماله كلها باعتبارها اجتهادا في مجال الإدراك وتداول المعرفة بشكل أساسي.

ويبدو مفهوم الجاحظ لصياغة نظرية معرفية سابقا لأوانه في البيئة العربية بالنظر إلى محدودية التراكم الثقافي المتاح كمًّا وكيْفا. فما هو متاح لا يعدو أمرين:

- **أولهما**، الاجتهادات الأولى للأصوليين: إذا نجد مفهوم البيان «يقفز»، كما يقول محمد عابد الجابري في بنية العقل العربي، من المستوى اللغوي إلى المستوى الاصطلاحي في تعريف الإمام الشافعي له في كتابه الرسالة، حيث يقول: «البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع. فأقل ما في ذلك من المعاني المجتمعة المتشعبة إنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه متقاربة الاستواء عنده..»[170].

من الأكيد أن الجاحظ قد تأثر بهذا المفهوم الأصولي الذي يجعل النص القرآني دليلا على معانٍ يحاول الأصوليُّ وضعَ أصولٍ (أي قوانين) لاستكشافها، كما هو متأثر بالمفهوم الكلامي الذي يجعل الكونً كله دليلا على وجود الله وقدرته.

- **وثانيهما**، أصداء الثقافة اليونانية، إذ يبدو أن الأفكار العامة لمنطق أرسطو وفلسفته كانت معروفة إلى حد ما في عصر الجاحظ، ولكنها كانت غامضة بالقدر الذي يسمح بالتفكير بالتوازي معها، أو بعيدا عنها. باستثناء فن الخطابة الذي يظهر أنه فُهم فهْما جيدا في جانب تأسيسه لبلاغة الإقناع على المقامات والأحوال[171]. غير أن نقل هذا المفهوم مفصولا عن النسق العام الذي يقتضي تمييز الخصوصية الخطابية (المقام) عن الخصوصية الشعرية جدير بأن يؤدي إلى الخلط، وقد بذَل الفلاسفةُ، فيما بعد، جُهْدا لتدارك هذا الجانب. فظهرت آثار أعمالهم في تصور المتأخرين، أمثال حازم القرطاجني وابن خلدون.

169- المقصود حديثه السابق عن أنواع الدلالة على المعاني.

170 ـ بنية العقل العربي30.

171 ـ انظر تفصيل الحديث في هذه القضية في كتاب البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها.

- **والمفهوم الثاني**، هو مفهوم البيان باعتباره فصاحةً لغوية نصية وأدائية، بل نصية / أدائية، الأمران وثيقا الارتباط عنده، إذ فصاحة النص تظهر عند أدائه. ومن المعلوم أن الجاحظ تحدث عن العيوب النطقية، كما تحدث عن انسجام الكلام وتوازنه ليصير خفيفا على اللسانِ، يجري عليه كما يجري الدِّهان. وهذا المنحى هو الذي يجعل الجاحظ مُنظِّرا، بل أولَ منظر للخطاب الإقناعي الشفوي.

كان البيانُ، كما قدمنا، مشروعاً وطُموحاً، في حين كانت الفصاحةُ قدَرا مقدورا. كانت تمثلُ القدْرَ المتاح، أي ما توفره الساحة الثقافية العربية في ذلك الوقت. ولذلك زاحمت المفهوم الأول للبيان، وأزاحته عن مكانه.

الرصيدان المعرفيان (الفصاحي والنطقي) حاضران متصارعان في كتاب البيان والتبيين. لقد قُرئ الكتاب رفضا وقبولا، من الزاويتين: رُفضَ البيان (من قبل ابن وهب)، وقبلت الفصاحة (من قبل ابن سنان):

• **قُرئ الجاحظ بالمخالفة والتخطيء** من قِبَل البيانيين ضمنا وصراحة: من القراءة الضمنية (المخالفة) السكوتُ عن مفهومه ومشروعه ثم تعويضُه، فيما بعد، دون احتجاج من أحد، بمفهوم ضيق، هو «علم البيان» بالمفهوم الذي حدده السكاكي وثبته من جاء بعده. احتل السكاكي أرض «البيان» وزرع فيها نباته الخاص وكأنها أرض خلاء، ولم ينازعه فيها أحد. أما القراءة بالمخالفة الصريحة فنجد أحسنَ مثال لها عند ابن وهب. يرى ابنُ وهب أن ما قدمه الجاحظ عن البيان لا يستجيب للمتوقع من عنوان الكتاب. يقول مبررا استئناف الحديث في الموضوع:

«أما بعد، فإنك كنتَ ذكرتَ لي وقوفَك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخباراً منتخلة، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عندما وقفتَ عليه غيرَ مستحق لهذا الاسم الذي نُسبَ إليه»[172].

172 ـ البرهان في وجوه البيان49. منتخلة: مغربلة، مصفاة من النخال.

السائلُ / المعترضُ فَرَضاً هنا هو عصرُ ابنِ وهب، عصرُ الكتابة وتراكم المعارف، فبين موت الجاحظ وموت ابن وهب حوالي قرن من الزمن: ثمانون سنة.

لا يحتاج القارئ إلى نباهة كبيرة، أو تيقظ خاص، لكي يلاحظ الفرق بين استراتيجية الكتابين، فذلك بارز في مقدمتيهما. ففي الوقت الذي قدم الجاحظ كتابه بالحديث عن «اللسان» (الذي بين الأسنان)، أي عن القدرة التعبيرية وما ينتابها من عوائق وعيوب تؤدي إلى العي، نجد ابن وهب يخصص أكثر مقدمة بيانه وجوهرها للحديث عن «العقل»، منوها به، مبينا الغريزيَ منه والمكتسب. وقد أدى هذا الاختلاف في زاوية النظر إلى إدخال ابن وهب تعديلا على الخطاطة البيانية التي قدمها الجاحظ لتتلاءم مع المحتوى الذي رصده لها. فبينما يُعيد الجاحظ جميعَ أصناف الدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ إلى خمسة أشياء: اللفظ والإشارة والنصبة والعقد والخط، ثم يكتفي، عند التحليل، بالحديث عن البيان باللفظ والإشارة، أي ما يحتاج إليه الخطيب، يُرجع ابن وهب البيان إلى أربعة أسس متعاونة متكاملة في إنتاج المعنى وتداوله، هي: الاعتبار (ويقابل النصبة عند الجاحظ)، والاعتقاد (ويعني به التصور، أو حال المعرفة داخل النفس، ولا نرى له مقابلا عند الجاحظ)، والعبارة (وتقابل البيان باللفظ عند الجاحظ)، الكتاب (ويقابل الخط عند الجاحظ). ونص كلامه:

«البيان على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال القلب واللب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بَعُد وغاب»[173].

من البين أن الغائب الأساسي في بيان ابن وهب هو الإشارة والعقد (والعقد نوع من الإشارة: العد بأوضاع خاصة لأصابع اليدين). وهذا أمر طبيعي لأنها مرتبطة عند الجاحظ بالتخاطب الشفوي، فهي عنصر مساعد للغة. والجديد عند ابن وهب هو الاعتقاد، أو التصور أي معالجة المعرفة عقليا، في حين أنها معالجة عند الجاحظ لسانيا[174].

---

173 ـ نفسه 56.

174 ـ المسافة بين بيان الجاحظ وبيان ابن وهب شبيهةٌ بالمسافة التي ذكرنا سابقا أنها تفصل بين بلاغة الحوار التي نتبناها والخطابية التي بناها بيرلمان. وقد بلغ مفهوم البيان مداه في الابتعاد عن الخطابية في كتاب التقريب لحد المنطق لابن حزم.

ويمكن أيضا تسجيل الفروق بين «اللفظ»، عند الجاحظ، وبديله عند ابن وهب وهو «العبارة»، و«الخط»، وبديله «الكتاب». فهناك فرق سيميائي في الانتساب إلى عالمين إشاريين مختلفين، ترتبَ عنه اختلاف المحتويين، فالخط عند ابن وهب جزءٌ من مبحث الكتاب وليس كلَّه.

وقد التزم ابن وهب بهذه الخطاطة فخصص لكل ركن من الأركان المذكورة بابا من كتابه، مع تفاوت في العناية بهذا الباب أو ذاك. وليس من أهدافنا تقويم محتوى كتاب البرهان، خاصة من وجهة انسجام مادته أو عدم انسجامها[175]. لقد فهم كتاب البرهان، فيما بعد، على أنه كتاب في المنطق، هذا ما ينطق به كتاب: التقريب لِحَدِّ المنطق، لابن حزم. لقد قدم ابن حزم لقراءته المقرِّبة لمنطق أرسطو بمقدمة تعتمد مفهوم البيان عند ابن وهب، جاء فيها: «إن جميع الأشياء التي أحدثها الأول.. مراتبها في الوجود والبيان أربعة، إن نقص منها جزء واحد اختل البيان بمقدار ذلك النقص..»[176]. ثم أعاد العناصر الأربعة التي اعتمدها ابن وهب بعينها.

• **وقُرئَ الجاحظ أيضا بالموافقة والتبني**؛ قراءةٌ انصرفتْ إلى المُنجز والمادة الأوَلية، ولم تهتم بالمشروع أو الخطاطة الأولية التي بني عليها كتاب البيان والتبيين، اهتمت هذه الخطاطة بما يهم الخطابة على وجه التحديد، أي بجانب المقام والأداء الصوتي والإشاري، وذلك تحت عناوين أخرى غير البيان. نجد امتداد الحديث عن المقام الخطابي بحضور قوي للجاحظ، عند العسكري في كتاب الصناعتين، ونجد امتداد الحديث عن الأداء الشفوي عند ابن سنان الخفاجي، في كتابه سر الفصاحة. ومن هذا الكتاب استخرج مؤلفو البلاغة المدرسية في بداية عصر النهضة ما سموه «علم الفصاحة» مستقلا عن علم أو علوم البلاغة، وهذه مفارقة[177]!

175-انظر مزيد بيان في كتابنا: الموازنات الصوتية.

176- التقريب لحد المنطق 4.

177- انظر كتاب علوم البلاغة للمراغي، وهو الذي كان معتمدا عندنا في التعليم الأصيل في المغرب.

يبدو مما تقدم أن الجانب الذي لقي القبول من عمل الجاحظ وطُوِّرَ في المجال البلاغي هو جانب المنجز الذي سمحت به الظروف، في حين اعتبر المشروع فارغا بدون محتوى من قِبَلِ ذوي الميول المنطقية.

وتبدو قضية المشروع والمنجز من القضايا الأساسية التي ينبغي الحذر منها عند دراسة التراث العربي، فقد كان الطموح والدافع المذهبي يؤديان أحيانا إلى وجود اختلاف كبير بين الوعود النظرية والبناء المنجز.

المقام والبناء اللغوي:

السؤال الذي خرق سفينة البيان وحول مجرى النهر

جاء في البيان والتبيين: "مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم صبيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو ليكون رجلا من النظارة. فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، واطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه"[178].

ولما قرئت ضحيفة بشر على إبراهيم قال: «أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان»[179].

ما هو محتوى هذه الصحيفة التي جعلت الأستاذ يتنازل عن خطته في التدريس، وعن كبريائه، لصالح خطة جديدة ؟

لقد اعترف إبراهيم، بكامل التواضع، أنه أحوجُ إلى تلك الصحيفة من الصبيان الذين يتلقون عنه الخطابة. لاشك إذن، أنها تحمل الجديد، ولا شك أن الجديد الذي تحمله يمتلك من قوة الإقناع ما يجعل الشيخ يثور على نفسه، ويتخلى عن طريقته في التعليم.

لب الصحيفة ومدارُها قولُه: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار

---

178 ـ البيان والتبيين. تح .هارون ص1 / 135.

179 ـ البيان والتبيين 1 / 136.

المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[180].

ربما يكون انصياع الشيخ المعتزلي لهذا الكلام أنه كان مهيأ لمثل هذا الأفكار، أي أنه كان يحمل سؤالا مقلقا، ثم وجد نفسه فجأة أمام الجواب، وبدون عناء. فهذا الكلام لم يخطر، كما تعلم، ولا يمكن أن يخطر على بال واحد من أصحاب البديعيات: من ابن المعتز إلى ابن حجة[181].

هل هذه هي المرة الأولى التي يمر بها بشر بإبراهيم: وهما شيخان من شيوخ المعتزلة مشغولان بالجدل والإقناع لصالح النبوة والمذهب، أو من زاوية نظر المذهب؟ لا! إن الأمر لاشك مُبَيَّتٌ، لقد أعدَّت الخطةُ الجديدة، الخطة البديل في صمت. وأعدت طريقة تقديمها بحيث طوَت المراحل طي من تمرس بالمناظرة وعرف كيف يصيب المفصل . ومع طي هذه المرحلة طوي السؤال التمهيدي الذي يمكن تصوره على الشكل التالي :

ـــ هل ترى، يا إبراهيم، أن طريقتك هذه، في تعليم الخطابة، طريقة ناجعة؟ وهو سؤال ينطوي على إنكار.

كان الحوار صامتا أشبه بالترافع أمام المحاكم بالمذكرات، وفحواه: لندع المزايدات الكلامية جانبا. ولْنَعتمدِ المستندات والخططَ البديلةَ. خاصة والحوار يجري داخل المذهب وتمارس نتائجَه على أطفال المجموعة المعتزلية، إنه حوار تحت سقف واحد، في مسألة داخلية، أمنية: الدفاع عن وجهة نظر المذهب. أما قول بشر: «اضربوا عن هذا صفحا ...»، فهو أدخل في باب رفع الكلفة منه في باب الإعنات. فهو أكثر تأدبا مما لو سلم الورقة وانصرف، لأن الورقة نفسها تقول ما قاله اللفظ الحي، فسيكون الصمت أدل على السخرية والاستخفاف، أو الاستهانة بالمخاطب.

---

180 ـ البيان والتبيين 1 / 138 - 139.

181ـ طرح نقاد الشعر قضية المقام الخِطابي من زاوية أخرى: مناسبة المعاني للأغراض الشعرية والمواقف الإنشادية، وهذا جزء من خطابية الشعر القديم، والمقامية لا تنزل إلى درجة الصفر في أي خطاب اجتماعي تواصلي.

ثم ما هي الطريقة التي كان إبراهيم بن جلبة يتبعها في تعليم التقنية الخطابية؟ وما هي العيوب البيداغوجية أو المضمونية (الإيديولوجية)التي أثارت بشرَ بنَ المعتمر ودعته لتقديم بديل؟

لا يقدم الجاحظ وصفا لذلك، ولم نطلع عند غيره على حديث عن طريقة المعتزلة في تعليم الخطابة قبل هذه الصحيفة، ومع ذلك يمكن أن نسترشد بأمرين لمعرفة البدايات الأولى لتلك البلاغة:

- أحدهما، الطريقةُ العامةُ في «تأديب الأطفال» خلال القرون الهجرية الثلاثة. وعمودها الفقري تحفيظ الأشعار والمأثور من حكم العرب وأمثالهم وخطبهم. وقد أنجزت في هذا الإطار مجموعات شعرية من ضمنها المفضليات ..الخ. وخلفت كتبا تعليمية مهمة، مثل الكامل في اللغة والأدب للمبرد. بل تعتبر المادة التي قدمها الجاحظ في البيان والتبيين من «أشعار المذاكرة» والخطب المنتخبة والأمثال والحكم والأخبار والتاريخ والتراجم أحسن نموذج لثقافة الخطيب في ذلك العصر. فعَملُ الجاحظ خارجَ سؤالِ المشروع أشبهُ بعمل ابن رشيق في العمدة بالنسبة للشعر.

- وثانيهما، الرصيد البلاغي المتاح لذلك الوقت. وحدوده أوصاف عامة حول الجزالة والسلاسة والإيجاز والإطناب وشرف المعنى، وهذا ما نجده عند الجاحظ وابن قتيبة في الحديث عن اللفظ والمعنى، وفي البدايات الأولى لادعاءات البديعيين التي سيتصدى لها ابن المعتز متحدثا عن البنية اللغوية على الإطلاق، أي في انفصال عن المقامات والأحوال.

ولاشك أن الحديث عن شرف المعنى كان يلتبس بالاعتبارات الأخلاقية والانتماء الاجتماعي، وربما كان إبراهيم يكرس بطريقته تلك، دون وعي منه، بعض القيم التي لا تتلاءم مع موقف المجموعة التي أوكلت له تعليم أبنائها الخطابة، ومن هنا سلك بشر نفس الطريق البلاغي لتعديل المسار وتمرير الموقف المناسب الذي يتلاءم مع الموقع الفكري الاعتزالي.

يمكن القول، إذن، بأن منحى إبراهيم منحى محافظ يقوم على إعادة إنتاج النصوص القديمة وتكريس المفاهيم المهيمنة؛ وهي مفاهيم خصوم المعتزلة. هذا ما نستشفه ـ على الأقل ـ من محتوى وفحوى صحيفة بشر التي قدمت نفسها كبديل؛ وقبلت على ذلك الوجه .

تنحو صحيفة بشر منحى نسبيا تداوليا. فمآل الأمر فيها إلى تحكيم مقامات الخطاب في البنيات اللغوية، وربما في القيم الاجتماعية المعتبرة، يقول: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال»[182].

لذلك «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[183].

إن المسألة الخطابية هي مسألة وظيفية، ولا مجال لترتيب الخطاب ترتيبا قيميا بين الوضاعة والرفعة، بل الترتيب الممكن هو ترتيبه بحسب النجاعة. والنجاعة والفعالية تتم بمراعاة المقامات والأحوال من زاوية الفعالية لا من زاوية القيمة الاجتماعية.

إن هذا المفهوم الذي يتعارض مع مفهوم «الجزالة» و«الشرف»، على الإطلاق، هو موقف بلاغي قد يجد امتدادا له في حديث أرسطو، ولكنه موقف مفسر من زاوية نظر تاريخية من خلال المعطيات المحلية .

إن قول بشر: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. . »لم ينطلق بهذه القوة والجزم إلا مدعوما بموقف قيمي اجتماعي سياسي. موقف وجد المناسبة البلاغية ليعلن عن نفسه دون ما حرج.

من هنا يبدو القول بالمقام والنسبية الخطابية رفضا للتطرف الذي عرفه الخطاب والممارسة في العصر الأموي في الاتجاهين: التكفير الخارجي، والتخاذل الإرجائي. لقد بلور هذا الموقف في شعار: المنزلة بين المنزلتين الذي يمكن سحبه من الواقعة إلى القضية.

---

182 ـ البيان والتبيين 1 / 136

183 ـ نفسه. 1 / 138 - 139.

لقد انطلقت بلاغة الخطاب الإقناعي عند اليونان ـ كما سيأتي ـ من النزاع حول الأرض، أما بلاغة الإقناع العربية فقد بدأت كمؤسسة، كمدرسة للتعليم والنقاش حول المنهاجية ـ كما ترى ـ من الخلاف حول قضايا سياسية دينية، أو دينية سياسية. يرمز إليها من جهة بقضية الخلافة وتلخص من جهة أخرى في قضية العدل...

إن الاهتمام بالخطابة والإقناع ـ برغم ما قد يشوبه من انحرافات ومغالطات ـ هو مظهر من مظاهر الإحساس بقوة الكلام وجدواه. وذلك لا يتم إلا في ظروف خاصة.

وقد فسر المحدثون العودة بقوة إلى نظرية الإقناع حسب المقامات والأحوال ـ التي يجمعها حاليا البحث التداولي ـ بهيمنة النسبية على الحياة الحديثة في الغرب، التي تتجلى ـ ضمن ما تتجلى فيه ـ في الاحتكام إلى الرأي العام وسلوك أساليب الاستمالة كما هو الحال في الإشهار.

وكانت الفرق السياسية والمذهبية في العصر الأموي، بوجه خاص، قد تنبهت إلى أن الخطابة سلاح ضروري لكسب المعارك، قبل السيف، ومعه، وبعده، فأنتجت منها إنتاجا جعل العصر يتقدم على جميع العصور، وانتبه المعتزلة أكثر من غيرهم، وقبل غيرهم، لضرورة تنظيم هذا المجال. ولاشك أنهم سمعوا ـ من هذا السبيل أو ذاك ـ شيئا عن بلاغة أرسطو المقامية، فبدأوا في تقديم مقترحات أشبه بالمناهج الدراسية للمدرسة الجديدة: مدرسة الخطابة. تلك المدرسة الشعبية التي كان بوسع المرء أن يمر بها فيقف مستفيدا أو متفرجا.

إن قوله :»ليكون رجلا من النظارة « تدل على أن هناك مَشهداً وفرجةً مَا، في مكان مفتوح، مكان تجري فيه تمارين وتطبيقات مسرحية تستحق المشاهدة.

لقد سبق أن قلنا بأن الخطابة العربية في العصر الأموي كوكب خرج من مجرة الشعر، فحمل معه الكثير من المكونات الشعرية في بنائه الصوتي والدلالي. انفصل بسبب واقعي محلي (الصراع السياسي)، غير أن هذا الكوكب المنفصل عن مجرته سرعان ما جذبته مجرة أخرى كانت تتجمع في الأفق العربي الإسلامي من ذرات مجرات أخرى تلاشت في الزمن القديم (زمن أثينا والإسكندرية..)، تبعا لجاذبية ومناخ الزمن الجديد، وهي مجرة المنطق. ففي

إطار هذا التحول بدأت المناظرات تحل محل الخطاب الوحيد الجهة الذي انزوى في أماكن ومناسبات خاصة.

في هذا السياق الحضاري ظهرت الحاجة إلى استقلال فن الخطابة بتقنيات خاصة، وكانت صحيفة بشر بن المعتمر أحد تجليات هذه الحاجة، غير أن الثقافة الشعرية كانت ما تزال قوية بالقدر الذي يسمح لها بإجهاض كل تطلع انفصالي. أضف إلى ذلك أن المعرفة ـــ الاجتماعية والأخلاقية والنفسية والمنطقية ـــ الضرورية لقيام فن خطابة بالمعنى الدقيق ما تزال في بدايتها[184].

لذلك نجد أن الجاحظ الذي أورد وجهةَ نظر بِشْرٍ، كبديل، سرعان ما وقع في حرج.

تقييد

لم يكد «المقام»، الذي حل محل البيان، يستقر في مقعد القيادة حتى اصطدم بالهُجنة اللغوية، وبمفهوم عام للفصاحة لا يفرق بين الأجناس. فثارت حوله الشبهات وبدأت عملية التراجع عن المقام لصالح الفصاحة. لقد تبين للجاحظ في الحين أن لقمة المقام لم تكن سائغة، كانت باردة من الخارج فحسب، فنفث أكثرها.

هذا ما يفسر تراجعه عن الإطلاق الذي قدم به شواهد تُحكِّم الغرض في الوسيلة. من ذلك تقييده لكلام العتابي الذي أورده مُطلقاً في قمة نشوة الحديث عن المقام، قال: «والعتابي حين زعم أن كل من أفهمَك حاجتَـك فهو بليغٌ، لم يَعْنِ أن كلَّ من أفهمنا من معاشر المولدين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن نكون قد فهمنا عنه. ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لمِ اشتريتَ هذه الأتان؟ قال: أركبها، وتَـلِـدَ لي. وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً..»[185].

184 - انظر حديث أرسطو عن هذه المعرفة في مقدمة فن الخطابة.

185 ـ البيان والتبيين 1/161. ويورد أمثلة أخرى طريقة يُرجع إليها.

ومن هنا بدأ التمييز بين البلاغة والفصاحة: أن تكون بليغا (أي مُفهِما ومُؤثرا) يقتضي أن تكون أولا فصيحا (نقي الكلام). حاول ابن سنان فيما بعد توسيع مفهوم الفصاحة على أساس اللفظ لتغطية كل المجال البياني ولكنه اصطدم بعوائق معرفية تحدثنا عنها في كتاب البلاغة العربية.

2 ـ من الغرابة الشعرية إلى المناسبة الخَطابية

(مشروع عبد القاهر الجرجاني ومنجزه)

أ- الغرابة الشعرية

من المسلمات التي ثبَّتتها كتبُ تاريخ البلاغة ودروسُها الجامعيةُ التي تلقيناها دون أي نقد أو مناقشة أن عبد القاهر الجرجاني هو واضع علمي البيان والمعاني؛ الأول في كتابه أسرار البلاغة، والثاني في دلائل الإعجاز. والذي فعله السكاكي بعده هو التسميةُ أو تأييد المصطلح وتأطير النظرية. فيفهم، تبعاً لذلك، أن الكتابين يبنيان رؤية منسجمة في تحديد مفهوم البلاغة. وقد ينزلق بعض الباحثين المحدثين مع ذيوع مفهوم النظم عند عبد القاهر، واحتفال الدراسات التداولية الحديثة به، إلى تعميم مفهوم النظم على الكتابين؛ والذي تنطق به بنيةُ الكتابين غيرُ ذلك تماما.

فالكتابان باعتبارهما محاولة للجواب عن سؤال الهوية البلاغية يصلان إلى حد التناقض. وأعني بذلك أن كتاب دلائل الإعجاز ينسخُ مشروع كتاب أسرار البلاغة، ولكنه لا يبعد مادته كما أبعد الأصوات: يفكك بنيته ويُعيد استثمارَ مادته في تصور جديد. فما هي بنية الأسرار، وكيف تم التخلي عنها في الدلائل؟

من الصريح الذي لا يحتاج لإقامة حجة عند الجرجاني أن كتاب الأسرار يبحث في المعاني، وذلك بعد إقصاء الألفاظ باعتبارها أجراسا (السجع أو التجنيس)[186].

---

186 ـ لتبُّين ذلك يُرجع إلى القسم الأول من كتابنا الموازنات الصوتية، والفصل الثاني من القسم الثاني من كتاب البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها. (ط 1. ص366ـ 372).

والمقصود بالمعاني الشعرية في الأسرار هي أساساً: التشبيهُ والاستعارةُ والتمثيلُ. هذه أشياء صريحة في متن الكتاب. ثم يتم البحث، بعد ذلك، في درجات ترقّي المعاني من الحسية والبساطة إلى العقلية والتركيب.

ويثار النقاش حول الوضوح والغموض والصدق والكذب، ويضطرب الجرجاني بين الانتصار لـ«العقل» والوضوح وبين الانتصار للواقع الفني وطبيعة الشعر القائم على الغموض. وبعد أزمة عابرة ـ نتيجة إحراجات النص القرآني الذي لا يحتمل الكذب ـ ينطلق مرة أخرى معتمدا أمثلة من إبداع الشعراء العباسيين الكبار في نشوة عارمة منوها بصور التخييل القائمة على الجمع بين أعناق المتنافرات.

ماذا كان عبد القاهر يصنع في كتاب الأسرار كمشروع؟

لقد كان يحاول بناء بلاغة تنسجم مع الرؤية الأشعرية حوْل طبيعة الكلام باعتباره معانيَ نفسيةً، وقد وجدَ ضالّتَه في القراءة العربية لفن الشعر لأرسطو: قراءة الفارابي وابن سينا خاصة، حيث تحولت المحاكاة من مجال التشخيص المسرحي إلى التشخيص اللساني عن طريق الاستعارة والتشبيه والتمثيل[187].

غير أن نظرية المحاكاة (في التأويل المذكور) إن أسعفتْ في إرجاع البلاغة إلى المعنى خدمةً للمذهب، فهي، بوقوفها عند صور بعينها، لا تسعف في تفسير الإعجاز في جميع صور القرآن الكريم، لأنه ليس كلّه تشبيها واستعارة وتمثيلا. ولا مجال للحديث، في تصور عبد القاهر الجرجاني، عن عدة بلاغات (بلاغة للشعر وأخرى للقرآن)، لأن القرآن تحدّى العرب في مجال تبريزهم، في بلاغتهم، ولذلك لزم أن يكون ميدان التحدي واحدا: بلاغة العرب التي يمثلها الشعر.

حين انكشفت أسرار البلاغة للجرجاني، وجَدها مُتبلورةً حول الغرابة «والجمع بين أعناق المتنافرات». ولذلك توقف مشروع بلاغة المعنى، مشروع أسرار البلاغة، وبدأ البحث عن سر آخر (أو دليل آخر) لبلاغة تكون حاضرة في النص كله لا في أجزاء منه، كما هو الشأن بالنسبة للتشبيه والاستعارة والتمثيل،

---

187 ـ انظر الفصل الخامس من القسم الأول من كتاب البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها.

ولم يكن ممكنا ذلك إلا في مستوى التركيب النحوي، أو النظم، كما سماه . وهذا موضوع الحديث اللاحق.

ب ـ المناسبة التداولية

بالانتقال من أسرار البلاغة إلى دلائل الإعجاز أصبح الغرض من واضحا: البحث عن بلاغة تبرهن على إعجاز النص القرآني مقارنة بالنص الشعري الذي قادت بلاغته إلى الغرابة الدلالية، أما بلاغة الأصوات فقد أقصيت مبدئيا.

هل قلب الجرجاني صفحة الغرابة والعدول الدلالي، وبنى بلاغة جديدة لا صلة لها بما جاء في كتاب الأسرار؟ أم اعتبر الدلائل جبهة أخرى للبحث في نفس الموضوع كما جاء في قراءة السكاكي الذي قرأ الكتابين منفصلين جاعلا أحدهم حلية وتكميلا للآخر؟ (حيث صار علم البيان (مادة الأسرار) لاحقا لعلم المعاني (مادة الدلائل) ومكملا له). تصور السكاكي ليس خاطئا، بل يستجيب لمنجز الجرجاني وحماسه، ومآله. ولكنه يتجاهل مخططه الأول الذي انطلق منه في الدلائل، كما نبين بعده.

انطلق الجرجاني في الدلائل من تصور مركب: ضم مادة الأسرار، وضم مادةً جديدة سماها "النظم"، وبهذه المادة الأخيرة، وهذا المفهوم الجديد، سيُعرف كتاب دلائل الإعجاز! لماذا؟

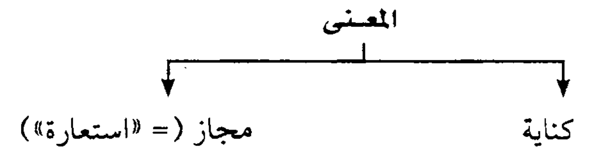
لأن المادة التي سيدور عليها الحديث طوال الكتاب هي مادة النظم (التقديم والتأخير والحذف والذكر والفصل والوصل...). أما مادة كتاب الأسرار (التشبيه والاستعارة والتمثيل والمجاز) فقد بقيت في كتاب الأسرار. فاعتُبر كتاب الدلائل كتابا خاصا بالنظم، ثم غلب النظم على بلاغة الجرجاني. والنظم هو تتبع خصائص التراكيب في علاقتها بالمقاصد والمقامات، وهو المبحث الذي احتفلت به التداولية الحديثة ونظرية الحجاج اللسانية.

تحدث الجرجاني عن الخطة الجديدة (وهي نفسها البلاغة الجديدة عنده) في نصين صريحين: عزا المزية في أولهما إلى أحد طرفين: اللفظ أو النظم، ثم عدلها في الثاني مضيفا طرفا ثالثا، وهو "ما تركب منهما". نقتطف هنا فقرة من كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها إسعافا لمن لم يتمكن من الاطلاع على الكتاب:

"بدأ الجرجاني عمله في الدلائل (بعد المقدمات[188]) بخلاصة مركزة أعطى فيها خطاطة للتحويلات الدلالية البلاغية التي تلتبس أحياناً باللفظ فأرجعها إلى الكناية والمجاز:

«اعلم أن لهذا الضرب اتساعا وتفننا لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز»[189].

هذا التحديد شبيه، كما ترى، من حيث الشكل، بتحديده لصور المعنى التي تجمع شتات المعاني المختلفة في مقدمة كتاب الأسرار. أما من حيث المضمون فهناك اختلاف كبير. لقد تخلي هنا عن التشبيه والتمثيل غير المجازي، وأحلَّ الكناية محله، فهي الآن طرف جديد يقتسم المجال مع المجاز الذي حصره المؤلف في الاستعارة: «وأما المجاز فقد عول الناس في حده على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز. والكلام في ذلك يطول وقد ذكرت ما هو الصحيح من ذلك في موضوع آخر، وأنا أقتصر هاهنا على ذكر ما هو أشهر منه وأظهر، والاسم والشهرة فيه لشيئين **الاستعارة والتمثيل**، وإنما يكون التمثيل مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة»[190]. إن حصر المجاز في الاستعارة يعني أيضاً السكوت عن المجاز غير التشبيهي (المرسل).



بعد تعريف موجز ببنية الكناية والاستعارة ووظيفتهما يوقف الجرجاني الحديث عن بناء المعنى ليُدخل العنصر الجديد الذي اقتضى تأليف كتاب الدلائل، العنصر الذي لم يُتطرق إليه في كتاب الأسرار: النظم. ويصرح بِأن غرابة المعنى ليست المعيارَ الوحيدَ للبلاغة. ومن الطريف أن الجرجاني استعمل عبارةَ الأسرار والدِقائق في وصف المعطى الجديد:

188. دارت مقدماته حول مشروعية الاشتغال بالنحو والشعر.

189. دلائل الإعجاز 52.

190. نفسه 53.

«اعلم أن هاهنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن نُعدَّ جملةً من القول في النظم وتفسيره والمرادِ منه، وأيِّ شيء هوَ؟ وما محصولهُ ومحصولُ الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أَن نأخذ في ذكره، وبيانُ أمره، وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه.. وقد علمتَ إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره... وإجماعَهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قَدْرَ لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغَ في غرابة معناه ما بلغ»[191].

إن هذا النص أساسي في فهم الأسئلة التي يحملها مخاضُ الانتقال من «غرابة» «الأسرار» إلى المناسبة النظمية في الدلائل.

و«ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو»[192]، فينظر في الخبر والشرط والجزاء والحال..الخ «وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى»[193]. فيوضع كلٍ في موضعه المناسب لغرض المتحدث، وذلك ضمن الإجراءات الأساسية التالية: التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والإضمار والإعادة والتكرار..الخ[194].

ففي هذا السياق العام يبدو النظم عنصراً مساعداً يضاف إلى التحويلات الدلالية المذكورة: الكناية والمجاز. غير أن الجرجاني ينص عَرَضاً على إمكانية وجود المزية البلاغية في النظم وحده.

«وإذ قد عرفت ذلك (وجوه النظم) فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً دون غيره، مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف، أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم وتَأَمَّله، فإذا رأيتَك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر إلى حركات الأريحية مما كانت، وعند ماذا ظهرت؟[195]».

191. دلائل الإعجاز 63.

192. نفسه 64.

193. نفسه.

194. نفسه 68.

195. دلائل الإعجاز 67.

والجواب عندهُ أنها راجعة إلى الإجراءات النظمية المذكورة. وقد تحولت هذه الملاحظة العارضة، بعد ذلك، إلى أساس للتصنيف، فكان ثنائيا مرة وثلاثيا مرة أخرى.

♦ **التقسيم الثنائي**

«اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسنُ فيه إلى اللفظ وقسم يُعزى ذلك فيه إلى النظم:

[أ] - «فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر..»[196].

[ب] - و«القسم الثاني» هو الذي تعزى فيه المزية إلى النظم»[197].

ولتوضيح معاني النحو يقوم بإعراب الفاتحة وبيان العلاقات النحوية بين ألفاظها.

♦ **التقسيم الثلاثي**

قال ملخصا حديثه عن النظم وتداخله بأوجه الحسن الأخرى تداخلا دقيقاً يؤدي الخوض فيه إلى الغلط:

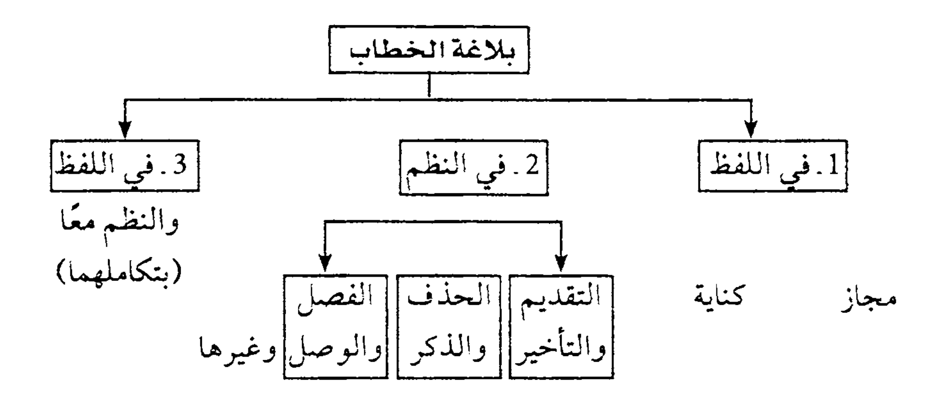
«وجملة الأمرِ أن هاهنا كلاماً حُسْنُهُ للفظ دون النظم، وآخرَ حسنهُ للنظم دون اللفظ، وثالثاً قرَىَ الحسنَ من الجهتين، ووجبت له المزيةُ بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث. وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه. وتراك قد حِفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كانَ به وباللفظ أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردتُ حين قلتُ لك: إنَ فيٍ الاستعَارة مالاَ يمكنُ بيانُه إلا من بعدِ العلم بالنظمِ والوقوفِ على حقيقتهِ»[198].

---

196 ـ نفسه 329.

197. نفسه.

198. نفسه 78. 79.



إن العنصر الجديد المتولد هنا هو العنصر الذي يقع فيه التفاعل بين التغيير الدلالي (اللفظي) والتغيير التركيبي (النظمي)، والجرجاني يضع أصبعه هنا على قضية جوهرية في الشعر، قضية التفاعل بين المكونات. والتفاعل هو مزية شعر الفحول من الشعراء، في حين يركز المتوسطون والأقل كفاءة على عنصر واحد عن طريق التراكم.

هذه هي الخطة الصريحة لكتاب دلائل الإعجاز؛ فهو يعيدُ مقولة كتاب الأسرار التي قوامها ورأس هرمها الاستعارة والتمثيل الاستعاري، ثم يضيف إليها الكناية، قبل أن يوسع ليستوعب كل صور المجاز والاتساع والعدول باللفظ عن الظاهر كما سلف. يستعيد هذه الخطاطة تحت مصطلح اللفظ باعتباره جنساً أعلى في مقابلة النظم. ومن هنا يمكن القول بأن خطاطة الدلائل أكثر بساطة ووضوحاً»[199].

199. البلاغة العربية أصولها وامتداداته. 347 ـ 351.

- III -

البلاغة المأسورة

لم يُقيض للبلاغة النقدية التي قدم حازم نموذجا لها الامتدادُ والتعديلُ، ويبدو أن ذلك راجع إلى كونها «معضودة» بالمنطق والحكمة كما قال المؤلف، وكان عصر المنطق والحكمة قد ولّى، كما ولّى عصرُ النحو الاستكشافي القائم على فحص النصوص، وحلّ محله نحو معياري يقرر القواعد، ويعدد الفروق.

البلاغة التي سيُكتب لها الرواج والاستمرار إلى يومنا هذا هي بلاغة مأسورة لدى النحو والمنطق، فيما يبدو مفارقة! وهي مفارقة تزول مع تأمل الفرق بين أن تكون مستقلة معضودة، وبين أن تكون مأسورة مستعملة حسب خطة غير خطتها.

تأمل الموقع الذي وضع السكاكي البلاغة فيه، حسب نص كلامه الذي يحدد خطة كتاب المفتاح وهدفَه. يقول:

"وقد ضَمَّنتُ كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيتُ لابد منه، وهي عدة أنواع متآخذة. فأودعتُه علمَ الصرف بتمامه، وتمامُه بعلم المعاني والبيان.. ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحدّ والاستدلال لم أرَ بُدا من التمسُّح بهما.. "[200].

لقد أصبحت البلاغة.. بتوجيهها إلى النظم، مع عبد القاهر الجرجاني، مبحثاً مكملاً لمباحث النحو.. تهتم بالمقامات وما يناسبها من عبارات، «تحرزاً من الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال».

هل نقول مع ابن خلدون (وقد لاحظ ما آل إليه حال الشعر في عصره من «هجنة.. وذلة» بعد عز ورفعة)، هل نقول معه: «والله يُقلِّبُ الليلَ والنهار».. أم

---

200 ـ مفتاح العلوم، 6. تح. زرزور.

نقول: لا ذنب للسكاكي فهو إنما عالج الجانب الذي يهمه، وهو البلاغة المكملة للنحو، أي البعد التداولي الذي يتناول العلاقة بين الإنسان واللغة، ويهتم بنجاعة الخطاب وأبعاده الإقناعية؟

لماذا لم يناقش أحد من القدماء مفهوم السكاكي للبلاغة؟ فلو طُرح هذا الاختيار في القرن الرابع الهجري مثلا لأثار زوبعة لا تقل عن تلك التي أثيرت حول اللفظ والمعنى، أو حول مذاهب الشعراء: خصومات وموازنات ووساطات.

من سوء الحظ أن النحو الذي اعتقلت البلاغة عنده كان، هو الآخر وقتئذ، مجرد مستبد بئيس كممدوح المتنبي: **جوعانُ يأكل من زادي ويمسكني**

وأحسن مأكل وجده النحو للبلاغة في محبسها قطعٌ من خبز شعير منطقي جاف انقطعت الصلة بينه وبين الحياة منذ قرون.

لو عاد ابنُ جني إلى الحياة في عصر السكاكي (وابن جني كما تعلم هو صديق المتنبي وشارحه ومُوسِّع مجال المجاز والضرورة).. لأدخل أغلب النحاة إلى الكُتّاب لحفظ شيء من شعر المتنبي، لألزمهم بلزوميات أبي العلاء، ولربما غضب، وغضَّ عن العواقب، فألحق المفتاح بكتاب الفصوص.

الذي تلقَّف مفتاح العلوم ليس بلاغيا متضلِّعا، ولا بلاغيا بليغا مثل الجاحظ، ولا شاعرا مثل حازم، بل هو قاضي القُضاة أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي (ت 739)، من نحوي إلى فقيه، يداً بيد. تذكر مراجع ترجمة القزويني أنه كان عالماً سمْحاً؛ تولَّى رئاسة الأوقاف فوسَّع على الفقراء وذوي الحاجات. ربما بقدر ما ضيَّق على البلاغة.. إذ أخرج القسم المخصص للبلاغة من كتاب المفتاح في «تلخيص»غطى على كتاب المفتاح وصرف الناس عنه.. يقول حامد عوني في كتابه المنهاج الواضح[201].

«وقد بلغ هذا الكتاب من الشهرة ما لم يبلغه غيره من كتب هذا الفن.. إذ عُنِيَ به أرباب الشروح والحواشي، فانكبوا عليه، وكشفوا غوامضه.. وأبانوا معالمه.. ومن ثم حرص أبناء الأزهر على مدارسته.. وتفهم عباراته وما كتب عليه إلى يومنا هذا»[202].

---

201 ـ انتهى من تأليفه سنة 1366هـ 1947م:

202 ـ المنهاج الواضح 12. قوله: «يومنا هذا..» يعني منتصف القرن العشرين.

انظر كيف طوى هذا التلخيص الزمن العربي من نهاية القرن السابع وبداية الثامن إلى منتصف القرن العشرين، بل إلى يومنا هذا (حوالي ستة قرون: (8هـ 14-هـ)).. لم ينغِّص أحدُ فتوحاته ولا أقض مضجَعه.

ومن الإنصاف أن نقول إن القزويني قد أحسَّ من تلقاء نفسه أنه ضيقَ الخناقَ على البلاغة حين حشرها في «تلخيص»، فكتب كتابا آخر تحت عنوان «الإيضاح»، جعله، كما قال في فاتحته، كالشرح للأول، بل تجاوزَ فيه ما جاء في «التلخيص» أحيانا إلى «المفتاح» مباشرة، بل تخطى المفتاح إلى الدلائل والأسرار[203].

قال حامد عوني: «وقد بلغ من اعتراف العلماء بهذين الكتابين وجليل نفعهما أن عدوهما آخر ما وصل إليه الإتقان والإبداع في هذه الفنون، فلم يحدثوا أنفسهم بالزيادة على ذلك أو التبديل فيه أو الخروج عليه، ووقفت همتهم عند ما انتهى إليه هذا الإمام الجليل»[204].

وقد كثرت الشروح والحواشي والتقارير حول الكتابين خاصة الأولَ منهما. ومن أشهر من شرحوا التلخيص سعد الدين التافتازاني في شرحين: «المطول و«المختصر». هذه هي النهاية التي آل إليها ذلك «العلم الكلي»، وهذا هو المصير الذي صارت إليه إمبراطورية البلاغة العربية بعد أن كانت في وقت من الأوقات تكتسح كل المجالات لا تكاد شمس المعرفة تغرب عن حدودها.

لقد أصبحَتْ في ضيافة النحو، ثم صارت، هي والنحوُ، ومدخلٌ إلى المنطق بئيس، ضيوفا على العلوم الشرعية في المدارس والمعاهد الدينية لعدة قرون، حيثً تَحضُرُ الألفية وشرحها، ومطول السعد ومختصره، والسلم للأخضري إلى جانب كتب الفقه والفرائض والحديث ... تحضر باعتبارها علوما مساعدة على فهم كتاب الله وسنة رسوله (ص)، واستنباط الأحكام الشرعية... وكانت تؤخذ أخذ الملْح للطعام فرارا من مظنة الاشتغال بما لا طائل من ورائه... وكثيرا ما غُمزت البلاَغَةُ بماضيها «السيء»، وعلاقاتها المشبوهة يومَ كانت متحالفة مع الشعر، وكان الشعر متحالفا مع العروض، والعروض متحالف مع الموسيقى، والموسيقى مثيرةٌ للشهوات، مُهيِّئةٌ للفسق!

---

203 ـ (الإيضاح 70/ 1).

204 ـ المنهاج الواضح 139.

ومع ذلك فلم يكن لها من خيار لحفظ وجودها غيرُ هذه الزاوية مهما ضاقت، لقد تعودتْ على نظراتِ أهل الدار إليها كخادمة فاتنة مُريبة، أو خادم آبق، لا يؤمن جانبه.

كانت بعض المدارس تزيد من تضييق الخناق فتقرر مَنحَى شارح واحد كما كان عليه الحال في المعاهد الدينية المصرية حسب ما جاء في مقدمة حامد عوني. فقد ألف كتابه «لطلاب السنة الثانية الثانوية للمعاهد الدينية «وفق منهجهم الدراسي... «حسب ما قرر عليهم من مباحث السعد»، أي سعد الدين التافتزاني[205].

حفظت البلاغة السكاكية رمقها لعدة قرون كما قيل في المعاهد الدينية – في حين ظل البديع متسكعا في الشروح والمنظومات – ومن هذه المعاهد خرجت البلاغة في عصر «النهضة» إلى المدارس الحديثة العالية والثانوية. وسلكت هذه المدارس، كما يقول المراغي، طريقا مخالفا لما يقدم في «معاهد العرفان»، فألف المدرسون بها مختصرات أو رسائل تناسب تلك المدارس... «والحق (كما يقول المراغي) أن تلك الرسائل وإن اختلف ترتيبها وتنوع تبويبها تنحو، على الجملة، في أسلوبها منحى ما كتبه صاحب التلخيص وشراحه، وتسير على خطتهم، وتحذو حذوهم»[206].

وبناء على هذه الرسائل والملخصات ألفت الكتب الأولى التي اكتسحت العالم العربي من الأربعينات إلى اليوم، مثل: البلاغة الواضحة، وعلوم البلاغة، وكان الهدف تقديم بلاغة المتقدمين بطريقة المتأخرين، كما يقول المراغي: «ورأينا أن نضع كتاباً يجمع بين طريقتي المتقدمين من سعة الشرح والبيان والاعتماد على الأمثلة والشواهد.. وطريق المتأخرين من صنف الترتيب والتبويب وجمع ما تفرق من قواعد هذه الفنون»[207].

انتهى المراغي من كتابه سنة 1334هـ أي منذ حوالي قرن من الزمن. فإذا اعتبرنا ما هو معلوم من تسارع وتيرة التغير والكشف العلمي في هذا القرن بما يوازي عشرات القرون، أمكن القول أن كتاب المراغي باعتباره قراءة خاصة،

---

205 ـ نفسه 2.

206 ـ علوم البلاغة. 13.

207 ـ نفسه 14.

قراءة بحسب «طريقة المتأخرين» لزمنه ـ قد أصبح بعيداً عنا، وبعيداً جدا، إلا أن يكون تأهيلنا وأسئلتنا بعد هذا الزمن الطويل ما يزالان ينتميان إلى تأهيل «المتأخرين» وأسئلتهم ما زالت البلاغة تدرس في مدارسنا الثانوية وفي جامعاتنا بنفس الطريقة وتعتمد نفس الكتب.. بلاغة القزويني والتافتازاني يتقدمها علم المعاني ويتأخر البديع يلتقط ما سقط من سقط المعاني والبيان في غير نظام.. وما تزال الكتب التي ألفت في بداية القرن تتصَّدر لوائح المراجع .. بل الأدهى من ذلك أن الكتب التي ظهرت بعدها بعقود تسير على نفس الخطة، بل تميل إلى التبسيط المخل وإطلاق الأحكام الذوقية حول الوظائف بدون ضابط.

بل خلف من بعدهم خلف مال إلى الاحتيال بوضع عناوين مضللة كما هو الحال في كتب الدكتور بكري شيخ أمين الذي أصدر دروسه في علوم البلاغة تحت عنوان عام: البلاغة في ثوبها الجديد (1979). وقد يكون البصر كليلا فيشتري المرء ثوباً خلقاً يظنه جديدا. وما زلت أذكر إحساس الخيبة الذي أحسستُ به يوم حملتُ تلك الكتب بلهفة من مكتبي بالجامعة إلى البيت، واختليت بها للاستماع إلى الجديد.. !

ومن هذا المنحى عنوان كتاب للدكتور رفيق خليل عطوي: صناعة الكتابة، بخط بارز يخفي عنوانا ثانويا صغيرا: علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع (1989). ونخرج من الثمانينيات إلى التسعينات لنجد اللون الأحمر يدخل معركة التجديد، نقرأ على صدر كتاب الدكتور مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية (بالأزرق) تأصيل وتجديد (بالأحمر).. وحين قرأت التأصيل، وقبل أن أعبر إلى التجديد قلت: لعل هذا العنوان الفرعي موجه إلى ثيران البلاغة.. فانتقلت إلى الكتاب الثاني للمؤلف بعنوان: المعاني: علم الأسلوب.. فوجدت نفس التأصيل «الثوري» ولم أجد الأسلوب. وقد صدر هذا الكتاب سنة 1996 (نعم 1996 في ظهر الورقة ووجهها [ونحن وقتها ما نزال في سنة 1995])، فهو ثوري حقا، سبق زمنه.

أما كتاب علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، والبديع) للدكتور محمد سليمان ياقوت في جزأين (صدر 1995) فمن الأمانة أن أقول إني لم أفهم عن أي شيء يتحدث بالنظر إلى العنوان.

لا جدال في أن هذا المنحى التضليلي جدير بالشجب، لأن المسألة لا تتصل بالاجتهاد أو الكفاءة بل تمس الأخلاق؛ فقد يعذر الإنسان في الأولى ولا يعذر في الثانية[208].

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك أن مجال التأليف البلاغي في الإطار المدرسي، وحسب الخطة المدرسية، بدأ يستهوي بعض المطلعين أو الطامحين للاستفادة من الدراسات الحديثة. وهذا ما نسجله للجهد الذي بذله الأزهر الزناد في كتابه: دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة (1992)، يظهر ذلك في بعض التحليلات (الاستعارة ـ التجنيس)، وقد حاول المؤلف الإشارة إلى همه من خلال لائحة المراجع الحديثة والمعتمدة.

غير أن هذا العمل يمكن أن يُعتبر، هو الآخر، رقصا في الأغلال. إذ المطلوب هو إعادة النظر في مفهوم البلاغة، وإخراجها من الأسر الذي وقعت فيه منذ قرون لإعادة العلاقات مع الإمبراطورية القديمة.

وهذا الأمر لن يتحقق مادامت الجامعات تلقي الحبل على الغارب فيما يخص الأدب وعلوم الأدب، ومادام الأساتذة في أكثرهم يؤثرون استهلاك الجاهز ويرتابون من الجديد والمجددين. إن الجامعات تُصمُّ آذانها عما يجري حولها من بحوث فردية جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار، والحال أن هذه الجهود تمثل اللبنات الأولى لإعادة القراءة للخروج بكتاب مدرسي جديد يستوعب معطيات الماضي في أسئلة الحاضر. لقد حان الوقت ليقول طلبتنا: "كان السكاكي رحمه الله قد صاغ جهود المتقدمين على نحو كذا، في حين صاغها حازم على شكل كذا، وكان التراث العربي أوسع من أن يُستوعبَ في هذه القراءة أو تلك، ولذلك اقترح الدارس المحدث قراءة أخرى أساسها كذا وكذا، وجدواها كذا وكذا". والله أعلم.

208ـ وقد انتقل هذا العبث المخادع من المؤلفات المدرسية التي كانت في أصلها كراسات، إلى الكتب التطبيقية، ومن أسوأ الأمثلة، في هذا الصدد، كتاب: قراءة ثانية لشعرنا القديم، للدكتور مصطفى ناصف. فهي قراءة غير قابلة للترقيم.

- IV -

من النقد الانطباعي

إلى التأسيس البلاغي في المغرب[209]

عرف المغرب خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين حركة نقدية حيوية اتسمت، في غالبها، بالتقويم والسجال، تلتها ـ في نفس الفترة ـ حركةٌ علمية بلاغية وسميائية تأسيسية.

قامت الحركة النقدية في مبدئها على قراءات من الشرق والغرب، يختلط فيها ما هو علمي بما هو فلسفي وأيديولوجي، ثم بدأت الأعمال الجامعية تعطي ثمارها، ابتداء من أوائل الثمانينيات، في واجهتين: تقديم النظريات الحديثة عرضا وترجمة وتطبيقا، من جهة، وتحقيقا للتراث العربي ودراسته، من جهة أخرى. وقع ذلك في انفصال بين المجالين، ثم تلاه اتصال وتفاعل، بل صار الاتصال والتفاعل مناط المزية والتفاضل، وصار التخندق في القديم وحده، أو الحديث وحده دليلا على العجز، خاصة مع شيوع مفاهيم التناص والقراءة.

ولا بد من الإشارة إلى أن البحث البلاغي استؤنف في المغرب الحديث، بعد قرون من الجمود، بعيدا عن الدروس والمقررات المنسوبة للبلاغة. استؤنف من نقد الشعر الذي كانت أصداؤه تَـرد من الشرق العربي، ثم تهيأت له الظروف للانتقال شيئا فشيئا نحو النقد الحديث في مصدره الفرانكوفوني، فنافس التيار المشرقي الذي يهيمن علية المصدر الأنـكلوسـاكسوني، خاصة بعد طه حسين ومحمد مندور. وبقيت دروس البلاغة تقدَّم للذكرى والوفاء لتراثٍ لم

---

209 ـ يصلح هذا العنوان موضوعا لبحث جيد في مستوى الدكتوراه، يكون لبنة من لبنات كتاب في تاريخ البلاغة العربية الجديدة.

تطبْ نفوسُ العرب بعدُ للتخلي عنه رسميا كما فعل الفرنسيون، وخيرا فعلوا. وفي عقد الثمانينيات من القرن الماضي بدأت محاولات ربط تلك الدروس البلاغية المعزولة بالحركة النقدية. من خلال عودة مكثفة للتراث ساهم فيها توسع التعليم الجامعي وتأثير شيوخ القومية العربية من شتى المشارب، ثم أخذت هذه العناية بالبلاغة شرعية منهاجية من خلال التنظيرات الجديدة التي أعادت صياغة المفهوم في إطار فلسفي عام يسترجع البعد التداولي الحجاجي. نقدم في هذه المبحث المهاد النقدي ثم الانطلاق البلاغي.

1 ـ الخطاب النقدي حول الشعر المغربي الحديث والمعاصر[210]

تنبيهان:

إن تتبع حركة النقد الأدبي في المغرب يكشف عن مفارقة، فبرغم حضور الشعر حضوراً قويا في المقررات الدراسية الابتدائية والثانوية والجامعية فإن نقده، وتجديد هذا النقد، ظل بطيء الحركة، وذلك بخلاف النقد الروائي الذي حظي في العقد الأخير (عقد الثمانينيات) باهتمام كبير. يظهر ذلك الاهتمام، مثلا، في عدد الندوات واللقاءات التي نظمها اتحاد كتاب المغرب حول الرواية والفن القصصي عامة في هذه الحقبة. وقد بدا في وقت من الأوقات وكأن نقد الشعر قد وُكلَ إلى الشعراء أنفسهم.

في ظل هذا الواقع بقيت الانطباعيةُ واجترارُ التراث سائدين في تدريس الشعر دون أن يكون لأصحابها من الجرأة ما يجعلهم يقترحونهما في دراسات جادة تُطبعُ وتروج خارج المدرجات والأقسام[211]. وهذا طابع تدريس الشعر العربي بوجه خاص.

210ـ قُدمت خلاصة هذه الدراسة بالملتقى الأدبي المغاربي الثاني بجامعة وهران يوم 89/12/25.

211 ـ أذكر أنني كنت خاطبت بعض أساتذة اللغة العربية من التيار المحافظ، عند إنشاء مجلة دراسات (1985)، طالبا منهم إعداد محاضراتهم للنشر في المجلة، فاعتبروا ذلك تعريضا بهم، وجاء ردهم عنيفا، في حين كنت أظن أنني أقدم لهم خدمة أشكر عليها.

أما المحاولات التجديدية التي عرفها نقد الشعر في المغرب فقد ارتبطت في الغالب بنقد الشعر المغربي الحديث والمعاصر، في الصحافة. ففي هذا المجال طرحت الأسئلة المنهجية، وبذل أقصى الجهود في البحث عن جهاز نظري فعال.

لن يجد المتأمل لهذا الوضع صعوبة لكي يدرك أن حركية النقد الدائر حول الشعر المغربي الحديث والمعاصر تابعةٌ لدينامية الشعر نفسه، تلك الدينامية الناتجة عن تفاعله مع واقع الحياة السياسية والاجتماعية خلال العقود الثلاثة الأخيرة (1960_1990). مع متابعة ومراقبة الفكر الأدبي النقدي المتجدد في ضوء تطور الفكر عالميا.

ويمكن من هنا القول بأن الطابع الغالب على نقد الشعر في المغرب، إلى حدود نهاية السبعينيات، هو الدعوة إلى الواقعية والالتزام، إلى درجة أحسّ معها بعض الشعراء النقاد في نهاية السبعينيات أن هيمنة الخطاب السياسي على الخطاب النقدي قد أفقدت الأدب خصوصيته، يقول محمد بنيس في هذا الصدد:

«يظهر .. أن الشعر في المغرب الحديث ظل على هامش الحديث السياسي الذي يتحكم في كل المبادرات، فهو يجعل من الشعر تابعا لا مبدعا، أسيراً لا متحرراً. والكلمة الأولى لتصريف حقيقته السياسية...». ثم يضيف:

«كانت التحولات الشعرية في المغرب الحديث هاجسة «بالتحولات السياسية منذ العشرينات إلى السبعينيات، فيما تركها الحديث السياسي تابعة سواء على مستوى الحديث النقدي، أو على مستوى النشر بمختلف دلالاته...»[212].

حتى النزوع البنيوي الذي صار يفرض نفسه منذ نهاية السبعينيات وخلال الثمانينيات تبعا لظروف خارجية وداخلية معرفية وسياسية، ظل يحرص على البعد الواقعي، ولو في حدّه الأدنى، كان المظهر البارزُ لذلك في تبني البنيوية التكوينية أولا، ثم الانزلاق لاحقا من البنيوية الشكلانية بسرعة كبيرة إلى السميائيات التداولية الساعية إلى الاهتمام بكل أطراف المقام التواصلي.

212_ الثقافة الجديدة ع 18-1981 ص37. يظهر أثر أدونيس جليا.

إن هيمنة السياسي على الشعري في النقد الأدبي المغربي يكاد يشكل المسلمة الأولى في نظر نقاد هذا الشعر. وهناك مسلمة تمهيدية أخرى يلتقي حولها النقاد الطلائعيون المغاربة، وتتمثل في القول بأن النقد المغربي الحديث هو وليدُ السبعينيات. يقول نجيب العوفي في هذا الشأن: «هل كان هناك نقد في الستينيات وما قبلها؟ / هل وجد عندنا نقاد متخصصون، مدارس نقدية، تيارات نقدية، سجالات نقدية على نحو ما كان في مصر الثلاثينيات والأربعينات والخمسينيات؟ إن الجواب البديهي لهذه التساؤلات ليس إلا النفي.

ما كان عندنا في الستينيات وما قبلها لا يعدو أن يكون مقالات وتدبيجات وصفية وانطباعية تفيض من حين لآخر عَفوَ الخاطر، إن دلت على شيء، فعلى الكسل الفكري وغياب المنهج. ومن ثم قلتُ من قبل إن المشروع النقدي الجديد الذي يحاول تأسيسه [هذا] الجيلُ من النقاد ينطلق من الفراغ»[213].

وهو لا يستثني من جيل الستينيات إلا الأستاذ محمد برادة الذي يراه «رائدا للمشروع النقدي الجديد في المغرب»[214].

وما دام النقد الذي يهمنا هو النقد الذي دار حول الشعر المغربي الحديث والمعاصر، فإننا نجد أنفسنا غير مضطرين إلى تحقيق القول في هذا الحكم المشترك بين أغلب النقاد الشباب المغاربة.

اتجاهات النقد المغربي الحديث

مع مراعاة التحولات، وتغيير المواقع، يمكن القول بأن نقد الشعر الحديث والمعاصر في المغرب قد عرف، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، ثلاث نَزعات، أو توجهات، متعايشة بشكلٍ يجعلُ اعتبارَها تمثيلاً لمراحل تاريخية في حاجة إلى تمحيص، وهي:

- **نزعة الواقعية والالتزام**، وهي ذات منزعين متعارضين برغم الاشتراك في اللغة والمصطلح في كثير من الأحيان، فهناك:

---

213 ـ الثقافة الجديدة ع 9 السنة الثالثة 1978. ص49.

214ـ نفسه 50.

- واقعية سكونية نُعتت دائما «بالسلفية»، والتأثرية.
- وواقعية جدلية تستلهم الاشتراكية العلمية.

♦ **نزعة البنيوية التكوينية**، ويمكن بقليل من التسامح تمييز نزعتين فرعيتين داخلها:

♦ **النزعة التبريرية**؛ التي تجعل النص تابعا للموقف الفكري ومجيبا عن أسئلته (وسنبين طابعها عند الحديث عن أطروحة الأستاذ محمد بنيس).

♦ **النزعة النصية**، وهي تُقيم حواراً مع النص مباشرا انطلاقا من وسائل ومداخل لغوية ونفسية وسياقية، ويأتي التفسير عندها ثانويا. ويبدو عمل الأستاذ عبد الله راجع ممثلا لهذا المنحى.

♦ **النزعة البنيوية النصية والسميائيات**، وقد نحت هي الأخرى منحيين:

- منحى نصي شكلاني أو بلاغي صرف
- ومنحى سميائي تداولي يهتم بأطراف المقام التواصلي، مُدْمجا الحديث عن المقاصد في الحديث عن العلاقات الداخلية للنص (محمد مفتاح).

1- نزعة الواقعية والالتزام

ينبغي للقارئ أن يعود إلى كتابات بداية السبعينيات ليعي ما نعنيه حين نلف بنات متعددة في لفافة الواقعية، فالكل كان يتحدث عن نضالية الثقافة والمثقف ثوريتهما. في افتتاحية مجلة آفاق، لربيع 1971 يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب يس اتحاد كتاب المغرب آنذاك، تحت عنوان «المثقف والممارسة»:

«على قدر الوعي بالمسؤولية يجب أن يكون تحمُّلها. ولعل المثقفين من ثر فئات الشعب وعيا بمسؤوليتهم في الحياة..

«ورحم الله الزمن الذي كانت فيه الثقافة اجترارا لما في الكتب، والوعي بها مزالا في الأبراج».

وقد كان من توصيات مؤتمر اتحاد الكتاب المنعقد بالرباط بتاريخ 6-7-1968«ضرورة توفير الظروف المناسبة ليمارس الكتاب والمثقفون مهمتهم الفكرية في التوعية والتنوير ويساهموا في تحرير الفكر المغربي من أغلال الزيف والشلل والجمود»[215].

وفي عدد «شتاء 1972»، من نفس المجلة، يتولى ذ. عباس الجراري كتابة الافتتاحية تحت عنوان المثقفون والمرحلة الجديدة، فيقسم المثقفين إلى ثلاث فئات حسب التزامهم ومواقفهم يقول:

أولا: موقف انعزال وسلبية... (موقف التكنوقراطيين).

ثانيا: موقف التزام وريادة، ولكنه رخو غير صلب، يلمس الظروف والأحداث برفق... في تحاشٍ للتحدي والمواجهة، وأنفة من التغيير الجذري القائم على التقويض والخلق..

ثالثا: في اتجاه هذين الموقفين يبرز موقف الدولة ومن يسيرُ في خَطِّها من المرتزقة والمزيفين ومدعي الثقافة..»[216].

ولن يفهم شيء من هذا في معزل عن أحداث منتصف الستينيات (1965)، والغليان الذي شهدته الجامعة في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، وما لابس ذلك من أحداث داخلية، وتناسل داخل الحركة الوطنية الفاعلة، (1959-1969-1972) تواريخ لها دلالات [217] .

بعض ملامح الاتجاه الواقعي:

---

215 ـ آفاق شتاء 1969.

216 ـ لا بد من الإشارة إلى أن 1971 و1972 و1973 هي سنوات الانقلابات التي تلتها سنوات الإضرابات والانتفاضات 1979، 1980، 1984، 1991. هي سنوات الاعتقالات والمحاكمات والمعتقلات الرهيبة، وهي أيضا سنوات ردة بعض المثقفين، وهم قلة من حسن الحظ. وقد سجلنا معايشتنا لهذه المرحلة في كتابنا: زمن الطلبة والعسكر.

217 ـ سنة 1959 هي سنة انفجار حزب الاستقلال وظهور الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، 1969 سنة انفجار الاتحاد الاشتراكي وظهور الجبهة الماركسية (إلى الأمام و23 مارس)، 1972 انفصال الاتحاد الاشتراكي عن الاتحاد الوطني.... إلخ

- عدم التخصص وتضاؤل الفوارق بين الأجناس الأدبية:

نظرا للتركيز على جانب الدلالة الواقعية والاجتماعية للنصوص المدروسة، وقلة الانشغال بالبنيات الشكلية المميزة التي تنتج الوظيفة الأدبية لكل جنس على حدة، اتصالا وانفصالا، فإن النقاد المنضوين في هذا الاتجاه لم يجدوا صعوبة في التصدي لكل الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية ومسرحية ونقد مرة واحدة.

نجد أحسن مثال لذلك في كتابات عبد الكريم غلاب، عن الاتجاه السلفي[218]، ففي كتابه «مع الأدب والأدباء» حديث عن مجموعة من الشعراء، مغاربة وغير مغاربة (الشابي السياب ابن ثابت)، وحديث عن القصة في المغرب العربي وعن مجموعة من القصص العربية...

ونجد مثالا للاتجاه الجدلي عند نجيب العوفي، ففي كتابه «درجة الوعي في الكتابة» 22 مقالة نقدية موزعة على الشكل التالي:

- 10 مقالات عن الشعر
- 06 مقالات عن القصة القصيرة
- 04 مقالات عن الرواية
- 02 مقالان عن النقد.

ويمكن أن نلحظ مثل ذلك في كتاب «المصطلح المشترك» لإدريس الناقوري، فهو يحتوي:

- 07 مقالات عن «الرواية المغربية والإشكالية الاجتماعية».
- 06 مقالات عن القصة القصيرة.
- 03 مقالات عن الشعر.
- 01 مقال عن المقالة (نفسها).

يميل الاتجاه السلفي، في هذا الصدد، إلى معاداة التنظير بحجة الاستيراد حينا والطبيعة الوجدانية للنص الأدبي حينا آخر.

---

218 ـ كان هذا النعت سائغا قبل أخذ السلفية منحىً آخر، ولذلك فالأولى أن يقال: الاتجاه التقليدي.

– الصحفية:

إن الشكل الإخراجي المناسب لنقد من النوع المذكور هو الصحافة واللقاءات الأدبية، بل ربما كان ذاك من هذا، فأغلب هذا النقد رُصِدَ أصلا للنشر في الصحافة، أو قدم في مُلتقيات أدبية وندوات.

وربما كان أصحابه يعتبرونه جزءاً من صراعهم الفكري السياسي الذي كان حاميا في السبعينيات بوجه خاص. كان من الطبيعي أن تحتضن المنابر الصحفية هذا النقد باعتباره امتدادا للنضال السياسي ضد الخصوم، وكثيرا ما أدى اختلاط الحابل بالنابل، وتضخيم صورة بعض الأدعياء، واكتساحهم الساحة النقدية والفكرية بوسائل ضحلة، وهذا ما وقع في المشادات التي نشبت بين الاتجاه الانطباعي المنعوت بالسلفية، في نهاية السبعينيات، وبين الاتجاه الجدلي والبنيوي التكويني معا.

وقد كانت تلك الخصومة النقدية ـالأيديولوجية قمةَ تطور الاتجاهين السلفي والجدلي، ومع ذلك لم يسفر هذا التطور ولا الخصومة عن وضع كتاب منسجم متكامل الأطراف في النظر والتطبيق يُبرز معالم وحدود أي منهما، باستثناء المقدمات النظرية التي قدمت بها تلك المقالات عند طبعها بالنسبة لمن طبعها (العوفي والناقوري).

يمكن القارئ تأمل تواريخ كتابة مقالات كل من نجيب العوفي والناقوري ليدرك كيف تطورت الأمور خلال السبعينيات.

كتب العوفي مقدمة الطبعة الأولى لكتابه «درجة الوعي في الكتابة» سنة 1979. في حين كتب المقالات حسب التواريخ التالية :

السنة	70	74	75	76	77	78	79
ع. المقالات	2	2	1	3	5	2	5

كُتبت مقالات المصطلح المشترك (المؤرخة) في التواريخ التالية:

السنة	71	75	76	77
عدد المقالات	1	2	3	1

- وفي ظل المستجدات المنهجية، وخاصة بروز الاهتمام بالبنيوية، اتجه رواد المنهج الجدلي إلى تطعيم واقعيتهم بمعطيات البحث البنيوي خاصة في الأعمال الجامعية التي أنجزوها، في حين ظل الاتجاه الانطباعي سجين عوزه الثقافي والفكري، كلما سطا[219] على مصطلح أفرغه من محتواه.

ولم يكن هناك من عائق منهاجي أمام الاتجاه الجدلي لانطلاقه مبدئيا من مقولة اندماج الشكل والمضمون في العمل الأدبي ليشكلا معا كلية لا تنفصم عراها. وكان محمد مندور من العرب الأوائل الذين صاغوا هذا المبدأ صياغة نظرية محكمة فيما أسماه النقد الأيديولوجي[220].

فلا غنى لمن يسلك طريق الواقعية الاشتراكية، بدمج الشكل والمضمون، عن معرفة واسعة باللغة في أوسع معانيها، إلى جانب المعرفة الأيديولوجية والذوق الشخصي حتى يرتبط بالنص بصورة مستمرة، ويبدو أن نجيب العوفي قد وُفق بذكائه وقوة ملاحظته وخصب لغته إلى تحقيق الكثير من ذلك.

أما الاتجاه "السلفي" أو (الواقعية التأثرية) فقد ظل على هامش النص الشعري في بُعديه الفكري والبنائي، وخيرُ من يُمثل ذلك مقالات حسن الطريبق حول الشعر المغربي المعاصر حيث يغيب النسق وتحضر الجزئيات، كما يغيب المصطلح النقدي الدقيق. ونكتفي هنا بإيراد الخلاصة التي انتهى إليها الأستاذ محمد خرماش في أطروحته لنيل دكتوراه الدولة حول اتجاهات النقد المغربي:

"وهكذا تؤكد كتابات حسن الطريبق ممارسته النقدية التي لا تقوم إلا على ملاحظات ونعوت وأحكام واستخلاصات لا تضبطها نظرية واضحة، ولا تحترم خطا معينا في البحث والتفكير والتقويم، ولذلك فهي لا ترقى إلى مستوى المنهج، لأن المصطلح النقدي فيها عائم ومضطرب جدا، والمفاهيم غائمة وغير محددة..

219- المقصود بـ«السطو» هنا أخذُ مصطلحات من نسقها واستعمالُها خارج سياقها، وهذه عبارة تبدو ليَ الآن عنيفة: ولكن المعركة المَنهجية التي عرفتها الثمانينيات من أجل التأسيس المنهاجي سوغت استعمال مثل هذه العبارات.

220 - كنت أعددت بحث الإجازة سنة 1972 تحت عنوان «مندور من التأثرية إلى الواقعية الاشتراكية، وظل راسخا عندي أن الوصول إلى واقعية الفن عبر المراحل التي عبرها مندور، وهي التأثرية أولا، ثم التفسيرية ثانيا، جدير بأن يجعل أي منهج واقعي جدلي منهجا خصبا وافيا بالغرض النقدي في أبعاده النصية التركيبية والتداولية والواقعية.

إن انعدام التماسك في النظرة النقدية، وضعف الجهاز المفاهيمي عنده، جعله يعتمد على الاجتهادات الخاصة، وعلى ما تسعفه به ثقافته النقدية التي يبدو أنها تسترفد أكثر من النقد والبلاغة القديمين، ولا يهتم كثيرا بتوضيح المصطلحات التي يستعملها استعمالات مختلفة ومتغايرة مثل الشكل والمضمون والأسلوب والذاتية والالتزام والإيقاعية والنضالية وغيرها"[221].

وهذا تصنيف ينظر أساسا إلى المواقع الفكرية السياسية والاجتماعية أكثر من نظره إلى خصوصيات أخرى.

- من هنا أحس أصحاب المنهج الجدلي دائما أنهم أقربُ إلى البنيوية التكوينية منهم إلى الواقعية السلفية ونقدها الانطباعي، إذ يرى نجيب العوفي مثلا أن التناقض بين المنهج الجدلي والبنيوي تناقض ثانوي، أما تناقضهما الرئيسي فموجود مع السلفية النقدية. يقول في ذلك مشيرا إلى الصراع الذي عرفته الساحة النقدية في المغرب خلال النصف الثاني من السبعينيات.

"وهكذا أسفر الصراع النقدي عن وجود موقفين نقديين، كان التناقض بينهما تناقضا رئيسيا:

• موقف السلفية النقدية، وهو موقف ثابت في الزمان، هزيل المصطلح، مختلف الأدوات، يتكئ على منهج وصفي كلاسيكي بالغ الابتذال والعياء، ويدور في فلك أيديولوجيا إصلاحية تكرس واقع الحال، وتعادي التغيير والتقدم.

• وموقف الحداثة النقدية، وهو موقف متحول في الزمن يتحرك في اتجاه تطوير الخطاب النقدي وصقل مصطلحه وأدواته، وتطعيمه بأحدث وأنجع المناهج العلمية، ويصدر عن رؤية أيديولوجية ثورية، تؤمن بالتغيير الجذري للبنيات والمفاهيم. وضمن هذا الموقف النقدي ذاته يتعايش منهجان: المنهج الواقعي والمنهج البنيوي، وهو تعايش يفقد أحيانا التوازن وحسن الجوار ويتحول إلى خلاف فنزاع. وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالتناقض الثانوي ضمن كلية الموقف، ووحدة الموقع[222].

---

221 ـ م. خرماش 121.

222 ـ درجة الوعي في الكتابة 17-189.

2- من النقد الجدلي إلى البنيوية التكوينية

في زحمة السبعينيات التي تفاعل فيها الوضع الداخلي المتأزم بالنسبة لليسار مع مسار الفكر السياسي والأدبي العالمي طرحت أسئلة صريحة حول مدى إنتاجية النقد الجدلي، ومدى ملاءمته لوصف خصوصيات النص الشعري. كان المد البنيوي العالمي وما صاحبه من نقد ذي طابع علمي موجه بصرامة للمعالجة الاجتماعية الصرف لمجالات الحياة والأدب (الانعكاس) عاملا قويا في طرح هذه الأسئلة في بنية سياسية تعرف نكوص المد اليساري الحالم بالحل المثالي.

لقد مثلت البنيوية مظهرا للتجديد بالنسبة لكثير من الشباب الجامعي، وبدأ التطلع إلى قراءة أعمال البنيويين، تمهيدا لترجمتها، أمرا ملموسا.

غير أن الاتجاه الذي لقي القبول واستطاع أن ينتج في الفترة المعنية (نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات) هو ذلك الذي زاوج بين البعد البنيوي والسوسيولوجي في إطار البنيوية التكوينية.

من المعروف أن ممثلي الاتجاه الجدلي يسجلون من بين مراجعهم، ويذكرون من بين مصادرهم أعمال لوكاتش وغولدمان، بل منهم من ادعى تطبيق البنيوية التكوينية في بعض أعماله، كما هو حال بحث إدريس الناقوري عن الرؤية المأساوية في الشعر المغربي المعاصر[223].

غير أن الدراسات التي حاولت أن تستوعب البنيوية التكوينية وتطبقها بكثير من الإخلاص لمفاهيمها هي التي اعتبرت نفسها بديلا للمنهج الجدلي والبنيوي الشكلي معا[224]. وتمت في أعمال جامعية فيها من الاتساع ما يسمح بتوضيح المنهج وتتبع خطوتيه الكبيرتين في الفهم والتفسير.

هناك فيما يخص تطبيق البنيوية التكوينية على الشعر المغربي دراستان متميزتان بالطموح: ظاهرة الشعر المغربي المعاصر؛ مقاربة بنيوية تكوينية لمحمد بنيس، والقصيدة المغربية المعاصرة لعبد الله راجع. وقد كان الباحثان على اتصال وثيق لفترة كبيرة في غمار الإبداع الشعري والتعاون العلمي في الإشراف على مجلة الثقافة الجديدة.

---

223 ـ انظر المصطلح المشترك.

224- انظر محمد بنيس. ظاهرة الشعر.

وقد طُبعَ الكتابان ولقيا رواجاً، خاصة كتاب ظاهرة الشعر المغربي، الذي جاء في لحظة فراغ وتطلع . والحق أن الكتابين سَدًّا، عند صدورهما، فراغا في مجال التعريف بالشعر المغربي الحديث، بقطع النظر عن النتائج التي وصلا إليها، والحيفَ الذي أحس به كل الشعراء الذين تناولهم محمد بنيس في كتابه، ولذلك استحقَا أن نقف عندهما وقفةً خاصة.

يلاحظ من عنواني الكتابين أنهما يستعملان منهجا واحداً في معالجة موضوع واحد:

الموضوع: ظاهرة الشعر المغربي المعاصر، مقاربة بنيوية تكوينية

القصيدة المغربية المعاصرة، بنية الشهادة والاستشهاد

فالبنيوية التكوينية صريحة عند بنيس، كما ترى، ضمنيةٌ عند عبد الله راجع: توحي بها "بنية الشهادة...".

والفرق الوحيد الذي يُشم بين الموضوعين هو أن يكون محمد بنيس متوجها إلى مظاهر التمَيز والخصوصيات في بحثه عن "الظاهرة"؟ ويكون عبد الله راجع مشغولا بالبناء اللغوي والفني والنفسي للقصيدة، إذ أنَّ ذِكرَ القصيدةِ يعني ذلك في المقام الأول.

والواقع أن كل واحد من الباحثين يتناول فترة يعتبرها متميزة عن التي يتناولها زميله، ففي حين يتناول محمد بنيس جيل الستينيات (من 1964 إلى 1975 بالتحديد). يتناول عبد الله راجع جيل السبعينيات ممتدا في الثمانينيات.

وهذا التقسيم سبق محمد بنيس إلى اقتراحه، وتبناه عبد الله راجع بعده بقدر كبير من المرونة. يَعتبر محمد بنيس المرحلة الأولى (أو اللحظة الأولى كما يسميها مرحلة "البدايات والامتداد". أما مرحلة السبعينيات التي ينتمي إليها هو وعبد الله راجع فهي مرحلة "الاتساع والتجاوز".

ترتبط بداية المرحلة الأولى عند بنيس صراحةً بصدور مجلة أقلام سنة 1964، ونستنتج دون تصريح منه أن نهايتها (1976) مرتبطة بظهور مجلة الثقافة الجديدة، وذلك يرجع إلى أن مجلة أقلام استطاعت أن تتخلص خلال ثلاث سنوات فقط من الشعر القديم وتتخصص في الشعر المعاصر[225]. كما أن مجلة

225- بنيس. ظاهرة الشعر المغربي المعاصر. 319.

الثقافة الجديدة حملت شعار التجديد في الفكر والإبداع فكان هذا مبررا للفصل بين اللحظتين ونسبة بنيات خاصة إلى لكل منهما.

ومع ذلك، فإن هذه القناعة التي عبَّر عنها محمد بنيس قد اضطربت قليلا عند عبد الله راجع حين وجدناه يستشهد بشعر شعراء محسوبين على المنابر غير اليسارية، دون الحديث عن انتمائهم إلى اليسار أو اليمين (حسن الغرفي وأحمد مفدي مثلا).

والواقع أن راجع قد حاول الإفلات من إسار التفسير الأيديولوجي السياسي الذي أدخل فيه عنقه بتبني تصنيف محمد بنيس، لذلك نجده أميل إلى الحديث عن «الجيل» وعن الرفقة الدراسية، وعن الجوانب النفسية لهذه الزمرة التي جمعتها مدرجات كلية الآداب في فاس في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، ولكنه يعود إلى الاعتبار الاجتماعي والسياسي حين يتحدث عن الارتباط بالحركة الجماهيرية.

الموضوع والذات

يبدو أن كونَ محمد بنيس وعبد الله راجع معاً شاعرين من جيل السبعينيات قد لعبَ كثيراً في تكييف المنهج والنتائج المحصلة، خاصة إذا علمنا أنهما كانا محسوبين على اليسار الذي كان يرى نفسه بديلا تاريخياً لما هو قائم فكرا وإبداعا وممارسة.

وقف محمد بنيس عند هذه المعضلة مُحرَجا قبلَ أن يجد له مخرجا في تناول الجيل الذي سبقه، يقول: "وليس من المعقول أن أكون الدارس والمدروس[226]، وكثيرا ما فكرت في التراجع عن اختيار هذا الموضوع، ولكنني أدركتُ أخيرا أن البحث يمكن أن يختص بقراءة متن الشعراء الذين بدأوا ممارستهم الشعرية طيلة الخمسينيات دون غيرهم»[227].

226- تذكرني هذه العبارة بتصريح لأدونيس للتلفزة المغربية على إثر مشاركته في مناقشة أطروحة محمد بنيس للدكتوراه، جاء فيها: «يصعب أن يكون المرء صديقا وصادقا في نفس الآن».

227 ـ محمد بنيس. ظاهرة الشعر المغربي المعاصر. 17.

ولم يكن هذا في نظري مخرجا آمنا فقد وُضع الجيل الذي ينتمي إليه الدارس ـ الشاعر طرفا يُقارن به، وسمي: جيل تجاوز السقوط والانتظار، الذي وقع فيه الجيل السابق.

أما عبد الله راجع فلم يجد أي حرج في جعل شعره موضوعا للدراسة، وهو يتحدث عن شخصه بضمير الغائب: "وليست زُرقة الخُطا في نموذج عبد الله راجع إلا تأييدا للغرابة"[228]. فكانت دراسته (كما كانت دراسة زميله قبله) مُصادرةً على المطلوب.

لقد أدى التباس الذات بالموضوع، في نظرنا، إلى نتيجتين مختلفتين: ففي حين تعاطف عبد الله راجع مع الموضوع ونَـوَّعَ المداخل اللغوية والنفسية والاجتماعية حتى تستوعب المراهنة وتبررها بعيدا عن الصرامة المنهجية[229]، هيمن السجال على عمل محمد بنيس، فحمل بعنف على كل ما اعتبره قديما أو متجاوزا أو رجعيا، فاتسم بسمتين: 1) الانطباعية التي تغطي صفحات كلها قذف في هذا وتنويه بذاك[230]. فاحتوت رسالته على معجم من هذا القبيل تجد فيه: «المواجهة العنيفة» «الصدمة المفجعة»، «اقتلاع جذور التعفن»، «فرض سيادة الحرية الذاتية»، «الانفجار»، «التحطيم»، «الوعي المتشنج»، «الفتح»، «تفجير الطاقات».. الخ.

ونجد مثل ذلك في تقويماته حيث تتسرب لغة السياسة والمجتمع، إذ يصف "البنيات" بالتقدم والرقي والتخلف.

وهذه لغة يصعب أن تجد لها موقعا في الوصف البنيوي المفترض اعتماده في الخطوة الأولى من البحث[231].

---

228 نفسه 1/ 40.

229 ـ ولهذا السبب نفسه يبدو الجزء الأول من دراسة عبد الله راجع المتعلق بمرحلة «الفهم» ذا أهمية كبيرة باعتباره تقديما موفقا لتجربته الشعرية في ضوء المعارف الأسلوبية الحديثة، ويصح، من هذه الزاوية، أن يحمل عنوانا أكثر دقة وهو: «تجربتنا الشعرية».

230 ـ انظر نموذجا لذلك في ص 45.

231 ـ نفسه 389.

والطابع الثاني هو التبريرية الهادفة إلى المصادقة على مجموعة من البنيات الفكرية التي يبدو أنها أخذتْ مُسبقا من الواقع السياسي؛ فبنية السقوط والانتظار القائمة على الغموض والتجريب هي، على ما أتذكر، تُهمة اليسار الماركسي الثوري الجديد لليسار القومي الاشتراكي القديم، في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، فقد كانت التهمة الأساسية، هي غياب النظرية أو الغموض النظري، واحتراف الممارسة والتجريب، ونظرا لأن أغلب شعراء الستينيات مرتبطون باليسار القديم، فهذه بنيةٌ محتملةٌ في شعرهم (حسب النظرة الانعكاسية)، لا يحتاج المؤلف إلا للبرهنة عليها، ولم تكن البرهنة مُقنعةً لا في الحديث عن «بلاغة الغموض» ولا في «التجريب» ولا في غير ذلك مما دعاه المؤلف متواليات (وهذا أمر لا يتسع المجال لشرحه، وقد شرحناه في مناسبة سابقة)[232].

أما عبد الله راجع فقد نظر إلى أنه، هو وجيله، تجاوزا الشهادة، التي قد يشترك معهم فيها الغير، إلى الاستشهاد الذي هو في نظره قَدَرُ شاعر السبعينيات؛ بروميثيوس الذي يحترق في سبيل الآخرين؛ «إنه البطل المخلص»، كما يقول. وهو يربط بين التضاد والانزياح، وبين علاقة الشاعر بالواقع، يقول: «فالشاعر، مهووس بالانحراف، ومسكون بالرغبة في الكشف عن تنافر لا يمكن أن يكون لغويا (فقط)، دون أن تكون له جذوره النفسية والفكرية، إننا أصلا أمام إحدى صور انعدام التلاؤم بين المبدع والواقع، تأخذ على مستوى اللغة طابع التضاد والتنافر الدلاليين»[233].

كما اعتبر هدم العروض وهدم الواقع صنوين ... إلى غير ذلك من الاستنتاجات التي تطرح عدة تساؤلات، من أهمها:

الانغلاق على الواقع المحلي والمرحلي، وعدم النظر إلى طبيعة الفن الشعري، الذي أدى بهما إلى استخلاص نتيجتين متعارضتين: ففي حين اعتبر الغموض (وهو مظهر من مظاهر الانزياح، وعَرَض من أعراضه) من مظاهر

---

232 -انظر مقالنا: «قضايا المنهج في كتابي: ظاهرة الشعر المغربي المعاصر. م. بنيس. وَبنية الشهادة والاستشهاد. عبد الله راجع. ضمن أعمال ندوة ثلاثون سنة من البحث العلمي بجامعة م. الخامس/ بالرباط. 1992.

233 -بنية الشهادة 2/ 499. وفي استنتاجاته ربط ميكانيكي لا يمكن علمنته بالتدليل على اطراده.

غموض الرؤية وعنصرا من عناصر السقوط والانتظار في نظر محمد بنيس، اعتبر عند عبد الله راجع مظهرا من مظاهر مفاجأة الواقع، وعنصراً من عناصر الشهادة والاستشهاد.

و في حين يَعتبر محمد بنيس التجريب في مجال العروض مَظهراً من مظاهر غلبة الممارسة على التنظير، والميل إلى التذبذب والخلط الفكري، يرى راجع أن تحطيم العروض وتحطيم الواقع صنوان، فهما صفتان من صفات برمثيوس المُخلِّص، يقول:

"إن بروميثيوس هو الشخص الذي قدم جسده وفكره مقابل أن تشرق الشمس في وطن الصقيع"، وإذا كان كذلك "فإنه سيكون حتما الشخص المتنافر مع الواقع، وسيكون المفتت المدمر لهذا الواقع"[234].

لقد اعتمد المؤلفان على نظرية الانزياح كما صاغها جان كوهن في كتابه "بنية اللغة الشعرية". وهي نظرية قديمة حديثة يمكن رصدها في بلاغة أرسطو فيما ترجمه الفلاسفة المسلمون ب"التغيير"، كما يمكن رصدها في البلاغة العربية ابتداء من حديث الجاحظ عن الغرابة والطرافة والعجب والبديع. فالانزياح سواء حصر في الخروج عن سنن اللغة، كما هو عند كوهن، أو تعداه إلى الانزياح عن السياق والتقاليد الفنية والثقافية، هو خاصية شعرية لا تختصٍ بها حركة شعرية حتى نجعلها، أو نجعل بعض مظاهرها، مثل الغموض، سمة لفئة أو ثقافة محددة.

والواقع أن الجمع بين مهمتي الوصف البنيوي للنص الشعري وما يتطلبه من معرفة لغوية وبلاغية، وبين التفسير السوسيولوجي في المرحلة التي كتب فيها الكتابان من الثقافة المغربية ومن ثقافة المؤلفيْن معا، تبدو مهمة صعبة، فلحد الآن مازالت المعرفة اللسانية البلاغية بالشعر في طور الترجمة من الفكر الغربي وإعادة قراءة التراث العربي.

لا بد من الوعي بالآليات الشعرية وتفاعلها لإنتاج الأدبية، ولا بد من مراعاة السياق العالمي والقومي لتطور الأشكال قبل الحديث عن الخصومات التي يمكن ربطها بالرؤية الخاصة بالشعراء المدروسين.

234- نفسه 2 / 504.

3 ـ نحو البنيوية الشكلانية والسميائيات

إذا كانت مجلة "أقلام" (1964) علامة على عقد الستينيات الذي يمكن اعتباره عصر الأنوار الذي سيُفجِّر العقد اللاحق له بما أنجزه في مجال التعليم ونشر المعرفة الفلسفية في صورتها الإيجابية[235]، وكانت مجلة الثقافة الجديدة 1975 علامة على السبعينيات، حيث طرح إشكال تواصل الفكر والإبداع والواقع : كيف وفي أية صيغة؟ فإننا نعتقد أن مجلة دراسات أدبية ولسانية(1985) كانت علامة على الثمانينيات بتوجهها العلمي البحت. فعقد الثمانينيات هو عقد البحث عن الإنسان أولا. لا مجال لتغييبه أو النيابة عنه. المظهران البارزان لذلك متجليان بوضوح في شعاري العلم وحقوق الإنسان. لم تعد حقوق الإنسان شغلا لمن لا شغل له من الأطر البرجوازية ذات النزوع الإنساني، بل صارت اللبنة الأولى في بناء الديمقراطية، وكذلك صار العلم وسيلة للتحرر[236].

بين كل مجلة وأخرى عقد من الزمن، تمثل كل واحدة حاجيات ثقافية ملموسة.

ولئن لوحظ الاهتمام بالنتاج البنيوي منذ أواخر السبعينيات، فإن البنيوية ظلت مجرد لبنة في بناء يغلب عليه الطابع الواقعي والتكويني السوسيولوجي، غير أنه سرعان ما عملت ظروف متظافرة على دفع البحث البنيوي المتخصص نحو الصدارة: فمن جهة كان هناك انكسار المد اليساري الذي تمخضت به السبعينيات بما عرفته من اعتقالات واسعة ومحاكمات بلغت الذروة في الاتساع والشمول بما أحاط بإضراب رجال التعليم سنة 1979 من إجراءات قمعية عنيفة. ومن جهة ثانية عرفت الجامعة المغربية توسعا كبيرا وظهرت تخصصات علمية جديدة ودقيقة إسوة بما آل إليه الأمر في الجامعات الغربية، وخاصة الفرنسية التي كان الاتصال بها قويا، والأمريكية التي يتقوى الاتصال بها يوما عن يوم.

---

235 ـ نشير هنا إلى كتابين في مقرر الفلسفة من تأليف محمد عابد الجابري ومصطفى العمري وعبد الله السطاتي سنة 1967، كتابان كان لهما ما بعدهما.

236 ـ انظر مسار هذه التجربة في سيرتنا الذاتية: زمن الطلبة والعسكر. فصل: رفقة القلم.

ومن حاجيات التدريس وتحت تأثير المثاقفة حوَّلَ النهرُ مجراه نحو البحث العلمي الخاص، فكان من علامات هذا التحول ترجمة مجموعة من المؤلفات الأساسية في البحث البنيوي في الشعر. لا يتسع المقام لذكرها جميعا منها: نصوص الشكلانيين الروس 1982، وبنية اللغة الشعرية 1986، وقضايا الشعر عند ياكوبسون.. وغيرها.

وتميز منتصف الثمانينيات بظهور عدة كتب في السيميائيات الأدبية، منها: محاضرات في السيميولوجيا، لمحمد السرغيني، وسميائيات النص الأدبي لأنور المرتجي[237]. وقد اتسم عمل محمد مفتاح في هذا المجال بالاستمرار والتصاعد فمن كتابه في سيمياء الشعر، إلى تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، إلى دينامية النص، يسير الباحث نحو ضبط المرجع بالانتقال من الوسائط إلى المنطلقات الابستمولوجية ومحاورتها مباشرة في أفق استقلال نظري[238].

غيرَ أن ما نال الشعرَ المغربي الحديثَ والمعاصر من هذا المشروع ما يزال محدوداً جدا أكثره رسائل جامعية في طور الإعداد، أو مما نوقش ولم يطبع بعد مثل أطروحة محمد الماكري عن الفضاء الشعري (جامعة محمد الخامس)[239].

أما المقالات المطبوعة فلعل أقربها لهذا المنحى، فيما نعلم، ما نجده في كتاب دينامية النص للأستاذ محمد مفتاح حيث حلل قصيدة «القدس» للشاعر أحمد المجاطي، وقصيدة «قصائد إلى ذاكرة من رماد»، للشاعر محمد الخمار الكنوني، تحليلا سيميائيا. وإذ نتحاشى التعليق على الأعمال المخطوطة نترك الحكم على هذا الاتجاه السيميائي للمستقبل.

---

237 ـ كنت قرأت هذا الكتاب قراءة نقدية في مقال نشر بالملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي.

238- نشرت قراءة مشروع محمد مفتاح في مجلة علامات السعودية. يونيو 1998.

239- طبع هذا الكتاب بعد ذلك بالدار البيضاء، ونال جائزة المغرب للكتاب.

2- التراث البلاغي بين إعادة الإنتاج وإعادة القراءة[240]

(خلال ثمانينيات القرن 20)

من الأكيد أن لاختيار مرحلة الثمانينيات دلالة، كما أن اختيار قضية التراث في هذه المرحلة له دلالات أيضاً. فهي، من جهة، مرحلة التوجه نحو البحث في المكونات اللغوية للأدب والخطاب عامة تحت تأثير الدراسات اللغوية والسيميائية مع تراجع الأبحاث ذات الطابع الأيديولوجي الثوري التي طبعت فترة السبعينيات. وهي من جهة ثانية وخصوصاً في نصفها الأخير، وما بعده، سنواتُ المد الأصولي وما صحبَه من دعوة سلفية مصبوغة برفض الغرب والحاضرِ المتحكِّم فيه وتقديس التراث. فبرغم اختلاف الإستراتيجيتين: التراثية السلفية والقرائية النقدية، فإن التراث قد حظي بعناية من الطرفين، كل لحسابه الخاص[241].

هذا دون أن ننسى الواقع العربي الراهن الذي كان، وما يزال، يُمِدُّ الاتجاه الحديث في تناول التراث بحوافز إضافية. وإلى ذلك فهناك توجه ثالث لا نحبذُ كثيراً أن نخوض في الحديث عنه، وهو يمتدّ من عدم الاهتمام بالتراث لأسباب منهاجية إلى رفضه ومعاداته لأسباب أيديولوجية، ففي موقف

240- هذه خلاصات ومقتطفات من دراسة ساهمنا بها في ندوة نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير حولَ الدرس البلاغي في المغرب خلال الثمانينيات من القرن الماضي، وهي فترة مركزية ظهرت فيها ثمار ما قبلها، ونَشرتْ ظلالَها على ما بعدها لاعتبارات ذُكِر بعضُها في الفقرة الأولى (أ)، ويأتي ذكر البعض هنا. وبرغم حصر الندوة أعمالَها في المنشور من الأعمال فإنني وسعتُ مجالَ الاستكشاف ليشملَ الأطروحات الجامعية غير المطبوعة لكثرتها ودلالتها الكبيرة على مسار الدرس البلاغي الأدبي، ولكون مسألة الطبع مسألة وقت في كثير من الحالات. فبدون أخذ تلك الأعمال المخطوطة بعين الاعتبار ستظل الرؤية جزئية ومبتورة، وستظل جوانب كثيرة منها غير مفسرة.

241- نشير هنا إلى نهضة البلاغة بعد الحرب العالمية الثانية، وعودة باحثين كبار إلى البلاغة القديمة لنفض الغبار عنها، منهم رولان بارت وآخرون. فلم يعد التجديد يعني القطيعة مع التراث كما هيمن في المرحلة الرومانسية في سياق الثورة على الكلاسيكية، لم يعد التراث مخيفا ولا مستهجنا.

اللامبالاة يندرج عمل بعض دارسي الرواية وأسلوبيتها فيما اطلعنا عليه، وعلى الموقف الثاني تنطوي أعمالُ جماعات للبحث اللساني والسميائي تتخذ الدوارج العربية والأمازيغية موضوعاً لها، كما تندرج في هذا التوجه الأعمال العجائبية والفلكلورية التي ترصد من الثقافة العربية جوانبها المحلية المعطرة بروائح «الشرق» ورطوبة دروبه القديمة، متجاهلة عن قصد العمل العلمي الجاد والعميق لأكابر العلماء في اللغة والبلاغة.

يمكن أن نمثل هذه المواقف على الشكل التالي:

الاتجاه	التراث بديل منهاجي كاف	التراث شريك منهاجيّ	التراث عائق للحداثة
الموقف	دعم التوجه السلفي	القراءة النقدية	القطيعة الأيديولوجية
الحصيلة	إعادة الإنتاة	إعادة القراءة والتوظيف	الاستعناء (أو الرفض)

في الذي ذكرناه عن الاتجاه الثالث كفاية، لأنه في الواقع لا يهمنا من زاويتيه: ذلك أنه حين يتعلقِ الأمر، حقيقة أو ادعاء، بوجود عائق منهاجي[242] لا نستطيع أن نأخذ الكلمة بدلاً عن ذوي الاختصاص، فأهل مكة أدرى بشعابها، غير أن إعلانَ الاستغناء يتطلبُ معرفةً جدية عميقة بالتراث، وهذا أمر غير متحقق وقتها[243]. وحين يكون الموقف ناتجاً عن عامل خارجي أيديولوجي وتبعية ثقافية فمن الأجدى الانشغال بتمزيق الأقنعة، إذ سيكون من الفرجة البلهاء أن نلبس قناع العِلم على غرار من يُريد استغفالنا لنناجزه بالطريقة التي اختارها هو[244].

---

242 ـ هذا هو طابع الفترة المتحدث عنها، ومن الإنصاف القول بأن الأمور تغيرت ، من ذلك الوقت إلى الآن، وصار التراث البلاغي والنقدي حاضرا في أعمال كثير من الدارسين في هذا المجال.

243 ـ حين يقال مثلا أن لا علاقة للرواية بالسرود القديمة، ولا علاقة للمسرح بأشكال الفرجة القديمة، يتسع مجال الاختلاف، لاختلاف زاوية الرؤية. هذه القطيعة سمعناها كثيرا ونحن على مقاعد الدرس الجامعي.

244 ـكان هذا التصنيف مستفزا، ولذلك لقي رُدودَ فعل متشنجة خلال الندوة المذكورة، أهدؤها تعليق أستاذنا حسن المنيعي: «هذا مانيفيست». أي بيان، وكان العصر عصر بيانات فعلا.

أما الاتجاهُ الذي يَعتبرُ التراثَ بديلاً منهاجيا (يُغني عن الخوض في النظريات والمناهج الحديثة) فلم يقدم أعمالاً أكاديمية في صُلب الأطروحة، ومازال عمله الأكاديمي في خطوته الأولى: خطوة إعداد التراث وتقديمه بإحدى ثلاثةِ طرق:

- تحقيق النصوص القديمة والتعريف بها (علال غازي. رضوان بنشقرون...)[245].
- استخراج المصطلحات والسَّعي لإعداد معاجم تراثية خاصة وعلمية. (الشاهد البوشيخي. إدريس الناقوري)[246].
- تناول بعض الجوانب التراثية بالدرس القائم على التصنيف ومحاولة التفسير (أحمد أبو زيد)[247].

يلتقي هذا الاتجاه، فيما يتعلق بالمرحلة الأولى من خطته وهي مرحلة إعداد التراث، مع الاتجاه الثاني، اتجاه إعادة القراءة، ويستفيدان معاً من إشراف علماء العربية الكبار من الأكاديميين القوميين القدماء ومن المستشرقين.

وبعد عملية إعداد التراث يسلك كلٌّ سبيله في التعامل معه: فالسلفي يعتبره جاهزاً للتطبيق والتشغيل، أو في أحسن الأحوال موضوعاً للانتقاء والاختزال من منظوره الأيديولوجي، فيستخرج منه وصفات عجيبة أشهرها، الآن، تلك التي دُعيت نقداً إسلاميا[248]، وهي لضحالة ما تحتويه (إلى حد الآن على الأقل) تُسيء إلى هذا التراث البلاغي الغني، ولا تِشرفه. ونحن لا نرى جدوى من مناقشة الجانب الأيديولوجي في القضية؛ المُتجَلى في إسقاط قداسة القديم الديني

245- حقق الأول كتاب: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، للسجلماسي، وحقق الثاني كتاب الروض المريع في صناعة البديع، لابن البناء. وهما مطبوعان.

246- استخرج الأول المصطلحات النقدية في نقد الشعر لقدامة، (طبع بعنوان: المصطلح النقدي في «نقد الشعر». دار النشر المغربية الدار البيضاء.1982)، واستخرج الثاني مصطلحات من كتاب البيان والتبيين (مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ. دار الآفاق الجديدة. بيروت.1982).

247- لأحمد أبو زيد كتاب بعنوان: المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن. مكتبة المعارف. الدار البيضاء. 1986. وكتاب صغير بعنوان: مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن. دار الأمان. 1989. وهو كتاب تفوق قيمتُه حجمَه.

248- قد يستشكل بعض القراء نسبتنا الأستاذ إدريس الناقوري إلى الاتجاه الجدلي (الماركسي) وإلى النقد الإسلامي! وليس في الأمر غرابة: بدأ جدليا وانتهى إسلاميا.

على القديم البشري، واعتبار الحقيقة سابقة ومنتهية في الحالين على السواء (في الدين والتراث)، ولكن من المفيد للدرس البلاغي تسجيلُ عواقب غياب الرؤية المنهاجية عند هذا الاتجاه.

نأخذ مثالا واحداً لذلك هو كتاب: مصطلحات نقدية وبلاغية في البيان والتبيين للجاحظ. تأليف الشاهد البوشيخي.(نأخذ هذا الكتاب مثالا لأن عشرات الطلبة يشتغلون، أو ما زالوا يشتغلون على منوال هذا الكتاب، وفي مستوىً أدنى منه).

فالكتاب المذكور لا يقدم أي تصور للمصطلح، بل وهذا بيت القصيد، لا يقدم أي تصور للبناء النظري لكتاب البيان والتبيين، فقد أخذت المصطلحاتُ بطريقة عشوائية (والعنوان نفسه يشعر بذلك). لهذا غابت المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بجوهر الكتاب ومركزه وهي مُصطلحاتُ الأحوال والمقامات، والخطابةِ عامةً، وحضرت، على العكس من ذلك، مصطلحاتٌ شعرية عابرة، لا تدخل في نسق الكتاب، والحال أن كتاب البيان والتبيين هو كتاب حول الخطابة والإقناع، وليس كتاب نقد وبلاغة شعرية. فالجاحظ لا يهتم، كما ذكرنا، بالشعر إلا باعتباره أداة من مجموعِ أدوات خطابية. ولقد صار الكثير مما أُلِّفَ في موضوع المصطلح، من هذا القبيل، موضوعَ تنذر، حيث نجد مثلا في بعض هذه الرسائل مصطلحات مثل "تلميذ" و"صحراء" و"حسن" و"قبيح" باعتبارها مصطلحات في البلاغة والنقد الأدبي، الشيء الذي يجعل ابن المعتز وحده يُمتع، رغما عن أنفه، بأكثر من 150 مصطلحاً[249].

ومن المؤسف أن هذا الاتجاه قد سلك طريق التساهل في إعداد الأعمال الجامعية واعتمد بعضُ أقطابه طريق الزبونية والاستقطاب الأيديولوجي وتكثير المُدَبْلمين (الأبرياء) الشيءُ الذي جعل الكثيرين يلبسون أي لباس وينحشرون في أية جبة داخل الحلقة لقضاء أغراضهم العاجلة[250].

---

249. قلنا: «رغما عن أنفه»، لأنه صرح بعدد المصطلحات التي تدخل في نظريته، خمسة منها عدها من البديع، أي الجديد، واثنا عشر عدها محسنات.

250 ـ مع الابتعاد عن تلك الأجواء المشحونة بالصراع المنهاجي والفكري وجدتُ قلمي يتجه لشطب هذه العبارة، ولكن الخوف من استمرار ذلك العطب رجح تركها، وهي شهادة للتاريخ قبل كل شيء.

إعادة القراءة:

يَشترِكُ المصنفون في هذا الاتجاه في محاولة التعامل مع التراث باعتباره مُحاوراً وجزءاً من الجهد الإنساني في معالجة مُعضلات الخطاب، ولذلك ينزعون نحو لغة مقولية تتعامل مع "القضايا»، أو يقدمون التراث تقديما نقدياً حتى وإن انطوى على إعجاب ومحاباة أحياناً، لقد صار إشراك التراث ضمن إشكالات منهاجية تتسم بالانسجام والصلابة ميزة للبحوث التي يُقبل عليها القراء في المستوى الجامعي طلبة وأساتذة. يجد هذا التوجه دعما من تقدم البحث في عدة مجالات كانت لها على الدوام آثار عليه، وهي:

- مجال البحث الفلسفي، حيث لا نحتاج إلى أي حديث إعلامي لصالح أعمال د. عابد الجابري، وبعض أعمال طه عبد الرحمن الأولى، وبعض تلاميذهما[251]، وهم كثيرون.
- ومجال البحث اللساني حيث يجب تقدير الأعمال المطبوعة لأساتذة مثل عبد القادر الفاسي الفهري، وأحمد المتوكل وتلاميذهما، وهم كثيرون.

فمما لاشك فيه أن هذه الجهود كانت متظافرة، ومتواصلة عن قرب لتقوية القراءة النقدية للتراث وإشراكه بقدر ما كان الواقع العربي فعّالا في نفس الاتجاه، ويبدو أن هذه هي الأرض التي أسعفت جمالية التلقي حاليا وهي على اختلاف توجهاتها ذاتُ بُعد تاريخي، ولا حرج من الاستدلال في هذا السياق بتوجه مجلة دراسات أدبية ثم سميائية بعدها، وما طرأ من تطور في مسارها فهي تنشر ما يردُ عليها في مجال اللغة والمنطق والأدب والسميائيات عامة، بدون رقابة أو توجيه ما توفر الشرط الأكاديمي.

---

251 - حصرنا عمل طه عبد الرحمن المفيد للبحث البلاغي في أعماله الأولى ذات الطابع المنطقي التداولي، أما أعماله اللاحقة، بعد انتمائه إلى الطريقة البودشيشية (تصوف شعبي خرافي)، فقد أخذت منحى آخر نترك لغيرنا تقويمه.

- V -

رحلة البلاغة الغربية

الكلمة التي تقابل كلمة بلاغة العربية، في الثقافة الغربية الحديثة، هي كلمة ريطوريك (rhétorique، rhetoric) إطلاقاً أو تقييداً حيث يقال: بلاغة، وبلاغة عامة، وبلاغة الشعر (انظر مجموعة مي مثلا). والكلمة من أصل يوناني، كان العرب قد ترجموها بالريطورية حين لاحظوا عدم مطابقة مفهومها القديم لمفهوم البلاغة عند العرب.

فقد كانت الريطورية مرتبطة في الأصل بالإقناع الخطابي في مقابل البويتيقا أو (فن الشعر) التي خصصها أرسطو للمحاكاة الشعرية في المقام الأول.

لنترك التفرقة القديمة ــ موقتا ــ ولْنستعمل كلمة بلاغة مقابلا لما صارت الريطَورية تدل عليه في العصر الحاضر ــ تمهيداً من عصور قديمة ــ وهو البلاغة باعتبارها، كما يقول رولان بارث، خطاباً حول خطاب: "المقصود بالبلاغة، هنا، هو اللغة الواصفة التي تتخذ "الخطاب" موضوعاً لها، تلك البلاغة التي سادت في الغرب منذ القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد"[252].

والخطاب (oratio) في البلاغة الغربية القديمة هو الجنس الأعلى لمختلف الخطابات التي تضم فنون القول شعراً ونثراً، واستعمل الفلاسفة العرب في التعبير عن هذا المفهوم مصطلح "الأقاويل": الأقاويل الشعرية، والأقاويل الخطابية. ومع ذلك، فإن المسألة ليست محسومة في أذهان الدارسين الغربيين كما هي محسومة في التراث العربي. فذهنهم ينصرف حين الحديث عن البلاغة

---

252 ـ البلاغة القديمة. ترجمة عبد الكبير الشرقاوي.

تاريخياً إلى الخطاب الإقناعي في بعدية التنظيمي واللغوي[253]. وقد يرتفع اللبس قليلا إذا ترجمت الشعرية القديمة بنقد الشعر عندنا. فيكون هذا النقد رافداً من روافد البلاغة قبل أن تبتلعه.

• • •

من الصعب الربط، ربطا سببيا، بين نشاط علمي، مثل البلاغة، وبين حدث واحد محدد، ومع ذلك، فقد لوحظ أن البلاغة بوصفها فناً للإقناع بالوسائل الممكنة أو المتاحة، وباعتبارها حاجة تخضع للتعليم والتأليف قد ظهرت على إثر النزعات القضائية التي ترتبت عن مصادرة أملاك الصقليين حوالي (485 ق م) لصالح المرتزقة[254]. فبعد أن أطيح بالطغاة في ثورة شعبية ديمقراطية حدثتْ نزعات متعددة حول الأرض. ونظراً لانعدام وسائل الإثبات المادية (الوثائق) صارت الفصاحة الوسيلة المعتمدة لإقناع لِجَنُ المحلفين التي شُكِّلت لفض هذه الخصومات.

لقد ظهرت الحاجة إلى تعليم الناس كيف يدافعون عن أنفسهم. كيف يستميلون الحكام، ثم وقع ما وقع في أحوال عديدة مشابهة فَـ"تحولت الدروس إلى كراسات، والكراسات إلى كتب، فظهر أول تأليف نعرفه في البلاغة على يد كوراكس. اهتم كوراكس بتنظيم المادة وعرضها، فاقترح الأجزاء الخمسة لبناء الخطبة: 1) المقدمة. 2) السرد أو الحدث (عرض الوقائع). 3) الاستدلال أو البرهان. 4) الاستطراد. 5)الخاتمة[255].

لقد عُـزي إلى هذا الحدث نشوء جنسين من الأجناس الثلاثة للخطابة: المشوري (السياسي)، والمشاجري (القضائي). ثم عُزيَ نشوءُ الجنس الثالث: الاحتفالي (التقييمي) إلى انتقال بعض الموضوعات الشعرية إلى مجال النثر: مثل المراثي، على يد الخطيب السوفسطائي الشهير جورجياس، وكان قد وفد إلى أثينا عام 427 ق.م. "وهكذا ظهر جنس ثالث (بعد القضائي والمشوري)

---

253 ـ الإشارة إلى المكونات النصية والخارج نصية للعملية الخطابية (الإيجاد، التنظيم، العبارة، التذكير، الإلقاء) سيأتي.

254 ـ ناقش هذه المسألة من جوانب أخرى متعددة الحسين بنوهاشم في أطروحته لنيل الدكتوراه.

255ـ البلاغة القديمة 39.

هو المحفلي. وخلال هذا العبور من الشعر إلى النثر اختفى الوزن العروضي والموسيقي فأراد جورجياس تعويضهما بسَنَن مُحايث (مناسب) للنثر (رغم كونه مستعاراً من الشعر) هو: الجناس. وتناظرُ الجمل وتقوية المقابلات عن طريق تجانس الحركات وحروف المد والاستعارات وجناس الحروف"[256].

وبذلك أنجز جورجياس البعد الثاني للبلاغة، أي البعد اللغوي، أو ما يمكن أن نقارنه بعمل البديعيين مثل عبد الله بن المعتز، هؤلاء الذين انشغلوا بتجميع الأمثلة النصية للصُّور البلاغية والتمثيل لها. فأضيف هذا الإنجاز إلى الجانب الذي أنجزه كوراكس، فأصبح للبلاغة دعامتان: دعامة استبدالية (من الصور) وأخرى نظمية أو تركيبية.

وكان اعتناءُ السفسطائيين بالجانب البديعي الزخرفي داخلا في تصورهم لوظيفة الخطاب: أي الوصول إلى الهدف من خلال القول، ولو أدى ذلك إلى المغالطة. وقد دخلوا بسبب هذا الموقف في نزاع مرير مع الفلاسفة، نزاع صوره أفلاطون في محاورته "جورجياس" و"فيدر"، حيث يسخر الخطباء السفسطائيون من سقراط (محاورهم)، ومن خلاله يسخرون من الفلاسفة الذين لا يستطيعُ الواحد منهم الدفاع عن أنفسهم أمام المحاكم في حين يتبجحون بالحقيقة[257].

لقد وصلت البلاغةُ إلى قمة الغرور والأنانية مع السوفسطائيين؛ إذ صارت تعتقد السيطرة على العالم ومنافعه من خلال الكلام[258]. الشيء الذي أدى بالفلاسفة إلى طرد الخطباء الذين يترافعون أمام المحاكم من حظيرة الباحثين عن الحقيقة[259].

---

256 ـ البلاغة الجديدة 40.

257 ـ انظر مقدمة كتابنا: في بلاغة الخطاب الإقناعي.

258. لا شك أن تشويها كبيرا قد ألحق بالخطباء السفسطائيين ليجعلنا نعتقد أن كل فكرة صادرة عنهم فكرةٌ خاطئة ومضللةٌ، والواقع أن هذا النقد الذي يوجهونه إلى الفلاسفة موضوعي إلى حد ما، وهو الذي يمكن أن يوجه اليوم إليهم وإلى عموم المثقفين الذين يعيشون في أبراج عاجية، لا يستطيعون أن يدافعوا عن القضايا الحيوية لمجتمعاتهم أمام الخطباء السياسيين والدينيين الذين يستولون على المشهد، ويقررون المصائر. فالخطابة وسيلة بيداغوجية لا مَحيدَ عنها في المجتمعات الديموقراطية.

259 ـ انظر مقدمة في بلاغة الخطاب الإقناعي لمحمد العمري.

وانتهى أفلاطون ـ بعدَ الاستماع إلى مرافعات السفسطائيين والفلاسفة باسم سقراط ـ إلى تقسيم البلاغة إلى نوعين "إحداهما سيئة والأخرى جيدة": البلاغة السيئة هي التي تُعنى بإنتاج الخطب على أساس العرف والتوهيم "إنها بلاغة معلمي البلاغة والمدارس وبلاغة جورجياس والسوفسطائيين"[260]. البلاغة الجيدة هي "البلاغة الفلسفية والجدل أيضاً، وموضوعها هو الحقيقة ويُسميها أفلاطون بسيخاغوجيا"[261]، أي تربية النفوس بواسطة القول.

ومن هنا بدت تلك المقارنات الاستعارية المحقرة. فالبلاغة بثنيها للمسطرة قبل القياس بها، كما قال أرسطو، تُـفسد القضاء. ومن هنا بَدَتْ لهم كَفَنٍّ الطبخ بالنسبة للطب، والزينة بالمقارنة مع التمارين الرياضية، إنها لا تستحق في نظر أفلاطون اسم الفن.

إن هذا الحوار العنيف بين البلاغة الناشئة الطامحة إلى امتلاك العالم، ولو بالعنف (المغالطة) قد يساهم في وضوح الرؤية بالنسبة للفلاسفة اللاحقين، ومن هنا عمد أرسطو إلى تفكيك امبراطورية القول وتقسيمها إلى إمارات صغيرة تتنازع على الحدود: من بينها إمارة الشعر، وإمارة الخطابة، مميزاً بين تقنيتيهما: تقنية الخطابة (الريطورية) وتقنية الشعر (البويثيقا) أو (فن الخطابة وفن الشعر): الشعرية والخطابية.

وقد هيمنت البلاغة الأرسطية حتى أنسَتْ ما قبلها، وصارت البلاغة الغربية تنتسب إلى أرسطو مباشرة ولاءً له أو ثورة عليه. إن جميع البلاغيين الذين سيقرون بالتقابل بين تقنية الشعر وتقنية الخطابة "يمكن وضعهم في صف البلاغة الأرسطية"[262]. "وستنتهي هذه الأخيرة حين يتم تحييد هذا التقابل"، ويتم الاندماج بين الخطابة والشعر، "وتصبح البلاغة فنا للشعر باعتباره إبداعا (نفسه). وقد حدث ذلك حين انتقلت البلاغة الأرسطية إلى المجال الروماني خاصة في العقود الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد.

---

260 ـ البلاغة القديمة 48.

261 ـ نفسه 42.

262 ـ نفسه 45.

وقد تكرس هذا المنحى في العصور الوسطى. لقد حل التعبير أو الأسلوب محل البرهان في بلاغة أرسطو. ومن هذا التقارب نشأ مفهوم الأدب، الذي صار يتحدد بجودة الكتابة. يقول رولان بارث بعد استعراض رحلة البلاغة في العصر الروماني: "كانت المغامرة الأخيرة للبلاغة الأرسطية هي انتشارُها بطريقة توفيقية، فقد كفت البلاغة عن أن تقابل فن الشعر، وتم ذلك لصالح مَفهوم مُتعال يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم "الأدب".. إنها إذن نظرية فعل الكتابة وكنز الأشكال الأدبية في آ ن واحد[263].

لقد قامت البلاغة بثورة خلال القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد انطلاقاً من مدارس آسيا الصغرى، عرفت بالبلاغة الجديدة أو (السوفسطيقا الثانية) حاولت استخلاص لغة أدبية عامة من التراث الإغريقي واللاتيني.

غير أن هذه الثورة ما كان لها أن تعدو القرن الرابع بعد الميلاد آخر عصور الازدهار، فقد أخذ التاريخ طريقاً آخر لتبدأ مغامرة بلاغة أخرى. ومع ذلك لقد حفظت البلاغة الإغريقية رمقها إلى أن واجهت قلق عصر النهضة وأسئلته المفزعة[264]. فقد استمر تدريسها في بعض المدارس الرومانية خاصة في أرض فرنسا الحالية، وأدرك شارلمان بقية نفس منها فأدخل تدريس الصور البلاغية في إصلاحه التعليمي. وكانت البلاغة قبل ذلك بقليل تتمسح بالكتاب المقدس وتحتمي به، فقد بُرهن على أن الكتاب المقدس نفسه حافل بالصور البلاغية. ومع زيادة انحباس البلاغة وانضغاطها بين النحو والمنطق.. تقرر في أواخر العصر الوسيط اللجوء إلى الآباء اليسوعيين الذين أسسوا ابتداء من القرن السادس عشر عدداً من المدارس ووضعوا برامج تدريسية احتلت البلاغة فيها مكان الصدارة لمدة ثلاثة قرون، ثم تبنت جامعة باريس الناشئة برامج اليسوعية قبل أن تكتسح أوروبا بأجمعها. كانت البلاغة مادة التدريس النبيلة المهيمنة، وكانت الجوائز المدرسية

263ـ البلاغة القديمة 55. قارن بما سبق من حديث عن العلاقة بين البلاغة والأدب في التراث العربي: تصور السكاكي، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء، مثلا.

264ـ يغيب في هذه اللحظة تفاعل البلاغة الغربية بالبلاغة العربية، وتغيب قراءة ابن رشد خاصة، والحال أنها كانت معروفة عندهم.

الوحيدة هي جوائز البلاغة والترجمة والحفظ، لكن جائزة البلاغة التي تمنح عقب مباراة خاصة هي التي تعين التلميذ الأول القائد، أو خطيب الشعب"[265].

غير أن البلاغة لم تستمر في الحياة خلال القرن التاسع عشر إلا بصورة اصطناعية تحت حماية "القوانين الرسمية"[266]. لقد كان الرومانسيون ينظرون إليها شزراً ويلصقون بها كل التهم في جمود الأدب، إذ لم يعد لها في نظرهم غيرُ السهر على حماية كمشة من "صور الاستعمال" التي ينعدم معها الإبداع. يقول جون كوهن: "ومن ثم نفهم رغبة المحدثين، وعلى رأسهم الرومانسيون، في التخلص من هذا البهرج البالي. فكلمة هيكو: "لنحارب البلاغة" ليس لها معنى آخر. إنه يشن الحرب على البلاغة المتحجرة. وعلى أشكالها الجاهزة التي ترهق اللغة بدون طائل"[267].

وفي هذا السياق دعا بول فيرلين إلى لَي عنق البلاغة حتى تزهق روحها. ولعل القارئ يتذكر أصداء هذه الدعوة الرومانسية في الأدب العربي. لعله يتذكر بعض عبارات نقد العقاد لتعامل شوقي مع الصور البلاغية التي صارت، منذ عصر الانحطاط، ترصف كالحجارة الملونة، فأصبح العمل الأدبي كلعب الصبيان، وأصبح الشاعر تابعا للبلاغة لا لوجدانه. وقد ساهم عبد الرحمن شكري والشابي في نقد الخيال الكلاسيكي.

- البلاغة الجديدة

مات بول فرلين وانبعثت البلاغة من رمادها، وأحفاد من دعوا إلى دفنها هم أنفسهم الذين عادوا يبحثون عنها في مسكنها القديم، ويستدرجونها للخروج إلى الشارع والتبرج في أرصفة المدن الحديثة، والتعري تحت أضوائها الكاشفة في لوحات الإشهار.

ها هو رولان بارث زعيم المجددين نفسه يبحث للبلاغة القديمة عن فستان حديث، وعن شغل في شركات الإشهار (بلاغة الصورة). لقد كتب سنة 1963 قائلا: «ينبغي إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكية بمفاهيم بنيوية (وذلك هو

---

265 - نفسه 86.

266 - نفسه 88.

267 - بنية اللغة الشعرية 45. ترجمة محمد الولي ومحمد العمري.

موضوع عمل قيد الإنجاز)، وسيكون، حينئذ، من الممكن وضع بلاغة عامة أو لسانية لدوال التضمين، صالحة للصوت المنطوق، والصورة والإيماء..»[268].

ومما له دلالة في هذا الصدد أن يصدر جان كوهن، سنتين فقط بعد هذا النداء، كتابه المشهور في مجال قراءة البلاغة القديمة في ضوء اللسانيات البنيوية الحديثة، أقصد: بنية اللغة الشعرية[269].

وسنوات قليلة بعد ذلك يكتب جيرار جينيت مقالة يتحدث فيها عن الاختزال الذي تعرضت له البلاغة القديمة، داعيا إلى إعادة النظر في موقف المحدثين من بلاغة عندها الكثير مما تساهم به في إطار الدراسة المستوعبة لأبعاد الخطاب الشعرية والإقناعية..الخ.

في هذا الجو صدرت كتب كثيرة تحمل العنوان القديم متضمنة الجديد. من ذلك: البلاغة العامة، وبلاغة الشعر، لجماعة مي، وإمبراطورية البلاغة (قبل ذلك) لِـ بيرلمان، إلى غير ذلك من العناوين.

لقد استعادت كلمة بلاغة سحرها. وربما بدت كصيْحة يرمز بها المعروفُ بالحداثة إلى أنه عريق أيضا. قد يبدو الأمر كذلك، لأول وهلة، غير أن الباحثين يتحدثون عن أسباب موضوعية لعودة البلاغة، نعود إليها بعد حين.

بعد هذا المد لا نستغرب إذا وجدنا باحثا متمكنا مثل هنريش بليت يُدرجُ أسماء كبار السميائيين والشعريين والإقناعيين "أو التداوليين" المحدثين في زمرة البلاغيين: يقول:

"ثم تغيرت هذه الوضعية (أي الوضعية التي آلت إليها البلاغة) بشكل يكاد يكون مفاجئا في الستينيات من هذا القرن، وكان باحثون ألمان قد حاولوا، من قبلُ إعادة الاعتبار إلى البلاغة: دوكهورن (1944-1949) بتأسيسه لعلم جمال بلاغي قائم على التأثير، وكورتيس (1956) بتبريره للتحليل التاريخي للمعاني المشتركة، ولوسبيرغ (1960-1967) باستقصائه المنهجي الواسع لمواد البلاغة الكلاسيكية. ونلاحظ الآن كثرة مفرطة من الأعمال المرصودة للبلاغة تنظيرا وتأريخا في أوروبا

268- بارت. بلاغة الصورة. نقله الشرقاوي في البلاغة القديمة ص5.

269- ترجمه إلى العربية محمد الولي ومحمد العمري.. وصدر بالدار البيضاء سنة 1986.

والولايات المتحدة في وقت واحد.. إن رواد هذه البلاغة الجديدة في فرنسا هم رولان بارت، وجيرار جينيت وكونتر وكبدي فارغا. ومجموعة مي بلييج، وبيرلمان وتودوروف. لقد استطاع هؤلاء الباحثون وباحثون آخرون كثيرون في بلاد أخرى أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا"[270].

إن من يطلع على العمل الأكاديمي الصبور، العمل التصنيفي الذي قام به كورتيوس ولوسبيرغ وأمثالهما سيدرك العبء الذي حمله هذا الجيل من الباحثين لتسهيل مهمة الجيل اللاحق من القراء المؤولين من أمثال جان كوهن وهنريش بليت. ونحن ما زلنا مع الأسف نفتقد حتى هذه الخطوة التصنيفية الأولية[271].

لم يعد رجوع البلاغة موضع جدال بين الدارسين سواء أولئك الذين نادوا بعودتها أو الذين لم يفعلوا ذلك، فالكل منخرط في البحث في أسباب هذا الغزو الجديد.. .فمنهم من يربط ازدهارها بازدهار البحث في اللغة، باعتبارها أداة للتواصل والمعرفة مستشهدا بالتاريخ القديم والحديث، كما يقول فاسيلي في كتابه: البلاغة والبلاغة الجديدة[272]. ومنهم من ينظر من الزاوية المقابلة فيضيف إلى ذلك «الوعي اللغوي للأدب» كما يقول غريماس وكورتيس في معجميهما[273].

وقد أجمل هنريش بليت هذه الأسباب بقوله: "إن سبب هذه النهضة البلاغية يرجع، في مجال التنظير، إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية، ونظريات التواصل، والسيميائيات والنقد الأيديولوجي، وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها"[274].

ولقد خرجت البلاغة، بهذا الانفتاح الجديد على مجالات الخطاب، من حدود البعد الجمالي الذي كانت محصورة فيه. نازعة لأن تصبح علما واسعا للمجتمع[275].

270- البلاغة والأسلوبية. ت. محمد العمري ص15-16.

271- والأسوأ من ذلك أن المشتغلين بالتراث البلاغي حوّلوه من موضوع للنظر والنقد والتمحيص، إلى صنم للعبادة والتقديس؛ يجدون فيه ما ليس فيه، ولا يفهمون ما فيه.

272 - انظر مقدمة عبد الكبير السرقاوي. لترجمة البلاغة القديمة. ر. بارث.

273- البلاغة الأسلوبية 15 – 16.

274- نفسه 15.

275- نفسه.

فانتقلت خلال عملية التجديد هذه من المعيارية إلى الوصفية، فلم يعد الهدف الأول للبلاغة هو إنتاج النصوص بل اتجهت إلى التحليل.

يرى هنريش بليت، من جهة، أن البلاغة تكتسب مشروعيتها في تناول الخطاب من اعتبارين:

أولهما تاريخي: فقد أنشئت النصوص المختلفة (من خطابات ومواعظ. ورسائل وأشعار..الخ) عبر التاريخ، حسب قواعدها، "فإذا ما استعملنا، بعد ذلك، المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنساهم في كشف تركيبها الشكلي القصدي"[276].

وثانيهما: ذو طبيعة جوهرية؛ فقد أظهرت البلاغة مرونة وقابلية للتكيف مع النصوص الجديدة عبر قرون، «ونتيجة لذلك ظهرت أنساق بلاغية فرعية. مثل بلاغة أدب الترسل والمواعظ الشعرية البلاغية. لقد أوحت هذه الحالة بإمكانية تطبيق البلاغة على جميع النصوص الممكنة»[277].

انطلاقا من هذه القناعة انخرط البلاغيون الغربيون في تجارب متفاوتة من أجل استثمار البلاغة وإعادة كتابتها. يمكن ـ في هده المناسبة ـ رصدُ ثلاثة اتجاهات (حسبما يسمح به المقام وحدود الاطلاع).

♦ **توسيع المفاهيم البلاغية القد يمة**، ودفعها ـ تصنيفا وتفسيرا ـ إلى مستوى الأصول التي يتولد عنها غيرها؛ إما،

- ضمن نسق جديد، كما فعل ياكبسون مع الاستعارة والمجاز المرسل وصور التكرار والتوازي ضمن ما أسماه: نحو الشعر، وقد اتخذ اجتهاده في تأصيل البحث في الاستعارة والمجاز المرسل أساساً لكثير من البحوث في البنية الدلالية للشعر. وإما،

- ضمن النسق البلاغي القديم نفسه، كما انتهى إليه مع المصنفين المتأخرين مثل لوسبيرغ، وفونتاني في: صور الخطاب، ويحضرنا في هذا الاتجاه عمل جون مولينو وجويل طامين في كتابهما المشترك: مدخل إلى التحليل اللساني

---

276 ـ البلاغة والأسلوبية 16.

277 ـ البلاغة والأسلوبية.

للشعر. وقد أعلنا، منذ البداية، أن استفادتهما من البحث اللساني تنحصر في روح البحث، لا في شكله وصياغته. لأن البلاغة القديمة، في نظرهما، ما زالت تحتفظ بالكلمة في الموضوع. ولذلك اتجه عملهما إلى توسيع المفاهيم الكبيرة، ومحاولة تفسير فاعليتها إلى أقصى مدى ممكن. وهذا ما فعلاه مثلا مع التكرار، والتوازنات الصوتية والمجاز..الخ ويعتبر عملهما مرحلة وسطى بين التصنيف التقليدي لصور البلاغة وبين صياغة البلاغة ضمن رؤية جديدة، كما فعل من نذكر بعدهما.

♦ **محاولة تفسير طبيعة الصور البلاغية وكيفية اشتغالها** بإدخالها في نسق عام واستخراج البنية المشتركة بينها. وهذا هو العمل الذي أنجزه جان كوهن في كتابه: بنية اللغة الشعرية، حيث حاول استخراج مظاهر الانزياح في الصور البلاغية. ينطلق جان كوهن من التمييز بيم مرحلتين أساسيتين في قيام أي علم: مرحلة التصنيف ومرحلة التفسير، وقد أنجزتِ البلاغة والقديمة الخطوة الأولى، وبقي على البلاغة الجديدة (أو الشعرية حسب تسميته لها) أن تنجز الخطوة الثانية. ونود هنا أن نُسمع القارئ صوت هذا الباحث المتميز في المسألة الحيوية التي تجعل حلقات النشاط الإنساني في مساءلة الخطاب موصولة ومتكاملة: يقول:

«الواقع أن البلاغة القديمة قد بنيت بمنظور تصنيفي خالص، لقد وقفت محاولتها عند وضع المعالم، وتسمية الأصناف المختلفة من الانزياحات وترتيبها. كانت تلك المهمة مملة. ولكنها ضرورية، فمن هنا ابتدأت العلوم جميعا. لكن البلاغة وقفت عند هذه الخطوة[278]. فلم تبحث عن البنية المشتركة بين الصور المختلفة، وهذا بالتحديد هو هدف تحليلنا. فهل توجد في القافية

---

278 ـ هذا الرأي قابل للمناقشة والتنسيب؛ فمشروع الجرجاني في الأسرار كان في اتجاه اكتشاف العنصر الموحِّد، ونفس الأمر يقال عن كتاب سر الفصاحة. ولعل هذا الهم النسقي الصارم هو الذي أدى بالجرجاني وابن سنان إلى ممارسة الاختزال والبتر، كما بينا في كتاب البلاغة العربية، وفي كتاب الموازنات الصوتية. أما نظرية ابن رشد في «التغيير» فهي نظرية مكتملة، واضحة وصريحة. وما دام كوهن يتحدث عن القديم عامة فلا أفهم لماذا أهمل نظرية المحاكاة، فهي تقدم النسق الذي يوحد جميع الصور. وهي تعتبر مفسِّرة مثل نظرية الانزياح؛ لا فرق من الوجهة النفسية.

والاستعارة والتقديم والتأخير صفة مشتركة من شأنها أن تأخذ فعاليتها بعين الاعتبار؟»[279].

«إن الكتاب كله (كما جاء في مقدمة المترجمين) يجيب عن هذا السؤال؛ من فقرة لأخرى، وفي كل لحظة يؤكد المؤلف أن الصور البلاغية تلتقي جميعا، في اللحظة الأولى، في خرق قانون اللغة». وقد قدم المترجمان نماذج لذلك تُعلم بالوقوف عليها الكتاب[280].

♦ **إدراج الصور البلاغية ضمن خطاطة نصية عامة** كما فعل هنريش بليت سعيا منه لصياغة نموذج صالح لتحليل كل النصوص الممكنة أدبية وغير أدبية. يقول في مقدمة عمله:

«إن تصورا للبلاغة من هذا القبيل (أي بلاغة تحليلية يتضمن أمرين: أولهما ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحا لا لدراسة النصوص الأدبية وحدها، بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها، وثانيهما، الفكرة المتضمنة في أن كل نص هو بشكل ما «بلاغة» أي أنه يمثل وظيفة تأثيرية، ولهذا الاعتبار فالبلاغة تمثل منتهى للفهم النصي مرجعه التأثير»[281].

وبعد استعراضه للبعد التداولي للبلاغة القديمة يستعرض الأسلوبيات الحديثة من وجهة نظر المقام التواصلي (المرسل (التعبير)، الرسالة، المتلقي (الأثير))، ثم يقترح بلاغة جديدة تجمع بين عنصرين طالما اعتبرا متنافرين: عنصر الانزياح والعنصر التداولي (المقامي):

«بعد الذي تقدم نقترح نموذجا قائما على أسلوبية الانزياح، ولكنه يشتغل في الوقت نفسه على المستوى التداولي، يعيد تشغيل نسق الصور البلاغية القديمة، هذا النسق الذي يستند إلى مبدأين هما: الانزياح والأثر الانفعالي» (ص41).

يعتبر هنريش بليت عمله تطويرا للنتائج التي توصل إليها منظرون آخرون يذكر منهم ليش وتدوروف ومجموعة لييج (مي). ويقوم تطويره لها على

---

279 ـ بنية اللغة الشعرية ص48.

280 ـ بنية اللغة الشعرية 7.

281 ـ البلاغة والأسلوبية 18.

تحسين الأداء، وتصحيح الأخطاء، إذا اقتضى الحال. فقد اعترف هؤلاء قبله «بدقة فن العبارة القديم وأسلوبية الانزياح، وحاولوا إدماجهما اعتمادا على اللسانيات البنيوية»[282]. غير أن جهودهم برغم تماسكها لا تحقق المطلوب، لأنها لا تعير اهتماما كبيرا للجانب التداولي، بل تكاد تتخلى عنه. ولذلك يقترح الخطة التالية في تصنيف صور الانزياح.

- انزياح في التركيب (العلاقة بين الدلائل).
- انزياح في التداول (العلاقة بين الدلائل والمرسل والمتلقي).
- الانزياح في الدلالة (العلاقة بين الدلائل والواقع).

282ـ نفسه 41.

الفصل الثالث

مناقشات وحوارات

القسم الأول:

المناقشات

أدرجنا في هذا القسم مناقشتين: الأولى مع الأستاذ حميد لحميداني حول قضية التخييل والمقصدية في التراث الأدبي والبلاغي العربي، والثانية مع الأستاذ محمد مشبال في إشكالات بلاغية عديدة، من قبيل العلاقة بين البلاغة والنقد الأدبي، والبلاغة والسمات، والبلاغة والنص الأدبي..الخ. اكتفينا بهاتين المناقشتين لأهميتهما، ولمكان صاحبيهما في مجال النقد الأدبي والبلاغة. وهما مفيدتان لطلاب البلاغة ومحبي الحوار العلمي.

الأولى كانت على شكل مقالات نشرت في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي. والثانية على شكل حوار مكتوب مباشر صاغ فيه الأستاذ محمد مشبال مجموعة من الاستشكالات والمآخذ في شكل أسئلة، وأجبت عنها كتابة، ونشرت بالعدد الأول من مجلة الصورة.

قضية التخييل والمقصدية في الأدب والنقد القديم. كانت مناسبتَها صدورُ كتاب للزميل الأستاذ حميد لحميداني بعنوان: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم (الشعر الجاهلي نموذجا)؛ اعتبره المؤلف متجاوزا لـ«النقد المألوف». تندرج هذه المقالة في البحث العالم، لأنها تتناول قضية أَساسية في جوهر النظرية الأدبية في أفق تاريخي. وقد حرصتُ في هذه المناقشة على استحضار آراء الزميل لحميداني بالقدر الذي يضمن للقارئ الفهم دون حاجة لقراءة النص المحاوَر.

- ا -

البلاغة العربية بين المقصدية والتخييل[283]

مدخل عــام

1- الحاجة إلى المتابعة

صدر منذ وقت قصير كتاب جديد للأستاذ حميد لحمداني بعنوان: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم (العصر الجاهلي). يتكون الكتاب المذكور، بالنظر إلى مشروعه ومُنجَزه، من قسمين منفصلين انفصالا بائنا على مستوى الطموح المنهاجي. يضم القسم الأول تقديمَ الكتاب والفصلَ الأولَ منه، ويضم القسمُ الثاني الفصل الثاني والثالث. يستند هذا التقسيم، كما ألمعنا، إلى كون القسم الأول ينتقد النقد «المألوف» ويقترح بديلا له، في حين نجد القسم الثاني يصالحه ويستعين به ثم يعتمده مكتفيا بعرض نصوصه ولحمها بجمل تمهيدية بسيطة[284]. وما دام الذي يشغلنا في البحث العلمي هو الإبداع والبدائل فسنهتم أكثر بالقسم الأول، أي بالمشروع. وقد يهتم غيرنا بانسجام العمل ككل.

---

283 ـ نشرت هذه المناقشة بعنوان: 1 ـ النقد غير المألوف في الواقع والخيال، في الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي. بتاريخ 1998 / 10 / 30. العدد 529.

284 ـ كما سيلاحظ القارئ في تعامل المؤلف مع نصوص ابن رشيق القيرواني من القدماء ودارسي المقدمة الغزلية من المحدثين. (انظر الصفحة89، والصفحات 107،108،109.106، وقارن بلحن القول في المقدمة).

بدأت كتابة هذه المحاورة يوم اطلعتُ على الكتاب. ثم وضعتها جانبا أكثر شهر، ثم أعادني إليها إحساس قوي بأنه يقدم تصورا غيرَ سليم ـ من وجهة نظري ـ عن النقد العربي، ويحكم حكما غير منصف على جهود النقاد العرب القدماء والمحدثين. وقد زادَ الأمرَ حساسيةً كونُ الكتاب بطبيعة موضوعه موجها إلى الطلبة ومن في حكمهم. وهذه الفئة ميالة، بطبيعة تكوينها العلمي وظروفها الصعبة، إلى الاختزال المبسط، بقدر ما هي ميالة إلى شعارات التجاوز والبدائل دون فحص. وقد استعملت هنا كلمة «إحساس»، وهي ضعيفة، وذلك عن قصد تاركا للقارئ حق تصديق هذا الإحساس أو تكذيبه بالعودة إلى الكتاب نفسه للتأكد مما سأشير إليه في حدود ما يسمح به هذه المقام.

وفي هذا الأفق، واحتراما للقراء الذين يأنفون من السجال الذي ينتهي، في الغالب إلى حوار الصم، سآخذ وأعطي. أي سأستمع إلى الكتاب يقدم نفسه بدون بتر أو تقوُّل أو تقويل، وسأسمح لنفسي، بعد ذلك، بتقديم الرأي الآخر. فإن لم تكن مساهمتي تصحيحا لأخطاء، كانت تعريفاً بأشياء إضافية. ولن يخرج القارئ خاوي الوفاض بحول الله. إن من المؤسف اليوم أن النقد لم يعد يساير التراكم العلمي، وأصبح المثقفون في بعض الحالات مثل الموظفين في هيئة واحدة؛ شعارهم «التساكت»، حتى ألهانا التساكت عن التصريح بآرائنا. وأصبح القارئ يستهلك كل شيء بدون أي محاكمة.

2- طبيعة البحث

بقطع النظر عن عمليات إعداد النصوص والتأريخ للقضايا العلمية، هناك، على الأقل، استراتيجيتان للعمل العلمي المفترض إنجازه في المجال الجامعي في العلوم الإنسانية:

- هناك أعمال تتوخى التيسير والتوصيل، ولها قيمتها حين تحترم الضوابط العلمية والبيداغوجية، ومن الأكيد أن الكتاب لا ينتمي إلى هذه العينة، بصريح لفظه كما سيأتي.
- وهناك أعمال تنتمي إلى الاجتهاد قصد الإبداع في المجال النظري، وهي تعمل في واجهتين، على الأقل:

• تطوير نظريات موجودة وتكميلها وتحصينها بتضييق مجال الشذوذ، أو تقنينه بدوره باعتباره من تخوم النظرية، كما هو الحال في النحو.

• مراجعة النظريات (ووجهات النظر) القائمة في موضوع ما، مراجعةً نقديةً، وتقديمُ البديل أو البدائل الممكنة، أو اقتراح قراءة مخالفة تستجيبُ لشروط جديدة في حوار بنَّاء مع القراءات الأخرى. قد يكون البديلُ اجتهادا شخصيا، وقد يكون تطبيقا لنموذج نظريٍّ قائمٍ في ثقافة أخرى، والأمران مشروعان ومفيدان، لاشك في ذلك.

إن الكتابَ الذي نحاورُه في هذه المقالة يضع نفسَه ضمن النوع الأخير، أي ضمن الكتب التي تقدم بديلا جديدا غير مألوف لوجهة نظر مألوفة اعتمادا على اقتراح نظري موجود في ثقافة أخرى.

هذا أمرٌ صريحٌ منذ البداية. يقول المؤلف معلقاً على المنهج المتوخى: «واختيارُ تطبيق كل هذا على الشعر العربي الجاهلي بالخصوص جاء بدافع إعادة النظر في هذا التراث الغني بالعطاء من زاوية نظر أخرى ليست هي بالضرورة نفس زاوية النظر المألوفة في نقد الشعر العربي القديم»[285].

ومرد الاعتراض، كما سنفصل لاحقا، إلى أن «الفكر النقدي العربي والحديث [هكذا][286]» على السواء «لم ينفصل» «أبداً» عن التصور المقصدي، «لقد نُظر دائما إلى الشاعر العربي القديم ـ علي أنه مُبَلِّغ رسالة محددة»[287]. فهذا نص كلام المؤلف وهذا «النقد المألوف» هو المحاكَمُ في هذا الكتاب.

سأحاول، مناقشة بعض التهم الموجهة إلى الفكر النقدي العربي القديم خاصة، ومن المعلوم أنه فكر بلاغي في المقام الأول، كما أن القضايا التي يعالجها المؤلف هي قضايا بلاغية شعرية عند القدماء والمحدثين من العَرب والعَجم، على

---

285. الواقعي والخيالي 9. يفهم من السياق العام للكتاب أن «ليست هي بالضرورة تعني ليست قطعا»، خلاف ما قد يفهم من أنها قد تكون هي المألوفة نفسها.

286. نحن إذن أمام إعادة النظر في الفكر النقدي العربي والحديث (نفترضُ سقوط كلمة «القديم» هنا حتى لا يبقى التعارض قائماً بين أمرين مختلفين لا وجه للتعارض بينهما في هذا السياق: العربي والحديث).

287. الواقعي والخيالي 3.

حد سواء، وسيرد ما يؤكد ذلك ويجليه. ثم أعطي الكلمة لواحد من المحدثين خاض في جوهر المسألة باعتباره نموذجا للفكر النقدي الحديث غير المنصاع لسلطة «المقصدية». وتلافيا لكل سوء تفاهم سألتصق بالنص في نسقه.

التهمة الرئيسية: المقصدية

ينطلق الكتاب ــ كما سبق ــ من مقولة أساسية هي هيمنة المقصدية، على النقد الأدبي الذي تناول الشعر العربي ونظّر لجماليته، وهذا مطلع الكتاب ومدخله:

«احتلت المقصدية ـ دائما ـ جانباً مهما في نظرية الأدب، ونُظر إليها باعتبارها أمراً مخطّطا له في ذهن الكاتب، ومن ثم فالجانب الأدبي في الأدب لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة مساندة للأفكار الجاهزة التي يريد الشاعر أن يوصّلها للناس. ويَفْترضُ القولُ بالمقصدية أن ننظر إلى الأدب كلغة تواصلية، حتى وإن لم ننف عنه استخدام الوسائل المؤثرة التي دعاها جاكبسون الوظيفة الشعرية. الإلحاحُ على المقصدية يجعلنا في جميع الأحوال نعتبر كل الوظائف الأخرى للغة الأدبية موجَّهة لخدمة توصيل الأفكار الماثلة سلفا في ذهن الشاعر. فوسائل التخييل يُنظر إليها على أنها لا تضيف أي شيء زائد على ما فكر فيه المبدع»[288].

هذا النص عبارة عن أطروحة عامة يرتب الباحث عليها النتيجة التالية:

«الأدب إذن ــ من هذا المنظور ــ حامل مقصدية المبدع وموصلها إلى القارئ بوسائل التأثير المناسبة، ولذلك تكون صورة المتلقي في أقصى درجات السلبية لأنه مستقبل المقصدية وواقع تحت الرسالة الإبلاغية، وليس أمامه إلا أن يفتح ذهنه ليفهم ويستوعب، ويحرك إحساساته ليتمتع وينبهر[289]». و«الفكر النقدي العربي والحديث» لا يخرج، كما سبق، عن هذا التصور المقصدي السلبي.

وللخروج من هذا المأزق المقصدي يصوغ المؤلف «فرضية» مخالفة يراها جديدة، هي اقتراحه النظري الجديد الذي سيُقوِّم به أَوَدَ النقد العربي: «وسيكون مؤداها [حسب لفظه] كالتالي :

---

288 ـ نفسه 3. أبرزنا بعض العبارات آملين وقف المصادقة عليها لحين النظر في شأنها.

289 ـ نفسه 4. والإبراز منا. وفي تحريك المرء إحساساته شيء من الكاريكاتير.

«نتصور أن الشاعر حين يحس بأنه مدفوع بوازع[290] غامض، في الغالب، إلى التعبير عن أشياء وأفكار..بطريقة أدبية، أن هذه الأشياء والأفكار لا تكون أبدا واضحة المعالم في ذهنه، أو أن التعبير اللغوي العادي عاجز عن تجسيدها، ولذلك فاللجوء إلى اللغة الأدبية يعني أننا نريد أن نبحث لما نحس به عن تجسيد يلائمه ويبلوره بصورة أفضل [...] وهو ما يعني أيضا أن ما حصلنا عليه من التجربة الأدبية التي خضناها شيء يتجاوز بالضرورة ما كان لدينا قبل التجربة نفسها حين نختار جميع الوسائل التخييلية الممكنة ونؤلف بينها»[291].

والآن بعد هذه النصوص الجازمة في حكمها بأن الفكر النقدي العربي والحديث ينظر إلى وسائل التخييل «على أنها لا تضيف أي شيء زائد على ما فكر فيه المبدع » بوعي وواقعية، نتساءل:

- هل الفكر النقدي العربي والحديث فكر مقصدي على الإطلاق، أم هناك مذاهب واجتهادات وتصورات مختلفة؟

- وهل البديل المقدم «فرضية» حقا أي شيء جديد يستحق الفحص؟ أم هو من باب السماء فوقنا؟

نظراً لأن مناقشة حدود المقصدية وطبيعتها في إطار حواري يستدعي حتماً مُحاورَها ولا أقول نقيضها، أي التخييل الشعري، ونظرا إلى أن النظرية التي يزمع المؤلف تطبيقها تنتقد الطرفين، أي التطرف المقصدي والتطرف الخيالي الذي يهم ما بعد الرومانسية، فإننا سنتناول المسألة بالنظر إلى وجهي العملة:

تفاعل الواقعي والخيالي في الشعرية العربية القديمة

من المعروف أن أول شروط مُحاكمة عادلة هي الاستماع إلى المتهم أو من ينوب عنه إذا حُوكم غيابيا. والذي وقع أن الفكّر النقدي العربي قديمه وحديثه غائب غيابا مُطلقاً أثناء توجيه الاتهام، بل لم يُدقَّق حتى في أوراق الميلاد والحياة. فأحرى إقامة الحجة على الموت.

290- الوازع: ضد الدافع، الوازع هو المانع (توضيح لاحق).

291- نفسه 4-5.

ومن البديهي، في مجال التنظير العلمي بشكل عام، أن الاجتهاد لغرض الإبداع في موضوع ما لا يمكن أن يقوم على فراغ معرفي بذلك الموضوع، فلابد من الاطلاع على ما تراكم فيه وفهمه ومحاورته، في أي اتجاه كان: مسايرة أو مخافة. لقد عاب حازم القرطاجني يوماً عملَ أولئك «المتكلمين» الذين يحتاجون إلى معالجة قضية من قضايا تحليل الخطاب القرآني فيأخذون أولَ مرجع في مادة البلاغة، ثم يصبحون من غدهم يُفتون في الموضوع، وشبَّه حالهم بالشخص الذي «استعار» بعض كتب الطب وقضى ليلة واحدة في مطالعتها قصد معالجة صديق له مريض، ومن غده قدم الوصفة القاتلة. «فكما أن هذا الرجل أصبح جالينوسا من ليلته، كذلك يريد المتكلم في الفصاحة من المتكلمين أن يصبح من ليلته جاحظا وَقدامة إن شاء!»[292]. إن البلاغة والنقد مثل الطب مبنيان على تراكم لابد من تحصيله قبل التصدي لمعالجة الأبدان والنصوص الأدبية. فكما أن الطب ممتد في الكيمياء وعلم الأحياء..الخ فإن النقد الأدبي ممتد (في بعده البلاغي) في النحو والمنطق وغيرهما من العلوم.

الشعرية العربية هي شعرية التفاعل بين الواقع والخيال. وهذا أمر جلي يقدم نفسه بنفسه سواء من خلال المنطلقات التاريخية أو المقترحات النظرية. وسنجمل هنا مادة تذكِّر العارف، وترشد الطالب إلى مواطن السؤال حتى يتسنى له محاورة الكتاب ببعد آخر غائب عنه، أو مغيب فيه على أقل تقدير.

1- الشعر إلهام، الشعر صناعة

إن الوعي الشعري المرتبط بما وصلنا من القصيد العربي قبل الإسلام كان وعيا ملتبساً بين الواقعي والخيالي، أي لم يكن مقصديا صرفا ولا خياليا صرفا. فالشعر، من جهة، صنعة واعية تقومُ على معاناة العمل مع اللغة والمحيط الطبيعي والإنساني لمد الجسور وخلق العلاقات (ومن هنا وجدنا الحديث عن التحكيك والمحكك والحوليات والتنقيح وعبيد الشعر، والمخشوب والمأشوب والمصقول من الشعر). والشعر، من جهة أخرى، وَحْيٌ من الجان أو من القرين الذي يوحي للشاعر، ويُلهمه من القول ما ليس له على بال. هناك قوة شعرية سحرية تصل

292. منهاج البلغاء 87. وقوله: «من المتكلمين» يعني المتكلمين في شؤون الدين. وانظر بقية كلامه ففيه كثير مما يصلح للعبرة.

إلى تحويل القول إلى قوة مادية فاعلة. لقد تأكد منذ العصر الجاهلي أن الشاعر لا يقول الأشياء المقصدية الجاهزة، بل يقول أشياء قد لا تخطر على بال أحد، لأن الشاعر كما استقر عند النقاد والبيانيين فيما بعد، هو من يشعر بما لا يشعر به غيره، ويبلوره لغويا (يأتي به). وقد عبر ابن وهب عن هذا التصور أحسن تعبير بقوله: «ولا يستحق الشاعرُ هذا الاسم حتى يأتي بما لا يشعر به غيره. وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر لما ذكرنا فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى»[293].

لا أدلَّ على هذا الاختلاط بين عالم الواقع وعالم الخيال الشعري عند القدماء من إنشاء قصائد من كلمات فارغة دلاليا مثل: «عن» و«في» و«كم» ومنها نموذج مشهور في ديوان امرئ القيس. ولا نظن أن لها محتوى مخططا له» كما توقع زميلنا الأستاذ حميد لحميداني.

بل لقد خلطوا بين القرآن والشعر والكهانة والسحر لِما لاحظوه من حديث عن الغيوب من جهة، وما لاحظوه في بنائه اللغوي المتميز عن القول العادي، من جهة أخرى. فرفَض القرآن هذه الصفة بقوله: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين». فالقرآن يُلح، كما ترى، على الإبانة، أي على وضوح المقاصد، لأنه حجة كما ذكر في صلة الآية: «لينذر به من كان حيا ويحق القول على الكافرين»[294]، «يحق القول»، أي تقوم الحجة. القرآن يرفض صفة الشعر لأنه يعلم أن الثابت في أذهان الناس هو أن الشعر كلام يخالطه الخيال: فيه حكمة وسحر، ولكنه ليس من طبيعة الكلام التشريعي الواقعي الحُجي، فالطبيعتان مختلفتان. ولذلك لزم إبعاد صفة الشاعر عن الرسول (ص).

2- الغلو والاعتدال

ذاك هو المهادُ الأولُ للفكر النقدي العربي، وقد ظل فاعلا. بل تأكد مع الخصومة حول المذاهب الشعرية بين أنصار الطبْع وأنصار الصَّنْعة بعد أن جُرِّد من أبعاده الغيبية، وأخضِع للوصف اللساني والمنطقي. لقد ادعى جيلٌ من

293. البرهان في وجوه البيان130. تأمل عبارة «يأتي بِ..» متذكرا كلام ورقة بن نوفل للرسول، وقوله تعالى لمريم. (وعدم التوثيق مقصود).

294. سورة يس70.

الشعراء المحدثين الاختصاص بالبديع ومكوناته الأساسية: الاستعارة والتجنيس والطباق، واعتُرف لهم بالإكثار منه لدرجة ضياع القصد أحيانا. فقيل لأبي تمام، في مقام المدح: «لمَ لا تقولُ يا أبا تمام من الشعر ما يُفهم»؟[295] فكان جوابه من مقامه الإبداعي: «وَ أنت ... لمَ لا تفهم من الشعر ما يقال؟» "فانقطع" السائل، أي: أفحم، ومعنى ذلك انتصَار منطق الشعر على منطق الخطاب المقصدي. وانقسم النقاد إلى مؤيد لمذهب المبالغة والغموض ومعارض له. ومن المعروف أن أكابر البلاغيين والنقاد مثل قدامة وعبد القاهر الجرجاني أيدوا مذهب المبالغة والغموض فقال قدامة: "إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما"[296]. ووصل عبد القاهر الجرجاني، في قمة بنائه لأسرار البلاغة، إلى تمجيد التخييل القائم على الجمع بين أعناق المتنافرات[297]. (ونؤخر الحديث عنه إلى حين تقديم قراءة أحد المحدثين له. وذلك لملاحظة كيف يتعاضد القديم والحديث في رفض مقولة الكتاب بلغة واحدة حديثة قديمة وقديمة حديثة، أو لا قديمة ولا حديثة: زيتونة العلم؛ لا شرقية ولا غربية).

3- الحقيقة والمجاز

المهاد الثالث للفكر البلاغي والنقدي العربي هو مَعيرةُ اللغة والفكر، أقصد وضع النحو وتنظيم الوسائل الحجاجية للدفاع عن العقيدة بالاستفادة من المنطق أي علم الكلام.

إن المعركة بين الشعراء واللغويين أعمقُ من أن تغيب أو تُغيب حين طرح إشكالية المقصدية والتخييل. لقد ضجر الشعراء من محاولة اللغويين إخضاع

---

295. انظر سر الفصاحة 227. وابن سنان من أقطاب التوجه المحافظ في البلاغة العربية، ولعله وحده أنسب لتأييد وجهة نظر المقصدية..

296. نقد الشعر 63. المذهبان المقصودان هما: الغلو والاقتصار على الحد الأوسط.

297. مما جاء في أسرار البلاغة: «وهاهنا إذا تأملنا مذهب آخر في بيان السبب الموجب لذلك هو ألطف مأخذا وأمكن في التحقيق، وأولى بأن يحيط بأطراف الباب، وهو أن لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك له من غير محله، واجتلابه إليه من النيق البعيد بابا آخر من الظرف واللطف، ومذهبا من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل». (أسرار البلاغة109). والضرب الأول المشار إليه هو الذي يقوم على صورة من صور الاحتجاج. وهو الآخر «غريب بديع يمكن أن يخالف فيه». (نفسه103).

إبداعهم للمقاييس المستنبطة استقراء من الشائع المعروف، فقال أحدهم رافضا مقاييس النحو في فهم الشعر:

مَا كُلُّ قَوْلِي مَشْرُوحا لَكُمْ، فَخـُذُوا   مَا تَعْرِفُونَ، وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا[298]

بل من الطريف افتخار أحد الرجاز بأنه يبلغ من التخيُّر والتنخل وتجويد الصنعة ما يجعل اللغوي يجتهد في التماس «قصده» فلا يصل إليه[299]:

وَأَنَـا فـي تَخَيُّـرِي وَجِـدي

إِذَا تَنَخَّلْـتُ جِيـادَ القَـدِّ

يَلْتَمِسُ النَّحْوِيُّ فِيهَا قَصْدِي

إنه ليعلم، إذن، أن الصنعة تنتهي إلى وضع سنن ليس من نمط السَّنن الذي يمسك النحوي بخيوطه. كان واضحا في أذهان الشعراء النقاد فضلا عن النقاد النقاد أن جهة النظر تختلف في هذا المجال. واستعملوا في ذلك كلمة النظر نفسها[300]:

لاَ يَنْظُرُ النَّحْوِيُّ فِيهَا نَظَرِي   وَإِنْ لَـوَى لَحْيَيْـهِ بِالتَّحَكُّـرِ

إن الأزمة بين المكون التخييلي للشعر والقوانين المعيارية المقصدية نحوية ومنطقية هي التي أدت إلى ظهور المجاز في بعده اللغوي (الشامل) والمنطقي (الخاص). عن هذه الإشكالية نشأ «مجاز القرآن» وضرورات الشعر، فمنذ البداية وقف سيبويه عند كثير من الصيغ الملتبسة مما يجوز في الشعر ولا يمارس في الكلام العادي، كما هو معروف فاتحا باب التوسع في اللغة. ثم توالت عمليات تنقيح هذه المباحث الانزياحية حتى صيغت أخيراً مع الجرجاني في مبحثي العدول والنظم، أو البيان والمعاني حسب قراءة السكاكي لعمل الجرجاني. في بداية هذه المرحلة أجابَ اللغويون عن السؤال الذي يطرحه بيت امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ!

---

298. البيت لعمار الكلبي. (انظر الخصائص1 / 248 - 249).

299. نقله عبد الحكيم راضي عن يوهان فك في نظرية اللغة في النقد العربي 10.

300. رؤبة. مجموع أشعار العرب 61.

هذا البيت الذي اكتشفَ الباحثُ «الآن» أن الشاعر «اختار فيه مشبها غير واقعي» كان اللغويون قد أَنَسُوا به قوله تعالى: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين»، وبينوا الطبيعة النفسية غير الواقعية (المادية) للمشبه به فيه. قال أبو عبيدة: «وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان الغول يَهُولُهم أوعدوا به»[301]. وقال الفراء في رؤوس الشياطين: «فيه في العربية ثلاثة أوجه: أحدها أن تشبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا تُرى. وأنت قائل للرجل: كأنه شيطان إذا استقبحته»[302]. بل إن هذا المثال وما ضاهاه لم يشكل إحراجا حتى بالنسبة للاتجاه البلاغي المحافظ المتمسك بالصحة والوضوح كما هو الحال عند ابن سنان الخفاجي الذي أدرك بحسه النقدي أن مثل هذه النصوص قد تمس بشمول النظرية التي يقدمها، فقال: «فإن قيل: قد مضى في كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون معروفا واضحا أَبْيَنَ من الشيءِ الذي يشبه، فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الزقوم: «إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين». ورؤوس الشياطين غير مشاهدة؟ قيل إن الزقوم غير مشاهد، ورؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد...»[303].

هكذا نلاحظ أن المنطلق الثاني للبلاغة العربية منطلق انزياحي؛ يتفاعل فيه الواقع والخيال، أو الحقيقة والمجاز. ومن أهم المباحث البلاغية عند المتأخرين مبحث خروج اللفظ عن ظاهر معناه، فهو صفة تكاد تخترق كل صور البيان والمعاني.

4- التخييل والتصديق

إلى جانب المنطلقات المحلية للبلاغة العربية هناك رافد أساسي ومهم، هو قراءة الفلاسفة العرب لبلاغة اليونان وقد ساهم في توجيه قراءة معطيات الرافدين الأصليين السابقين، وأغناهما بكثير من الأفكار والمواد.

---

301. انظر معجم الأدباء لياقوت 19/ 158.

302. معاني القرآن 2/ 387.

303. سر الفصاحة 254. هذا ما يقوله صاحب أكمل صياغة لبلاغة الصحة والتناسب وأناقة الخطاب.

فليس يخفى على مهتم، في هذا المجال، أن الإشكالية الأساسية التي اهتم بها هؤلاء الفلاسفة هي الفرق بين الخطاب المقصدي التداولي القائم على التصديق أي الخطابة وبين الخطاب الاحتمالي القائم على التخييل أي الشعر. وفي هذا الإطار قدم ابن رشد اجتهادات دقيقة في المستوى اللساني للتفريق بين الاستعمال الشعري للغة والاستعمال الخطابي، وبَيَّنَ ما بينهما من تداخل وتخارج. فالشعر يستعمل الصور المبتدعة والخطابة تستعمل الصور المستولية المشهورة التي لم تبتذل إلى مستوى الكلام العادي. هذا فضلاً عن تأويل المحاكاة الأرسطية في اتجاه النص العربي القائم على صور المشابهة أي التشبيه والاستعارة والتمثيل مع الاحتفاظ بمستوى ثان للتخييل في الصور التمثيلية وغير التمثيلية مما لا يتسع المقام لشرحه. وقد ظهرت ثمار جهود الفلاسفة في ثلاث صياغات نظرية كبرى:

العدول والغرابة عند الجرجاني، ومفهوم **التغيير** عند ابن رشد وتكامل التخييل والاستدلال عند حازم القرطاجني، والخروج من دائرة الصدق والكذب كما سيأتي.

والخلاصة في هذا الصدد أن البلاغة العربية القديمة كانت محكومة بالنص الشعري العربي الذي أنتجها وأنتجته، وهو نص يتفاعل فيه الواقع والخيال. وقد يكون من المثير معرفيا أن يُصَدِّق باحث يهتم بالمناهج إمكان نشوء فكر نقدي موحَّد مجاف تماما للنص الذي ولده. إن هناك ، بدون شك، إكراهات أيديولوجية ومذهبية تتدخل لتوليد اتجاهات مناسبة لها أو دعمها، ولكن من فضائل العلم والفن الاحتيال على الإكراهات وتجاوزها. ولم يكن الفكر النقد العربي بمعزل عن هذه الإكراهات. وقد كانت سببا في تنوعه وحيويته باختلاف زوايا النظر التي نظرت منها. إذ ظل العنصر الفاعل فيها هو الحوار بين البعدين التداولي (المقصدي) والتخيلي (البديعي). ونقف في الأخير عند مسألة عامة لا يستقيم الحديث عن وجود بلاغة بافتراض غيابها أو عدم الوعي بها، إنها مبرر وجود الخطاب الأدب أصلا: الإفادة والزيادة.

في كتاب الواقعي والخيالي فقرات، لو ترجمت إلى لغات أخرى لسمحت باستنتاجات غريبة. ربما تخيل من يقرؤها مستحضرًا السياق الانقلابي الذي وردت فيه، أن الحضارة العربية لم تعرف المبادئ الأولى للفن. لنأخذ «فائدة القول الشعري» مثالا لذلك. قال المؤلف:

«فالتجربة التخييلية تجعل الشاعر مُنقادا لاكتشاف شيء جديد لم يكن له وجود سلفا ضمن ما عاشه بالفعل. وإذا لم يكن الأمر يجري هكذا [أي تبعا لتصور المقصديين طبعا] فما فائدة القول الشعري، وما هي ميزته الأساسية عن الوقائع الفعلية؟»[304].

هكذا جاءت هذه الفقرة مبرزة، فهي تشكل بذلك ثمرة جهد، وخلاصة استقراء وتحليل. وهي في هذا السياق من الثورة على المألوف أساس البديل المنشود. أقول: «مهلا، أبيت اللعن...»، إن ما ذكرته يعتبر من بديهيات البلاغة العربية. إن أول عملية قام بها عبد القاهر الجرجاني هي التفريق بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة. مقصيا غير المفيدة من مجال البحث عن أسرار بلاغة الشعر. قال: «وأما المفيد (من صور النقل الدلالي التشبيهي) فقد بان لك باستعارته فائدةٌ ومعنىً من المعاني، وغرضٍ من الأغراض، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك»[305]. والجرجاني إنما ينظر هنا مستفيدا من آراء متفرقة لمن سبقه من البلاغيين ودارسي النص القرآني الذين أكدوا المعنى الإضافي الذي يترتب عن الصور المجازية، وقد كان المجاز يعني في البداية كل طرق التعبير غير المعيارية. ومن تلك الآراء قول الرماني: «وكل استعارة حسنة فهي توجب بلاغةَ بيانٍ لا تنوب منابه الحقيقة، وذلك أنه لو كانت تقوم مقامه الحقيقة كانت أولى بهً، ولم تجز الاستعارة »، إلى أن يقول: «ولابد من بيان لا يُفهم بالحقيقة»[306]، لكي يكون هناك مبرر للاستعارة.

النص المختلف والقارئ الفعال: تقاطع بلاغتين

حين يتابع المرء عشرات الكتب، بل عشرات الباحثين المحدثين الذين كرسوا نشاطهم العلمي كلاً أو جُزءًا لاستكشاف جمالية الشعر القديم في بعدها النصي والتفاعلي (بين النص والذات)، لابد أن يحس بكثير من العسر وهو يحاول استيعاب الأحكام المطلقة السابقة التي كنست القدماء والمحدثين بمكنسة واحدة.

304. نفسه 25. ما بين معقوفين توضيح منا بحسب السياق.
305. أسرار البلاغة24.
306. النكت 86. والأمثلة كثيرة. ومن الطريف هنا حديثهم عن حكمة «المشكل» من القرآن الكريم(انظر مشكل القرآن لابن قتيبة).

في أي موقع نضع أعمال محمد مفتاح، من في سيمياء الشعر القديم إلى المشابهة والاختلاف عبر دينامية النص وتحليل الخطاب الشعري ومجهول البيان والتلقي والتأويل... الخ؟ في أي موقع نضع اجتهادات كمال أبوديب وأدونيس وجابر عصفور وحمادي صمود ومحمد الولي وعبد الحكيم راضي وعلي البطل وغيرهم من الباحثين الذين اجتهدوا في استكشاف جمالية الشعر القديم، أو أبدعوا في تحليل نصوصه؟ في أي موقع نضع العمل التطبيقي الضخم الذي أنجزه محمد النويهي في كتابه الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه[307]؟ وبأي قلم نشطب على أعمال مصطفى ناصف وجهوده البلاغية اللصيقة بالنص القديم في صوره ومعانيه. هل يصدق على هذه الأعمال كلها قول الباحث: «لم ينفصل الفكر النقدي العربي ولا الحديث أبدا عن هذا التصور» (المقصدي)! هل صحيح أن هؤلاء النقاد، ومن على شاكلتهم، نظروا «دائما إلى الشاعر العربي القديم - وغير القديم - على أنه مبلغ رسالة محددة»[308]؟

لا نستطيع أن نعرض آراء هؤلاء الباحثين في هذا السياق، وهي — على كل حال — متاحة للمجتهدين من طلاب العلم في الجامعات على الأقل. ولذلك سنكتفي بنموذج واحد يمثل بحق التواصل الوثيق بين القدماء والمحدثين في اعتبار الأدب، والشعر على وجه التحديد، حوارا بين الواقع والخيال، ثم بين النص والمتلقي في سبيل توليد متجدد للدلالات. ونظرا لضيق المقام وخوفا من أن يخطر ببال أحد أننا نقوِّل القومَ ما لم يقولوه سنرتبط أوثق ارتباط بالنصوص.

---

307. استفدت من هذا الكتاب عند صدوره استفادة كبيرة يسرت لي تحليل النصوص في جميع مراحل الطلب بعد ذلك. وقد أعجبني من تحليله الجمع بين معرفة العناصر الواقعية والتصويرية في تحليل بعض الأبيات تحليلا ممتعا. يقول في عبارة بعيدة عن الهم المقصدي: «فما أشد حاجتنا إلى أن نعيد تقدير الشعر الجاهلي وننظر فيه نظرة فاحصة متأنية تزيد طبيعته الفنية استكشافا» (الشعر الجاهلي 12/1). وقال في سياق ما هو متاح لجيله وقد لا يكون متاحا للجيل اللاحق، حسب تصوره: «إن ما يستطيع بعضنا الآن أن يسمعوه في تنغيم الشعر الجاهلي من نبرات وأصداء، وما يستطيعون أن يروه في ألفاظه من ظلال وألوان، وما يستطيعون أن يستنبطوه في معانيه الثانية من إشارات واستدعاءات لن يكون في مقدور تلك الأجيال القادمة». (نفسه13/1). ما أبعد هذه اللغة عن البحث عن مقاصد جاهزة وموجودة في الواقع مسبقا، وما أبعدها عن موقع المتلقي السلبي.

308. الواقعي والخيالي 3.

سنقف عند كتاب يخوض في جوهر الإشكالية القديمة الحديثة، إشكالية الواقعي والخيالي. ذلك هو كتاب: المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية، وبحث في الشبيه المختلف. وهو لمؤلف مشهور، هو الأستاذ عبد الله الغذامي، صدر الكتاب في مكان وزمن قريبين (الدار البيضاء. سنة 1994).

لو صدر كتاب المشاكلة والاختلاف، ولو بوقت قصير، بعد كتاب الواقعي والخيالي، لما شك أحد في أنه يردُّ عليه وينقضه، بالحجج والأمثلة والشواهد النصية المتلاحقة، ولكن كتاب المشاكلة والاختلاف صدر منذ ثلاث سنوات، كما سبق. لقد وجد المؤلف نصوصا قديمة عند عبد القاهر الجرجاني وغيره تخوض في جوهر الإشكالية الشعرية نصيا وتلقيا في إطار نسق وبناء متكامل فاخترف منها الأرواح.

إن أطروحة كاتب المشاكلة والاختلاف التي تشغله من أول سطر من مقدمته إلى آخر حرف من خاتمته هي: الحوار التاريخي بين المشاكلة والاختلاف، وكيف يتم التركيب، على المستوى الفني، في مرحلة لاحقة، بـ «مؤالفة الاختلاف»، أي إنتاج مؤالفة داخل المخالفة، بالجمع بين أعناق المتنافرات، كما قال عبد القاهر الجرجاني. ومنطلق المسألة هو السؤال الأبدي: «كيف يكون النص الأدبي نصا أدبيا»[309]. يقول المؤلف (ع.الغذامي): «هذا سؤال شغل الناظرين في أدبية الأدب، وتأسس عنه علم قائم بذاته هو (نظرية الأدب)، وليس بمقدور أحد أن يزعم أن هذا السؤال، وهذا العلم شيء جديد مبتكر»[310].

وعليه، فإن البحث عن شجرة نسب «للنصوصية» الحديثة لا يجد أية صعوبة ولا يحتاج إلى أي تأويل، ذلك أن «هذا المبحث يدعو لنفسه، ويفتح بابه دون حاجة إلى طرق كثير»[311]. وكرفض مسبق لأي محاولة للإقحام في دعوى المقصدية التداولية والواقع المسبق المتحكم يقول: «و إن كنا نرى أن النص يتأسس على قاعدة «الاختلاف»، فإن هذه القاعدة هي مبدأ نصوصي نجد بذرته لدى الجرجاني ... ولدى آخرين من مبدعين ومفكرين عرب ...وربما تنوعت المصطلحات

---

309. المشاكلة والاختلاف 5.

310. نفسه.

311. نفسه

ولكن المفهوم واحد، ولسوف نجد مصطلحات؛ مثل «المُعَمَّى» وَ»الشَّرود» تتردد في الهاجس الإبداعي، وكلها تهدف إلى كتابة واصطياد النص المختلف»[312].

«والنص المختلف هو ذلك النص الذي يؤسس لدلالات إشكالية تنفتح مع إمكانات مطلقة من التأويل والتفسير، فتحفز الذهن القرائي وتستثيره ليداخل النص ويتحاور معه من مصطرع تأملي يستكشف القارئ فيه أن النص شبكة دلالية متلاحمة من حيث البنية، ومتفتحة من حيث إمكانيات الدلالة، وبما أنها كذلك فهي مادة للاختلاف»[313].

إن هذا الخطاب ليس ترجمة أو مجرد أصداء للتنظيرات الحداثية وما بعد الحداثية مما عُرف به الباحث، بل إنها لتقترب، عن قصد، وبأمانة، من نصوص المسار الإبداعي العربي القديم الذي يمثله أكابر العلماء والنقاد والشعراء من أبي تمام وَالمتنبي والمعري إلى عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهم ممن حاوروا اجتهادات الفلاسفة العرب في قراءة نظرية الشعر والخطابة، خاصة الفارابي وابن سينا وابن رشد صاحب نظرية التغيير. سنكتفي هنا أيضا بإيراد نصوص للجرجاني مما استشهد به صاحب المشاكلة والاختلاف مقتطفا من كتاب أسرار البلاغة.

ينطلق الجرجاني في نظريته الشعرية في الأسرار من كون اللغة علامات اعتباطية لا تعبر عن واقع أو فكر خارجي أو مطلقٍ، بل تأخذ دلالاتها من مواقعها النصية. وفي هذا المعنى يقول: «ومما يجب ضبطُه في هذا الباب أن كلَّ حُكم يجب في العقل وجوبا حتى لا يجوز خلافه، فإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال، لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيءُ ما جُعلت العلامةُ دليلاً عليه وخلافَه»[314].

312- نفسه 6. نشطنا هذه الجملة لأنها مهمة. فعدم القدرة على التخزين وإدراك العلاقات الخفية بين الظواهر قد يجعل كل ما تقع عليه العين جديدا، وهذا أمر قَد يكونَ إيجابيا في مجال الإبداع الشعري إذا كان مجرد دهشة تعيد إلى الخزان الذاتي، أما تشذر الرؤيا في مجال التنظير النقدي فسيؤدي دائما إلى افتراع أبواب مشرعة.

313- نفسه. نشطنا هذا النص لكونه يرد بلفظه ومعناه على ادعاء سلبية القارئ.

314- أسرار البلاغة347. ونقله ع. الغذامي في ص71.

يترتب عن هذا التصور العَلامي أمران:

• **أولهما** أن منطق البناء العلامي للغة الشعرية (أو منطق النص عامة) غير منطق الواقع. ولذلك لا يسال الشاعر عن تصحيح مقدماته بمقاييس العقل أو الواقع، بل بالنظر إلى البناء الذي ابتدأه. «ولا يُؤخذ الشاعر بأن يصحِّح ما جعله أصلا وعلةً، كما ادعاه فيما يُبرم أو ينقض من قضية، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساسا ببينة عقلية بل تسلم مقدمته التي أعدها بلا بينة»[315].

هذا رأي «الفكر النقدي العربي» القديم، وإليك تعليق النقد العربي «الحديث» عليه على لسان صاحب المشاكلة والاختلاف: «فالشعر يقوم على «الادعاء» ولا يتكئ على البينة العقلية لإثبات دعواه، وإنما البينة فيه تصدر عن مقدماته، وعلاقات السياق فيه ما بين المقدمة والنتيجة والدلالة المتولدة عنها. وذلك لأن الشعر تخييل، وهذه ماهية الشعر. لأن «قياسه «قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام. هكذا يجزم الجرجاني»[316].

• **وثانيهما** دور القارئ في عملية إنتاج المعنى. فالنص المختلف أو المنافر ليس منافرا على الإطلاق، كما تقدم، بل هو منافر في علاقته باللغة والواقع، من جهة، وما استقر أو تَأَلَّى (صار آليا) من الأنساق والتقنيات القديمة (العروض مثلا)، من جهة أخرى، كما يعلم المختصون في الشعرية. ومن المعروف في الشعرية القديمة والحديثة على السواء أن هذه المنافرة هي أحد أوجه العملة، والوجه الثاني، يأتي كالنتيجة، هو مفهوم الغرابة. والغرابة هي نتاج تفاعل المتلقي بالمنافرة أو (الانزياح). لأن «الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعهد ظهورُه منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر، وكان بالشغف منها أجدر؛ فسواءٌ، في إثارة التعجب وإخراجِك إلى روعة المستغرب، وجودُك الشيءَ ليس من مكان من أمكنته، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من اصله في ذاته وصفته»[317].

315- الأسرار 248. نقله الغذامي 61.

316- المشاكلة والاختلاف 62. والأسرار 245. وانظر كيف اندمج النص النقدي القديم والحديث في هذه المسألة حتى كأنهما نص واحد.

317- أسرار البلاغة 118.

فالغرابة مستويان: مستوى إيقاع الشيء في غير موقعه، وهو المستوى الأدنى، ومستوى الخلق من عدم، وهو المستوى الأعلى.

إن **القارئ** في المسار الإبداعي الفاعل في البلاغة العربية **بعيد** عن ذلك المستوى من السلبية الذي تخيله الأستاذ لحمداني، بل إن الصورة التي أوحت بها معاناة القارئ مع المعاني الغريبة المستترة هي صورة الغواص الباحث عن اللآلئ تزداد سعادته، مع طول المكابدة في سبر الأغوار بحثا عنها، لأن الحصيلة تكون أغنى وأثمن، فهي مكافأة على جهد[318]: ومن نظر بسيط في هذه الصورة نلاحظ، من جهة، أن عالم المعاني **بحر**، وليس **صحراء** مكشوفة معلومة على طول المدى. كما نلاحظ، من جهة ثانية، أن الغواص مغامر بحياته، يقتحم المجهول، ويرفض ذلك التصوير الكاريكاتيري المبالغ في البساطة: «تكون صورة المتلقي في أقصى درجات السلبية، لأنه مستقبل المقصدية وواقع تحت تأثير الرسالة الإبلاغية»!

إن هذه الصورة لتذكر بالصورة التي حَضرت ابن جنى في تمثيله لمغامرة الشاعر المبدع مع اللغة. حيث شبهه بالمجري الفرسَ بغير سرج ولا لجام، والمقتحم الوغى جاسراً: يركب المجهول الخطير وهو يعلم أن المألوف المعروف آمَنُ لهُ وأسْلَم. فالشعر مغامرة مع اللغة والعالم بالنسبة للشاعر. والقراءة مغامرة مع النص الشعري في آفاق متفاوتة التركيب والتعقيد[319].

من الأكيد المعروف أن الجرجاني عدَّل نظريتَه بإضافة قيود تداولية تقوي الحوار بين البعد الخيالي والبعد التداولي، وعوَّض مفهومَ «النقل» بمفهوم «الادعاء»[320]. وبذلك استوت نظريته في التركيب الدلالي للأدب بما يلائم النص القديم الذي كان ذا بعدين شعري تخييلي وخطابي تداولي.

في هذا السياق حيث يتشابك الماضي بالحاضر يمكن أن يفهم حديث حازم القرطاجني عن التخييل باعتباره خاصية نوعية للشعر يمكن أن تقوم على مقدمات صادقة أو كاذبة[321]، لا فرق بين الأمرين.

318- انظر أسرار البلاغة. 108-131.

319- ولسياق هذه الصورة أهمية ظاهرة، فقد وردت في الحديث عن الضرورة الشعرية، مدافعة عن حق الشاعر في خرق قوانين اللغة لأنه يفعل ذلك اختيار لا عَجْزاً.

320- الأدق أن نقول أنه جعله أساساً له: تنقل على أساس الادعاء، وليس على أساس التملك (لاحق).

321- هذه فكرة عبقرية، بدأ بعض البلاغيين المحدثين ينتبهون إليها، ويَحلون بها كثيرا من الاجراءات، فليست أدوات التخييل ى خيالية ضرورةً وفي كل الأحوال (توضيح لاحق).

صعوبات منهاجية ولغوية

بقطع النظر عن الخلل المنهاجي الذي سجلناه منذ البداية بين مبتدأ الكتاب ومنتهاه، من المتوقع، إن لم يصل الأمر إلى حد اليقين، أن يجد بعض القراء المتفحصين صعوبة في استيعاب بعض المفاهيم والتراكيب الداخلة في بنية الكتاب. نكتفي بمثالين:

1- في مستوى الاصطلاح

استعمل المؤلف لفظ «التخييل والتخييلي». ومن المعروف أن هذا المصطلح قديم استعمله ابن سينا والجرجاني وحازم وغيرهم. فالمفترض في التعامل معه، عند تقديم البديل الموعود، أحدُ أمرين: إما استعماله بالمتعارف عليه من معناه، والإشعار بذلك، وإما إفراغه وإعادة تعريفه، بحيث يتبين القارئُ الفرقَ الجوهريَّ الذي اقتضى الانزياح عن معناه مع الاحتفاظ بلفظه. وقد أدى إهمال هذين الإجراءين[322] إلى أمرين:

- استعمال التخييلي بمعنى المخيل وهما مختلفان. فالمُخيِّل وصف للأداة التي تحدث التخييل، وقد تكون لغويةً أو غير لغوية، والتخييلي نسبة للتخييل الواقع فعلا[323]. وهذه مسألةٌ الاختلافُ في شأنها هَينٌ، وإنما ذكرناها لارتباطها بالتي بعدها، وهي:

- الاضطراب في تحديد العناصر المخيلة. فالسرد بديل للتخييل حينا (أي شيء آخر غيره) وهو التخييل نفسه حينا آخر. وقد حدث هذا في صفحتين متتاليتين بل في فقرتين متتاليتين. قال المؤلف في الصفحة 24: «لا تخلو هذه الأبيات من العناصر التخييلية، ولكن البنية السردية تهيمن عليها»، واستطرد شارحا الفرق بين الأمرين فقال: «فبالإضافة إلى ما قامت به الصورتان المذكورتان؛ وهما(شَحْمٌ كَهُدَّاب الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ، وجَناكَ المُعَلَّـلِ) مِنْ دور في تدعيم بنية التخييل، قصْد الإسهام في تهميشَ الواقعَ وفتح أفقَ للخيالي، هناك عامل

---

322 - التعريف الوحيد الذي قدمه المؤلف حسب ما اطلعت عليه هو: «التخييل إجراء تقوم به اللغة داخل النص». (ص14). وهذا كلام عام، لا يمكن التعويل عليه لأنه غير مانع لما ليس شعريا.

323 - الواقعي والخيالي. حاشية الصفحة 14.

الانتقاء الذي قام به الشاعر من العناصر التي يفترض أنها تمثل الواقع، حيث ركز على عناصر بعينها وأهمل الباقي». فالتخييلي إذن هو ما يرجع إلى الصورتين البيانيتين اللتين حصرهما المؤلف بين قوسين، والسردي هو ما يتصل بالوقائع المنتقاة. بعد كل هذه البيانات يعلق المؤلف على العناصر السردية بقوله: «لا يمكن النظر إليها إلا على أنها مجرد إلماعات «واقعية» تصاغُ في بنية شعرية سردية (بمعنى تخييلية)»[324]، يهمنا هنا القوسان الشارحان، فهما من وضع المؤلف.

فقد ورد السردي في سياق التعارض مع التخييلي، ثم صار مرادفا له. وهذا يُـرْبِكُ القارئ.

2- في مستوى الدقة في التعبير والتفسير

سيصادف القارئ على طول الكتاب جملا وتعابير تفتقر إلى الدقة المطلوبة في مجال التصنيف العلمي منِ ذلك هذه الفقرة: «إن بنية القصيدة الجاهلية، باعتبارها نموذجا، طرحت إشكال الانسجام والترابط المنطقي على العقل العربي الذي خاض مع بداية الإسلام في مسائل عقلية ومنطقية سواء في نطاق علم الكلام أم في نطاق الفلسفة». (ص105).

المعروف أن الذي خاض فيه المسلمون «مع بداية الإسلام» هو نشر الدعوة ثم الصراع حول الخلافة، بل الذي استقر عند مؤرخي الأدب والحضارة (ابن سلام وابن خلدون) أنهم شغلوا عن الشعر وروايته، ولم يظهر أثرٌ لاشتغال المسلمين بالمنطق والفلسفة طوال صدر الإسلام بل والعصر الأموي. وإذا كان المؤلف سيربط هذا الاهتمام ببناء التراجيديا عند أرسطو (ص93)، فإن متى بن يونس، الذي هو أقدم من استشهدَ بهم، مات في القرن الرابع الهجري (328هـ)، وما أبعد القرن الرابع عن بداية الإسلام[325].

324 - الواقعي والخيالي. 25.

325 - وحتى إذا رجعنا إلى ما قبل مَتَّى بن يونس اعتمادا على الأخبار لا على الآثار فإن أقدم الافتراضات تحيل على الكندي (ت 252 أو258هـ) أو على إسحاق بن حنين (298هـ). فأين نحن من قوله: «عند مجيء الإسلام».؟

لقد اعتبرنا هذا الأمر خطأ تعبيريا ونتمنى أن يكون كذلك. وعند قبوله على هذا الوجه، يكون المقصود ببداية الإسلام هو عصر التأليف والترجمة، أي القرن الثالث والرابع، وعلى هذا الفرض سينتقل الاختلاف مع المؤلف إلى مستوى تفسير الظاهرة نفسه. فنحن نرى أن ربط الاهتمام بنسق القصيدة بالاطلاع على بناء الملحمة عند أسطو ينطوي على تبسيط وميكانيكية. فللمسألة علاقة بأدب الكتابة وبلاغة الخطابة أظهرُ وَأوطَدُ من العلاقة المفترضة بفن الشعر. وهذا موضوع جدير ببحث مستقل. وفي مطلب الدقة هذا يمكن دراسة بعض سمات الأسلوب الخطابي كالإطلاق والتعميم والقطع. فالقارئ يلتقي في الصفحة الأولى من المقدمة وحدها بهذه العبارات: «دائما»، «في جميع الأحوال»، «ومن الطبيعي»، «مجرد مستقبل»، «الحضور الكلي»، «أبدا»، «نظر دائما إلى الشاعر»، «القديم وغير القديم». هذا فضلا عن بعض اللوازم المترددة هنا وهناك مثل «القصوى» و«الجوهري» مما يعثُر به القارئ.

وبعد، نتمنى أن تساعد هذه الملاحظات+ على قراءة الكتاب ومحاورته.

قضايا منهجية[326]

1- نقطة نظام

قبل العودة إلى محاورة الأستاذ حميد لحمداني في كتابه: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم، وفي مقاله المنشور بالملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي ليوم 98/2/27 بعنوان: «الواقعي والخيالي هل هو كتاب في نقد النقد أم في الشعر الجاهلي»، أود أن أسجل نقطة نظام بصدد طريقة الحوار العلمي وشروطه.

- لقد حاولت قصارى جهدي، في مقالي موضوع تعقيب الأستاذ، وكان بعنوان: النقد غير المألوف في الواقع والخيال، أن أبعد العناصر غير النصية؛ فلم أتحدث لا عن الدوافع، ولا عن الانتماء، ولا عن دلالة ما سجلته على عمله من

326- تعقيب على رد الأستاذ حميد الحميداني. نشر بعنوان: الواقعي والخيالي في البحث العلمي (!). الملحق الثقافي للاتحاد الاشتراكي.

اعتراضات علمية من وجهة نظري. وكنت أتوقع أن يسلك الزميل المحترم نفس الطريق حتى يكون الحوار بيننا في الملموس، غيرَ مُشوَّش باعتبارات غامضة لا شأن للقراء بها. وهي لن تبرر لأي منا، على كل حال، أن يخل بشروط البحث العلمي ومقتضياته. وإني لمتأسف حقا ألا يجد ذلك المسلك صدى عند الباحث المحترم، بل أثار ما لا يمكن أن يتوقعه من قرأ مقالي بهدوء.

قبل الخوض في الجوهر، ومحاولةً مِني لرد القطار إلى السكة، أدعوه إلى تصحيح أمرين:

- لست أدرى كيف استنبط الباحث من مسألة إبستمولوجية تتعلق بتطور الفن عامة والشعر خاصة «محاولة للنيل من شرف انتمائه» بـِ «التلويح بالتهم الكبرى»؟!!. ودون أن أثقل على القارئ بإعادة الفقرة المقصودة، فهي متاحة، أعيد توضيح الفكرة فأقول، وأجري على الله: الذي قلته بعبارة موجزه هو أن النص يُنْتِج بلاغة، والبلاغة تُنتجُ نصًّا في حوار تاريخي داخلي وخارجي؛ أي بين مكونات الفن وفي علاقته مع المحيط، ولذلك يصعب أن نتصور نصا يُنتج بلاغة موحدة مُضادةً له، كما وَقَرَ في ذهن الباحث. وحين ننتهي من تقرير هذه المقدمة التي صارت، بعد الشكلانيين، من المسلمات، نستحضر نحن العربَ قضيةَ الإعجاز، ونستحضر، مع غير العرب، قضية الواقعية الاشتراكية (مثلا) حيث تدخلت اعتبارات مذهبية وأيديولوجية لإنتاج بلاغة مجافية للنص الشعري، وهو الذي يهمنا هنا. حين استحضرنا هذه الظرفيات اعتبرناها إكراهات عابرة لا تخُصُّ الشعرَ بل تَعمُّ الفنَّ والعلمَ. وحين قلنا العلم استحضرنا محنة سقراط وجاليليو. فقد تلت هذه الأحداث ردودُ فعل تصحيحية، عنيفة مباشرة حيناً، وهادئة بطيئة حينا آخر. هذا هو معنى قولي: «إن هناك، بدون شك، إكراهات أيديولوجية ومذهبية تتدخل لتوليد اتجاهات مناسبة لها أو دعمها، ولكن من فضائل العلم والفن الاحتيال على الإكراهات وتجاوزها». فهل هذه صيحة على الأيديولوجيا أم صيحة على الأستاذ لحمداني؟ أما الانتماءُ فهو جهاد وتضحية، مجالُ المحاسبة والجزاء فيه غير هذا المقام.

- أما لماذا لم أكتب عن أعمال الأستاذ قبل اليوم (؟) فالمسالة في منتهى البساطة والموضوعية. ألم يقل هو نفسه، في صلب مقالته، بأن اختصاصي هو البلاغة؟ هل كان يريد مني أن أتحدث في الرواية والسرديات أم في كتابة المرأة؟!

سأكون، إن فعلت، كابن اللبون الذي لُزَّ في قرن مع الفحول فلم يستطع صولة البزل القناعيس، فرفسوه عدة مرات وظل معلقا بين الأرض والسماء. تخصصي، كما تفضلتم، هو البلاغة ثم الشعر القديم، إن سمحتم. من دخل هذه المنطقة سلمتُ عليه ورجوت أن يرد التحية بأحسن منها أو مثلها. أتمنى أن يكون اللبس قد رفع في هذه المسألة أيضا. ولذلك فالأمرُ لا يتعلق بصحوة مفاجئة بل بوقوف المرء عند ما يحسن. وقديما قيل نظما:

إذا لم تستطعْ شيئاً فَدَعْهُ، وجاوزْهُ إلَى مَا تَسْتطيعُ

وإذا كان الأستاذ يُلِحُّ عليَ في تناول أعماله السابقة، وَوجدتُ الاستجابةَ لطلبه مما يخدمُ العلم وأهلَه، وهُو منهم، فكل ما أستطيع تقديمه له أن أفحصَرها من جانبين: جانب الانسجام المنهاجي، وجانب اللغة والعبارة، ولي في هذا المستوى رأي، على شرط ألا يعاتبني على إهمال الجوانب الأخرى الداخلة في صلب اختصاص السرديين، لأنهم إن ظفروا بي أسيرُ وسطهم كالأعمى ضربوني على الوجه والقفى ضرب غرائب الإبل، وأنا الجاني على نفسي وقتها. هذا سبب امتناعي عن الكتابة في السرديات والنسائيات أيضا، فمعذرة.

• نحن نفتح معكم، ومعِ زملاء آخرين تناولوا البلاغة والنقد والأدب القديم عهدا جديدا للحوار حولَ ما أنجزناه أو أنجزتموه، وسيطول بحول الله، إن سارت الأمور على ما يرام، خدمة للعلم، حتى يذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس. فَلْنَتَسَلَّحْ جميعا بالصبر وسعة الصدر، والتزام حدود الأدب في المخاطبة، ومن شروط ذلك الالتزام بالوقائع والنصوص وتجنب استعمال العبارات الخطابية. من مثل: «فبأي شيء سيدافع عن نفسه أمام المثقفين؟» (ص4ع2)، وَ»فلتسمح لي أن أقول لك أمام القراء..»(ص4ع4). وَ»وأنا لا أريد أن أعْنته الآن لأن كتاب إيزر هذا غير موجود في السوق المغربي حسب علمي»(نفسه). فشرط الحوار العلميِ أن يبقى الكلام مع الكلام لا مع المتكلم. بل نطمح إلى تحقيق مبدأ التعاون، ولن يتم ذلك إلا بترك مسافة كافية بيننا وبين ما نُصدره من كتب. لأن مثل هذا الخطاب القائم على التحريض والرجم بالغيب، إن لم نقل

المغالطة، متاهةٌ بدون نهاية وآفة من آفاتِ العلم[327]. فلو أن وزير التجارة هو الذي قال: «لا يوجد هذا الكتاب في السوقَ المغربي حسب علمنا»، لما أثار كلامه أي اعتراض. لأنه يعني أن الكتاب لم يُسوَّق رسميا، وقد يكون في السوق عن طريق الاستيراد الشخصي أو التهريب. أما الأستاذ لحمداني فاستعماله لعبارة: «حسب علمنا» استعمالٌ غيرُ مناسب في التخاطب العلمي، لأنه لا صفةَ له في مجال تسويق الكتب في المغرب: لا هو في الجمارك، ولا في مكتب الصرف، ولا في وزارة التجارة، ولا في قسم محاربة التهريب. والمناطقة يعرفون جيدا طبيعة هذا الخطاب. ومع ذلك أشكره على أن له نيةَ عدَم الإعنات، فالأعمال بالنيات، وذلك برغم أن عبارات من مثل: أقول لك أمام كذَا، وَماذا تقول لهذا، وماذا تقول لذاك؟ قد خلقت لدي رهبة يوم الحساب!

لهذا سأضرب صفحا عن كل العبارات الخارجة عن حدود الحوار العلمي وهي كثيرة مع الأسف، وسأدخل في مناقشة القضايا التي أجدها جوهرية مما أثاره المقال:

2. الاختزال والبتر والخروج عن الموضوع

أخذ علي المؤلف اعتماد المقدمة والفصل الأول في مناقشة مشروعه مع إحالات قليلة على بقية فصول الكتاب التي سماها فصولا تطبيقية، واعتبر هذا اختزالا وبترا، ورتب عليه هذا الاستفهام الإنكاري: «و هل يكون في الإمكان أن يناقَش «مشروع» كتاب ما بالاعتماد أساسًا على مقدمته؟ وكيف يجوز الفصل في «المشروع» بين جانبه النظري ومنجزه التطبيقي، وإيقاع الإحالات يبين أن 98 صفحة من الكتاب لم تمسسها الدراسة، مع العلم أن مجموع صفحات الكتاب هو 124 صفحة»[؟!] (ص4ع1). واسْـتَـنْـتَجُ، من هذا، أني بَتَرْت الكتاب، ثم خُنْتَ الأمانةَ العلميةَ بتقسيمِه إلى قسمين (نفسه).

327- إن استحضار الأهواء والرغبات... يجافي متطلبات الفحص العلمي الدقيق الذي يتناول الوقائع معزولةً ما أمكن عن التشويش المقامي. إن التجارب المتقدمة علميا تجري اليوم في الفضاء، أي خارج «الجاذبية». أتمنى أن نناقش موضوعنا خارج «الجاذبيات» و«الدافعيات».

2 .1 ـ العلم اختزال

إن تقسيمي الكتاب إلى قسمين قراءةٌ خاصة بي لا دخل للأمانة العلمية فيها، خاصةً وقد أوضحت أمرين: أولهما أساسُ التقسيم (الثورة على «المألوف» ثم الاستسلام له)، وثانيهما التنصيص على مكونات تقسيم المؤلف كما هي: وهكذا قلت بأن القسم الأول يضم، في نظري، أنا، وعلى مسؤوليتي، المقدمةَ والفصلَ الأول، ويضم القسم الثاني الفصل الثاني والثالث، وما زلت أقول ذلك وأؤكده. فكيف أراد المؤلف إلغاء «القارئ» أي العبد الضعيف، لصالح نصه؟!.
إن من حق الباحث في أي ميدان أن يقطع الواقعة المدروسة حسب التقسيم الإجرائي النافع في نظره، ما دام يستوعب الظاهرة ولا يلغيها. فأنا لـمْ أُلْغِ أي جزء من الكتاب عندما قسمته إلى قسمين. وبعبارة أخرى، فإن تقسيمي مَجرد قراءة تنطوي علي حكم صريح بعدم انسجام الكتاب على مستوى الطموح العلمي، ويمكن لغيري أن يقسمه غير تقسيمي، ويُقَوِّمُه غيرَ تقويمي. فإذا اعتبر الأستاذ هذا الأمر اختزالا فهو مصيبٌ حقا؛ لأني انتقلت من تقسيمه الرباعي إلى تقسيم ثنائي. إلا أن هذا الاختزال، وهو شكل من عدة أشكال، ضروري لقيام نظرية علمية. بل هو ضروري لعملية الإدراك وتكوين التصورات كما يعلم علماء النفس. النحو اختزال للغة، والعروض اختزال لأوزان الشعر، وأورجانون أرسطو اختزال لمعارف ضخمة ملأت الساحة اليونانية قبله. والمقولات اختزال لشتات المُتحققات. فالمسألة ليست مسألة صفحات نعدها عدا (88 وَ 124)، وليست المسألة مسألة أسماء نحصيها فنقول: ذكرتُ فلانا وذكرتُ فلانا من النقاد ...إلخ، فالمفروضُ في الكتاب الذي يحمل مشروعا ويختبر فرضيةً أن يكون متماسكا مثل البناء. وأن تكون أعمدته قوية على أساس صلب، وإلا تهاوى مع أول هزة. وعملي أنا، كما حددته في المقدمة، هو النظر في الأساس الذي بني عليه الكتاب وهو موجود في التقديم وبداية الفصل الأول. فأنا لم أتجاهل من ذكرتَهم وأعدتَ ذكرهم بدون موجب في المقالة، ولكني سجلت وجود مفارقة بين تغييبهم حين إصدار الحكم في القسم الأول وتوسُّدهم في القسم الثاني، أما اعتماد مجرد الذكر فلا يدفع الخللَ الذي سجل في حق النسق. فهذا السلوك نَفسه؛ أي تجاهلهم عند إصدار الحكم العام ثم الاعتماد عليهم لإثبات ما نُزِعَ

منهم، أو عنهم، هو الذي قسم الكتاب قسمين. وتقديري أن ليس تغييبي لهم هو المحرج بل استحضارُهم والتنبيهُ إلى شرودهم داخل الثورة المنهاجية للقسم الأول، فَهذا الخلل في النسق هو الذي قَصَمَ ظهرَ الكتاب، واقتضى منا تقديم الحق على محاباة الأحباب.

ولم نتعرض لإيزر ولا لنظريته لأننا نؤمنُ بأنه لا تَـزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى، ولا يتعلق حق بذمتين. فليس لدينا ما يثبت أن إيزر أصدرَ حكما بمقصدية الفكر «النقدي العربي والحديث»، وأنه اعتبر تفاعل الواقع والخيال فرضية جديدة على الفكر النقدي العربي والقديم. فهذا هو موضوعنا. أما هل فُهم إيزر وهل تُرجمت ألفاظه بما يناسب فشأن آخر جدير بالدرس، ولكن البابَ يُحْرِزُ كما يقول القدماء.

ورأيي أن أحسنَ ما نُقدمه للطلبة والتلاميذ اليومَ هو أن نعلمهم كيف يختزلون: كيف يفلتون من جاذبية المنجز، عبر سؤال المفترض والممكن. إن الكتاب الأصيل جواب عن سؤال صريح أو ضمني. غير أنه يحدث في اللحظات الانتقالية أن يكون السؤال نتاجَ مُثاقفة قوية بين أطراف غير متكافئة (ذاتيا أو حضاريا) فيختل المنجز. وليس هذا التحليلُ من وحي هذه اللحظة، بل كتبتُ في شأنه مقالات تحت عنوان: البلاغة العربية وأسئلة التاريخ منذ سنتين[328]. وهو ينطبق على علاقتنا الحالية بالثقافة الغربية كما انطبق قديما على علاقة قدمائنا بالثقافة اليونانية، ولعله ينطبق على علاقة الغرب بثقافتنا في عصور ازدهارها. وقد برهن الفارابي وابن سينا، ثم ابن رشد، على أن الطريق السليم للحوار الحضاري هو طريق الاختزال المقولي لاستنباط الكليات التي يمكن أن تُفسِّر الإنجازات المحلية. والباحثُ الذي لا يسلك هذا الطريق، أو لا يستطيعُ سلوكَه سيبقى «كالمُنْبَتِّ؛ لا أرضاً قطعَ ولا ظهرا أبقى»، كُلَّما حفرَ شبْراً في أرض استبطأ الماءَ فانتقلَ إلى أخرى، فيتسرب إليه، في نهاية المطاف، وهَمُ امتلاك كلِّ الأرض التي «قشَّرها»، إن لم يأت عليه اليأس.

328. توجد مواده في الفصل الثاني.

2.2. الواقع والتخييل والخيال ؟

أخذ علي الباحث المحترم أني أنسب الخيال إلى النص الشعري في حين يجعله هو في ذهن المتلقي، وهو صادق فيما نسبه إلي، بقطع النظر عن مصدر الفكرة؛ إيزر أو غيره، وبقطع النظر عما إذا كانت قد فُهِمَتْ وتُرجمتْ ترجمة سليمة أم لا، كما سبق. الواقع، في نظري، أن الكتابَ حائر بين المفهومين: مفهوم الخيال المقابل للواقع في الشعر(هكذا)، وهو مدار الإشكال في إطار نظرية الأدب، وفي إطاره صدر الحكم، والخيال في المقترح المنسوب لإيزر، وهو الذي يجده الباحث في الذهن، ولنا فيه رأي كما سيأتي.

المعنى الأول: الخيال المقابل للواقع، وهو المهيمن، فهو موجود، 1) على العتبة، ومكتوبٌ في عقد الزواج بين المؤلف وكتابه، موجود في العنوان: «الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم». «فـــي» هذه، تعني المكان، و«الشعر العربي القديم» لا يعني ذهن المتلقي، بل يعني النصوص. ونظرا لأن العنوان هو باب الكتاب فقد أخذنا بصريح لفظه ودخلنا منه. ولو قال المؤلف: «الواقعي والخيالي في تلقى الشعر العربي القديم» لاختلف الأمر. ففي هذه الحالة سنستحضر النص والقارئ، 2) وهذا المعنى الموجود على العتبة المنقوش على باب الدار هو الذي يتلاءم مع حديثه عن المقصدية في مقدمة الكتاب. فالمقصدية مصطلح له مرجعيته النظرية وله متنه النصي الخاص. المقصدية مصطلح تداولي ينتمي إلى اللغة الواصفة، ويهتم بالوظيفة التواصلية للخطاب، وهي تتحدث عن سُلم مُتفاوِة الدرجات؛ يمتد من الهيمنة المطلقة لـ «المتكلم الذي يصدر أمره فينفذ، إذًا توفرتَ شروط، بدون تردد مثل الأوامر الدينية والعسكرية»[329]، وهذا الاتجاه «ميكانيكي» يتعارض مبدئيا مع الوظيفة الشعرية. وهو الذي هيمن على تصوركم حين الحكم على الفكر النقدي العربي والحديث. والقطب الآخرُ المعارضُ له هو الذي يعيد الاعتبار إلى المتلقي، وقد بلَغ أقصى درجات التطرف «في أبحاث... تجعل المتكلم لعبة في يد متلقيه»(نفسه). وكان من شروط تحصين هذين المفهومين للدخول فيهما أو الخروج منهما الإشارة إلى الحد الأدنى للقصدية الذي يميز اللغة الإنسانية، والحد الأدنى المفترض في الفن لكي ينتمي إلى اللغة، مهما خفي هذا المستوى. ولهذا فإن استعمال «المقصدية» للدلالة على

329. انظر محمد مفتاح . دينامية النص. .ط1. الدار البيضاء 1987.

«الفكرة» المجردة في مثل قولكم: «لنفترض أن «المقصدية» هي الإخبار بجيش مسلح جيدا، وأن هذه الفكرة كانت واضحة في ذهن الشاعر...»(ص6)، لا يبدو دقيقا.

هذا، ثم إنك حين تتحدث بصريح العبارة في «التقديم»، أي المدخل الثاني للكتاب، عن المقصدية تتحدث عنها في إطار»نظرية الأدب» (ص3)، هل في هذا تَقَوُّلٌ أو تقويل؟ ألا تجعل المقصدية نقيضا للأدب في قولك: «احتلت المقصدية ـ دائما ـ جانبا مهما في نظرية الأدب، ونُظِرَ إليها باعتبارها أمراً مخطَّطا له في ذهن الكاتب، ومن ثم فالجانب الأدبي في الأَدب (كذا) لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة مساندة للأفكار الجاهزة التي يريد الشاعر أن يوصلها للناس». (ص3).

هذا التصور الذي يقابل بين الوظيفة التداولية(المقصدية) وبين الوظيفة الشعرية التي سميتموها «الجانب الأدبي في الأدب»! (وأنتم تقصدون، فيما أعتقد، خصوصية الأدب) هو الذي يجافي الحقيقة في الحكم على الفكر النقدي العربي، والبلاغة العربية. وهو الذي يفرض علي، بقطع النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، إعلانَ رأيي في الموضوع باعتبار الصفة التي كُرِّمت بها: «مختص في البلاغة».

ثم إن هذا التصور لا يقف عند عنوان الكتاب و«تقديمه» بل يتعداه إلى الفصل الأول أي إلى مجال التطبيق؛ هذا قولُ المؤلف، في أولِ فقرة من الفصل الأول: «لقد نُظِر إلى الشعر العربي القديم غالبا كوثيقة تقدِّم صورةً وفيةً عن حياة العربي في بيئته الصحراوية»(ص13). وفي مقابل هذا التوجه «الغالب» وُجدت «بعض المفاهيم الجديدة التي تناولت تعريف الأدب، وخاصة في مطلع هذا القرن... أبرز هذه المفاهيم أن الأدب، بما في ذلك الإبداع الشعري، هو مادة خيالية، بحيث يوضع الأدب في هذه الحالة كشيء مقابل لنقيضه وهو الواقع». (ص13). ومن هنا يصل الباحث إلى تصور ثالث وهو: «كون الأدب مادة واقعية وخيالية في الآن نفسه»، «بما في ذلك الشعر العربي القديم»(ص14،13). وهل هناك ما هو أوضح وأدق دلالة على أن المؤلف كان مشغولا بقضية الواقع والخيال في إطار نظرية الأدب من قوله: «لقد ظلت فكرة التوفيق بين مكونات الأدب الواقعية والخيالية من أعقد الإشكاليات التي تطرح على جميع النظريات

النقدية». (ص14). **فهذه الإشكالية التي قبلتم بسعة صدر أن تخوض فيها النظريات النقدية جميعا هي التي تضنون علي بالخوض فيها، بل تعتبرون خوضي فيها تحريفا لموضوع الكتاب**، والحال أني كنت أتوقع أن تكون معاملتي «تفضيلية». أما اقتراح إيزر لحل هذه المعضلة فهو أحد الاجتهادات. فنحن إنما رددنا قولكم بوجود اختلال في النظرة النقدية العربية لهذه المسألة. فإذا لاحظ المؤلف أن أكثر الإحالات موجود بين الصفحة 3 وَ 14 فذلك راجع إلى أن هذه الصفحات هي التي تقدم الإشكالية والمقترح[330]. فالكتاب يعالج قضية الواقعي والخيالي في إطار النقد ونظريات النقد، ونظريات النقد تعالجها بالطريقة التي عالجناها بها، ولا يجوز ذبحها باقتراح عارض، لعالم «مجتهد»، ليس الأولَ ولن يكون الأخير حتى وإن نعت بالجبروت.

بعد هذا نلبي رغبة المؤلف وننتقل إلى الفصل الأخير من الكتاب لنرى هل سيُسعفُ المؤلفَ في دفع صفة نقد النقد عن كتابه أم سيؤيد قراءتنا. عنوان الفصل الثالث هو: الافتتاح في بنية القصيدة العربية. وفي الحاشية (ص89): «اعتمدنا في هذه الدراسة أساسا على باب المبدأ والخروج والنهاية، من كتاب العمدة لابن رشيق (390 . 456) المحال إليه (كذا) لاحقا، على أننا توسعنا في الموضوع بما يحيط ببعض جوانبه الأخرى». ثم تتوالى أسماء النقاد وآراؤهم من ابن طباطبا إلى ابن الأثير عبر الحاتمي وابن قتيبة وابن رشيق، مع الوقوف عند عمل الفلاسفة في قراءة بنية التراجيديا عند أرسطو تفسيرا للاهتمام ببناء القصيدة. يستمر هذا الحديث إلى الصفحة 105 أي ست عشرة صفحة، ثم يمهره المؤلف بالصفة

330 . والغريب أن المؤلف مع رفضه لمفهومنا جذريا راح يناقشنا فيه فيما يخص حالة واحدة: بلاغة عبد القاهر الجرجاني التي وجدها مقصدية في قولها بالنظم. وهذا أمر لا يستقيم علميا، لأنه إذا بطل الأصل بطلت جميع الفروع التي تتفرع عنه، وتنبني عليه. والإبحار مع عبد القاهر الجرجاني يتطلب بوصلة لا يمكن فبركتها بين يوم وليلة. وقد كتبت عنه في مناسبات مختلفة ثم خصصته بفصل مطول من كتاب في تاريخ البلاغة العربية وعنوان هذا الفصل هو: من المفارقة الشعرية إلى المناسبة التداولية. وكشفت مشروعه ومُنجزه، كما بينت الخلفيات المذهبية للمشاريع البلاغية في فصل آخر. وأتمنى أن يتناوله الأستاذ لحمداني عند صدوره بالقراءة والنقد البناء كما نفعل الآن. وأنا أجد صعوبة كبيرة في مسايرته حين يناقش نظرية النظم في كتاب الأسرار. أحيل القارئ على مقالي المقام الخطابي والمقام الشعري في نظرية الأدب في القرن العشرين)

المناسبة قائلا: «هكذا جهد أغلب النقاد العرب لإضفاء طابع الوحدة العضوية على القصيدة العربية، ولم يكن بين أيديهم أنجعُ، في هذا المقصد سوى[كذا، والمقصود: من] التنظير الأرسطي». دعكَ من سبك العبارة، ودعك من أرسطو، وقلْ لي: أليس هذا هو نقد النقد؟ تعرض آراء النقاد وتحاول مناقشتها وتفسيرها. ماذا ينقص هذا الكلام لكي يحسب على نقد النقد؟! ثم أقولُ من جهة أخرى: وماذا ينقص حديثك عن الواقع والخيال والتخييل، من حيث الشكل، لينتمي إلى الحديث عن الصورة الشعرية البيانية، أي إلى البلاغة؟ هذه الإشكالية هي لُب أسرار البلاغة للجرجاني، وهي مركز منهاج البلغاء لحازم القرطاجني الذي يلتبسُ فيه النقد بالبلاغة والبلاغة بالنقد.

أما المفهوم الثاني للخيال، الخيال الذي في ذهن المتلقي فهو أحد الاقتراحات للخروج من القطبية: من واقع محض وخيال محض. وقد ميزه المؤلف بقوله: «لكي نفهم جيدا ماذا يحصل في التجربة الشعرية لا بد من التمييز بين العناصر الواقعية وفعل التخييل وناتج التخييل وهو الخيال»(ص6). وليست أية نظرية أدبية مرغمة على تبني هذا المفهوم للإفلات من تهمة المقصدية. وهو لا ينطبق بحال، كما سنتبين، على المفاهيم التي عالجت بها النظريات الأدبية قضية الواقعي والخيالي واستحقت الإدانة ـ فلنستمع للتحليل والتطبيق ـ كما دعانا المؤلف إلى ذلك ـ للتعرف عليه. وهروبا من أن نتهم بالانتقائية المغرضة نأخذ المثال الأول، فمن المعروف المحبذ أن يقدم الباحثون النموذج الذي تتجلى فيه الظاهرة بدون لبس ليكون عونا على فهم ما دونه وضوحا وكمالا. المثال الأول من الفصل الأول هو قول بدر شاكر السياب:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر.

ومكوناته حسب تحليل المؤلف هي: عناصر حضور الواقع هي: العينان وغابتا النخيل ساعة السحر. أما «عناصر الصورة التخييلية» فتوجد «بؤرتها في وجه الشبه، وهو الخضرة، والعطاء». (ص15). أما الخيال فأدعو القارئ إلى الإمساك به من ألفاظ المؤلف: «ولكننا بالإضافة إلى ذلك نستطيع تجاوز هذا وذاك إلى الاقتراب من شيء كان يستعصي عنا تصوره، وهو ذلك الشيء الخيالي

المتولد عن دمج العينين في غابتي النخيل ساعة السحر. لا نستطيع أن نعبر عن هذا الشيء بالدقة المطلوبة ولكننا نشعر به ماثلا أمامنا، نحس بروعته ولا نستطيع أن نلامسه. هذا الشيء ليس بالتأكيد مجرد عينين بشريتين، ولا هو مجرد غابتي نخيل ساعة السحر، إنه ذلك المتحصل من المزج بينهما، وأنا أدرك أنه يجمع سحر العينين وسحر الغابتين ساعة السحر، ولكنني لا أعرف بالضبط ما هو، سوى أنه شيء رائع، هو إذن أسمى منهما معا وأجمل، هو أمر مستحيل التحقق في الواقع ولكن اللغة التخيلية استطاعت أن تحملني إلى مشارف تلك الاستحالة لأطل عليها وأحس بوجودها دون أن أقوى على تحديدها بصورة تامة ونهائية. إنها هي نفسها ذلك الخيالي الذي لا هو بالواقع. ولا هو مجرد عناصر التخييل». (ص16).

حسب هذا التحليل: فالواقع هو المفردات والمركبات الصغرى الداخلة في بناء مركب ينتج عنه تخييل. والتخييل هو وجه الشبه. والخيال هو ماذا؟ هو هذا الانطباع الذي حاول الأستاذ التعبير عنه لا أقل ولا أكثر. انطباع فرض على الباحث مقايضة كلمة خيال بِـ كلمة «خيالي» والخيالي ليس هو الخيال. فما الذي وقع؟ الذي وقع، والله أعلم، هو أن هناك خطأ، أو حرفية في الترجمة أدت إلى استعمال كلمة خيال بدل كلمة صورة، صورة ذهنية، أو انطباع، أو ارتسام أو أثر أو تمثل. فهذا ما يلائم وصف ما سمي خيالا في هذا التعليق الانطباعي، وهو الذي يفسر انزياحَ المُحلل نحو «الخيالي» أولا، ثم إحلالَ «الصورة»، في أماكن أخرى من الكتاب، المَحَلَّ المُخصصَ لـِ «الخيال». ولنأخذ من آخره درأ للشبهات. قال في الصفحة 113، معلقا على أبياتٍ لزهير في الوقوف على الأطلال: «و من الطبيعي أن يحتاج القارئ إلى معلوماتٍ حضارية لفهم دلالة مكونات التخييل هذه، حتى يتأتى له، بعد ذلك، تشكيل الصورة الخيالية في ذهنه». ثم يتساءل: «ما هي الصورة الذهنية الخيالية التي تم بعثها» بعناصر التخييل؟(نفسه). وقال، في المكان نفسه: «وهذه المشقة في التعرف إلى الديار (كذا) بعد عشرين سنة كيف السبيل إلى ضبط صورتها الحقيقية في الذهن؟»[331]. وإذا رُدَّ عَجُزُ الكتاب

331. يمكن للمرء أن يتساءل عن الشرط العلمي لمثل هذا الكلام: قابلية الفحص والتفنيد مثلا، ليس من حق أحد أن ينازع فيما أحس به الباحث، وليس من حق الباحث بالمقابل أن ينازع غيره في الوصول إلى نتيجة مضادة مادام معفيين من التفسير الملموس.

على صدْره بلغَ الأمرُ مُنتهى الوضوح، فقد تكرر لفظ صورة عدة مرات في صفحة واحدة (ص7) بالصيغ التالية: «الصورة الخيالية المحصلة من التخييل»، «فالتداخل الحاصل بين الإبريق والظبي، في حالته هذه[332]، هو صورة يستدعى خيالنا لتمثيلها ذهنيا»، «صورة خاصة» «الصورة»، «استحضار نفس الصورة الخيالية التي تمثلها الشاعر»، «صعوبة حضور الصورة الخيالية»، بعد هذا التراكم العفوي الذي يبين حدود طموح المفهوم يتذكر الباحث «الخيال» فيقول :«والإيحاء ليس شيئا آخر سوى تحريك ذهن القارئ في اتجاه صنع الخيال». إن القارئ الحسن النية سيؤول الأقل لصالح الأكثر، خاصة إذا كان غفيرا. أي سيذهب إلى أن الأستاذ: «صنع الخيال» وهو يقصد: «صنع الصورة». الصورة التي حاول الشاعر رسمها باللغة، ويحاول المتلقي من حين لآخر بعثها حسب معرفته بعناصر الواقع وتقاليد الفن. وهذه العملية هي التي رصدها الفيلسوف العربي حين استعمل كلمة التخييل واصفاً العملية التمثيلية، من جهة، والأثر المتوخّى، أو الممكن، من جهة ثانية. وهذا ما جعل عناوين منهاج البلغاء تصر على الجمع بين البعدين البناء اللغوي والتأثير النفسي. أما استعمال «الخيال» للتعبير عن «الصورة الذهنية» وجعله ناتجاً عن التخييل فمن باب جعل الأصل فرعا والفرع أصلا، باعتبار أن المعنى الأول والأصلي للخيال هو أنه ملكة نفسية مثل الذكاء والذاكرة، «ملكة التفكير بالصور»، أو هو بعبارة أخرى: ملكة نفسية لخلق الصور أو استرجاعها[333]. وبالنظر في معاني الكلمات المتصلة بالموضوع imagery وَimagination وَimaginary وَfictive نتساءل عن مدى مناسبة الترجمة المقترحة للعنوان لغة، ولمحتوى الكتاب فلسفة ونظرا، وما مدى إنتاجية إجتهاد إيزر، إذا كان حقا بالصورة التي قدم بها، في التطبيق النقدي؟

أما بعد، فالذي في ذهن القارئ ليس الخيال بل المتخيَّل، وحين يُتحدث عن الخيال في الأدب، فإن المقصود عادة هو تجلياته اللغوية. كما أن الحديث عن المقاصد هو حديث عن تجلياتها اللغوية. أما الملكة في حد ذاتها فهي مجال للدراسة النفسية والاجتماعية. والله أعلم.

332- المقصود : كأن إبريقهم ظبي على شرف...».

333- انظر معجم Hachette مادة Imagination مثلا.

الإحالات الممثّلة والأمانة العلمية:

حين قلتُ إن الحُكْمَ (على البلاغة العربية) صَدرَ في غياب النقاد والبلاغيين العرب احتجَّ المؤلفُ بنص أورده للرماني، وبحُكم عارض أصدرهُ عَرَضا على البهبيتي. هذه واقعة لا غبار عليها، ولكنها لا تحل المشكّل بل تزيده تعقيداً، ولذلك كان حضورها، في مستوى المنهج غياباً، وكان سكوتي عنها حكمةً. أما وقد رغب الباحث في تقويمها فلا يسعنا غير الطاعة والاستجابة. فنقول: إن الاستشهاد بكلام الرماني مشوب بعيبين كبيرين كلٍ واحد منها كافٍ بمفرده لإسقاط الاستشهاد به:

• ضعف التوثيق والبتر، فنص الرماني مأخوذ عن واسطة (منقول من العمدة)، وهذا غير مقبول في البحث الأكاديمي الأصيل، خاصة حين يطمح إلى الإبداع ويقدم البديل، ونحن نحذر منه الطلبة الباحثين منذ البداية. إنه عيبٌ منهاجي حتى وإن لم يؤد إلى ما لا تحمد عقباه، أما إذا أدى إلى ذلك، كما وقع بالنسبة للنص الذي أوردتموه، فالمسؤولية تصبح أعظم. لقد أدى اعتماد الواسطة إلى بتر رأي الرماني بإبعاد حديثه عن زيادة المعنى التي تبرر الانتقال من الحقيقة إلى المجاز، كما بينا، وكان من شأن إيراد كلامه من مصدره أن يخلق توازنا داخل الموقف حتى وإن لم يقلبه رأسا على عقب.

• ولو فرضنا أن رأي الرماني قدم موثقا وعلى وجهه المرتضى فإنه لن يكون حجة على المراد، فما هي البلاغة التي يمثلها الرماني؟! كل ما فعله الرماني عبارة عن رسالة في إعجاز القرآن، عنوانها: النكت في إعجاز القرآن. فهي تنتمي إلى الأعمال التي أنجزتْ في دائرة الإكراه الإعجازي، أي أنها نَصٌّ مضاد لجمالية النص الشعري. وهذا كلام لا أقوله اليوم لتبرير موقف عارض، إذ يمكن لأي قارئ أن يعود إلى كتابي الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية ليرى أين وضعت الرماني. فهو ليس سوى صوت مبحوح في المسار الرابع من خمس مسارات كبرى: هي روافد نهر البلاغة الذي جمع فأوعى. وقد قلنا وقتها في التعليق على توجه الرماني: «ولا شك أن تقديم الوظيفة الإبلاغية (البيانية) على الوظيفة البلاغية، بدون تمييز، يدل على الجهل بالفرق بين النص الخطابي المرصود للإقناع بوسائل خاصة، والنص الأدبي الذي يستعمل وسائل أخرى للتأثير والإقناع، الشيء الذي انتبه إليه بلاغيون قدماء، وناقشه الفلاسفة مناقشة مستفيضة»

(ص78 ـ 79). فكيف يصح، بعد هذا، الاعتمادُ على رأي الرماني لتعميمِ الحُكم بمقصدية البلاغة العربية؟!

- أما البهبيتي فلا يصلح، من حيث الجوهر، ممثلا للمقصدية، ولا يصلح، من حيث الشكل، ممثلا للدراسات الحديثة. فمن حيث الجوهر يعتبر البهبيتي أكثر مؤرخي الأدب اهتماما برمزية الشعر وبكل مكوناته التخييلية ومنها الموسيقى، وحين نتحدث عن الرمزية لا نغيب الواقع بل نحاول استحضاره أو بناءه. سأكتفي ببعض النصوص التي تشكك فيما نسب إليه إن لم تدحضه آملا أن يعود القارئ إلى كتابه: تاريخ الشعر العربي ليقرأ هذا العنوان من بين عناوين مماثلة: «الافتتاحية الغزلية صورة رمزية»، ومما جاء فيه: «وهذا الوجه من وجوه التعبير الرمزي في الشعر الجاهلي لم يقف عند القصة، ولكنما تعداها إلى ذلك الغزل الذي يقدم به الشاعر لقصيدته. فهو كذلك لا يقصد به الشاعر إلى موضوعه، وإنما قصد به إلى غير ذلك مما يهم الشاعر أمره، ويأخذ عليه نفسه. ومن هنا يأخذ ذلك الاستفتاح الغزلي للقصيدة الجو الذي يعيش فيه الشاعر، والذي يملي عليه شعره» (ص100).

- ويعلق على كلمتي: «أسماء» و«هند» في شعر الحارث بن حلزة قائلا: «فظاهر الشعرْ أن الحارث يُنسِّب بأسماء وبهند، وحقيقة الأمر ليست كذلك. وإنما «أسماء» هذه شخصية خيالية تذكر أيضا في قصة حب المرقش الأكبر البكري الذي خرج على ملوك المناذرة، وثار على قومه من بكر، ممن أخذ صف أولئك الملوك»(ص101). وتعتبر فكرة «ملابسة الطبع للصنعة» من أطرف كشوفات البهبيتي، وقد نوهنا به قبل اليوم في مقدمة كتابنا: اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي.. وتوجههُ في التحليل والتقويم يتلاءم مع تعريفه للشعر في مقدمة الطبعة الأولى الصادرة سنة 1950: ذكر هناك علاقة الشعر بحياة الأمة وحياة الشاعر، وألح على البعدين: الحياتي والفني، ورفض أن يكون الشعر مجرد مدح للملوك أو هجاء للأمراء، ثم قال: «ولكنه تعبير عن أصفى خلجات النفس، وأنقى صور الجمال، والشعر هنا ليس تعبيرا عن حالة عابرة مضت، لا تتصل بحياة الناس وإنما هو تعبير عن تلك الجوانب الباقية على الدهر من جوانب النفس الإنسانية «(ص.ي).

ولو أنصف الباحث، وأتمنى من كل قلبي أن يفعل مستقبلا، لمتَّع البهبيتي بنفس الفتوى (أو ظروف التخفيف) التي أنقذت يوسف اليوسف من مشنقة المقصدية حين قال: «ومن الدراسات التي تجاوزت مفهوم المقصدية في مجال التنظير والتطبيق أشرت إلى كتاب يوسف اليوسف مقالات في الشعر الجاهلي، وهو يعزو فيه خلود الشعر الجاهلي إلى كونه يدمج البعد العقلاني للحياة العربية بالبعد الوجداني في تجربة واحدة» (ص4 ع3). لقد عبر البهبيتي عن سعادته (في مقدمة الطبعة الثانية التي صدرت سنة 1961) برواج أفكاره وهيمنتها على الكتب التي ظهرت بعد طبعته الأولى، وكان يقصد الأعمال نفسها ذات الطابع الرمزي التي استُثْنِيَتْ ــ في رد الأستاذ الكريم ــ من تهمة المَقصدية هذا من حيث الجوهر.

- ومن حيث الشكل، فإن البهبيتي ينتمي، على طرافة أعماله، إلى الأربعينيات، ولذلك كان من المناسب منهاجيا أن يستشهد المؤلف بالأنداد من المعاصرين حتى لا يفترع أبوابا مشرعة، وحتى يكون منصفا. وهؤلاء كثيرون ذكرنا منهم عبد الله الغذامي ومحمد مفتاح. خاصة والأستاذ لحمداني يعتمد على المنجزات الـ«جبارة» لـ «النقد الألماني المعاصر»، وهي تستفيد صراحة «من النظرية التأويلية المعاصرة وكذا من السيميوطيقا الأمريكية وخاصة سيميوطيقا بورس» (ص14). إن المعركة غير متكافئة (بقطع النظر عمن كسبها) (!)

الخلاصة، فهل نعتبر البناء على «مخالفة» الرماني والبهبيتي مجرد عطب منهاجي أم إن الأمر يتعلق بتقنية خطابية (افتعال خصم، أو التلويح بخطر، استعملت لتعويض شرط تعذر توفيره)؟ إن البناء على مخالفة رأي رمضان عبد التواب في مجال أسلوبية الرواية يثير الشكوك[334].

334- انظر أسلوبية الرواية . مطبوعات سال. 1989. ص. 54.

- II -

البلاغة والنقد الأدبي[335]

(محاورة مع الدكتور محمد مشبال)

تقديم

لطالما استشعرتُ لذة في قراءة كتابات الأستاذ محمد العمري، قلما ظفرت بها في قراءتي لكتاب في النقد أو البلاغة، خاصة في ثقافتنا العربية الحديثة . فقد حرص العمري دائما على أن يثير في ذهن قارئه طاقة التفكير، لما يخوض فيه من مشكلات تنم على ذهن متقد ونظر نافذ لا يرضى بالعارض، ولا يقف عند الشائع المشترك. لقد كان واعيا تماما بأن وظيفة الباحث البلاغي اليوم هي من قبيل العمل التركيبي الشاق، ولأجل ذلك اتسمت جهوده في البحث البلاغي بالجدة والعمق والجدل . وكنت لا أقنع بهذه اللذة التي سرعان ما تتضاعف، عندما أجد نفسي وقد ساقتني أفكار هذه الدراسة أو تلك من دراساته سوقا إلى معترك النقاش، فلا أتردد في إذاعة ما يعن لي من أفكار غير آبه بالنتائج، لأن ما كتبته في غمرة النشوة كان صورة من صور الصدق الذي أفتقده في معظم ما يكتب اليوم من مراجعات أو قراءات في الكتب.

لقد كتبت كل ما نشرته عن تصور محمد العمري، وأنا لا أعرفه معرفة شخصية. وعندما التقيت به لأول مرة في كلية الآداب بفاس في أبريل 1994 عانقني بحرارة وشجعني على مواصلة الطريق العلمي الجاد. لم ألتق به بعد

335 ـ من المفيد أن يعلم القارئ أن هذه المحاورة صيغت كتابيا من الطرفين: صاغ الأستاذ محمد مشبال أسئلته وبعث بها إلي عن طريق المجلة، وسجلتُ جوابي عنها كتابيا. وهذه هي الطريقة المفيدة في القضايا العلمية الدقيقة.

ذلك، ولكني لم أتوقف عن الاتصال المتحمس بكتاباته التي لا يزال يواظب على نشرها حتى الآن.

وعندما فكرَتْ مجلةُ الصورة مؤخرا في إجراء حوار معه، لم أتردد في أن أقترح على أصحابها الاضطلاع بهذه المهمة؛ فلعلها أن تكون فرصة سانحة لي وللقارئ الكريم للتحاور في قضايا وإشكالات تشغل تفكيري وتكون ذات صلة بالمحور البلاغي الذي خصصته المجلة لعددها الخامس، وقد استوحيتها من جميع كتاباته، سواء تلك التي لازلت أحتفظ ببعض أفكارها في ذاكرتي، أو تلك التي فرغت من قراءتها في الفترة الأخيرة.

محمد العمري: أولا، أنا سعيد بكون ما كتبته مخلصا غير مدخر جهدا أثار انتباه قارئ ذكي نقاد واسع الاطلاع في المجال البلاغي مثل الأستاذ محمد مشبال، ومسرور أيضا بهذه المحاورة النقدية التي لامست جوهر البحث البلاغي. لقد اقتنعت منذ البداية أن أحسن دفاع عن الكتاب هو الذي يُضمَّن بين دفتيه، ويُزوَّد به قبْل إخراجه للتداول بين الناس، وإذا لم يستطع الكتاب الدفاع عن نفسه بعد خروجه إلى السوق، أو استقطاب من يدافع عنه من القراء فالأجدر به النسيان. التدخل الوحيد الممكن يأخذ شكل التوضيح أو المحاورة التعاونية كهذه التي تقترحونها مشكورين، ولذلك لن آخذ الكلمة إلا كطرف معني بالمعرفة لا بالدفاع عن كتاب.

1- البلاغة والنقد

محمد مشبال: أحب أن أقف معك أولا على مصطلحي «البلاغة» و«النقد»؛ هناك تفرقة مدرسية شائعة بين هذين العلمين داخل الحقل الأدبي، حيث يفهم من البلاغة عادة تلك المعرفة التي تختص بدرس خصوصية الاستخدام الفني للغة في مستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية، بينما ينصرف مفهوم النقد إلى الدلالة الشاملة للتحليل الأدبي الذي لا ينحصر في معاينة الخصوصية الأدبية، بل قد يستوعب مجموع الأبعاد التي يتشكل منها كيان العمل الأدبي؛ على هذا النحو تمثل البلاغة جزءا من الأراضي الواسعة للنقد الأدبي. وقد يحدث أن يمتد هذا الجزء ليكتسح معظم هذه الأراضي، فنصبح أمام ما اصطلحتَ عليه في كتابك

«البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها» بالنقد البلاغي، وقد ينحسر أو ربما يختفي، فنصبح أمام أنواع عدة من النقد: «النقد الإيديلوجي» و«النقد الاجتماعي» و«النقد النفسي» و«النقد البنيوي» و«النقد الشكلي» و»النقد الثقافي» .. الخ. وبناءً على هذا التمييز المتداول، يصبح النقد معرفة شاملة بالعمل الأدبي، بينما تنحصر البلاغة في تعرُّف ومعاينة ما يختص به هذا العمل الأدبي.

وإذا كانت هذه التفرقة صحيحة بوجه عام، إلا أن النتائج الدقيقة المترتبة عنها لا يجوز التسليم بها بمثل هذه البساطة ؛ فعندما تقول في كتابك المشار إليه إن "الوعي بالخصوصية هو البلاغة، وتمييز الجيد من الرديء عن طريق ذلك الوعي هو النقد" (البلاغة العربية، ص. 43) فأنت تجرد البلاغة من أحد أصولها التي رسختها الثقافة الأدبية العربية القديمة والمتمثلة في التقييم؛ فعبد القاهر الجرجاني الذي استخدم مصطلح "البلاغة" ولم يعرف مصطلح "النقد" ألح على أن جوهرها يتمثل في التمييز بين الجيد والرديء، وبين مراتب الجودة؛ وهو كان على وعي بأن التمييز ليس حكما جماليا مرسلا أو وصفا مجملا، بل هو تفسير وتعليل (دلائل الإعجاز، ص.37 و292). إن البلاغة عند الجرجاني لا تقف عند حدود الوعي بالخصوصية، بل تسعى إلى ممارسة فاعليتها في معاينة المزية أو تحليل القيمة الجمالية.

إن التمييز الذي أشرت إليه بين البلاغة والنقد ، هو التمييز الشائع الذي نتلقفه دون أن نسعى إلى تمحيصه وإعادة بنائه؛ فلاشك أنه مثلما أفضى إلى انتزاع وظيفة التقييم من دائرة البلاغة، فقد أفضى أيضا إلى حصرها في حدود الدراسة الشكلية لتتطابق مع "الأسلوبية اللغوية" التي حددت معيارها في "النظام اللغوي" حيث صارت علما لرصد وجوه الانزياح؛ أي أن عملا ما يعمد فيه صاحبه إلى تحليل الصورة البلاغية (تشبيه، استعارة، كناية ..) في تفاعلها مع المكونات النصية الأخرى (الغرض، الإيقاع، الشخصية، المكان، الحبكة، المعنى الكلي ..) هو عمل نقدي وليس بلاغيا؛ وقد ضربت لذلك مثالا بكتاب قدامة بن جعفر نقد الشعر" حيث أقررت بأنه ذو استراتيجية نقدية للجوئه إلى تركيب "المواد البلاغية" مع "المواد المضمونية" و"المواد العروضية" و"لأنه يقدم تركيبا ونسقا تفسيريا" (البلاغة العربية، ص. 2).

هل البلاغة في نظرك علم لا يملك كفاية المعرفة الجمالية بالنص الأدب، إلا عن طريق دمجه في النقد؟ ألا يمكن تصور بلاغة تتجاوز "المقولات الفارغة"؛ بلاغة تعنى بتفسير القيمة الجمالية للنصوص وتعليلها، دون أن نضطر عندئذ إلى إعادة تسميتها ب"النقد"؟ ألا ترى أن البلاغة باعتبارها معرفة باللغة الأدبية، ينبغي ألا تحصر في حدود "النظرية البلاغية"، وأنها تظل بلاغة حتى وإن لم تسع إلى "استخلاص القوانين الكلية" والتصقت بالنصوص بحثا عن الظواهر الجمالية التي لا تخضع لقواعد جاهزة؟

محمد العمري: السياق الذي جاءت فيه الجملة المستشهد بها («الوعي بالخصوصية هو البلاغة..») هو سياق ردم الهوة بين البلاغة والنقد، خاصة في التراث العربي، احتياطاً من اختلاط الأمر على قارئ كتاب: البلاغة العربية، حين يجد تحت هذا العنوان حديثاً عن أشهر منظري النقد العربي، أقصد قدامة بن جعفر وحازم القرطاجني، ويجد النقد التطبيقي ما قبل النظري، ويجد الخصومات الأدبية والاختيارات الشعرية وعمود الشعر، وغير ذلك مما هو داخل في برنامج النقد في الجامعات العربية، فيقول هذه كتب في النقد، أو هذه قضايا نقدية أقحمت في التأريخ للبلاغة. ولذلك فالتداخل بين البلاغة والنقد هو القضية التي أدافع عنها، وهو سائر في اتجاه احتلال البلاغة للرقعة الأدبية كما وقع مع الشكلانية الروسية والشكلانية الجديدة، والبلاغة السميائية. وهذا الاتجاه هو الذي أعمل لتثبيته بخطوات تطبيقية وتنظيرية وتاريخية أدبية (انظر مقالنا البلاغة العامة والبلاغة المعممة). لدرجة أن أحد الزملاء نعت تصوري ممازحاً «بالإمبريالية البلاغية»، ولذلك فأنا لا أسلُبُ البلاغةَ متاعَها بل أضيفُ إليها. خاصة حين أدفع في اتجاه الحجاج والخطاب التداولي عامة، فبهذا البعد تتجاوز البلاغة حدود النقد الأدبي، ولي في هذا المجال محاولتان: في بلاغة الخطاب الإقناعي ودائرة الحوار.

لنرجع مثلا إلى المقررات الجامعية في المغرب والمشرق معا، إن مقرر النقد فيها يدور حول الملاحظة ما قبل النظرية (النقد التطبيقي الانطباعي) ثم الخصومات الأدبية وما يتفرع عنها من قضايا، خاصة السرقات، وعمود الشعر والبديع والأغراض الشعرية..الخ

إن تحويل هذه المباحث إلى قضايا بلاغية يقتضي الكثير من العمق والمرونة النظرية والتأويلية لإدراك علاقتها بالسؤال الأدبي. انظر مثلا كيف حول الجرجاني "السرقات" من مبحث للخصومة بين السابق واللاحق إلى مبحث لساني نصي بقطع النظر عن هذه الاعتبارات الخارج نصية.

وفي سياق عملي لا يتعلق الأمر بصحة التفريق وخطئه بل يتعلق بتاريخيته[336]. فالأمر يُعالج من موقعين ولكل موقع منطقه. هناك موقع قراءة القراءة، أي تقديم تصور الآخرين، وهناك موقع التصور الخاص أو المشروع المعتمد المراد الوصول إليه عبر خطوات.

فأما بصدد الخصوصية فالأمر دقيق، فإذا نحن لم نعتمد على السؤال الجوهري والقيم المهيمنة فإننا، في مجال الإنسان وعلومه، سنجد كل شيء حاضرا في كل شيء؛ السؤال الجوهري مثلا في بلاغة الجرجاني هو الخصوصية، والغرضُ والامتداد التطبيقي هو المفاضلة بين الأقاويل. والسؤال الجوهري عند قدامة، منذ المقدمة، بعكس ذلك، هو تمييز الكلام (المفاضلة)، والامتداد هو: لماذا كان هذا التميز، ولذلك فليس في المسألة تجريد من الخصوصية.

أما بخصوص سؤالكم: ألا يمكن تصور بلاغة تتجاوز «المقولات البلاغية»؟ فقد فهمت من «المقولات البلاغية» أمرين: الأطر النظرية والمفاهيم البلاغية (أو الصور البلاغية) مثل الاستعارة. إذا صح هذا الفهم فجوابي بالإيجاب، لأن هذه الأطر أو المقولات هي التي تنقلنا من عالم الأشياء والوقائع إلى عالم العلاقات حيث تبدأ المقايسات لكشف وجوه الاختلاف والائتلاف، أي النظر النسقي أي العلمي، وعملي يرتبط بهذا النظر لا بالنظر التصويري الذي يلتقط الواقع كما هو. وإذا كان ذلك كذلك، كما يقول الفقهاء، فلا يمكن للبلاغة باعتبارها معرفة باللغة الأدبية أن تعني شيئا غير «النظرية البلاغية» والمفاهيم الكبرى المؤسسة لها. لقد تحدثت في مقدمة كتاب تحليل الخطاب الشعري عن بلاغة الرصد وبلاغة التنظير، و»بلاغة الرصد»: تَجَوُّزٌ في الإسم، لأن الرصد مجرد خطوة ضرورية لبناء النظرية، كلِّ نظرية علمية.

336- أي بوجود التقريب في المتن الذي أعالجه (التراث العربي) في الواقع الحالي الذي نمارسه، في تعليمنا خاصة. (لاحق).

ولذلك فليس النقد هو الذي يعطي البلاغة الكفاية النظرية، فما سميناه نقدا تطبيقيا هو نفسه ما سميناه بلاغة الرصد. والعائق لاحتلال البلاغة لكل الرقعة ليس في موقفي وفهمي أنا، بل هو في المجال الثقافي الذي نعمل فيه، من يصدقني حين أجعل البلاغة علما كليا يستوعب النقد الأدبي؟! المشكل، كما يقال، في عناد الديك الذي يصر على اعتبار الآخر حبة عدس. لقد بلغني، وتأكدت مما بلغني، أن كتاب البلاغة العربية لم يجد موقعا في لجان جائزة المغرب، حيث ظلت تتقاذفه لجنة "النقد والدراسات الأدبية" ولجنة "العلوم الإنسانية". لقد أقصي منذ البداية من مجال الدرس الأدبي والإنساني من طرف أناس يعرفون ما هو النقد دون أن يسمعوا عن البلاغة أكثر مما سمعوهُ عن علم الفرائض، ونواقض الوضوء[337].

وعموماً فإن سؤالكم الموالي أكثرُ إنصافا بصدد هذه الجزئية.

2- البلاغة والسمات

محمد مشبال: لعل أهم الغايات التي سعيت إلى تحقيقها في قراءتك للبلاغة العربية تتمثل في «مراجعة مفهوم البلاغة المهيمن» و«إعادة الارتباط بين البلاغة وتاريخ الأدب والنقد، أي بالحركة الدائرة حول النصوص الحية وعملية الإنتاج» (البلاغة العربية، ص.2)؛ أي إنك تروم، كما توحي هذه العبارات، صياغة مفهوم للبلاغة يتجاوز القواعد وسياق النظام اللغوي إلى الخطاب على نحو ما تجسده نصوص الشعراء. وإذا كانت هذه الغاية واضحة في كتاباتك التطبيقية، التي حاولت فيها توظيف الرصيد البلاغي الصوتي لتفسير بلاغة الشعر العربي تفسيرا جماليا يراعي التحولات الفنية لهذا الشعر في أطواره التاريخية المتعاقبة (اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي)؛ فإنها لم تتضح في هذا الكتاب المخصص لدراسة البلاغة العربية في أصولها وامتداداتها .

---

337 ـ وشاء الله أن يكذِّب حدسَهم، ويقود الكتابُ المُبعد أعمالي الشعريةَ والحجاجية نحو جائزة الملك فيصل العالمية. وكان موضوع المنافسة: خدمة البلاغة العربية. لقد فُهِم، في نهاية المطاف، أني أبني بلاغة عربية (تعليق لاحق).

إن تاريخ البلاغة العربية يشهد على أن الاتجاه نحو ضبط السمات المرتبطة بالنص، أمر لازم الخطاب البلاغي العربي وشكل في أحيان كثيرة عنصرا حيويا في منظومته؛ ولا أدلَّ على ذلك من كتاب «منهاج البلغاء» الذي جسد البلاغة بمفهومها الحي؛ أعني البلاغة التي تنزع إلى قراءة الإبداع الشعري وتجاوز الوجوه البلاغية ذات الطابع اللغوي الخالص.

لقد سنحت لك فرصة قراءة هذا الكتاب حتى تؤكد تلك الغاية التي أفصحت عنها في مقدمة عملك، ولكنك لم تسلك هذه الوجهة، وظل عنوان قراءتك لمشروع حازم: «البلاغة النقدية أو النقد البلاغي» لا ينسجم مع محتويات القراءة المقترحة؛ أريد القول إن قراءتك للبلاغة العربية لم تعمل على رصد لحظات انفتاح البلاغة على السمات الإبداعية التي أفرزتها النصوص الشعرية، وهو ما كان يقتضيه في نظري طموحك إلى «البلاغة النصية» أو ما أسميته ب «البلاغة النقدية».

محمد العمري: أظن أن تجاوز البلاغة للقواعد المعيارية إلى الخطاب في سياقه التاريخي أمر واضح في كتاب البلاغة العربية، واضح في هيكلة الكتاب قبل تفاصيل جزئياته. يتجلى ذلك في الحديث عن علاقة البلاغة بالنقد التطبيقي والخصومات الأدبية والأسئلة المذهبية (التنزيه والإعجاز)، وفي نظرية المعرفة (البيان) كما هو واضح في القراءة العربية للبلاغة اليونانية، فهذه المباحث كلها وغيرها تُبعد البلاغة عن تقرير القواعد... وقد بينت في دراسة الأسرار للجرجاني أن الأمثلة المسعفة لنظريته في «المفارقة» و«البناء على الصور» مستقاة من الشعر العباسي من شعر ابن الرومي وغيره، إنه ينظر للشعر الطليعي، في حين ينظر ابن سنان للشعر الكلاسيكي. فالمقابلة بين ابن سنان والجرجاني كما بينا ليست في اختلاف الخلفية الأيديولوجية وحسب، ولكن في المتن المعتمد، أو المأخوذ بعين الاعتبار.

ولذلك ينبغي الانتباهُ إلى اختلافِ **انفتاح** كتاب تحليل الخطاب الشعري على النص باعتاره كتابا منظرا، **وانفتاح** كتاب البلاغة العربية باعتباره كتابا مؤرخا؛ يصف واقعا ولا يصنعه. والكتاب الذي نذر نفسه للتأريخ للشكل في الشعر العربي هو كتاب اتجاهات التوازن في الشعر العربي.

أما بصدد حازم فالذي شغلني في قراءته هو النسق والنظام، وقد عانيت من بتر الكتاب، والصفحات القليلة التي كتبتُها عنه هي ثمار ثلاث سنوات من التأمل، إنه عمل صعب إلى أقصى حد.

- ولم أفهم كيف يُقرأ الإبداع مع "تجاوز الوجوه البلاغية ذات الطابع اللغوي الخالص"، والحال أن النص عمل في اللغة. أخشى أن يؤدي هذا المنزع إلى الانطباعية. وهي خطيرة حين يَعمِد إليها من لم يتشبع بالمعرفة البلاغية مسبقا.

3. البلاغة النصية

محمد مشبال: يفترض الحديث عن «البلاغة النصية» أو «بلاغة النص» في حقل الأدب، أن يصيخ المحلل السمع لنبضات النص ويستشرف كونه المخصوص ويتقصى سماته الفريدة. وهو ما يعني أن البلاغة الأدبية تتجاوز المستوى اللساني إلى المستوى النصي بما ينضمُّ إليه من مكونات تجعل «البلاغة النصية» مفهوما حيويا غير قابل للضبط الصارم، أو التحجر في قوالب ثابتة وجاهزة.

في تحليلك لنماذج من الحكي العربي الكلاسيكي (مجلة الصورة، عدد 4) تبين أن ما اصطلحت عليه ب «التحويل الحكائي للاستعارة» يمثل سمة بلاغية في هذا الحكي. وهذا في نظري صحيح ويجري على كثير من الحكايات في النثر العربي. ولكن الذي أود الوقوف عنده، هو ماذا قصدت عندما وضعت إطارا عاما لدراستك في هذا العنوان «البحث عن بلاغة للنص»؟ هل مفهوم البلاغة لا يستقيم إلا بوجود حد من الحدود التي صيغت في إطار بلاغة اللغة؛ وهو هنا «الاستعارة» ؟ ألا يمكن بلورة بلاغة نصية من غير الرجوع إلى هذه الحدود، خاصة أن الحكايتين اللتين توليت تحليلهما يمكن قراءتهما خارج معيار الاستعارة أو خارج دائرة «البناء على الصور» دون أن تفقدا انتماءهما للكون البلاغي؟ وبشكل بسيط يمكن القول أن معظم الحكايات، في التراث العربي، تنطوي على حكمة تريد توصيلها أو مضمون خلقي تنطلق منه، وقد لا يهم بعد ذلك أن يتمثلا في استعارة أو مثل أو تشبيه أو صورة أو فكرة، لأن الذي يواجهه القارئ في النهاية هو النص الحكائي الذي تمثل «الحكمة» أو «العبرة» مكونا في بلاغته؟ هل

تعتقد بأن البلاغة النصية لا يمكنها أن تحقق نتائج إلا عن طريق النمذجة أو الولاء لمقولات « بلاغة اللغة» كما رأينا في هذه الدراسة التي تَشبثتْ بمقولة الاستعارة؟

محمد العمري: في هذا السؤال عدة قضايا جزئية تقتضي أجوبة منفصلة مباشرة:

أولا: «النصي» لا يناقض «اللساني»، بدليل وجود لسانيات للنص أو علم النص، كما عند فَانْ دِيـك.

ثانيا: التحجر غير مقبول في المجال العلمي عامة وبدون تحديد. وبخصوص «الضبط» فالصرامة نسبية بين العلوم الصلبة والعلوم الرخوة كما يعبر بعض الدارسين المحدثين. فالعلوم الإنسانية، ومنها علم الخطاب أي البلاغة علوم رخوة، ولكنها تعيش نظاما في نطاق رخاوتها، إنها أشبه بمجموع مترابط بخيوط مطاطة ولكنها موصولة وحاضرة تشد بعض أجزاء الموضوع إلى بعض مهما وقع من تحرك في المسافة الفاصلة بين الأجزاء، على عكس ما تسعى إليه العلوم الصلبة الرياضية والفزيائية من حصر للمسافات بدقة.

ثالثا: «التحويل الحكائي للاستعارة» لا يمثل سمة لكل الحكي بل لبعضه، ومن ذلك الأمثلة التي اعتمدناها، فهي تحتوي استعارات تفرض نفسها على المحلل، ولا مجال لتجاهلها. وليس في تحليلنا ما يدل على أنها الحالة الوحيدة للبحث عن بلاغة نصية، وسيكون مفيدا تظافر جهودنا لكشف الحالات الأخرى الجديرة بتوسيع الدائرة. والاستعارة كما تعلمون مفهوم كبير يتوسع حتى يضم كل صور التعويض، ويضيق حتى لا يتجاوز صور التعويض المبني على المشابهة. أما أن تكون «الحكمة» أو «العبرة» مكونا بلاغيا للحكي بعضا أو كلا في التراث العربي أو غيره، فشيء لا أستوعبه، لم أصادف فيما قرأته ما يساعدني في فهم المقصود، بل ربما دل القول بأنها الغرضُ أو «المضمون الخلقي»، كما جاء في كلامكم، على أنها ليست من البلاغة، لأن موضوع البلاغة هو الأشكال لا المضامين. فالبلاغة تنظر إلى المضامين في إطار تشكلها، أما خارج الشكل فالمضامين تنتمي إلى مجالات أخرى: الأفكار أو الأخلاق أو القيم.

قلتم: «هل تعتقد......إلخ»؟

لا علاقة للمسألة بالاعتقاد ولا بالتشبث. المسألة أبسط من ذلك: واجهت نصا مُعجِباً، فحاولتُ كشف وجه إعجابه من خلال ما تجمع عندي من أدوات خاصة في الميدان الذي طرح فيه السؤال: الميدان البلاغي في بعده الأنطروبولوجي والمعرفي. إن في التحليل أشياءَ غيرَ مصرح بها. أما اعتماد «بلاغة اللغة» فراجع لأنها البلاغة المناسبة لنص لغوي، وللصورة (الفوطوغرافية) بلاغة، وللأداء المسرحي على الخشبة بلاغة، كما تعلمون.

4. أصول البلاغة

محمد مشبال: تطرقت في كتابك «البلاغة العربية» إلى العوامل المختلفة التي أسهمت في نشأتها وفي صياغة أصولها ومفهوماتها وتفسير أسئلتها التكوينية؛ ومن هذه العوامل ما وضعت له عنوان «البلاغة ومعيرة اللغة»، حيث أظهرت كيف أن تقعيد اللغة قاد إلى رصد التوسع اللغوي في القرآن والشعر؛ أي أن جزءا من التفكير البلاغي العربي نشأ عن تأمل العلاقة بين النص والمعيار، وأن ثمة قواعد تميز النص ولا يتسع لها المعيار؛ وهي ما أطلقوا عليها تارة اسم«المجاز» وتارة اسم «الضرورة الشعرية». على هذا النحو أمكنك أن تحلل بتفصيل عملين بلاغيين هما «مجاز القرآن» لأبي عبيدة و«معاني القرآن» للفراء. بينما اقتصرت في تناول «كتاب سيبويه» و«الخصائص» لابن جني على مبحث الضرورة، باعتباره المفهوم البلاغي الذي نشأ عن النظر إلى النص في سياق علاقته بالمعيار اللغوي. والحق أن حصر تحليل الكتابين في هذه الزاوية فقط دون غيرها ينطوي على إفقار لمادتهما البلاغية. فالقارئ المدقق لكتاب «الخصائص» لا يملك القفز على مفهوم «شجاعة العربية» ومدى صلته بالبحث البلاغي؛ فقد كان ابن جني ينظر إلى اللغة العربية باعتبارها نسقا إبداعيا في ذاته؛ أي أن التفكير البلاغي عند ابن جني (وعند سيبويه أيضا) لم ينشأ عن علاقة النص (الشعر والقرآن ..) بمعيار اللغة القياسية فقط، ولكنه نشأ، على نحو أساس، عن علاقة اللغة (العربية باعتبارها إبداعا جماعيا) بمعيار مجرد يصطنعه البلاغي لتقصي أوجه وسمات الإبداع في هذه اللغة، التي وصفت بالحكمة والإتقان. إن نظرة ابن جني إلى اللغة العربية تنطوي على طموح إلى إدراك ما تحمله هذه اللغة في أعطافها من أسرار وخصائص الإبداع؛ وهذا سبيل يقود مباشرة إلى البلاغة.

أريد أن أعرف موقع ابن جني وسيبويه في تاريخ التفكير البلاغي العربي؛ فقد رأيت أن حديثك عن مفهومهما للضرورة الشعرية لم يف بمكانتهما في تأصيل البحث البلاغي العربي.

محمد العمري: يظهر أن هناك سوءَ تفاهم بصدد التعامل مع كتابي سيبويه وابن جني، فأنا لم أعلن في أي موقع من كتابي عن نية قراءة الكتابين لا إجمالا ولا تدقيقا، بل كان همي هو تتبع قضية واحدة محددة. ولذلك فقد كنت أقفز فعلا فوق كل ما لا دخل له في الموضوع حرصا مني على انسجام البحث، ولاشك أن القراءة النسقية تقتضي التضحية بكمية كبيرة من الحصيلة المعرفية الجاهزة، وكثيرا ما نجد صعوبة مع الطلبة الباحثين حيث يعز عليهم أن يتخلوا عن جوانب من الحصيلة التي جمعوها خلال إعداد المادة. ومع ذلك، ليس مفهوم «شجاعة العربية» من المفاهيم المتخلى عنها كما جاء في سؤالكم، بل اعتبرته المفهوم الكامن وراء مفهوم المجاز عنده ...الخ:

وبخصوص تفصيل القول، فالكتاب الوحيد الذي استقصيته هو مجاز القرآن، لأنه هو نفسه مشروعٌ لاستقصاء «المجازات» أو «التوسعات» القرآنية.

أما تساؤلكم «أريد أن أعرف موقع ابن جني وسيبويه في تاريخ التفكير البلاغي العربي»؟ فجوابي أنهما يوجدان خارج السؤال، يدخلان ككل اللسانيين من باب الامتداد في مجال النشاط اللغوي، ويخرجان كما يخرج كل اللسانيين، حين يصرون على جعل البلاغة نحواً؛ تطردهم البلاغة بكشف عجز أطروحاتهم عن استيعاب المساحة النصية للآداب. لذلك جعلت عمل النحاة في باب الكشف من الخارج، أي من خارج السؤال البلاغي.

لقد حرصت على توازن مادة الكتاب ما أمكن حسب أهمية المساهمة في تطوير السؤال البلاغي، ولدي أمل في أن يفهم القراء استراتيجية الكتاب، وهي: تعدد المنطلقات وتفاعل المؤثرات، وذلك لتلاقي النقاش غير النافع حول الأصيل والدخيل، العربي واليوناني.

5- الصورة والتصوير

محمد مشبال: ركزت معظم الأبحاث البلاغية العربية الحديثة جهودها على دراسة «الصورة الشعرية» في التراث البلاغي والنقدي العربي، ولم يكن هذا

التركيز نابعا – في المقام الأول – من أهمية هذا المكون في الثقافة الأدبية العربية، بقدر ما أملته سيطرة هذا المفهوم على النقد الجديد (النقد الأنجلو أمريكي) الذي تبنى مقولاته أبرز الباحثين العرب في حقل البلاغة. والملاحظ أن هؤلاء نزعوا في الأغلب الأعم منزعا تقييميا، وكاد منهجهم ينحصر في إصدار الأحكام على البلاغة العربية ناعتين إياها بالتقصير في إدراك المعنى الوجداني للصورة الشعرية، وسيطرة العقل والمنطق على بنياتها ووظائفها، وتغييب دور الخيال في تشكيل مفهومها.

والحق أن هذا المنهج التقييمي لم يكن ليفسح المجال لتحليل مفهوم الصورة أو التصوير في التراث البلاغي العربي واكتشاف مساره ودائرته الجمالية المخصوصة. فما أسهل القول إن عبد القاهر الجرجاني كان يدرك الصورة الشعرية إدراكا حسيا عقلانيا! ولكن ما ليس سهلا هو تجاوز التقييم إلى التفسير. يقول لنا البلاغيون المحدثون إن مفهوم الصورة الشعرية عند القدامى لم يتبلور في نطاق الوعي بدور الخيال الخلاق وما يستتبعه من إدراك للعلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، ولأجل ذلك انحصرت وظائفها في دائرة التزيين والإقناع ولم ترق إلى أن تصير ضربا من الكشف والخلق. ولكن هؤلاء لا يقولون لنا كيف انتقل مفهوم الصورة بين الجاحظ وقدامة وعبد القاهر في سياق الوعي بالمشروع البلاغي الذي رام عبد القاهر صياغته، حيث تحتل فيه «الصورة» موقعا مركزيا؛ باعتبار أن ما أسماه ب «صورة المعنى» يشكل الموضوع البديل لعلم البلاغة الذي انشغل عند غيره بالألفاظ أو المعاني، وقد جاهد في كتابه «دلائل الإعجاز» للتغلب على هذه الثنائية وصهرها في مصطلح الصورة.

في كتابك «البلاغة العربية، ص. 244» أشرت على نحو دقيق إلى أن مصطلح «الصورة» في التراث البلاغي العربي لم يكن المقصود به المفهوم السائد، بل كان يستوعب جميع المعطيات اللسانية «صوتية ودلالية ونظمية»؛ أي أنه مفهوم جمالي يستوعب جميع مكونات الشعر مثلما كان يستوعب عند أرسطو جميع مكونات النص المسرحي. لكن يبدو أن تطور البحث البلاغي في العصر الحديث ونزوعه نحو الدقة والصرامة حالا دون استمرار أو تطوير هذا المصطلح بمفهومه المشار إليه. هل توجد في نظرك أسباب أخرى كانت وراء انحسار، أو اختفاء،

مفهومي الصورة والتصوير من الدراسات البلاغية الحديثة، على الرغم من جذورهما العميقة في التراثين اليوناني والعربي؟

محمد العمري: لاشك في أن التفاعل بين الثقافات يُؤدي إلى تغير مجالات الاهتمام، وليس ذلك راجعا لعنصر الاختلاف مجردا، ولكنه راجع أساسا لوجود تفاوت في مستوى طرح الأسئلة والنضج النظري. ولذلك فمن الطبيعي أن تثير مباحث مثل الصورة والإيقاع اهتمام الدارس العربي المطلع على الثقافة الغربية المتقدمة، لأن هذه المفاهيم تقدم إمكانية تنظيم المعرفة البلاغية العربية التي فقدت البناء الإشكالي الدال بعد عصور من الاجترار. وقد بنيت تلك المفاهيم، حتى في الغرب، على علاقة نقدية مع التراث الأدبي القديم باعتباره تراثا تغلب عليه الخطابية بما يمثله من عناصر شفوية وحجاجية.

ولو مورس هذا البعد النقدي التطبيقي بكفاءة عند النقل إلى العربية لسهَّل عمليةِ تبييئ المعرفة وقلَّل من الشعور بغربة الأطر المعرفية المتبناة، وقد حاولتُ سلوكَ هذا المسلك في كتاب البنية الصوتية مثلا. وفي هذه الحالة ينتقل الحديث عن الخصوصية إلى التفاصيل، فلا يبقى عائقا بين الثقافات.

وملاحظة تضييق أفق الصورة المشار إليه ملحوظ فيما كتبه كل من مصطفى ناصف وجابر عصفور ومن تأثر بهما. وقد تركزت على أثر هذه القراءة مفاهيم أعتقد أن فقرات طويلة مما كتبته عن الجرجاني سواء في مجال الإيهام أو الهمس الشعري أو البناء على الصورة كفيل بتنبيه القارئ إلى ما في تلك القراءة من حيف.

أما أن الجرجاني يدرك «الصورة الشعرية إدراكا حسيا عقلانيا» فأخشى أن يوقع القارئ في لبس جديد. وقد بينت في البلاغة العربية تطور مفهوم الحسية والعقلية عند الجرجاني.

ومما يلزم تدقيقه أن حديث الجرجاني عن الصورة مرتبط بمفهوم الانزياح من مجاز وكناية، ولا يعدوه إلى غير هذا النوع من الصور بخلاف من سبقه من البلاغيين الذين يجعلون اللفظ مرادفا للصورة حسب قوله. والجانب التصويري عند الجرجاني هو الذي جمعه السكاكي في مبحث علم البيان.

ولم يتطور مفهوم الصورة في البلاغة العربية لأنه مفهوم نسقي بنائي يقتضي بيئة فلسفية تعمق النظر في العلاقات، والحال أن الذي انتشر وغلب هو إحصاء

الصور البديعية في غير نسق، والمحاولات التنسيقية التي بذلها بعض البلاغيين المغاربة، مثل السجلماسي، كانت صورية خارج السؤال الجوهري في البلاغة.

6- البلاغة والقراءة

محمد مشبال: يمثل بحثك في تاريخ البلاغة العربية قراءة وتجاوبا صراعيا مع أحد الاتجاهات التقليدية في البحث البلاغي والنقدي بالمغرب؛ والمقصود به فئة من الباحثين الذين وجهوا دراساتهم للبحث في قضية المصطلح البلاغي والنقدي. ولقد أوجزت نقدك لهذا الاتجاه (إن صح أنه اتجاه!) بشكل صحيح تماما، عندما قلت: «إن التعرف على النظام المصطلحي يتطلب الخوض في اشتغال النظرية» (البلاغة العربية، ص. 18). ومعنى هذا أن الذي يتوخى تحديد المصطلح عند ناقد أو بلاغي قديم على سبيل المثال، عليه أن يدرك أن موضوع عمله ليس مجموعة من الألفاظ، ولكنه مجموعة من السياقات المعرفية والإيديولوجية المتجاوبة والمتعارضة؛ أي أن هناك حقلا مركبا يقتضي الخوض فيه أن يضطلع الباحث بإجراءات تحليلية وتفسيرية وتأويلية تمثل شكلا من أشكال التفكير النظري.

من هذه الزاوية أرى أن كتابك في تاريخ البلاغة العربية، يمثل قراءة غير تقليدية لتراثنا البلاغي؛ حيث تم النظر إلى هذا التراث باعتبار أنه مجموعة من الأنساق والمشروعات التي تستوجب إعادة بنائها وتركيبها؛ وهذا منهج مخالف للخطط التي سارت عليها الأبحاث التقليدية التي تعاملت مع التراث البلاغي باعتبار أنه مجموعة من القضايا المسلم بها، أو مجموعة من المصطلحات أو الأفكار المعلنة.

غير أن البحث البلاغي العربي الحديث لا تمثله هذه الدراسات التقليدية التي لم تستطع أن تثبت حضورها في حقل الثقافة العربية، ولكن تمثله جهود جادة بذلها بلاغيون متنورون، أمثال شكري عياد، ومصطفى ناصف، وجابر عصفور، ونصر أبوزيد، وألفت الروبي، وغيرُ هؤلاء من البلاغيين العرب في حقل بلاغة الأدب بأجناسه المختلفة. لماذا لم نقرأ أصداء قراءات هؤلاء في تصورك للبلاغة؟

محمد العمري: وجَّهت نقدا مباشرا صريحا للاتجاه التراكمي في مجال البحث المصطلحي في التراث في مقال نشر في مجلة فكر ونقد بعنوان: الدرس

الأدبي والنسق المعرفي. أما كتاب البلاغة العربية فأعتقد أنه يحاور الكتابة غير النسقية باتجاهيها التراكمي والانتقائي: الاتجاه الذي يقدس القديم ويسعى إلى إعادة إنتاجه، والاتجاه الذي ينتقي منه لمعا خارج سياقها.

فعندما أثبتُّ، من خلال الخطاطة العامة للأسرار، أن **المعنى** مر، عند الجرجاني، بتطور عَنَى فيه الشيءَ ونقيضَه، قبل أن يخضع لصياغة جديدة في الدلائل، فإني أنتقد كل من يقول: المعنى عند الجرجاني هو كذا مستشهدا بنص من هذه الصفحة أو تلك. والذي يقول ذلك موجود في الاتجاهين معا.

وقد بينت في مقدمة الكتاب موقع عملي بين الجهود المبذولة في إطار التأريخ للبلاغة العربية، كما بينت في تمهيد الفصل المخصص للقراءة العربية للبلاغة اليونانية اختلاف الاستراتيجيتين القرائية والتوثيقية. وقد تلافيت الخوض في الخلافات الجزئية حتى لا أشوِّشَ خطةَ الكتاب الهادف إلى التغطية الشاملة للرقعة الواسعة للبلاغة العربية. وأملي أن يفتح كل مبحث موجز منه بابا للاجتهاد، وقد كانت فصوله موضوع نقاش وحوار مع طلبة الدراسات العليا ألهمتْ بعضَهم موضوعات دقيقة حيث ناقشنا في السنتين الأخيرتين أطروحتين أثارتا الإعجاب: الأولى للطّالب محمد أبا في موضوع: أثر الكلام في البلاغة العربية، والثانية للطالب محمد وهابي في موضوع: القراءة العربية للبلاغة اليونانية، وكلاهما أتى بالجديد وعمَّقَ الموضوعَ في جوانب اكتفيتُ فيها بالإشارة، أو لم أتطرَّق لها أصلا.

7- مجلة الصورة

محمد مشبال: يعد محمد العمري أحد مؤسسي مجلة دراسات لسانية أدبية (وأضيف إليها لفظ سيميائية لاحقا)، التي استجابت في الفترة التي صدرت فيها أعدادها، بين أواسط الثمانينات وأواسط التسعينات، إلى جيل جديد من الباحثين الجامعيين الذين وجدوا فيها منبرا للتعبير عن رؤاهم المنهجية وإشكالاتهم الأدبية التي لم تكن لتستوعبها سوى مجلة متخصصة تحمل على عاتقها السؤال المعرفي الذي كان يعتمل بقوة في الجامعة المغربية في بداية الثمانينات. الآن يمكننا القول أن هذه المجلة اضطلعت بدورها في تقديم مجموعة من الباحثين

الجدد، كما اضطلعت بدورها في مواكبة هاجس تجديد أدوات البحث الأدبي واللغوي.

ما هو في تقديرك الدور المنوط بمجلة مثل «الصورة» في هذه الفترة التي تغيرت فيها الأسئلة، ولم يعد لسؤال المناهج ذلك البريق الذي تمتعت به منذ عشرين سنة خلت؟

ألا تعتقد بأنه آن الأوان للثقافة الأدبية العربية أن تكف عن استعارة الإشكالات واحتذاء الأفكار وأن تجتهد في صياغة أسئلتها؟

كيف السبيل لمجلة بلاغية ونقدية (وفلسفية) أن تساهم في خلق حقل للأفكار الأدبية لا يجعلنا مجرد تابعين ومرددين؟

و بعبارة أخرى هل تعتقد أننا حقا في مرحلة يجب أن تضطلع فيها مجلة، مثل «الصورة»، بدور خلق ثقافة أدبية ونقدية تستجيب لواقع مغاير تماما لما كان الحال عليه في السابق، خاصة أن أصحابها (أو فئة منهم على الأصح) يصدرون في تصورهم للأدب عن المشروع النقدي والبلاغي الذي صاغه محمد أنقار في دراساته المختلفة حول الرواية والنص المسرحي؟

محمد العمري: مبدئيا أنا سعيد بتقويمكم لمجلة دراسات، فما ذكرتموه باعتباره إنجازاً واقعا كان عندنا أمنية وهدفا.

أما بصدد تغير السؤال الأدبي والدور المطلوب حاليا من مجلة علمية في هذا المجال، فمن المفيد النظر إلى الموضوع من زاوية أخرى. فإذا حدث تغير حقا فينبغي النظر هل كان في الاتجاه الإيجابي أم السلبي؛ لقد انحسر فعلا سؤال المناهج، ولكن هل تقدم الوعي المنهاجي وضبطت متطلباته؟ لست متفائلا في هذا الصدد بالنظر إلى ما يناقش من رسائل جامعية في الموضوع. ولذلك فبدل استعمال كلمة «بريق» أفضل كلمة «الأولوية» تلافيا لما قد توحي به الكلمة الأولى من زيف وخداع. هل حال الدرس الجامعي الآن يبشر بالخير، ماهي المؤلفات التي تضيف جديدا اليو م؟ كان شاغلنا في مجلة دراسات أدبية ودراسات سميائية هو تقديم المفاهيم، وفتح حوار بين القديم والجديد، وبين العربي وغير العربي، والمطلوب من مجلة متخصصة الآن في نظري هو:

• توسيع النظر في مجال تداخل المعارف.

• نقد المفاهيم في إطار مقارن.

• تقديم تطبيقات ناضجة لباحثين استكملوا أدواتهم.

• تأكيد البعد البيداغوجي للبحث العلمي ومقاومة الإنشائية.

من خلال هذه المهام سيتبين فيما إذا كنا قادرين على إجراء حوار مع الآخر الذي يفرض نفسه من خلال منجزات علمية متقدمة لا غبار عليها. إن الخروج من جاذبية الآخر، مع ضمان عدم الرجوع إلى الوراء، لا يتعلق بقرار يُعلن، بل بعمل دؤوب منهك. ولذلك فإني لا أرتاح لكلمات مثل «استعارة الإشكاليات» و«الاقتداء» بمعنى الاستيلاب، لأنها مستعملة كثيرا من طرف خصوم الحداثة. إن الأمر سهل بالنسبة للسلفية الأدبية وحدها.

إن المهام التي ذكرتُها أعلاه كانت من ضمن قاعدة مشروع لإنشاء جمعية بلاغية وطنية فكرنا فيه منذ حوالي ثلاث سنوات، حالت دون الاستمرار فيه ظروف صحية، وكان من المنتظر أن نخاطبكم فيه أنا والأستاذ محمد الولي في اللقاء المقترح حول أعمال الأستاذ محمد أنقار لو سارت الأمور على ما يرام. أتمنى أن تجد الفكرة من ينهض بها من ذوي العزم.

القسم الثاني:

حوارات

يضم هذا القسم مجموعة من الحوارات، تَعَلَّق بعضُها بصدور كتاب، وبعضها بمناسبة تحول سياسي أو اجتماعي، ورَصد بعضها تطورَ المشروع البلاغي في مجمله. وهي بذلك تساير المشروع العلمي للمؤلف.

- I -

في قراءة التراث البلاغي العربي

علاقة حوارية نقدية[338]

• صدر لكم مؤخرا عن دار إفريقيا الشرق كتاب من القطع الكبير (544 صفحة) بعنوان: «البلاغة العربية: أصولها وامتداداتها». يدخل هذا الكتاب ضمن مشروع عام بدأتموه منذ سنوات ويتعلق بإعادة قراءة البلاغة العربية. وهو مشروع مجدّد ومستكشف وجريء، يثير أسئلة لها عمقٌ وراهنية، من هذه الأسئلة:

كيف نقرأ التراث البلاغي العربي الإسلامي؟

إلى أي حد يمكن الحديث عن قراءة علمية موضوعية تفصل الذات عن الموضوع وتتخذ العلوم الدقيقة نموذجا، مع العلم أن هذه العلوم صارت هي التي تتقرب من العلوم الإنسانية، وبدأ يتأكد أنها جميعا نشاط رمزي إنساني، ومع العلم أيضاً أنّ لإدراج الذات أهميةً قصوى في قراءة التراث وتوظيفه في المحيط المعرفي الفاعل الراهن؟

وبالمقابل هل يعني القول باستحالة قراءة علمية مطلقة أن نفتح أبواب التأويل على مصراعيها بدون ضوابط ولا حدود، فنجعل من الجرجاني أباً للبنيوية ومن الجاحظ أباً للتداولية؟ دون أن يعني هذا نفيا للرأي الذي يرى أن القدامى ساهموا،

338 ـ إنجاز ذ. حسن المدن. نشر هذا الحوار في الملحق الثقافي للاتحاد الاشتراكي. بتاريخ: 19/01/2001.

بشكل من الأشكال، في تأسيس الفكر الإنساني: فقد يكون الجاحظ والتداوليون المعاصرون ينطلقون جميعاً من نفس المبدأ التداولي، لكن مع فرق التطور الكبير الذي يَسِم الفكر المعاصر. وهذا يعني إجمالا أن نناقش سؤال التأويل، وأن نعيد النظر في النزعة التاريخانية المتطرفة التي ترى الماضي شيئاً مضى وانتهى؟

كيف تجيبون عن هذه الأسئلة والإشكالات من خلال مشروعكم؟

• فصْلُ الذات عن الموضوع يجافي مفهوم القراءة الذي أشرت إليه، غير أن مفهوم الذات شاسع، فنحن لا ندخل في حسابنا الذات غير المثقفة؛ الذات التي نتحدث عنها هي الذات العالمة وليست الذات السيكولوجية أو الأيديولوجية الصِّرف. باختصار الذات المتحدث عنها في العلم تعي الأهواء وتختزلها إلى الحدود التي لا تعوق التواصل مع مسار المعرفة الذي نشترك فيه مع آخرين لهم أهواؤهم الخاصة التي لا تهمنا كباحثين. الذات العالمة هي التي تحقق قدراً من الحياد لصالح المسار العلمي الكوني مقتنعة بالتطور. أي أنها لا تلغي الماضي ولا تقف عنده. وهنا يأتي مفهوم القراءة باعتبارها تلقيا ديناميا يقيم حواراً بين الماضي والحاضر، فالحاضر يضيء الماضي ويكشف جوانب منه كانت جنينية وفي طور التَّخلق مشوشة بشوائب وعناصر خارجية، والماضي يفسر مسار الظواهر الحديثة في اندفاعها وانحسارها، ويرفع عنها القدسية، كما يرفع الحاضر أسطورية الماضي.

ومن الأكيد أن الأسئلة الآنية تُعيد الاعتبار لجوانب من الماضي كاد النسيان أن يأتي عليها، وهذه مسألة يمكن توسيعها بتتبع تطور مفهوم الأدب كما هو معروف. ولكن من الأجدى النظر إليها الآن من زاوية المنتوج الذي نقترحه، المنتوج الذي اتخذتموه منطلقاً للسؤال: أي البلاغة.

لقد أدى تطور الدراسات الحديثة في مسارين لساني نصي وتداولي حجاجي إلى التنبيه إلى غنى التراث البلاغي العربي بشكل عَمِيَتْ عنه الأبصارُ طوال عقود. وهذا طبعا مرتبط بكون الحضارة العربية مرت بمرحلة حيوية شملت شتى مناحي الخطاب في إطار نهضة علمية شاملة، ولم يكن من الممكن إعادةُ إدراك ذلك الغنى إلا بالاحتكاك بحضارة مماثلة في الحيوية والشمولية، حضارة استثمرت التراث البلاغي والفلسفي القديم، ومنه العربي بشكل فعال. فقد كان علينا إذن أن نعود إلى هذا التراث لنسائله في غير استكراه وبشكل عفوي

عن تواصله مع أسئلة هذا العصر، كما عاد الغربيون لمساءلة بلاغة أرسطو ومن جاء بعد أرسطو من اليونان واللاتين دون أي إحساس منهم بالاستلاب. وحال الدراسة الأدبية اليوم يدل على أن الانطواء على التراث يُفقرُه، ويُسيئ إليه من حيث يعتقد أنه يرفع من شأنه أمام التقدم العلمي الحديث.

الموضوعيةُ التي نتحراها في المجال الذي نخوضُ فيه تتلخص في القيام بخطوات وصفية دقيقة قبل الشروع في التأويل أو ترك التأويل يأتي ضمنيا من خلال الوصف الموجه الذي يحترم الأسئلة والأجوبة، ولذلك ستجد في عملنا لحظات لاستخراج مكونات المشاريع العلمية، كما هي، قبل القيام باستخلاص خلاصات عامة، إن هذا الوصف الذي ينطوي على نية تحقيق أقصى قدر من الدقة والنزاهة جدير بأن يجعل مجال الاختلافِ واللجاجةِ ضيقا[339].

فالخطير في قراءة التراث هو عدم الوعي بالأسئلة، ومدى توفق العلماء في الإجابة عنها، سواء كانت العوائق معرفية أو مذهبية..الخ. ليس مما يفيد دارس التراث البحثُ في الصواب والخطأ والسبق وإصدار أحكام قيمية بهذا الصدد، بل المهم هو إبراز المعاناة الإنسانية مع الأسئلة، وهذه المعاناة ممتدة من القديم إلى الحديث حسب صياغات مختلفة بحسب العصور.

تحقيقاً لهذا المطلب تلافيت انتقاء الأقوال واللُّمَع من هنا وهناك، واعتمدت المشاريع الكبرى بما لها وما عليها. ولذلك فالمتن المدروس يَحتوي أهم الكتب البلاغية؛ يحللها مشروعاً ومنجزاً، أصولاً وامتدادات: مجاز القرآن، البيان والتبيين، تأويل مشكل القرآن، الصناعتين، نقد الشعر، البديع، إعجاز القرآن، أسرار البلاغة دلائل الإعجاز، سر الفصاحة، فن الشعر وتلخيصاته، فن الخطابة وتلخيصاته. مفتاح العلوم، منهاج البلغاء، المنزع البديع ... ومؤلفات أخرى.

339ـ مؤدى هذا الكلام أن عملية وصف الأعمال وتقديم خطاطاتها، ومدى توفق العلماء في الإجابة عنها، هي عملية حجاجية بقدر ما هي بيداغوجية. فالذي يقتطف جملةً من عمل الجرجاني من الأسرار ليحتج بها لا يمكن إقناعه بأن الجرجاني تجاوزها، أو قيَّدها، بأن نقتطف جملة مضادة لها من الدلائل! لن يتم الاقتناع إلا بتقديم خطاطة مشروع الجرجاني المنجز عبر الانتقال من الأسرار إلى الدلائل، فبهذا الصنيع سيظهر أن القولين متكاملان (اللفظ+ النظم). انظر تفصيل ذلك في كتاب البلاغة العربية.

حرصتُ على الإمساك بالمشروع وعرضِه في خطوات بيداغوجية غرضُها حجاجيٍ في الواقع، فعملي يتضمن هذا السؤال: هل تتفق معي، أولا، على أن هذا ما قصد إليه هذا البلاغي، وهذا ما قاله؟ إذا وقع الاتفاق صار من الممكن استخلاص نتائج مناسبة، مقبولة علميا.

ومن الأكيد أن علمية هذه الخطوة تكمن في الوضوح وقابليةِ الفحص والاختبار. وإذا اعترض القارئ على ذلك الوصف، لزمه أن يقدم وصفاً أكثرَ إقناعاً، وهكذا يكون العمل إيجابيا. فقد كان التفكير البلاغي العربي إلى حدود القرن الخامس الهجري حواريا متحركاً. كان أشبه بمناظرات مستمرة يطبعها التعديل والاشتراك، والإخلال أو الوفاء بالوعد، أو إعطاء أكثر من المتوقع. هذه أمور تجعل القراءة الانتقائية التي تأخذ رأياً من هنا ورأياً من هناك بعيدةً عن واقع الفكر البلاغي العربي وحيويته.

هذا المفهوم القرائي القائم على نظرية التلقي يجافي المفهوم الإسقاطي التبسيطي الذي يَقرأ الماضي من أجل التخلص من الحاضر، كما هو الشأن عند الاتجاه التقليدي الذي يداري عجزه بتقديس التراث وجعل إعادة إنتاج القدماء غايةً في ذاتها.. علاقتنا بالماضي هي علاقة نقدية حوارية تأبى التقوقع في الماضي كما تأبى رفضه جملة.

والتعمق في قضية التداخل والتخارج بين العلوم الإنسانية والعلوم البحتة في مستوى البناء والتوظيف مما لا يتسع له هذ المقام الخاص بالبلاغة، سيجرنا بعيدا، وهو مأخوذ بعين الاعتبار على كل حال من خلال احترام المفاهيم الابستمولوجية العامة المشار إليها.

• ألا ترون أن النقد العربي الحديث قائم في أساسه على نفي البلاغة وأن هذا النفي للبلاغة وإهمالها هو السبب في الوضع المأزوم الذي يعيشه هذا النقد؟

ج: نعم، هذا صحيح. والدليل على صحته عودة الإحساس بأهمية البلاغة عند الكثير من النقاد المحدثين. بل صارت البلاغة تجد احتفالا في مجالات لم تكن تعتد بها مثل الرواية والمسرح والصورة والنكتة. هناك كتب كثيرة تحلي عناوينها بهذه الكلمة «الرزينة»؛ كلمة بلاغة.

ومن المفيد الإشارة إلى أن إهمال البلاغة طوال كل هذه المدة كان ناتجا عن ظروف خارجية نجملها في سببين:

- عقم المناهج الدراسية الموروثة عن قراءة شرقية أنجزت في بداية القرن وما تزال سارية إلى اليوم. تتغذى من كسل «المدرسين الكبار»، فضلاً عن المدرسين الصغار[340].
- هيمنة النقد الأيديولوجي لفترة غير قليلة (طوال عقدي الستينيات والسبعينيات)، وهو منهج معادٍ للبلاغة عند من أخلص له، ومبرر للكسل عند من تستروا وراءه من الانتهازيين، وهم الأكثر.

واليوم هناك أقلام كثيرة تكتشف البلاغة من طريق الصياغات الغربية عند جان كوهن ومجموعة (مي) وأعمال كبدي فاركا وغيرهم. لقد صارت البلاغة تسترجع المكانة اللائقة بها. ولعل الخريطة العامة التي رسمناها للبلاغة العربية في الكتاب المذكور تساعد الدارسين على تبيين مواطن حاجتهم من هذه البلاغة.

• نشرتم سنة 1986م كتابا تحت عنوان: «في بلاغة الخطاب الإقناعي...» تنطلقون فيه من فصل منهجي بين الشعر (التخييل) والخطابة (التصديق). وهو فصل يثير أسئلة:

ألا ترون أنه فصل منهجي نابع من التراث الأرسطي لا من التراث العربي الإسلامي ومن طبيعة خطاباته، مع أنكم تسجلون أن وظيفة الشعر كانت في الغالب الإبلاغ والإقناع؟ وهل كان أرسطو نفسه صارما في هذا الفصل، فبول ريكور يرى أن أرسطو يضع اللغة الأدبية في حقل الشعرية وفي حقل البلاغة؟

• حين استعملت عبارة في «بلاغة الخطاب الإقناعي» كنتُ أتحاشى عطف البلاغة على الشعرية، لأن الشعرية جزء من البلاغة عندي[341]. أقول بعد هذا التنبيه: ينبغي مبدئياً التذكير بأن المحاضرات التي صيغت في كتاب في بلاغة الخطاب الإقناعي عملٌ يحمل هما بيداغوجياً، إلى جانب الهم التنظيري التأريخي. هي محاولة لتثوير بند من مقرر الأدب الإسلامي، أي أدب صدر الإسلام والعصر الأموي الذي كلفت بتدريسه عند التحاقي بكلية الآداب بفاس في بداية الثمانينات. قلت في نفسي ما الذي سيستفيده طلبة الإجازة من حكاية أخبار الخطباء والصراعات السياسية والدينية في العصر الأموي؟

---

340. «المدرسون الكبار» يسمون «باحثين»، ويتقاضون أجرا على البحث العلمي دون إنجازه! (لاحق).

341. انظر تفصيل هذه الإشكالية في المبحث الأول من الفصل الأول: ما البلاغة؟

من هنا حاولتُ أن أدمج الخبر، والتاريخ، والنص الخطابي، في إطار بلاغي، فجعلت «المقررَ» الدراسي مجالا للتطبيق. ونظراً لأن هذا العمل ينطوي على مغامرة، وهو أول عمل جرُأت على إخراجه للناس، فإني كنت حذراً... ثم فُوجئت بالقبول الذي لقيه سواء عند المدرسين أو عند الدارسين في المغرب وخارجه. وأنا بصدد تحسين طبعة ثانية منه[342]. لقد أشرت حين الحديث عن الأسلوب إلى أن الخطابة العربية شعرية إلى حد كبير، ولكن ذلك لا يجعلها شعراً. وهذه إشكالية تحتاج إلى مقال خاص. وتفكير أرسطو في تخصيص كتاب للشعر وكتاب للخطابة أقوى من الجزئيات والتأويلات التي يمكن أن يُدلى بها في الموضوع لمقاومة هذا التفريق مهما كانت قوة قائله.

•• تصنفون البلاغة العربية إلى بلاغة الإقناع (البيان) وبلاغة البديع (نظرية الشعر)، ألا ترون أن للبديع وظيفة تأثيرية إقناعية، خاصة إذا ربطناه بالمجتمع الذي ازدهر فيه، المجتمع الذي لم يعد يتأثر إلا بالشعر الرقيق المهذّب والمشذّب المتأنق، الشديد الطلب للبديع، إضافة إلى أن التأثير والإقناع لا يستخدم الطرق العقلية فقط، بل غالبا ما يتم اللجوء إلى أدبية اللغة وبديعها ومجازها وإيقاعها؟

• المقال الذي ظهر في مجلة فكر ونقد (العدد25: 1999)[343]حول: البلاغة العامة والبلاغات المعممة جوابٌ عن هذا السؤال. فقد أوضحت هناك أن للبلاغة جناحين: الحجاج والإقناع، من جهة، والتخييل والبديع، من جهة ثانية، وهما متصلان متداخلان. غير أن تداخلهما لا يمنع من أن تكون هناك مباحث حجاجية ومباحث تخييلية شعرية. وفي هذا المقال خريطة عامة لهذين البعدين في البلاغة العربية والغربية القديمة والحديثة.

هناك الأبحاث الشعرية التي تعرج (أو لا تعرج) على البعد الحجاجي الإقناعي، وهناك الأبحاث الحجاجية المنطقية التي تعرج (أو لا تعرج) على المكونات الشعرية. والجديد اليوم في الساحة الأدبية الفلسفية في المغرب هو

---

342 ـ صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الثقافة بالدار البيضاء سنة 1986. وصدرت الطبعته الثانية إفريقيا الشرق بالدار البيضاء 2002.

343 ـ طورنا الجواب عن هذا السؤال وعمقناه نظرا وتطبيقا في كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول.

ظهور مناطقة وشعريين يحسون بالقُربَى أي ظهور بلاغيين بالمعنى الصحيح، فالبلاغي يتناول الخطاب في بعديه التخييلي والتداولي حسب الجانب المهيمن.

• في كتابكم «في بلاغة الخطاب الإقناعي» تعتبرون إنجاز العرب عن الخطاب الإقناعي رُكاماً منفصل الحلقات غير إجرائي تشع في أثنائه ملاحظات عبقرية واجتهادات الفلاسفة، وهذا ما يبرر تأطير البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية. لكنكم في دراسة أخرى للمقام الخطابي والمقام الشعري تتحدثون عن غنى البلاغة العربية في المجال التداولي وتدعون إلى رؤية تحليلية قبل طرح الأسئلة التقويمية أو الحديث عن التجاوز. أهذا اختلاف وتناقض أم أن للأمر تفسيراً؟

• • يمكن أن يحدث مثل هذا التمييز (الذي يبدو متناقضا) حين نفكر في بعدين تداوليين:

- البعد المقامي المنطقي المتعلق بالمجال السيكولوجي والاجتماعي، وهذا هو الذي اهتم به أرسطو كثيراً في الخطابة، وليس له نظير في البلاغة العربية، فيما أعلم، غيرَ شذَرات، وقد حاولنا بناء المتاح منه في الفصل الرابع من القسم الأول من كتابنا: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، في قراءتنا لمشروع الجاحظ في البيان والتبيين.

- والبعد التداولي اللساني السياقي الذي يهتم بملاءمة العبارة للمقاصد. فهذا المبحث غني جدا في البلاغة العربية وهو الذي صاغهُ السكاكي في أعقاب عبد القاهر الجرجاني، واعتبره مركزاً للبلاغة ولبّاً، وقد بينا هذا في الكتاب المذكور في الفصل الرابع من القسم الثاني.

فإذا كان هناك من تمييز في مستوى العناية فمرده إلى التمييز بين واقع علم المعاني الذي أبدعتْ فيه البلاغة العربية بشكل لا مزيد عليه، ومبحث المقامات الخطابية السيكولوجية والنفسية الذي كان الحديث البلاغي عنه سطحياً، أقوى ما قدم فيه صحيفة بشر بن المعتمر في البيان والتبيين. فالتمييز واقع إذن بين البعد اللساني والبعد المنطقي الحجاجي للتداولية[344].

344 ـ هذه هي الإشكالية التي عالجناها في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الكتاب.

• نشرتم في الصيف الماضي (1999) مقالا في جريدة الأحداث المغربية حول الدرس الأدبي والبلاغي في علاقته بالمحيط المعرفي الفاعل.

في نظركم كيف يمكن تفعيل البلاغة العربية القديمة لتُمدَّ الإنسان العربي المعاصر بأدوات وأجهزة نظرية ومنهجية وقيمية تمكنه من الإسهام في صناعة الخطاب العربي المعاصر وفي تحليله وتقويمه، وتمكنه من جهة أخرى من امتلاك ما يكفي من المبادئ والمهارات لمواجهة هذا الطوفان من الخطابات التي تغزو مجتمعنا (الخطاب الإعلامي السمعي البصري، الفضائيات، الخطابات السياسية، الخطابات الإعلانية، الخطابات الدينية، التربوية...)؟

• • البلاغة العربية موضوع للتأمل والقراءة بالمقارنة مع ما قبلها وما بعدها في ضوء المعارف الحديثة وهموم العصر الحديث. وأعتقد أنني قدمت نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقة في كتابي: تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية. وهو عمل يستوحي تعامل البلاغة الغربية الحديثة مع التراث اليوناني واللاتيني، كما عند جان كوهن في بنية اللغة الشعرية، وهنريش بليت في البلاغة والأسلوبية. وفي توسيع حلقة التطبيق قدمتُ اقتراحاً حول إيقاع القصيدة الحديثة نشر في مجلة فكر ونقد (العدد17) وينشر قسم منه في مجلة آفاق اتحاد كتاب المغرب، كما نشرتُ حواراً مطولا حول الخطابة السياسية الحديثة تطرق لبعض خصوصيات النص الخطابي الحديث: الصورة والموسيقى خاصة[345].

فالبلاغة القديمة مُحاور يقدم مفاهيم ومصطلحات، وإشكاليات وكل ذلك يسمح لنا بالبناء على أساس يحفظ هويتنا ويترك صلتنا بتراثنا الأدبي والإقناعي مستمرة. ونصير نحن بدورنا حلقة في تطور هذه البلاغة وموضوعا للتأمل، إذا وفقنا طبعا، لصياغة بلاغة جديدة من تفاعل القديم والحديث عليها بصماتنا.

345ـ نشر في جريدة الاتحاد الاشتراكي (2، 99/ 10/ 4).

- II -

مشروعُ قراءة نسقية للبلاغة العربية[346]

تقديم المحاوريْن

يرجع اهتمام الدكتور محمد العمري بالفكر البلاغي إلى أواسط السبعينات، عندما قرر أن يحقق كتاب: المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، لمحمد الإفراني المراكشي. منذ ذلك الحين قطع الباحث على نفسه عهدا بإعادة قراءة البلاغة العربية، من مراصدها المختلفة، تحفظ لهذا التراث الضخم نسقيته وتكشف عن بنياته الناظمة، وبالتالي إنجاز كتابة تاريخ أشكال الشعر العربي القديم، ومحاصرة بنيته الصوتية ثم كتابة تاريخ جديد لهذه البلاغة، من موقع الموازنات الصوتية. وأخيرا، تعميق الدرس البلاغي العربي وترتيب مباحثه وربط حلقاته ورصد أصوله، وبناء مساراته الكبرى. وذلك عبر التمييز بين المشروع والمنجز والمركز والهامش والمنسق والمخلخل... لتحقيق غاية قصوى، تتمثل أساسا في فتح موقع لهذه البلاغة العربية في تاريخ البلاغة العالمية. وهو الهدف المضمر الذي من أجله ألف الدكتور محمد العمري كتابه: **البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها**.

وبمناسبة صدور هذا الكتاب المتميز (عن دار إفريقيا الشرق 1999)، ارتأينا أن ننجز حوارا مع الباحث لتسليط بعض الأضواء على قضايا المنهج والمفاهيم القرائية والأسئلة البلاغية وواقعها وآفاقها، لعله يسعف القارئ في إدراك الهم

346 ـ إنجاز الأستاذين: محمد الولي وإدريس جبري. جرى هذا الحوار في منزل الأستاذ محمد الولي بفاس في أعقاب احتفال بهيج بتخرج الفوج الأول من طلبة وحدة التواصل وتحليل الخطاب. وهو لذلك حوار مباشر.

نص الحوار

• صدر لكم مؤخرا كتاب ضخم في: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها بهذه المناسبة نود أن نسألكم عن الموقع الذي يشغله هذا الكتاب المتميز في مشروعكم البلاغي الأسلوبي؟.

• • كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، هو في الواقع امتداد لكتيب صغير سابق هو: الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية. والأخير جزء من المشروع العام في دراسة: البنية الصوتية في الشعر العربي. فخلال إنجاز الجزء التاريخي من ذلك المشروع وجدت نفسي أمام خطاطة تصنف البلاغة العربية من خلال موقعها من الأصوات والإيقاع عامة. وقد يجد القارئ تلك الاتجاهات نفسها، أو مع شيء من التعديل في كتابنا: البلاغة العربية، ولذلك، حين طبع كتاب: الموازنات الصوتية، كانت النية أن أنجز، بعد البنية الصوتية في التراث القديم، دراسة في البنية الدلالية. ثم جاءت ظروف محايثة رجحت التاريخ، أي التأريخ للبلاغة العربية، على البحث في موضوع الدلالة. ذلك بعد تزايد الاهتمام بالتلقي في الثمانينات، على حساب الاهتمام بالبنيات، وظهر أن جمالية التلقي تسعف في فهم البلاغة العربية وإنصافها في الوقت نفسه. الأمر الذي يتجلى مثلا في القراءة العربية للتراث اليوناني، فهذا سبب منهاجي يتعلق بتطور مجال البحث.

وكان هناك أيضا عنصر آخر بيداغوجي، ربما يدخل في إطار مسؤولية الباحث، وهو ما لاحظته في الندوات العلمية وعند الطلبة من خلط في الآراء والتوجهات البلاغية العربية القديمة، نظرا لغياب الأنساق وعدم إدراك تاريخ البلاغة العربية بشكل مجمل.

هذه الظروف، هي التي جعلتني أتوجه في هذا الاتجاه متأثرا بالترجمات والقراءات السابقة المختلفة في البلاغة العربية.

• على ذكر القراءات السابقة، ما هي مكانة كتابكم: البلاغة العربية، في سياق المحاولات القرائية السابقة للبلاغة العربية؟.

• • أشرت فيما سبق إلى الخلط الناتج عن عدم وجود تاريخ عام يقدم خطاطة لكل منطلقات البلاغة العربية ومساراتها الكبرى، لا ليقول الكلمة الأخيرة، بل ليسمح بإدراك المشاريع والمنجزات، ووضع خطاطات عامة ودالة بين يدي القراء. أما الكتب التي ألفت في الموضوع على أهميتها وإفادتها فيما رُصدتْ له، فلم تحقق الهدف (من رسم خريطة عامة للبلاغة العربية) بقدر من التوازن والتناغم. وكما أشرت في مقدمة كتاب: البلاغة العربية، كانت القراءة الأولى وصفية تلخيصية، وأحسنها عمل الدكتور شوقي ضيف: البلاغة العربية، تطور وتاريخ. وقد انتفعنا من قراءته. أما القراءة الثانية، فقد تمت من منظور حداثي لساني، واذكر بالخصوص، كتاب الدكتور حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، ولكنه على أهميته وعلى اهتمامه بالقراءة، كان أميل إلى المصطلح اللساني، ركز حسب اختياره على لحظتي الجاحظ والجرجاني، وظلت اللحظات الأخرى تنتظر من يملأها فراغها...

• في محاولة لقراءة تاريخ البلاغة العربية، نجد أنفسنا بين جاذبيتين: جاذبية النصوص القديمة، وجاذبية الأدوات التي نتوسل بها لقراءة هذه النصوص القديمة / التراث كيف عالجتم هذه الإشكالية؟

• • الحقيقة، أنه لا كتابة خارج العصر، وهو ما نتفق عليه ونعرفه جميعا، وكلما تغيرت المعطيات، إلا ويلزم الباحثين أن يعيدوا قراءة التراث وتأويل ما كان منه بعيدا وما التحق به، ليس لإسقاطه على الحاضر والاستغناء به، ولكن للتواصل معه وإعادة تأويله حتى لا يبقى عائقا أو بديلا للحاضر...

ومن الأكيد أن غياب الإمكانيات العلمية والابستمولوجية الآنية، تجعل المؤرخ القارئ عاجزا عن التخلص من إسار ذلك الماضي ومن إعادة تأويله فيكتفي باستجلابه كاملا، أو نفيه على الإطلاق، والاتجاهات معوِّقان...

لقد سعينا، قدر المستطاع، إلى احترام استقلالية التراث وأسئلته، ثم أخذنا الحرية، بعد الاستماع إليه، في تأويله: أقترح عليه أسئلة نطرحها من عصرنا لمد الجسور. ولذلك تلاحظون أن العمل لم يقم على اقتطاف عناوين وأفكار وشواهد من هنا وهناك. وهذا مشروع في المستقبل، ولكن اعتمدتُ على ما أسميته: **المشاريع والمنجزات**. فاحترمتُ عمل كل مؤلف فيما اقترحه وما صرح به، ثم حاولتُ بناء عمله بطريقتي لأقول له، ولنفسي: إن ما صرحت به

شيء، وما أنجزته شيءٌ آخرُ. فمثلا ابن سنان الخفاجي، لم ينجز إلا جزءا مما صرح به [...].

هذه الطريقة في الكتابة مفيدة في بناء هذا التراث بناء يساعد على الاستماع إلى اللحظات الكبرى الفاعلة. يبقى، بعد ذلك، أن نتساءل عن كيفية الربط بين الماضي والحاضر... أو بين النصوص القديمة، والأسئلة الحاضرة...

• وماذا بعد؟

• • المطلوب الآن في الواقع، إذا توضحت المنجزات البلاغية العربية، بقدر كاف، أن نحاول فتح موقع لنا في تاريخ البلاغة العالمية. أن نخرج من ذلك التاريخ الذي يقفز من أرسطو إلى الشكلانيين الروس، أو من البلاغة العربية القديمة إلى البلاغة العربية الحديثة. فتقديمنا لـ"قراءة الفلاسفة العرب" لأرسطو وصولا إلى مفهوم "التغيير" عند ابن رشد، هي ورقة في يد الدارسين الذين سيؤوّلون الموضوع فيما بعد: وهم على علم بالبلاغة العربية، ليعلموا أن هناك حلقة مغيبة، وأن هناك تاريخا غير عقلاني ومبتور للبلاغة العالمية. وان السؤال البلاغي أي ما الذي يجعل نصا أبلغ من نص؟ سؤال قديم جديد. لابد من احترام التاريخ العالمي للبلاغة. العرب قرأوا الإغريق في ضوء تراثهم، فنشأت عن قراءتهم لحظة تاريخية، وفي هذه اللحظة يبرز ابنُ رشد أيضا، الذي يُحتفَل به في كل أماكن العالم باعتباره أحد أعلام التنوير، ومن تنويراته عمله البلاغي ...

تعليق الأستاذ الولي: هذا ما يذكرني بكتاب مولينو، وهو يحاول أن ينتقد أولئك الذين يتحدثون عن إقامة بلاغة عامة في غياب البلاغة العربية [...]

• • إقصاء البلاغة العربية، إفقار للتراث البلاغي العالمي.

• نعود بكم الأستاذ محمد العمري إلى البداية، ونسألكم: لماذا البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، عوضا عن تاريخ البلاغة العربية؟

• • التاريخ تواريخ، فهناك تاريخ التراجم والطبقات، وهناك تاريخ الأشكال وقد سعيت إلى بيان أي نوع من التاريخ أقصد، ولذلك آثرت: "أصولها وامتداداتها"، ترجمةً لنوع التاريخ الذي قصدت إليه.

• عُدتم إلى سُنة متأصلة في التأليف العربي القديم، ونقصد خطبة الكتاب، ومن خلالها، فسحتم مساحتين: مساحة للقارئ المفترض، ومساحة خاصة لكم،

فلماذا إحياء هذه السنة في التأليف العربي القديم، وما هي الإمكانات التي أتاحتها لكم بدلا عن التقديم والتمهيد، أو غيرهما.

• • «خطبة» كتاب البلاغة العربية، هي عودة لذلك التقليد القديم الذي يتواصل فيه المؤلف مع القارئ في لحظة موجزة. وقد حبذتها لأنها تخرجنا من إطار تلك المقدمات الطويلة التي تستغرق عشرات الصفحات في الحيثيات والظروف من كلام متعب لا طائل منه. فحصرتُ خطبة الكتاب في صفحتين، وهو تقليد شرعت فيه ابتداء من تحقيق كتاب: المسلك السهل لمحمد الافراني. خطبة أعطي فيها صفحة للقارئ وأبين له فيها بعض النوايا والهموم التي أحملها إزاءه، وماذا أريد أن أبلغه. وأيضا أتواصل معه وجدانيا، وأحس أن هناك حاجة ليحس القارئ بالشخص الذي يخاطبه في الكتاب مرة واحدة، لكي يغيب نهائيا. ولذلك ربما سيلاحظ القارئ، كما كنت أتمنى غيابي كإنسان داخل الكتاب، كشخص ينازع من أجل شخصه، أو من أجل إلغاء الآخرين. وتلك الصفحات التي تجاوز خمس مائة صفحة هي شفاء من ذلك الداء: داء الحضور في كل الصفحات. ولذلك حرصت على ألا يكون في الكتاب سجال أو إلغاء للآخرين. فهناك أطروحات مناقضة لأطروحات أخرى، ولكن لا ندخل معها في كلام مباشر، ولا نلمح إليها بأي شكل من الأشكال. وأعتقد أن تلك الخطبة- بلفظها ذاك- ستكون خفيفة على القارئ لأنه في حلٍ منها حين يسمع أنها خطبة لي، فيمكن أن يتصور أنه غير معني بها، ولكن أنا متأكد أنه سيقرؤها... فضول..

• القارئ لكتابكم الصادر عام 1991 الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، نحو تاريخ جديد للبلاغة العربية، يمكن أن يعتبره مقدمة لكتابكم الأخير، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها 1999، أي علاقة يمكن إن تربط بين الكتابين؟

• • " البلاغة العربية" أشمل، في حين أن كتاب: الموازنات الصوتية، يهتم بالرؤية إزاء مكون محدد وسيلتقي القارئ في البلاغة العربية مع مزيد من التعميق في بعض الحالات. مثلا سيلتقي القارئ بحديث أوسع عن الخلفية الكلامية للتوجه الصوتي أو الدلالي خاصة في مقدمة الباب الثاني، في حين توسعنا في آثار الاعتقاد المعتزلي والأشعري حول طبيعة كلام الله: هل هو

أصوات أم معان؟ في إقصاء الأصوات أو الاهتمام بها حسب موقع البلاغي. فإذن، فكتاب: البلاغة العربية، لايغني عن كتاب: الموازنات الصوتية، ولكن يغنيه. كتاب الموازنات كتاب إشكالي أولاً، في حين أن كتاب البلاغة العربية، بناء نسقي مفسّر..

• خصصتم ملحقين متميزين في كتابكم: البلاغة العربية، الملحق الأول، في فصل المقال بين تصوركم لمفهوم البيان، وتصور الدكتور محمد عابد الجابري. فهل هناك توضيحات في هذا الشأن؟! وفي الملحق الثاني، محاولتكم بناء القسم المفقود من كتاب: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، فهل يمكن لهذا البناء أن يؤثر في التصور العام السائد حول بلاغة حازم القرطاجني المعضودة بالمنطق والفلسفة؟!.

• • في الشق الأول من السؤال، يمكن أن أقول أن الأستاذ الجابري ينطلق من تصور عام مبني بالطريقة التي أراد في إطار تحليل العقل العربي. وطبعا البيان بالنسبة إليه هو أحد أضلاع المثلث: المعرفي البرهاني، والنظام المعرفي العرفاني، ثم النظام المعرفي البياني أو المعقول. فمفهوم البيان إذن عند الأستاذ الجابري، هو مفهوم في مقابل مفاهيم أخرى. ولذلك يطلب من هذا المفهوم أيستوعب كل ما يعتبر سمة للعقل العربي [...] فهو يطلب التعميم. أما بالنسبة لي، وليس لدي تصور نظري شخصي للبيان، أنا أصف مفهوم البيان في التراث العربي، وأجدني أمام مفهومين: المفهوم الأول: هو الذي ظهر عند الجاحظ في كتابه: البيان والتبين، كمشروع طموح ولكنه أخفق كمنجز، واستأنفه ابن وهب في إطار نظرية عربية لإنتاج المعرفة ومعالجتها وتداولها. والمفهوم الثاني، عند السكاكي، وهو مفهوم جزئي يتعلق بمفهوم من مفاهيم المحاكاة عند الفلاسفة العرب أي جانب إنتاج الصورة اللغوية ذات البعد الحسي كالتشبيه والاستعارة والتمثيل. وهو ما يعبر عنه اليوم في كثير من المؤلفات بما يقابل Image في الثقافة الغربية. وطبعا هو المفهوم الذي يعرفه الدارسون في التعليم الثانوي والجامعي.

فأنا أنطلق من أن السؤال الذي طرحه الجاحظ وابن وهب ليس هو السؤال الذي طرحه الجرجاني في الأسرار. فالسؤال، عند الجرجاني، هو ما الذي يجعل نصا أحسن من نص آخر؟. أما البيان عند الجاحظ فهو الفهم والإفهام بكل بساطة.

فالسؤالان إذن مختلفان أي أن الاستشهاد للبيان الجاحظي بكلام الجرجاني يهمل هذا الفرق الابستمولوجي، وإلا فإن البحث في أدبية النص موجود كذلك في تراث أرسطو (العقلاني)، وفي تراث جميع الشعوب، هذا هو الفرق.

بالنسبة للشق الثاني من السؤال المتعلق بترميم الجزء المفقود من كتاب حازم القرطاجني؟

لا يمكن الحديث نسقيا، في إطار المشروع والمنجز، عن عمل حازم القرطاجني في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، إلا بتمثل دعامته الرابعة التي هي القسم الأول المفقود. فكما بينت ذلك، هناك تكامل بين أقسام الكتاب. كل قسم يعتبر تكميلا للقسم الآخر، وغياب هذا الجزء من تلك البنية العضوية يحوِّل مشروع حازم إلى قطع غيار أي إلى وجهة نظر في المحاكاة ووجهة نظر في العروض، ووجهة نظر في الأسلوب...

يضيع بغياب ذلك القسم الكبير المفقود المشروع الذي شيده حازم العالم المتشبع بالفلسفة والتراث العربي معا، المشروع الذي سماه بلاغة كلية، وبلاغة معضودة.

وقد اتضح لي أن محاولة الحديث عن حازم القرطاجني بقطع النظر عن ذلك القسم المفقود سيصير نشازا في إطار المنهجية التي بني عليها الكتاب. ولذلك تتبعت كل الإشارات والنصوص والإحالات التي تسعف في إقامة هيكل ذلك الجزء، فتوصلت إلى بناء ذلك القسم بكل تفاصيله بدقة وتوثيق. الأمر الذي يطمئن الباحث إلى تصور هذا البلاغي الكبير...

• أقمتم كتابكم: البلاغة العربية، على مفهومين قرائيين عامين هما: البعد البيداغوجي، والبعد التأويلي، فهل استطعتم أن تنجزوا بهذين المفهومين قراءة جديدة وشاملة للبلاغة العربية؟

• • هناك بعد حجاجي كذلك في الكتاب، إلى جانب البعد البيداغوجي والتأويلي، كأني أبرهن على قضايا مشكوك فيها، أركز أحيانا على التفاصيل (مثل التركيز على مدخل كتاب مفتاح العلوم للسكاكي) مع خطاطة مجسدة تكون حجة على ما أقول [...] فالجانب الحجاجي مهم في جعل الحوار بناء، وأتمنى أن يكون هذا المنهج مسعفا للطلبة الباحثين لينظروا في المؤلفات بنفس الطريقة ليتحقق الحوار [...] وهذا ما يشفع لي في إبعاد بعض الأعمال مثل

عمل ابن رشيق، وعدم التوسع في عمل قدامة بن جعفر، فالأول ليس له طبخة شخصية والثاني ذو طبخة نقدية صرفٍ.

• عودة إلى البعد البيداغوجي في كتابكم، يلاحظ القارئ أنكم وظفتم وسائل بيداغوجية كثيرة، نذكر منها الخطاطات والدوائر، والهوامش وغيرها، فهل يمكن إرجاع هذا الاهتمام بالبعد البيداغوجي إلى نظرية جمالية التلقي التي تحتفي بالقارئ أم هناك مبرر آخر؟.

• • إذا نجحت فيما سعيت إليه، فإن همي الكبير هو ألا أقطع خيط تفكير القارئ بأي كلام زائد ينسيه الموضوع الذي يقرؤه. ولذلك عندما أحس بأن هناك حاجة إلى وصف طويل التجئ إلى الخطاطات أو الدوائر للتسهيل وطي الصفحة. وحين أحس أنه في حاجة إلى معلومات ولكنها تعرقل سير الكتاب أحولها إلى الحاشية. فالقارئ يمكن أن يسير بالسرعة التي يريد. ومن لحظة إلى أخرى يمكن أن ينزل إلى الحاشية ليرى ما فيها، ولن يجد في حالات كثيرة أشياء فضولية. وأنا أتجنب هذا الفضول في حدود تقديري. ولكن أتلافى أن تتحول الكتابة باللغة إلى مجرد كتابة صورية. فهذا مزعج، ولذلك لا أستعمل الرموز إلا نادرا.

• كثيرة هي المفاهيم القرائية التي اعتمدتموها في إنجاز قراءتكم لأصول البلاغة العربية وامتداداتها. فإلى أي حد استطاعت هذه المفاهيم القرائية أن تسعفكم في هذه القراءة؟.

• • لو حاولنا أن نحصي المفاهيم القرائية في الكتاب، سنجد أنها قليلة، لا تخرج عن النسق والبنية والمشروع والمنجز والقارئ والمقروء له، ومفاهيم أخرى تفريعية تدخل في إطار نظرية التلقي. وأعتقد ان هذه المفاهيم ومفاهيم أخرى كالاختيار والتنسيق والمركز، والهامش وتحويل المركز، والتخليص... ضرورية لفهم واستيعاب بنية الكتاب. وكذلك للانتقال من جزء إلى جزء آخر. مثلا هناك مسألة جوهرية، وهي أن الكتاب يمكن أن يقرأ جزئيا أو مجزوءاً، ويمكن قراءته شموليا وذلك من أجل تكوين تصور شمولي. ولا يمكن لذلك أن يغني بعضُه عن بعض لأن التكرار فيه غير وراد. فالكتاب لا يعطي إمكانية التكرار، رغم أنه مقسم إلى قسمين. فخارج الفصول يمكن قراءة الكتاب عموديا في مسارين:

المسار الأول الذي يبدأ من أبي عبيدة إلى الجرجاني، أو من مجاز القرآن إلى دلائل الإعجاز. فإذا قرأ القارئ أبا عبيده فهو لم ينه مهمته، لأن الجرجاني يعود إلى أبي عبيدة، والطريق بينهما محطات: منها ابن جني كمؤول لبعض المصطلحات ومفاهيم اللغويين. وعلى جانب هذا المسار هناك نقاد الشعر والفلاسفة، استعمل الجرجاني أثرهم لتأويل ذلك الرصيد اللغوي وتحويله إلى السؤال البلاغي [...] والمسار الثاني: من الجاحظ إلى حازم القرطاجني. مسار تحليل الخطاب. وهو مسار مر في طريقه بكثير من المحطات من أهمها عمل ابن سنان الخفاجي ففي كتاب: سر الفصاحة مؤثرات قوية لنقد الشعر والفكر الفلسفي.

إذا فكرنا بهذه الطريقة، سنخرج من الكثير من الأسئلة الزائفة التي أهذر فيها عبثا كثير من المداد، وألفت فيه الكتب الضخمة، أي قضية الأثر وجوده من عدمه.

• كتبتم في الطبعة الثانية من ترجمتكم لكتاب: البلاغة والأسلوبية لهنريش بليث مايلي: «أتمنى أن يجد باحثون أكثر حيوية مني في كتابي: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ما يساعد على صياغة حديثة مركزة ودالة انطلاقا من البلاغة العربية بكل مكوناتها ومنجزاتها، صياغة تضاهي صياغة هنريش بليث أو لتجاوزها مستفيدة منها...»

• ماذا تقصدون من هذا الكلام؟ وما هي مكانة مشروع هنريش بليث في إنجاز قراءتكم للبلاغة العربية في أصولها وامتداداتها؟

• • عمل هنريش بليت عمل شديد التركيز هو عبارة عن خطة لا يمكن ملءُ خاناتها إلا من خلال تصور شمولي للبلاغة. وأعتقد أني ساهمت بهذا الكتاب في تحقيق هذا التصور العام في بعديه التداولي والدلالي والتراكمي.

• ساد في أوساط الدارسين البلاغيين، أن البلاغة العربية هي الوليد الشرعي للإعجاز القرآني، وبالتالي، فالبلاغة العربية هي بلاغة إعجاز، في حين أنكم أثبتم وجهة نظر أخرى فهل يمكن أن تلقوا بعض الضوء على هذه القضية؟.

• • من جملة القضايا التي عالجها كتاب: البلاغة العربية، دفع مثل هذا الوهم، ليس فقط من خلال بيان السؤال الذي أدى إليه البحث حول طبيعة النص القرآني وإعجازه.، وهو إيجاد عنوان قار وصندوق بريد للبلاغة العربية

لأول مرة باعتبارها سؤالاً في الشعرية، أو الأدبية بمفهومها الحديث، ولكن أيضا لبيان المسارات الأخرى، غير الإعجازية، ومنها: المسار الشعري، والمسار البياني. والمسار المحاكاتي...

فالتراث البلاغي العربي غني ومتنوع، وإنما اختزل في عصور الانحطاط التي ما تزال مستمرة في هذا المجال إلى اليوم، حيث ما نزال نصر على تدريس وجهة نظر بلاغي واحد هو السكاكي.

• ما دمتم قد أثرتم واقع البلاغة العربية، وكيف اختزلت في وجهة نظر واحدة رسخها السكاكي والذين جاءوا بعده، ألا يمكن أن نتحدث عن معوقات أخرى في الدرس البلاغي العربي في مدارسنا وجامعتنا؟

• • المسألة تهم الجامعة خاصة. في إطار الوضعية السياسية التي عاناها العالم العربي في العقود الخمسة أو الستة الماضية، صارت الجامعة آخر ما يفكر فيه بالنسبة للدولة. ثم تفاقمت الأوضاع بعد النكسة بظهور انكسار تطبعه عودة إلى تقديس التراث أو نفيه. هذه الوضعية التي ما تزال سائدة إلى اليوم. والأصوات التي تقع بين هذه الأصوات يكاد لا يلتفت إليها. فالأمر يحتاج إلى تعاون مع بعض البلاد العربية التي شرعت في تغيير هذا الواقع، وعدم الارتهان- كما كان الحال- بالواقع المعرفي العربي الذي لا يزيد إلا سوءا في بعض المواقع.

لقد حاولت في مقالة: «البلاغة العامة والبلاغات المعممة»، أن أقدم تصورا يسعف الباحثين، وخاصة الطلبة، في فهم ما نقصد بالبلاغة على العموم، لكي تشمل كل ما أشرتم إليه من خلال محورين: محور تخييلي، ومحور تداولي. وهو تقسيم القدماء للكلام إلى شعر وخطابة. ونحن فضلنا التخييل والقدماء اعتبرته صفة للشعر، وذلك طبعا لكي نفرع عنه الشعر والحكي أو السرد لتكون البلاغة كل ما يدخل في التخييل شعرا وسردا وغيرها وكل ما يدخل في المجال التداولي الإقناعي.

فهذا المفهوم الشمولي ضروري

• هناك غائبون في كتابكم: البلاغة العربية، وغيابهم يثير كثيرا من التساؤلات ويتعلق الأمر على سبيل المثال بابن رشيق والسجلماسي والافراني وابن البناء المراكشي وغيرهم، هل هناك مبرر لهذا الغياب؟

• • كما ذكرت في جواب سابق، فالمنهج الذي اتبعناه، هو قراءة المشاريع والتركيز على مؤلفات أو مجموعة كتب، والاقتصار على المشاريع الأكثر فعالية. فهناك غياب ابن رشيق، وغيابُه نابعٌ من كونه لا يصدر عن مشروع. الافراني يدخل في إطار البلاغة التطبيقية وليس لديه نظرية شاملة في البلاغة. أما السجلماسي فقد دخل في إطار تصور البديع، وهذا موقعه. وهو أول من لمس مشكل ضياع نسق البديع فحاول إعادته إلى النظام أو إعادة النظام إليه.

فاللحظات الكبرى، كما هو معلوم، هي مسارات للبلاغة العربية، ومداخلها هي الشعر والنحو والبديع واللغة والنص القرآني، وتأويل الغريب والخصومات الأدبية... كما أن هناك البيان كنظرية للمعرفة، ثم قراءة العرب للتراث اليوناني... كلها مصادر أخذت أعلامها الذين بسطوا ظلهم على غيرهم، حتى قدامة بن جعفر يستحق أكثر مما أعطيناه، ولكنه مزاحَم في موقعه، بصاحب البديع ابن المعتز، والعسكري والسجلماسي وابن منقذ... بالنسبة للامتدادات، فالحقيقة أن تخليص خطاطة الجرجاني كان صعبا، يتطلب حيزا أكبر مما سمح به حجم الكتاب وتوازن مواده. وكذلك الأمر بالنسبة لحازم القرطاجني والسكاكي، ولذلك فضلنا أن نعطي فلسفة الرجلين وخطهما العام مقدمين بذلك مدخلا منهاجيا لقراءة نسقية دالة لعملهما.

• وما هي المهام المتأخرة والمنتظرات المتوقعة. هل هناك قراءة مرتقبة أم أن الأمر رهين بالمستجدات المنهاجية والنظرية؟.

• • كنت شرعت في تخطيط «مداخل لقراءة الشعر العربي»، بل قطعت أشواطا في إنجازه غير أن النص الخطابي الحديث فرض نفسه تبعا للحركية القوية التي عرفها مجال التواصل والحوار. وقد تجمعت لدي مواد، بعضها منشور في الصحافة وبعضها في الطريق، وقد رتبتها في صيغة كتاب سيكون توأما لكتاب: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مع تركيز اللاحق على الإعنات والمغالطة في مقامات الأخذ والعطاء[347].

---

347 ـ صدر بعنوان: دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإعنات والمغالطة، مساهمة في تخليق الخطاب. إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، وفي نفس الاتجاه صدر كتاب: منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين. جمعية وادي الحجاج للثقافة والتنمية، بالدار البيضاء 2009.

- III -

تخليق الخطاب

دائرة الحوار ومزالق العنف[348]

بعد التقديم والترحيب والتعريف بالمنجزات جاء السؤال الأول:

• لماذا الاهتمام بالدرس البلاغي في المغرب، الآن؟

• • صحيح: «الآن» [2002]. هذا سؤال ينبغي طرحه، لكن قبل الجواب عنه ربما يحسن أن نعرِّف البلاغة؛ لأنه قد يتبادر إلى الذهن أن ما نقصده هو مجرد الدروس التي تُعطى في المستويات التعليمية: لا، «البلاغة هي علم تحليل الخطاب». لنتفق على هذا أولا،

ولنتفق على نقطة أخرى ثانية، وهي أننا في هذه الجلسة نتجه إلى الخطاب الإقناعي، وهو أحد فروع البلاغة بمعناها العام والشامل في المفهوم الحديث، وكذلك في المفهوم القديم الذي ضاع؛ هكذا كان عندنا في التراث العربي. فإذن حين نتحدث عن بلاغة الخطاب الإقناعي في الحقيقة نتوجه إلى الخطابة مباشرة، أي أننا ندرُسُ الخطابة.

والخطابة هي أيضا تحتاج إلى تعريف، وهي: كل كلام يرسله طرف إلى طرف آخر من أجل التأثير والإقناع. فهذه هي الإشكالية التي تُفْهِمُ، لماذا نهتم اليوم بالبلاغة؛ بلاغةِ الحوار، وبلاغة الخطابِ الإقناعي: لأننا قد دخلنا في دورة من تاريخنا السياسي والفكري هي دورة الحوَار. ونحاول أن نغلِّب الحوار على الأساليب الأخرى للخطاب، وهو نفس الشيء الذي وقع عند اليونان وعند الغربيين.

348ـ حوار أجراه الأستاذ نور الدين أفاية في إطار البرنامج التلفزي: مدارات. وأذاعته القناة التلفزية المغربية الأولى في صيف 2001. (مباشر).

• عموما عندما نسمع الدرس البلاغي والدراسات البلاغية نفهم كأن المسألة تهم المتخصصين، ما هي الإفادة التي يمكن للإنسان أن يستخلصها أو يستفيد منها في الكلام المتداول في المغرب؟

• • صحيح، البلاغة هي شأن المتخصصين في مستوى إنتاج الأفكار والنظريات، لأنها ـ كما قال أحد العلماء العرب (أندلسي مغاربي) ـ علمٌ كليٌّ يعتمد على علوم كثيرة، ونفس الشيء قاله أرسطو؛ فهي تحتاج إلى المنطق والأخلاق واللغة وعلم النفس، لابد من كلِّ هذه العلوم لكي يكون الشخص بلاغيا بهذا المفهوم الذي يتناول العلاقة بين الناس في تخاطبهم، ولكن البلاغة في المستوى البيداغوجي والوظيفي والتعليمي هي أبسط العلوم وأسهلها، فيمكن أن تُمارَس وتعلَّم ابتداء من أول ما يتلقى الإنسان الخطاب، من الابتدائي إلى الجامعة. وأعتقد أننا في حاجة إلى هذا الدرس؛ وهو درس الحجاج، لتكوين فكر نقدي، ومعرفة قواعد المناقشة والتخاطب وأخلاقيتهما، وإقناع الآخر بالحجة وبالتي هي أحسن؛ فهذا النوع من التربية سيغنينا عن أساليب أخرى يلجأ إليها المتخاطبون، وقد يلجأ إليها السياسيون أيضا.

• تحدثت في مقال لك كان قد نشر منذ شهور بعنوان: «البلاغة العامة والبلاغة المعممة» عن تخليق البلاغة. هل معنى هذا أننا نعيش «سيبة» [فوضى] كلامية في المغرب إلى درجة أننا في حاجة إلى تخليق؟

• • يمكن، تجاوزاً، استعمالُ كلمة «السيبة» للتشخيص، فالبلاغة في الحقيقة تشتغل بين السيبة الكلامية وبين القمع. وقد سبق لي في مقال في الثمانينيات أن تحدثت عن الإقماع والإقناع والغواية؛ فربما تدخل هذه «السيبة» في الغواية بالمعنى السيء.

• ما هي الغواية؟

• • الغواية هي التغرير بالآخرين وتصيدهم وإيقاعهم في الغلط. فهذا النوع من الخطابة التي سميتها «السيبة» تدخل في هذا الإطار، وهي عادة ما تكون مبرِّرا للقمع؛ حيث تتدخل السلطة، فتقول: ما دمتم لا تستطيعون تنظيم كلامكم فمن الأحسن أن تسكتوا. فالبلاغة تأتي لتجاوز هذه الذريعة، إذ بناء على ما هو متوافق عليه اجتماعيا توضع مجموعة من الضوابط والقوانين للتخاطب المعقول الذي يسير بالمجتمع في الاتجاه الإيجابي. والحقيقة أن أخشى ما أخشاه أن يَشْرَقَ

العطشانُ بالماء البارد، كما يقال، لأن الناس مارسوا رقابة ذاتية أكثر من اللازم خلال عقود ماضية، ثم انطلق هذا المسلسل الذي نتمنَّى منهُ كل خير، ولكن أصبح الكلام يتجاوز الحدود في الكثير من المناسبات.

• هذا ما تلاحظونه؟

• • هذا ما ألاحظه، ويؤلمني، وكنت جعلت هذا الجانب الأخلاقي استهلالا لمقالات عديدة؛ منها سلسلة من عشر مقالات كلها تبدأ بضرورة تخليق الخطاب خوفا من القمع[349].

• يلاحظ الناس، ومنهم مجموعة من الباحثين والأساتذة ورجال السياسة أن بعضَ الألفاظ تتكرر فيما يمكن تسميته ب»السوق الكلامي» في المغرب، ومنها «الحوار». هل تتصور، باعتبارك مختصّاً في المجال، أن هناك فهما مشتركا وتعاملا واضحا مع هذا المصطلح؟

• • مادام التوافقُ قد انتهى إلى الخيار الديمقراطي فقد أصبحت الآلية هي الحوار، ولكن «الحوار» الآن يستعمل من طرف من لا يؤمن به، ومن لا يفهمه، ومن يتذرَّع به للوصول إلى الاستبداد. فهو الآن عُملةٌ مثل الجهاد والثورة وجميع المفاتيح التي كانت تستعمل فيما قبل بنفس القيمة، ولكن ينبغي الانتباه إلى الزيف، ينبغي للبلاغة التمسك بالمفهوم الحقيقي للحوار. ينبغي أن يساهم في تعريف الحوار وكشف كل صور الزيف. فهُم لا يستطيعون أن يخرجوا عن التعريف إذا فُرضَ علمياً، لأن هذه البلاغة لها تاريخ منذ أرسطو إلى اليوم.

فلنتفقْ إذن على أن الحوار يقتضي «الاختلاف»، والحوار يقتضي «تنسيب الحقيقة»، لا يجوز لشخصٍ يدَّعي الحقيقة المطلقة أن يقول: «سأحاور».

• لهذا تتكلم عن الحوار داخل ما تسميه: دائرة الحوار.

• • الحوار لا يمكن أن يجري إلا في دائرة الممكن؛ فمن أتى بعلم مطلق أو فكر مطلق، أو اعتقاد مطلق، أو «زرواطة» مطلقة، ـ والزرواطة كناية عن القمع ـ فلا حوارَ معه، فلابد للشخص الذي يحاور أن يتفق على أن الحقيقة النافعة والمعقولة

349ـ انظر كتاب: دائرة الحوار ومزالق العنف.

ـ وليست هناك حقيقة مُطلقة في تدبير الشأن العام والحياة والمجتمع والمدنية ـ توجد في مسافة بين طرفين أو عدة أطراف. وهي تُحدَّد بالتوافق في منطقة من تلك المناطق. ويمكن العمل عليها. ويحتاج الناس إلى أن يلبسوا أقنعة لكي يتفاهموا؛ معنى ذلك أن يضعوا قناعاتهم المطلقة بين قوسين في انتظار إطلاق المسلسل. وهذان القوسان هما اللذان لا يوجدان لدينا نحن.

• تقول إن الحوار يقع داخل دائرة الممكن، لكن متى تحصل انزلاقات؟

• • تقع الانزلاقات إما داخل الدائرة أو خارجها. مثلا يمكن للحوار أن يكون مناظرةً بين حزب وحزبٍ، بين باطرونة ونقابة...الخ؛ يعني أن هؤلاء أطراف كل واحد يحاول أن يغلب وجهة نظره في إطار ما يمكن انتازعه، ولكن يمكن أن يلجأوا إلى التهديد بالقمع أو الإضراب اللا محدود، أو تدخل قوة عمومية. في هذه الحالة مثلا ننزلق من دائرة إلى دائرة؛ ومن الدائرة إلى خارجها. ويمكن لأحد ما أن يأتي ويلقي خطبةً فيها وعودٌ وأكاذيب وأشياء وهمية فيخرج من دائرة المناظرة وحوارِ النِّد للند إلى دائرة الضحك على الآخرين أي الغواية والاستهواء.

• لهذا تعتبر أن هناك ثلاثة أنواع من الحوار، هي: المشاورة أولا، والمناظرة ثانيا، والاستهواء والمشاحنة ثالثا. فما هو الفرق بين هذه المستويات الثلاث؛ إذ يمكن أن تختلط فيما بينها؟

• • الفروق نسبية. كان أرسطو في تصنيفه الشهير الذي انتشر في أنحاء العالم عبر التاريخ قد قسم البلاغة (الإقناعية) إلى قضائية مشاجرية، وتشاورية سياسية، واحتفالية جماهيرية. وقد أدخلنا نحن كثيرا من التعديلات اعتمادا على قراءتنا أيضا لفن المناظرة عند المسلمين، وانطلاقا من الواقع الذي نعيش فيه. فبعد أن حللنا مجموعة من الممارسات الخطابية تبين أن الحوار إما أن يكون تشاركيّاً من أجل التعاون لصياغة موقف، كما يقع داخل حزب منسجم؛ تجلس أطرافه وتكوِّن موقفا تعاونيا من أجل مُصادمةِ مواقفَ أخرى، هذا نسميه «تشاورًا»، لأن الهدف والغرض هو تكوين آلية للحوَار مع الآخرين فيكون فيه تعاون. وبدايته اتخاذ مستشارين؛ مثلما يتخذ وزير أول مستشارين في كل ميدان، ثم هؤلاء المستشارون يمكن أن يصبحوا محاورين، لأنه المدبر سيقترح عليهم التقنين الممكن لتصريف الأفكار التي يأتون بها، فيحاورونه في مقترحه التصريفي (فيما

إذا كان سيفسد المغزى) فيرد عليهم، فيتطور الحوار بينهم، ويصبحون كأنهم مناظرون له، فهم مشاورون ومناظرون، إلا إذا كان مستبدا فحينئذ سيتجاوزهم؛ يسمع منهم ثم يصرفهم. فالمناظرة هي مغالبة، (إلا في العلْم حيث تكون تعاونا من أجل الحقيقة). ففي المجال الاجتماعي يحمل كل طرف نسقا ويريد أن يغلبه، ولكنه لحسه الحضاري، ولمعرفته بالآخرين وبتصوراتهم المخالفة ولاقتناعه بضرورة التعاون يضع قناعته بين قوسين ويبدأ في تصريفها مع الآخرين.

• ولكنها تعتمد على النظر وعلى العقل وعلى المحاججة وعلى الإقناع...

•• تعتمد على المنطق والمنفعة العامة؛ لأن مجال الحوار هو المنفعة. والمنافع سلم أخلاقي، (فمنفعة الجماعية مقدمة على غيرها ..الخ)، سلم لا يتسع المقام لتفصيله.

والنوع الثالث هو الاستهواء الذي يلجأ فيه المتحدث إلى استمالة الناس، أو إرهابهم. لذلك سميناه استهواء، من «الهوى»، غايته الاستمالة أو الضغط والابتزاز. ويتم ذلك بطريقين: طريق شعري بواسطة صور جميلة وأشياء أخرى فيها إغراءٌ وتعطيلٌ للحاسة النقدية عند الآخرين، ولا يتسع المقام لذكر أمثلة. هناك أمثلة في الواقع الراهن رائجة بين الأطراف المتصارعة في الأحزاب السياسية، وهي مرصودة للتخدير: استعارات سوف أكتب عنها لاحقا. وإذا تجاوز الإرهاب حده تحول إلى صراخ في القاعة. أو التلويح بآلة حادة أو كرسي... قد يرى بعض الناس أن هذا الجانب المغالطي والشعري ليس حوارًا؟ والأمر بخلاف ذلك فالحضارة تقتضيه دائما، لأن البديل عنه هو الحَجْر؛ ينبغي أن يدافع الناس عن أنفسهم، ما دام هذا الخيار قائما (خيار مقاومة الزيف سلميا).

• الأستاذ العمري، يشهد المغرب أحيانا بعض لحظات الالتباس الخطابي أو بعض لحظات الاحتقان الثقافي، بالخصوص عندما ترفع شعارات من نوع الأصالة، التبعية، الهوية، الاغتراب.. إلخ، مما ينتج أحيانا فيما بين الأطراف المتناظرة والمتصارعة نوعا من تمجيد الذات وشيطنة الآخر؛ أي الاستخفاف به، والتنقيص من قيمته، إلى آخره. باعتبارك مراقبا لما يقال من كلام بالمغرب كيف تتم صياغة مثل هذا النوع من الخطابات؟

•• تتعلق المسألة بمرحلة انتقالية.. مثل هذه الدعاوى يمكن أن تطرح في أي مجتمع، فحين تطرح من باب الهامش والتطرُّف لا يُعبأ بها، إذ يبقى المركز سليما،

لكنها حين تدخل إلى المركز تصبح خطيرة تهدد مستقبل أي بلد. وهي دليل على أن الخطاب الآخر (الذي يدخل في مفاهيم الديمقراطية والاختلاف والحوار واحترام الآخر وتقديم المنفعة العامة) مُعطل أو غير فاعل؛ لذا إذا فُعِّل الحوار تصبح الأقلياتُ ذاتَ خصوصيات، ولا تُشوشُ على المجتمع، ولكن الخطير الذي نلاحظه اليوم، مع غلبة مظاهر الإقصاء، ونقولها هكذا: «الإقصاء» لبعض الهويات، لبعض الحساسيات، يصبح ذلك الخطاب متجها إلى المركز. وبالنسبة للمغرب أيضا .. فيه هذه الحساسيات التي تتعلق بامتدادات شرقية وغربية؛ نحن كأننا واقعون في منعرج نهر تتوقف فيه كل المحمولات من أي جهة. ويحتاج فرزها إلى جهد كبير وانتباه وتربية، وإذا دخلت المركز ـ لا قدر الله ـ سوف تكون كارثة.

• نلاحظ خلال السنوات الأخيرة ما يمكن تسميته ازدهار بعض الكتابات التي تلتقي حول الإثارة دون اعتبار للحقيقة والإنصاف. ما تأثير مثل هذه الكتابات على التربية السياسية للمواطن؟ أي ما هو دورها وتأثيرها على الاختيارات وعلى التربية السياسية للإنسان؟

• • مع الأسف، في الوقت الذي نتحدث فيه عن الديمقراطية ـ ومعنى الديمقراطية الاحتكام إلى الجمهور ـ نتجه إلى إفساد الجمهور؛ نقع فيما قاله أرسطو: نعوج المسطرة ونحاول أن نرسم بها خطا مستقيما، وهو أمر مستحيل. فالجمهور هو مثل القاضي، بالنسبة لهذا الخطاب، ولذلك لا يمكن أن تقوم ديمقراطية مع هذا النوع من الخطاب، ولا يمكن أن ندعي الحداثة ونحن نفسد الجمهور الذي سنحتكم إليه. وكذلك من المؤسف، في نقطة ثانية، أن هذا النوع من الخطاب الذي ذكرته لم يعد «واقفا» عند الصحافة الصفراء الهامشية التي يصنفها الناس في صحافة الرصيف، بل دخل إلى الصحافة الحزبية، وانتقل من الصحافة الحزبية إلى صحافة بديلة، تطرح الآن في السوق، هي الصحافة المستقلة التي يقف وراءها مثقفون وأناس يدافعون عن الحداثة ويقعون مع ذلك في نفس هذا المنزلق. وهذا هو الذي يؤلمني في الحقيقة. أما أن توجد صحافة هامشية، صحافة الرصيف ـ كما ذكرت ـ فهذا ممكن.

• في هذا المناخ من التهويل والتقويل الذي مضمونه سوء النية أو سوء التقدير أو هما معا، هل الدعوة إلى تخليق البلاغة كافية للحد من هذا النوع من الانزلاقات؟

• • تخليق الخطاب عن طريق بلاغة الإقناع، هذا عنصر أساسي ينبغي للدولة ووزارة التعليم والوزارات المعنية بالشباب أن تفكر فيه، وأن تضع له البرامج. فلابد أن نعطي للناس ثقافة للتمييز. فهذا نوع من رفع الأمية. صحيح أن الأمية الكتابية تستحق كل العناية، ولكن كذلك القدرة على التمييز، والقدرة على فك الخطاب أساسية.

بعد ذلك أنا أجعل أعراض الناس وسمعتهم في مقام المال والدم، الأعراض مثل الدماء والأموال. ينبغي لذلك أن تكون الكلمة للقضاء حين تصل الأمور إلى حدود المس بأعراض الناس، ينبغي للعدالة أن تضبط الجميع ؛ لأنني أخشى يوما من الأيام أن تعم أصناف من التجاوزات مما نقرأه الآن؛ تجاوزات أخجل من أن أسمعها، يقولها شخص عن آخر له كيان جسدي وأبناء وبانتماء اجتماعي.

• هذا نوع من الانزلاقات غير المقبولة.

• • هذا مجال ينبغي أن يتحدث فيه القضاء.

• هل تنظر إلى الأمر كبلاغي متخصص أم كمواطن له أخلاق؟ يعني إلى أي حد هنا نوع من النزعة المثالية في النظر إلى مثل هذه الأمور؟

• • قدَّمتُ أخيرا محاضرة أمام الأساتذة في الدار البيضاء حول الكتاب المدرسي، وقلت لهم سأخاطبكم كباحث، ولكن إذا وجدتم عندي بعض الألفاظ الوجدانية فاعذروني لأنني أبٌ ومواطن، وهذا مشترك بين الكتاب المدرسي والخطاب الإقناعي. ولا يمكن للمرء أن يكون فيه باحثا فقط، ولكن لابد أن يكون فيه أبا وأخا للآخرين ومواطنا غيورا كذلك على مصلحة بلده، ولذلك الجانبُ التقني لا يكفي، بل لابد أن تكون هناك عاطفة ولابد أن تكون هناك أخلاق، والمجتمع عنده الوسائل التمهيدية التي هي التعليم والتخليق، وعنده الوسائل الردعية، فمن لا يرتدع بهذه يرتدع بهذه.

• نعود إلى هذه العلاقة الموجودة بين البلاغة والسياسة، أو بين العلم وبين الرأي، البلاغة علم الاختلاف بالخصوص في الوسط الديمقراطي، ألا يمكن أن يؤدي تحليل الخطاب السياسي إلى خلط من طرف المحلل أو حتى للإنسان الذي يتقبل هذا التحليل فيصبح التحليل البلاغي طريقاً لتناول السياسي؟

• • هذا هو السؤال الحقيقي الذي ينبغي أن يتفاهم عليه الناس اليوم لكي يقرروا إذا ما كانوا سيتخاطبون بطريقة معقولة أو يفضلون الفوضى والتدليس؛ لأنه في بعض الأحيان حين تكتب وتذكر اسم شخص أو أمثلة من كلامه تصنف كأنك خصم له.

مثلا حين يقول أحدهم: «هذا الكتاب لا يوجد فيه كذا وكذا من آيات الله وكتابه»، ثم يأتي في آخر الندوة ويقول: «أنا لم أقرأ هذا الكتاب»[350]. فمن المقبول علميا أن أقول له في تلك اللحظة: أولا، لكي تعرف أنه لم يذكر كذا وكذا! يقتضي الأمر أنك قد قرأته، ونظرا لأنك لم تقرأه فهذا الكلام باطل وفيه تدليس، وباعتبارك «شيخا» فإنما تستغل سذاجة الآخرين، وهذا عيب.

فكيف يقال لي: إنك تتخذ موقفا من هذا! لا، أنا الآن ما أزال في مستوى العلم؛ وإذا لم نتفق على أن تكون عندنا قواعد أخلاقية وقواعد منطقية فهذا! يكسر المنطق... وهذا التكسير معروف في الخطابة عند أرسطو، وفي المناظرة عند المسلمين، وفي نظرية الحجاج والتداولية الحديثة. هذه قاعدة معروفة. إن معرفة محتوى الشيء يقتضي أولا أن يكون هذا الشيء بين أيدينا. نحن لم نره ونعرف محتواه! هذه المسألة تطرح الآن بشكل جدي.

حقيقة أنني قد أختار أمثلة دون أخرى، هذا ربما أنا أيضا أحسه، فأنا أحرج كثيرا في ذكر أمثلة من كلام أشخاص فآخذها من كلام أشخاص آخرين. ففي مستوى الاختيار يمكن أن يقع نوع من الميل، ولكن أنا أيضا لا ألام. يمكن لمن يناصر الفكرة الأخرى أن يأخذ الأمثلة التي لم آخذها أنا. وربما أجد أمثلة تسعفني أكثر من غيرها في إبراز العيب فآخذها. فيقال لماذا لم تأخذ أمثلة من فلان؟ إذن يجب التمييز بين البلاغة وبين السياسة؟ ما بين الرأي والعلم، فأن أذكر أن شخصا ما متهافتٌ في آرائه ومتناقض في منطق كلامه، هذا لا يعني أنني أتخذ أي موقف فكري منه، فليخترْ هو أي اتجاه شاء.

خاتمة. كل هذا في اتجاه ما تسميه تخليق البلاغة وتخليق الخطاب، وتأسيس خطاب إقناعي مبني على قواعد وضوابط، الخ.

الأستاذ العمري نشكرك على هذه الأفكار المفيدة جدا. إن حرية الكلام تفترض أيضا مسؤولية عن الكلام الذي يقال، كل حرية إلا وتقتضي مسؤولية.

350ـ الإشارة هنا إلى حديث للقرضاوي بمناسبة خطة إدماج المرأة في التنمية.

- IV -

بلاغة الخطاب السياسي المغربي[351]

• ابتداءً ماذا يمكن للقارئ العادي أن يفهم من «بلاغة السياسة» أو «بلاغة الخطاب السياسي»؟

• • للبلاغة، بشكل مبسط، معنيان: هي، من جهة، الكلام «الإنشائي»، أي المصنوع من أجل التجميل والإعجاب (الشعر)، أو الاستمالة والإقناع (الخطابة)، نَصِفه فنقول: «كلام بليغ»، ونسمي أصحابه بلغاء، وهي، من جهة ثانية، الحديثُ العلمي الذي يصف آليات اشتغال هذا الكلام الإنشائي، نسمي المشتغلين بهذا الكلام بلاغيين. فهناك إذن كلام بليغ (خطبة بليغة مثلا)، وكلام بلاغي (الحديث عن بلاغة تلك الخطبة، كما نفعل الآن). والحديث في المعنى الثاني يستدعي المعنى الأول ويلتبس به، فـ«الوصف» يستحضر «الإنشاء» لا محالة. وبلاغة الخطاب السياسي هي جزء من بلاغة الإقناع. والإقناع قائم على الحجاج، وهو مستويات. وكان أرسطو أول من قسم الخطابة إلى سياسية استشارية وقضائية «مشاجرية»، وتقييمية استهوائية قوامها التحسين والتقبيح، وسمي كتابه: فن الخطابة. وظل هذا التقسيم يفرضُ نفسه برغم كل التعديلات التي أدخلت عليه.

• هل للخطاب البليغ (ومنه الخطاب السياسي) صفةٌ تميزه عن غيره من الخطابات؟

---

351. أجرى هذ الحوار المرحوم المختار الزياني. ونشر بجريدة الاتحاد الاشتراكي. بتاريخ 10.11.2010

• • الخطاب البلاغي خطابٌ إنشائي، أي مبني، ولكنه «رخو»، لأنه قائم على الاحتمال، وهدفُه التأثير في المتلقي. ومعنى ذلك أنه يغطي كل المسافة الممتدة بين الهَذَرُ وسُخْف الكلام (غير المبني)، وبين الخطاب العلمي «الصلب» القائم على الضرورة الرياضية والتجريبية المخبرية. فكُلَّما تدخلتْ أوضاعُ الإنسان ورغباتُه وهواجسه في المعادلة كلما تدخلت البلاغة لتحقيق التواصل وتيسير الفهم والتفاهم، البيان والتبيين.

• كيف يتجلى هذا «الاحتمال» البلاغي في الخطاب السياسي بالتحديد؟

• • هذا يجرنا إلى تعريف الشق الثاني من مكونات السؤال الأول: السياسة، في مفهومها الحديث، مجال للحوار من أجل تدبير الشؤون المدنية، حوار بين استراتيجيات تمثلها أحزاب، إذ لا سياسة في العصر الحديث دون أحزاب. وحين نتحدث عن الحوار فنحن نتحدث ضرورة عن مجال ترتيب القيم: من الأحسن إلى الحسن إلى الأقل قبحا، ومن الأنفع إلى النافع إلى الأقل ضررا، ومن الأعدل إلى العادل إلى الأقل ظلما...الخ. تُرتب هذه القيم في إطار الإكراهات التي يفرضها الواقع. نحن لا نتحاور حيث يمكن الوصول إلى يقين، كما في الموازين والمقاسات والأعداد. حين نختلف في هذا المواضع نقوم بالاحتكام إلى الجرام (الكرام) والمتر والأعداد فنفُض النزاعِ. ولا تنسَ أننا نتحدث عن عالم العقلاء. ولكن حين أقول لك، مثلا، إن «الأعدل» هو توزيع الثروات على العمال من أجل رفع مستوى الإنسان، أي نخوض في تدبير الحياة المدنية، فبوسعك أن ترد علي بأن الأنفع هو تجميع الثروة في أيدي المستثمرين من أجل القيام بمشاريع كبرى تنفع الجميع. وبعد حوار ننتقل إلى تبني النافع أو الأخف ضررا بالنسبة للطرفين: يُعتنى بتجميع الثروة في الحدود التي لا تضيع فيها حقوق العمال، وتحترم حقوق العمال في الحدود التي لا تبدد رأس المال وتؤدي إلى إغلاق المصنع. فالمسألة كانت في تقاطب وتعارض بين مصالح الطرفين، ثم آلت إلى موقع احتمالي في المسافة بينهما، وهو موقع محتمل تحدده قوة الطرفين في التفاوض، وتبعا للبيئة السياسية التي يتفاوضان فيها: هل الحزب الحاكم مثلا هو الحزب الاشتراكي أم الحزب الليبرالي، وهل الظرفية الاقتصادية نشيطة أم راكدة، أرباح أم خسائر... كل شيء محتمل.

• ما هي الظروف التي تسمح بحوار سياسي بناء؟

• • هي بكل بساطة «ظروف توازن السُّلط»، ظروف الحرية والمسؤولية وسيادة القانون، حين يكون الفيتو بيد أحد الطرفين تكون ظروف الحوار صعبة أو عبثية.. القداسة فيتو سياسي.....

• هل توفرت للخطاب السياسي في المغرب شروط ظهور بلاغة إقناعية تستوفي شروط البلاغة الجديدة؟

• • «البلاغة الجديدة» في مجال الإقناع بلاغة تعاونية، هي أميلُ إلى المنطق والواقعية، تقاوم هيمنة التأثير السيكولوجي، وتحاول التقليل منه، وتعادي السفسطة، ولذلك تنتسب إلى منطق القيم؛ هو منطق طبيعي احتمالي ولكنه أميل إلى مخاطبة المستمع الكوني حيث يُهيمن العقل. والسائد في الخطاب السياسي المغربي الحالي هو مبدأ «التقية» والإلغاز نظرا لهيمنة السُّلط والمقدسات...

• هل يمكن تقديم مثال يوضح ذلك؟

• • بالأمس، مثلا، سمعتُ السيد حميد شباط، وهو حاليا زعيم سياسي استقلالي مؤثر، يقول بأن حزب الأصالة والمعاصرة يُعارض حكومةَ صاحب الجلالة، فهو ضد صاحب الجلالة، ويستغرب الرجل، في شيء من التغابي، كيف أن جميع الأحزاب التي صنعتها الإدارة المغربية كانت مرصودة لمحاربة المعارضة إلا هذا الحزب، فهو يعارض الحكومة.

حين تسمعُ هذه الكلام ستقع في حيرة بين منطوقه وبين ما تعرفه علم اليقين من أن جميع المآخذات والغمز واللمز الموجه إلى هذا الحزب (من الاشتراكيين والإسلاميين على حد سواء) يتجه إلى علاقة «صاحبه» السيد عالي الهمة بصاحب الجلالة، حيث يشار إليه، في الغالب، بصفة «صديق الملك»! وقيل عن حزبه: حزب صديق الملك. وقيل أيضا بأن المقصود بالعملية هو خلق حزب للنظام على نحو ما وقع في مصر وتونس.

فما الذي يريد السيد شباط أن يعبر عنه بهذه الطريقة الملتوية التي تترك المستمع العادي في حيرة؟ كيف يكون الحزب مصنوعا إداريا ومُضاداً للحكومة (للإدارة)! هنا يقدم شباط تخريجة لهذه الورطة الكلامية، فهو يُفرق بين حكومة سياسية وحكومة إدارية هي الفاعلة. وحزب الأصالة ينتمي إلى الحكومة الإدارية،

كما ينتمي إليها أيضا وزير المالية الذي سيشن شباط إضرابا ضد سياسته لا على سياسة الحكومة التي يرأسها الأمين العام لحزب الاستقلال! وإذا كانت هذه التخريجة حَلّتْ مشكلا في الظاهر فقد خلقت مشكلا آخر: فإذا كانت «الحكومة السياسية» هي حكومة صاحب الجلالة، فلِمن تُنسبُ الحكومة الإدارية، هذه الحكومة التي يديرها مستشارو الملك وينتمي إليها صديقه؟ إنها متاهةُ ناتجة عن العجز عن تسمية الأشياء بأسمائها. وهذا ما يسميه الفاسيون: «التقلاز من تحت الجلابة». إنه علامة على بيئة خطابية غير سليمة. وهذا موضوع يمكن أن يؤلف فيه كتاب ضخم ممتع.

• من المعلوم في البلاغة أن السلطة موضع من مواضع الحجة، فأين الإشكال؟

• • صحيح، السلطة حجة: كل مختص أو صاحب صنعة يُعتبر حُجة في تخصصه، فهي مبررة بالمعرفة والخبرة، وكل ورع ومصلح يعتبر حجة بورعه وصلاحه. .الخ. ولكن المعرفة تتغير، والورع يُنتحل، والسُّلط تبقى ثابتة فتتحول إلى عائق. ولذلك فهي سلاح ذو حدين لا بد من معرفة كيفية استعماله، وإلا فإن الأرض لن تدور، وسيبقى الإنسان يبيع أخاه في سوق النخاسة، والمرأة ستُرد إلى «بيت الطاعة» خانعة بحكم قضائي. .الخ. لا بد أن تدخل السُّلَط في حوار مع العقل والواقع وإلا عرقلت مسار التاريخ، وهو لن يرحمها.

يندر أن يتطرق محاورٌ من الحكومة أو المعارضة في قضية خلافية دون أن يُقحم خطابا ملكيا أو نصا دينيا في حجاجه. هنا يُسد باب الاختلاف ويَختلط الحابل بالنابل، ويتحلل الجميع من المسؤولية. والحال أن السياسة ممارسة خلافية؛ تمارسها وجهات نظر مختلفة تترجمها الأحزاب، كما سبق. الخطاب السياسي فضاء للقاء والاستقطاب، ولذلك فهو خطاب هوياتي خاص بكل حزبٍ، هو كالوطن له حدود يمكن أن تلامس أوطانا أخرى ولكنها لا تتعداها، وإلاّ أثار ذلك التعدي نزاعا. أعتقد أن كتابي: منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين، ألقى الضوء على جوانب مهمة من الموضوع.

• ماهي، في نظرك، الحجج العامة الأخرى التي يستعملها الخطباء السياسيون المغاربة، أو فئات منهم؟

• • كثيرة، منها ما أسميه «حجة التسوية»، وهي حجة قائمة على قياس فاسد، مبنية على القولة المشهورة: «إذا عَمَّتْ هانَتْ» (المقصود البلية أو المصيبة). تستعمل هذه الحجة عادة من طرف من بيده السلطة والمسؤولية، من اليسار واليمين: استُعملتْ من طرف الأحزاب الإدارية زمنا طويلا، ثم صارت تُستعمل اليوم من طرف اليسار القديم الحاكم. فحين يواجَه أي مَسؤول بقضية الرشوة أو العهارة أو انعدام الأمن أو السطو على المال العام...الخ، يبدأ بالرد ــ كمحاولة أولية لتكسير أمواج الاتهام ــ قائلا بأن هذه العيوب موجودة في كل المجتمعات، في جميع أنحاء العالم، وفي كل الأزمنة، حتى في الدول المتقدمة. وفي هذه العبارة الأخيرة (الدول المتقدمة) تتركز قوة الحجة، ولكنها لا تعدو أن تكون مغالطة فجة، وذلك حين يُسوى بين القاعدة والاستثناء، ولا قياس مع الفارق: فسادُنا بنيةٌ وقاعدةٌ نعيشُ بها، وفسادهم شذوذ وحدث عارض يؤكدُ صلاح أحوالهم. ولذلك تستحقُّ هذه الحجة أن تُسمى «حجة القاضي الفاسد» تبعا لقول الشاعر:

قال القاضي لما عُوتبْ ما في الدنيا غير مذنب

ومن المقايسات التي لم تراع الفارق ما سمعتُه أخيراً من أستاذ جامعي محسوب على البحث العلمي (من أحد الأحزاب الإدارية القديمة) يقارن بين «السُّلط الكبيرة» المتاحة للرئيس الفرنسي وسلط الملك، واستغربتُ لأن أي واحد من الصحفيين الجالسين أمامه لم يمزق ملابسه. فمن المعلوم أن الفرق بين النظام الديموقراطي وغيره لا يكمن في أن النظام الديموقراطي لا يشكو من أي نقص، بل يكمن في كونه مُزوَّدا بآليات إصلاحِ أيِّ خلل يطرأ عليه بسرعة.

ومن المغالطات التي ترتبط بتحويل الشذوذ إلى قاعدة، أو القاعدة إلى شذوذ، ما ورثه الأصوليون المغاربة عن نظارئهم في المشرق العربي من تلخيص الحداثة في «زواج المثليين» وما شابه ذلك من الاستثناءات.

• هل استعمل الآخر دائما حجة لتبرير واقعنا؟

• • نعم، استُعمل كذلك حتى في حال رفضه. هناك مفارقة عجيبة في حجة «الذات والآخر»، فإذا كان مَن بيده السلطة يبرر النقائص بوجود «مثلها»

عند الآخر المتقدم فإنه ما إن يَطرح خطة لإصلاح قطاع من القطاعات حتى يقف المعارضون الشعبويون في وجهه ملوحين بالأصالة المغربية وتقاليد المغرب العريقة، متهمين صاحب المشروع بتقليد الغرب الليبرالي الفاسد، ونقل نماذجه الفاسدة أو غير المتلائمة مع واقعنا. وقع ذلك حين طُرحت مدونة الأسرة، كما وقع أخيرا مع مدونة السير. فمدونة الأسرة، كانت قبل إقرارها، مؤامرة عالمية، ثم صارت بعد ذلك هِبة مَولوية سَنية، ومدونة السير مجرد نسخ لقانون السير السويدي...الخ

ومع سهولة استقطاب الدهماء بطرح حجة الذات والعراقة، وللتصدي لحركة الحداثة والديموقراطية التي أطلت على المغرب منذ أواخر الخمسينيات، ظهرت قيمة حجاجية حزبية أصبحت مجال تنافس: حجة البادية والبداوة. وفارس هذا الميدان هو المحجوبي أحرضان الذي أجاب مرة (سنة 1977) من سأله عن وثائق الحزب لتجديد الحركة: «وثائق الحركة الشعبية هي الرزاز والكنابش، العروبية والشلوح هما وثائق الحزب».

• هل معنى هذا أن الحجج السياسية في المغرب مستمرة لا تتغير؟

• • المبادئ والأطر المنطقية العامة مستمرة، ولكن القيم الحجاجية تتغير حسب المجتمعات والظروف. حجج العصر الكلاسيكي ليست هي حجج العصر الرومانطكي كما وضح بيرلمان...

• هل يمكن تقديم مثال يبرز التغير الذي طرأ في المرحلة الحديث؟

• • هناك حجة طريفة حديثة جدا سميتُها حجة «الذئب الخراز»: تبرير السرقة بالفعالية. وهي تسمية «قاسية» رجوتُ منها تنبيه أصحابها إلى شناعة أفعالهم. حجةٌ ابتدعها بعض «المناضلين» والأطر التكنوقراطية الكفأة التي أسندت إليها الدولةُ مهمةَ إخراج بعض المؤسسات العمومية وشبه العمومية من حالة الإفلاس التي أوصلها إليها سوء تدبير مسؤولين اعتبروها إقطاعا خاصا في العهد السابق. فحين قيل لبعضهم: أخذتم كذا أو سرقتم كذا!... لم يجدوا غيرَ جواب واحد يتضمن الاعتراف بالسرقة ويبررها. قالوا: انظروا ماذا حققنا لهذه المؤسساتً، أنظروا كيف وجدناها وكيف صارت الآن، نحن نستحق أكثر مما أخذنا! ولو أنصفتم لأعطيتمونا أكثر مما أخذنا! يتناسون الأجور الضخمة

والامتيازات المختلفة، ويتناسَوْن أكثرَ من ذلك المجهود المالي الضخم الذي بذلته الدولة لإنقاذ تلك المؤسسات.

يُحكى أن ذئبا تاب إلى الله من ماضيه الشنيع واحترف الخرازة خدمة للصالح العام، علّه يرتُق شيئا من جلود الحيوانات التي خرقها. سلمته عجوز، ذات يوم، قربةً كثيرة الثقوبُ مُشبعةً برائحة اللبن الحامض المثير لشهية الذئب. عندما عادت العجوز، في الموعد المحدد لتسلم القربة، أخبرها الذئب أنه استعمل كل مهارته وصبره في رتق فتوقها حتى صارت كأنها جديدة، وعندما حدد أجرتَه وجد أنها تتعدى ثمن القربة، فأكلها مقابلَ عمله.

لم تكن الذئاب القديمة تحتاج إلى مثل هذا التبرير لأن العجوز لم تكن تعود لاسترجاع القربة، وإنما ظهرت الحاجة إلى هذا الاجتهاد في العهد الجديد الذي صار يسأل أحيانا عن مآل قربه المثقوبة.

وقد صارت حجة الذئب الخراز فلسفة في المغرب الحديث، لا أحد يرتق قربة إلا ويفكر في أكلها. ولذلك تجد أن كل مشتغل بوظيفة يرى أن ثمارها له أولا، ابتداء بوزارة المالية حيث يُتحدث عن تعويضات بعيدة عن مستوى المغرب وصولا إلى المكاتب المختلفة: الكهرباء والماء والقطارات... لا يبقى خارج اللعبة إلا المعلمون وعمال النظافة ومن على شاكلتهم..الخ.

• الظاهرة كبيرة ومعروفة، ولكن الحجة جديدة حقا!

• • هذه ليست مجرد حجة جزئية بل هي رؤية وفلسفة، لها امتدادات متعددة. ومن تنويعاتها، أو تجلياتها حجة الجزء غير المؤثر، أو الاستثناء الذي لا يضر. روى أحد المناضلين، في بداية تجربة التناوب، أن وزيرا يساريا لم يستوعب استغراب المناضلين الصغار الذين جلس للاستماع إليهم شراءَ بضع عشرات من السيارات الفخمة الغالية الثمن ونصحهم بالاهتمام بالقضايا الكبرى، لأن تلك السيارات لا تمثل نسبة مهمة من ميزانية الدولة. «المشكل ماشي هنا..». وهذه الحجة تقدم في كل الإدارات، كل مسؤول يرى أن ما يأخذه لا يمثل شيئا، فتكون مجموع النقط التي تؤدي إلى الفيضان. كل واحد يحتج بأن ما يأخذه قليل، ولكن عدد الآخذين كثير. إن حجة الذئب الخراز

وحجة الجزء غير المؤثر تنتميان إلى منظومة واحدة: فلسفة العهد الجديد المتسم «بالحياء».

• هذا يطرح مشكل تحديد المفاهيم؟

• • تحديد المفاهيم والفصل بين المظاهر والأعراض الخادعة وبين الجواهر أمرٌ أساسي في بلاغة الحجاج بصفة عامة. بل إن تحديد المفاهيم وكشف المغالطات القائمة على الانزلاق من مفهوم إلى آخر هو مدار أية مناظرة.

• هل يمكن تقريب الانزلاق المغلط بين المفاهيم بمثال من الخطابة السياسية المغربية الحديثة؟

• • أشهر مثال لذلك وأبرزه هو تسمية السرقة «سوء تدبير». كثيرا ما يرُدُّ المسؤولون والناطقون الرسميون باسم الحكومة على ما تنشره الصحافة من أخبار السرقات والاختلاسات بناء على نتائج الافتحاصات التي يقوم بها المجلس الأعلى للحسابات أو غيره من اللجن المكلفة من البرلمان أو من وزارة المالية ـ بالقول بأن الأمر لا يتعلق بالسرقة، بل «بسوء التدبير». بهذا التحويل، أو الانزلاق المغالط، يبررون عدم مبادرتهم للقيام بوضع الملف أمام القضاء. انظر كيف يتحول الوزير إلى قاض. إن سوء النية ممكن في هذا المجال. لأن المتحدث يعلم أن تحديد إحدى الصفتين من اختصاص القضاء بعد معركة حامية بين الدفاع والاتهام. وهم يعلمون بفعل الممارسة أن ما يُسمى «سوء تدبير» سلوك متعمد يخلط الآوراق، لأنه هو العُلبةُ التي تُلفُّ فيها السرقة. فعدم اتباع الطرق القانونية الشفافة في تدبير الصفقات، مثلا، «سوء تدبير» في الظاهر، أما باطنه فهو العمل في الظلام من أجل السرقة.

• ولكن سوء التدبير لا يُعفي من المسؤولية!

• • ولكنه ليس في قوة السرقة المكشوفة الموصوفة التي ينبغي أن تقود إلى السجن مباشرة. سوء التدبير خطوة أولى من أجل الانزلاق إلى مفهوم آخر: سوء التقدير. وذلك كله من أجل إبعاد صفة سوء النية، هذ إذا لم يصل الأمر درجة الوقاحة فيتحدث عن المجتهد الذي لم يصب. لتوسيع مجال حجة سوء التدبير يمكن الحديث عن حجة أخرى جديدة، هي حجة «المرض العقلي»، والإدمان، فهي من الحجج التي أفرزها العهد الجديد. تدل، رغم فجاجتها، على نوع من

الحياء والحرج لم يكن الخارقون للقانون في العهد القديم في حاجة إليه. اُستُعملت هذه الحجة في تبريئ بعض «الكبار» وأبنائهم وأقاربهم من المسؤولية الجنائية عن حوادث وصلت حدَّ الاعتداء الجسدي والمعنوي على رجال الأمن وهم يؤدون مهامهم بالبذلة الرسمية. وشاعت هذه الحجة في مجال ما يُسمى القتل غير العمد أو الجرح المترتب عن حوادث السير من طرف سكارى أو مدمنين.

• هل نَحَتَ الخطابُ السياسيُّ المغربي استعاراتٍ تستحق التصنيف حجاجيا؟

• • كثيرة جدا، المخزن له استعاراته، والأحزاب لها استعاراتها، وقد عرضتُ بعض استعارات المخزن في مناسبة سابقة بشكل هزلي. ورغم أن التوجه العام يسير نحو التخلي عن أكثرها، فإن بعض المتملقين ينفضون عنها الغبار من حين لآخر. ولذلك نذكر هنا أمثلة من استعارات الأحزاب السياسية. لا شك أن قصب السبق في هذا المجال كان وما زال للاتحاد الاشتراكي واليسار بصفة عامة. فاليسار يميز نفسه عن الأحزاب الإدارية باستعارة منفرة: «أحزاب الكوكوت منوت». وأضيفت للحزب الجديد صفة: «الوافد الجديد»، وهي تعني الطارئ، والضيف الثقيل. ولكن الإنتاج الاستعاري الكبير للاتحاديين كان في تدبير الشأن الداخلي حيث يتعذر التصريح بهجاء إخوان مناضلين كانوا في نفس الصف. وهكذا نجد تبرير الانفصال مثلا باستعارات من قبيل: «أرض الله واسعة»، حيث شبهت الخريطة السياسية بالخريطة الطبيعية، والحزب بالخيمة التي يمكن أن تُنصب في أي مكان. واستعارة «القطار والمحطات»، قطار الحزب يسير وفي كل محطة ينزل ركاب ويصعد آخرون، وقيل أخيرا: «وردة بدون شوك»... والخطير في الاستعارة أنها ترسخ الحجة وتشغل الذهن عن التفكير في مدى صدقية محتواها، ولذلك فعلاجها لا يكون إلا باستعارة مضادة.

وقد استعمل المحجوبي أحرضان مجموعة من الاستعارات في مقارعة الخارجين عن سلطته في الحركة الشعبية من أجملها حقا استعارة «القرد المتسلق» الذي كلما علا متسلقا الشجرة كلما انكشفت عورته، شبه بها مجموعة من وزراء الحركة الذين مهد لهم طريق الصعود فقلبوا له ظهر المجن. ومنها صورة «موكا»...الخ

- ٧ -

مسار حياة:
في البحث عن بلاغة عربية حديثة
أجراه محمد مرشد الكميم (باحث من اليمن)

بدأ هذا الحوار شفويا في لقاء مع الباحث بمنزله بمدينة المحمدية، في رمضان 2010، ثم تحول إلى حوار مكتوب عبر البريد الإلكتروني.

سيرة ذاتية:

• لقد فصَّلت في سيرتك الذاتية (أشواق درعية)، ما يغني عن السؤال: مَن هو محمد العمري. شهرتك العلمية، في العالم العربي، طبقت الآفاق؛ ولكن إن كان لنا من سؤال فعن سيرتك الذاتية نفسها، لماذا كتبتها؟ ولماذا عدت إلى الكتابة في الموضوع كما علمتُ؟

• • أولا، أشواق درعية جزءٌ أولُ من سيرتي الذاتية خاص بمرحلة الطفولة والمراهقة، والجزء الثاني جاهز الآن للنشر، وهو أكبر حجماً بكثير، وأوسع مساحة زمنية. يتناول المرحلة الجامعية طالباً ومدرساً. وفيه كل أنواع المعاناة الثقافية والسياسية. ولذلك فعنوانه الموقت هو: ما بعد الأشواق، رفقة الزنابير في زمن الطلبة والعسكر[352].

أما كتابة الأشواق فكانت عملية علاجية، كانت هروباً إلى الطفولة وأجواء الأمومة من واقع خانق، انضم إليه المرض الخطير الذي ألمَّ بي وعاق مساري العلمي

352ـ صدر هذا الجزء بداية سنة 2012 بعنوان: زمن الطلبة والعسكر. عن مركز محمد بن سعيد. الدار البيضاء.

الأكاديمي والسياسي لسنوات. لقد اقتنعتُ في لحظة ما أن التهاب الكبد الفيروسي c العنيد قال كلمته القاسية، خاصة بعد أن فشلت الجولة الأولى من العلاج بسبب عدم تحمل الدواء. الأشواق كانت نوعاً من التأبين، أو الحداد. ولأنني أفلتُّ من بين يدي عزرائيل، إلى حين، فقد اغتنمتُ الفرصة لتصفية الحساب ـ في الجزء الثاني ـ مع ذلك الواقع الخانق، مع كل الزنابير الذين ثاروا في وجهي.

أما لماذا نكتبُ سيرة ذاتية على العموم؟ فذلك سؤال نقدي مطروح، لا يتسع هذا الحوار لتفصيل الكلام فيه. وقد أجبتُ عنه في مقدمة الجزء الثاني. وعموما فإننا نكتبُ لأسباب مُباشرة عديدة، يمكن الحديثُ عنها بالنسبة لكل سيرة على حدَه. ولكنَّنا نكتبُ خلْفَ ذلك لسبب بعيد يحكُم كلَّ تلك الأسباب القريبة، هَو السببُ نفسُه الكامنُ وراءَ القراءة، هو لذةُ المعرفة. وما سوى ذلك هَذَرٌ، نقرأ لنعرِف ونكتب لنعرِف ونُعرَف...

• من الذي يحق له أن يكتب سيرته الذاتية؟

• • مبدئياً من حق كل من يجد رغبة في البوح أن يكتب سيرته الذاتية، أن يقدم روايته لما وقع، فبخلاف ما كان سائداً في الماضي صارت السيرة الذاتية بدورها ديمقراطية. ولكن نجاح السيرة الذاتية يتوقف على ما تنطوي عليه من «غرابة»، وما تحويه من «عجيب» مُعجب. والغرابة تتعلق بالأحداث كما تتعلق بالصياغة. وكمالها في تعانقهما وتكاملهما. ومن الأكيد أنه كلما علا شأن صاحب السيرة اجتماعياً أو أدبياً كلما زاد الاهتمام بسيرته. ومشكلتنا في العالم العربي أن الفاعلين السياسيين والدينيين خاصة يفضلون الانسحابَ في صمت، أو تنصيب من يقوم حارساً على ماضيهم حتى يبقى طي النسيان. السيرة تتطلب وضع مسافة بيننا وبين الماضي، تتطلبُ أن نتحدث عن الآخر الذي كناه بروح وجودية لا قدرية، أن نتفرج مع الآخرين على ماضينا بكل ما له وما عليه. فبدون هذه المسافة لا نستطيع أن نرى غير صورتنا الآنية، وهي منغمرة مستعصية على الفهم.

سيرة علمية

• سبع سنوات في الماجستير، وعشر سنوات في أطروحة الدكتوراه، ومثلها في مشروع: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها. ألم تخش من ذهاب العمر بين الأوراق؟

• لم أُفكر قطُّ في الزمن، استغراقي كله في الموضوع وما يقتضيه من أدوات. فحين تطلَّب بحثُ البنية الصوتية، في الدكتوراه، ضبطَ البنيوية اللسانية وامتداداتها الشكلانية توقفتُ الزمن الكافي لقراءة أعمال الشكلانيين، وفي هذا السياق تُرجم كتاب: بنية اللغة الشعرية، لجان كوهن الذي تطلب سنتين، وفيه نظمت ندوة اللسانيات والنقد الأدبي، نُشرت موادها في العددين الأول والثاني من مجلة دراسات أدبية، بل إن مجلة دراسات نفسها نشأت داخل هذا الهم. وحين شرعت في كتابة تاريخ البلاغة العربية وجدتُ أن الأدوات البنيوية التحليلية التي أشتغل بها لا تكفي للحم أطراف ذلك التاريخ، ورد أعجازه على صدوره، ولذلك توجهت إلى نظرية التلقي والقراءة التي خصصنا لها عددين من مجلة دراسات سميائية (7.6). وساهمت في تنظيم ندوة التلقي التي دامت أكثر من اثنتي عشر سنة بتعاون بين كلية الآداب في الرباط ومؤسسة كونراد الألمانية. وهكذا فإني لست من الصنف الذي يُغمض عينيه سنتين أو سنتين ونصف ليلفق شهادة بدون وعي منهجي، ثم يخجل من نشرها، يقولون إنها شواهد لتسوية الوضعية المادية، ولكنها شواهد قاتلة، لأن من شب على شيء شاب عليه. لقد حمدتُ السَّرى والحمد لله. ولولا ذلك الصبر والعناء ما التقيتُ بكم، وبعشرات الطلبة الباحثين الذين يتصلون بي الآن من جميع أنحاء الوطن العربي.

• علاقتك بمحمد مندور كانت منذ أيام الطلب الأولى، فيا ترى ما الذي جمعك به، وهل من علاقة بين بحث إجازتك (محمد مندور من التأثرية إلى الواقعية الاشتراكية) وبحث الأستاذ محمد برادة عنه؟ ولماذا ظل هذا البحث حبيس أدراجك؟

• • البداية كانت مع كتاب: النقد المنهجي عند العرب، الذي أحالنا عليه أستاذ النقد العربي القديم العلامة أمجد الطرابلسي، قدوتي في كل شيء. ومن النقد المنهجي إلي الميزان الجديد، ثم الشعر المصري بعد شوقي، حيث فوجئت بقدرته على مقارعة الكبار، أمثال العقاد، وطه حسين وغيرهم ممن كنت أظن أنه لا يشق لهم غبار. واكتمل الإعجاب باطلاعي على توجهه الجديد نحو الواقعية الاشتراكية. كنا ماركسيين سياسياً وفي حاجة إلى من يُمركسُنا نقدياً فاكتملت الحلقة. ولا أخفيك أني صُدمت حين وجدت أن أضعف أعمال مندور هو كتاب:

قضايا جديدة، الذي يتخذ شاهداً لهذا التوجه. مندور أزال من ذهني مبكراً وإلى الأبد خرافة الانفصال بين القديم والجديد، هذا الجدار الذي يختبئ وراءه العاجزون.

لم أكن أعلم أن الأستاذ محمد برادة كان يهيئ أطروحة الدكتوراه في نفس الموضوع، وحين قرأت عمله وجدتنا نسبح في فلكين مختلفين: أنا طالب وهو أستاذ. لم أنشر ذلك العمل لأني لم أحتفظ بأي نسخة منه.

• الحداثة تتطلب معرفة واسعة بالعلوم الإنسانية، بل بالتراث الإنساني وبالتراث العربي على وجه الخصوص. هذا ما استفدته أنت من مندور؛ ولكن مفهوم الحداثة هذا يتنافى مع مفهوم الحداثة الغربي، الذي يعني ـ حسب فهمي ـ القطيعة مع التراث. فما تعليقك على هذا القول؟

• • الحداثة كلمة تثيرُ أشد الحساسيات في بعض جهات الوطن العربي، وهي مخطوبة ومحبوبة في جهات أخرى منه، لا يهجرها إلا عِنِّين. هي مثل العلمانية والديمقراطية، تعاديها أصوليتان: أصولية دينية وأصولية سياسية، لأنها تربط الاستحقاق بالعمل. ويزيد الأمر تعقيداً عند دارسي التراث التقليديين الكسالى العاجزين عن استيعاب التراث الإنساني حيثُ يُسقطون القدسية على التراث، ويقدحون في المناهج الحديثة باعتبارها إنتاجاً غربياً تجب معاداته. ومثل هؤلاء التراثيين العاجزين المصعِّدين لعجزهم موجودٌ بين حاملي شعار الحداثة الجاهلين بالتراث الإنساني. والواقع أن الدرس الأكاديمي الجدي في الدراسات الغربية الحديثة الذي نستلهمه قام على فحص التراث الغربي القديم اليوناني واللاتيني فحصاً نقدياً دقيقاً وبنى عليه، بل ظل لحد الآن يستعمل مصطلحاته، وأمامنا الأرسطية الجديدة. لقد حسمت نظرية التلقي في هذا الإشكال: لا يمكن أن يُقرأ القديم إلا من خلال أسئلة عصر القراءة، أي العصر الحديث، ولا يكتمل فهم الظواهر الإنسانية الحديثة إلا بمعرفة أصولها وإرهاصاتها القديمة. والعقل هو المحك، وهذا لا يقبله من حرمهم الله من نعمته. فأين توجد القطيعة في الدرس البلاغي؟ البلاغة الجديدة هي بلاغة أرسطو والجاحظ.

• كنتَ ممن وُفِّق في مد الجسور بين التراث والحداثة. كيف وجدت هذه التجربة؟ وما القناعات التي خرجت بها منها؟

• • إذا وُفقتُ إلى ذلك، كما قلتَ، فقد كانت التجربة مُمتعة. مازالت تتردد في ذهني عبارتان من لحظة مناقشة أطروحة الدولة؛ الأولى للعلامة أمجد الطرابلسي، قال أمجد رحمه الله: «إذا كانت هذه هي البنيوية فمرحبا»، ونوه كثيراً باختيار النصوص وتحليلها. والثانية للأستاذ المشرف محمد مفتاح الذي اعتبر أن الاختلاف بيننا متمثل في إصراري على المسار الأرسطي، وهو الاختيار الذي مازالت الأيام تؤكد صلابته وقابليته لاستيعاب التراث العربي.

وأقول بالمناسبة أنني لم أندم على الانتظار سنة كاملة من أجل مشاركة العلامة أمجد الطرابلسي في تقويم عملي ومناقشته. إن عملاً يَلقى مباركة عميد النقد القديم (أمجد الطرابلسي)، وعميد البحث السميائي الأدبي في المغرب، (محمد مفتاح)، جدير بأن يسعدني.

• لك في مسيرتك العلمية مساران، مسار مع التراث ومسار مع الحداثة ومناهجها النقدية في لغاتها المختلفة، فلماذا انسحب اهتماماتك بالتراث إلى التراث البلاغي بالذات؟

• • أولا المسار واحد أوحدُ، وهو البحث عن بلاغة عربية حديثة من خلال الحوار بين التراث العربي والمناهج والنظريات الأدبية الحديثة. أما الوقوف أحياناً من أجل ترجمة هذا الكتاب أو تلك الدراسة فقد كان، كما سبق، في إطار إعداد العُدة وتوفير الأداة المنهاجية لنا ولغيرنا من الباحثين. ويقال نفس الشيء عن كتابة تاريخ البلاغة العربية، فبدون تلك الكتابة الشاملة يتعذر إدراك كل أبعاد المفهوم. وقد بدأت الثمارُ تظهر، في نهاية المطاف، في كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول. نحن اليوم أمام تعريف جديد للبلاغة غريب عن المتداول في الدرس التعليمي والجامعي ولكنه يأخذ مشروعيته من التراث البلاغي العربي ومن الدرس البلاغي الحديث، إنها بلاغة عربية حديثة قابلة للتداول الكوني.

• لقد قمت بإعادة قراءة التراث البلاغي العربي في ضوء المعطيات المنهجية الحديثة. كيف لك أن ترى الصلات والفوارق بين تجربتك وتجربة غيرك من البلاغيين في المغرب والمشرق كـ(حمادي صمود، عباس أرحيلة، محمدالولي، الأزهر الزناد، محمد مفتاح، شكري عياد، جابر عصفور، محمد عبد المطلب، عبد القادر الرباعي، تامر سلوم) ؟

• • إذا كان هناك فرق فأترك للقارئ المختص أن يستنبطه، أما القارئ العادي فلا اعتقد أنه سيسأل عنه. لقد بينتُ في مقدمة كتاب: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، مثلا، أن عملي لبنة ثالثة تضاف إلى لبنة أولى وضعها العلامة شوقي ضيف، ولبنة ثانية أضافها صديقنا الأستاذ حمادي صمود. ولكل من هذه اللبنات موقعها في البناء. لكل من الكتب الثلاثة استراتيجية معلنة وفعالة لا يغني عنها الكتاب الآخر. وقُل نفس الشيء عن بقية الكتب. المهم أنه لم يستهوني قط الخوضُ في موضوع مُستهلك. وإذا وجدتَ ما ينافس كتاب: في بلاغة الخطاب الإقناعي، اليومَ فانظر ماذا كان في الساحة عند تأليفه منذ حوالي ثلاثين سنة.

مؤلفات:

• أردت أن تنبه إلى البعد الإقناعي للبلاغة العربية في كتابك الأول (بلاغة الخطاب الإقناعي)، وذكرت أن هذا البعد كان حاضراً عند الجاحظ على وجه الخصوص، بينما نفى حمادي صمود في كتاب التفكير البلاغي عند العرب وجود مثل هذا البعد عند الجاحظ، حينما حصر الحدث الجاحظي بالوظيفة الإبلاغية لا الإقناعية؛ أي أن دور البلاغة عند الجاحظ يتوقف عند الإفهام لا التداول والحجاج والإقناع، وقد رأى أن القرآن والحدث الجاحظي هما من وجها البلاغة العربية هذا التوجه. فما الذي تراه مجدداً في هذه القضية؟

• • حين نفصل بين البلاغية والإبلاغية بحدة، ونتجهُ بالبلاغية نحو مفهوم «الأدبية» بالمفهوم الذي صاغه الشكلانيون اللسانيون فإن المسافة بيننا وبين الجاحظ ستتسع حتى يغيبَ عن مدى نظرنا. أما حين نترك ياكوبسون وجماعة الشكلانيين عامة ونقترب من البلاغة الجديدة كما صاغها بيرلمان في إطارِ منطق القيم، فإننا سنجد الجاحظ في قلب المعركة البلاغية. وأنت تعرفُ الأعمالَ القيمة التي أنجزتها المجموعة التي يشرف عليها الأستاذ حمادي صمود في مجال نظرية الحجاج والبلاغة الجديدة. والأعمال الأساسية التي تساهم حالياً في نقلها إلى اللغة العربية. لقد مررنا جميعاً من البحث عن الأدبية إلى البحث عن البلاغة العامة.

وأوضح بالمناسبة أن الفصل الذي خصصته «للبيان» في كتاب البلاغة العربية كان موجها لإبراز البعد الحجاجي في البلاغة العربية من جهة، ومحاورة

مجموعة من الدارسين الذين كانوا يبحثون عن مصطلحات نقد الشعر في كتاب البيان والتبيين.

• كتاب «دائرة الحوار ومزالق العنف، دراسة في خطب حديثة»، ألا يعد امتداداً لكتاب بلاغة الخطاب الإقناعي؟

• • نعم، هو امتداد للكتاب المذكور. ويلتقي معه في ملابسة أخرى وهي أنه أنتجته الظروف الموضوعية. فكتاب: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محاضرات ألقيت على طلبة الإجازة أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، حاولت فيها الخروج من تاريخ الأدب السيئ السمعة (تاريخ التراجم والأخبار)، إلى تحليل النصوص في سياقاتها، في ضوء التاريخ، فوجدت نفسي داخل الدرس البلاغي بالمفهوم المجدد للبلاغة القديمة. و«دائرة الحوار»، بدأ بنقد بلاغي للخطاب الصحفي، وانتهى، تحت الطلب، إلى صياغة نظرية للحوار تؤول خطاطة أرسطو وتنحو بها منحى مناسباً للنص العربي الحديث المكتوب.

• إن سعيك إلى إيصال البلاغة إلى نطاق واسع من الجمهور يقف ضد أسسها ومرجعياتها الفلسفية والمنطقية والكلامية، فهذه العلوم الواقفة وراءها تعد علوماً نخبوية.

• • حين نُنظِّر أو نؤصِّل لا نستطيع إلا أن نخاطب النخبة، لا خيار لنا في هذا الأمر. وهذا ملحوظ في كتاب: تحليل الخطاب، البنية الصوتية، إنه كتاب النخبة المختصة بامتياز، ويقال نفس الشيء عن كتاب البلاغة الجديدة، ..الخ. أما حين نُعلِّم أو نُحاجج، فإننا ملزمون بمراعاة مقامات المخاطبين، وإلا كان مصير عملنا إلى الفشل. هناك عبارة جميلة قالها صديقنا الأستاذ سعيد يقطين حين قدمتُ مفهومَ انحِجاجِ الذي صُدِّر به كتاب دائرة الحوار، قال: «بهذا العمل يُنزل الأستاذ العمري البلاغة من الكراس إلى الناس». فلكل عمل استراتيجيته. وأذكرُ أن دار النشر إفريقيا الشرق كانت قد رفضتْ نشرَ كتاب تحليل الخطاب الشعري والموازنات الصوتية، لأنه، كما عبَّر لي مستشارهم العلمي، مُفرطُ التقنية، وكان ناشرٌ آخرُ قد استثقل الرسومِ والشكلِ وكل وسائل الضبط التي استعنت بها لإخراج الكتاب، فكتبتُ مقالاً مشهوراً هجوت فيه الناشر المغربي.

وقد سمحت لي الظروف، أو فرضت علي، المزاوجةَ بين الكتابة الأكاديمية على الطريقة الفرنسية: الكتابة النسقية، والكتابةَ الصحفية التي تعتمد الصور البيانية بل العتاد المصطلحي، وتستهدفُ أوسع ما يمكن من الجمهور المتعلم دون إسفاف. فمن تعريفات الكلام البليغ: ما يفهمه العامة ولا يستهجنه الخاصة.

• لقد أردت في أطروحة الدكتوراه أن تلفت النظر إلى الجانب الإيقاعي لا الوزني في التراث البلاغي العربي، وامتد هذا الهاجس إلى دراسات لاحقة. ما الذي أردت أن تؤسس له أو تؤصل له بالضبط؟ هل نستطيع القول إن مغزاك كان إيقاع قصيدة النثر؟

• • الاهتمام بالبنية الصوتية جاء في إطار التعرف على التحليل البنيوي اللساني للشعر، فالبنية الصوتية قَسيم للبنية الدلالية عندهم. وقد يقع التوسع في التصنيف، كما في نظريات علم النص وتحليل الخطاب، فيُميزُ بين أربع بنيات؛ بإضافة البنية التركيبية والبينة التداولية. وكان اختيار البنية الصوتية خروجاً من الغموض المترتب عن استعمال عبارة موسيقى الشعر حيث يقف الكلام عند الأوزان والقوافي. البنية الصوتية تضم الموازنات التجنيسية والترصيعية كما تضم العروض والأداء، أو الإلقاء. كنت، في البداية، أتحاشى كلمة إيقاع أيضاً لغموضها. وقد عدتُ لاستعمالها لاحقاً؛ حين تصديت لدراسة بنية الشعر الحديث التفعيلي والنثير حيثُ يلعب الفضاء التشكيلي دوراً مهماً ويصعبُ أن تتسع له البنية الصوتية.

الذي كان حاضراً عندي، في البداية، هو الشعر القديم؛ كنتُ أجد الحديثَ عن «العروض» باعتباره «موسيقى الشعر» تضييقاً لمفهوم الموسيقى وإفقاراً للشعر. خاصة حين يتبجح منظرو الشعر التفعيلي في السبعينيات بالحديث عن الرتابة والسكون المترتبين عن اطراد الأوزان والقوافي. سعيتُ إلى إقامة الحجة على أن حركة الإيقاع الشعري توجد في الموازنات الصوتية (التجنيس والترصيع) أساساً، وأن الأوزان العروضية ليست أكثر من فضاء للتوزيع. كما بذلتُ جهداً لإبراز دور الدلالة في تنشيط الإيقاع. لقد صرحتُ في ذلك الكتاب بأن خمساً وسبعين في المائة من شاعرية الشعر القديم توجد في الموازنات الصوتية وتفاعلاتها الدلالية. وإذا استغنى الشعر الحديث عن الأوزان المطردة، ثم استغنى

بعضه حتى عن الأساس التفعيلي فإنه لم يستغن عن الموازنات الصوتية التي صارت تتوزع في فضاء بصري وتشكيلي. ولذا بدا توجهي نحو الموازنات في إطار تصور تركيبي للإيقاع أشبه بمبادرة استباقية لمعالجة قضية إيقاع قصيدة النثر، وليس الأمر كذلك في البداية. صحيح أن البنيويين اللسانيين والسميائيين المهتمين بالشعر اعتبروا الموازنات (خاصة توازي البنيات النحوية) تعويضاً لغياب الوزن، ولكن لم تكن تلك بدايتي.

• ولكن استعمالك لمصطلح (البنية الصوتية) سيجعل الذهن ينصرف إلى قضايا أخرى لا ترتبط بالإيقاع فقط.

• • لا أعرف بالتحديد ما هي القضايا غير الإيقاعية التي يمكن أن ينصرف إليها مفهوم «البنية الصوتية» في سياق الحديث عن الشعر، والإنشاء عامة، فالفقهاء يقولون: «الباب يُحرز». ومع ذلك أقول بأن الأمر قد يتعلق بالمعنى الذي نُعطيه للإيقاع. وقد قمتُ أخيرا بصياغة تعريف شامل للإيقاع قدمتُه في لقاء نظمه «بيت الشعر» بالشارقة أوائل 2010، ومن المنتظر أن يصدر ضمن أعمال الملتقى. أعتقدُ أن الاطلاع عليه سيرفع هذا اللبس، أو ينقل الاختلاف إلى مفهوم الإيقاع نفسه.

• جمعت في كتاب (البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها) بين البنيوية والتلقي. ألم تخش من وجود تعارض في الأسس الإبستمولوجية المكونة لكل منهما؟

• • البنيوية تقدم أدوات فعالة في مستوى الوصف والتفكيك والتركيب. وهذا مستوى أول ضروري في معالجة أي موضوع، عليه ينبني التأويل والتفسير، وهو الذي يعطي معنى للإحصاء. فقبل أن نؤول يجب أن نعرف ما سنؤوله، وقبل أن نحصي ينبغي أن نعرف ما نحصي. والكثير من نتائج التأويل والإحصاء تبدو عبثية نتيجة عدم قيامها على عملية بنيوية وصفية دقيقة. وقد حاول البنيويون الخروج، في مجال النقد الأدبي، من حدود وصف البنية إلى تفسيرها فنشأ ما عُرف بالبنيوية التكوينية. والتلقي عملية تالية، في تصوري، للوصف البنيوي، ومفتقرة إليه. فأنت لا تستطيع أن تعتبر السكاكي قارئاً للجرجاني قبل أن تفكك وتركب عمل كل منهما. ونفس الشيءِ يقال عن ابن وهب والجاحظ، وحازم

وابن سنان الخفاجي. من الأشياء التي أثارت انتباهي حينما انتقلت إلى جامعة الملك سعود بالرياض اهتمام المتجادلين بالمرجعيات والخلفيات على حساب الجوانب التطبيقية. فقد تجد شخصاً لا يعرف شيئاً عن البنيوية ولكنه يفتي في خلفيتها العقلانية المشبوهة، إنها نتاج غربي غريب على أقل تقدير. والحال أن أكبر بنيويينْ في نظري ــ في تنظير الشعر ــ هما عبد القاهر الجرجاني وابن رشد.

• كلامُك الأخير سيدخلك في سياق المناصرين لتكييف فكر العرب ونقدهم وبلاغتهم وفق إملاءات النظريات والمناهج الغربية المعاصرة.

• • أعلم أن هذا ليس رأيك الشخصي ــ وأنت المبتلى بالسميائيات ــ ولذلك سأقول بشيء من الحسم. العلمُ ثمار العقل، زيتونةٌ لا شرقية ولا غربية، زيتُها يُضيء في أي ظلام. من المؤسف أننا نقبلُ اقتباس ثمار هذا النور في كل ما يتعلق بحاجاتنا المادية (في أكلنا ولباسنا وعلاج أجسامنا ومساكننا ووسائل نقلنا وتواصلنا..الخ)، ونرفض أن يُومض نوره في عقولنا. نريد الثمارَ المادية للعلم ونرفض أن نعاني أسئلته التي تزعزع سكوننا. الأمر لا يتعلق بإخضاع بل بتفاعل مثمر، وفي أجوبة سابقة ولاحقة ما يوضح ذلك. أترك لك أن تتخيل ما كان سيكون عليه حال البلاغة العربية (والفكر العربي عامة) لو انطلق علماؤنا القدماء من مثل هذه الحساسية إزاء أرسطو وأفلاطون...الخ. الذين يرون أننا لسنا في حاجة إلى كل ما داخل الفكر العربي بعد العصر الأموي لا يدخلون في حيز اهتمامي.

• سعيت في ختام كتاب البلاغة العربية إلى إعادة إعمار كتاب منهاج البلغاء وهيكلته هيكلة جديدة، توخيت من وراء ذلك محاولة إعادة كتابة ما ضاع منه، وقد استعملت كل الوسائل الممكنة من أجل ذلك؛ ولكن هل كان بالإمكان اكتشاف بعض ما ضاع من خلال إبداع حازم الشعري، على اعتبار أن إبداعه يعد تجسيداً لفكره البلاغي؟

• • بدل كلمة إعمار أفضل كلمة «ترميم» تأسياً بعمل مُرممي الآثار القديمة، أي محاولة إعادتها إلى الحالة التي كانت عليها قياساً للجزء الضائع منها على ما بقي ماثلاً للعيان. يُستعمل الترميم أيضا في مجال المخطوطات. وهذا الترميم كان ضرورياً لاستخراج بنية الكتاب (أو نسقه). فبدون الوصول إلى البنية لا يمكن الوصول إلى السؤال الذي طرحه المؤلف، والمهمة التي انتدبَ نفسه

للاضطلاع بها. ومع ظهور البنية ظهرت ارتباطاته مع من سبقه، خاصة مع ابن سنان الخفاجي. وهذا يدعم الجواب عن السؤال السابق مباشرة.

أما استخراج الرؤية النقدية للمؤلف الموجودةِ في كتاب من كتبه اعتماداً على إبداعه الشعري الخاص فليس مضمونَ النتائج، ولا مأمون العواقب. فالمتن الذي يُنظِّر له مؤلف ما قد يكون سابقاً تاريخا أو اعتباراً على تاريخ إنتاجه، ومختلفاً عنه. والحجة على ذلك هي حالة أبي تمام في الحماسة، فقد جاء المرزوقي واستخرج من اختيار أبي تمام «عمود الشعر القديم» الذي أنتج أبو تمام ما يخالفه. وقد بينا ذلك في الفصل الأول من الكتاب، في الحديث عن الاختيار الشعري والتنظير النقدي.

• في كتاب (البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول) عدت مجدداً إلى الأسئلة المدرسية عن ماهية البلاغة، وأين توجد؟ وهل هناك بلاغة واحدة أو متعددة؟ وهل يمكن اكتشاف نسقها الجامع إذا ما كانت متعددة؟ فما هي الحاجة التي دعتك إلى مثل هذه العودة؟

• • هذه ليست عودة، بل هي جني لثمار سنوات طويلة من استكشاف التراث العربي في ضوء الدراسات البلاغية الحديثة في مشاربها المتعددة: الشعرية والمنطقية واللسانية خاصة. وسؤال: ما البلاغة؟ في هذه المرحلة المتأخرة ليس سؤالاً مدرسياً بل هو سؤال تنظيري، فيه غبطة الاكتشاف، وفيه تحدٍّ لواقع الدارسين في هذا المجال. لقد عادت البلاغة في العصر الحديث، عصر ثورة التواصل والحوار، لتصبح علماً كلياً كما نقرأ لحازم منذ عقود دون أن ندري ما يقول، صارت، كما قال، علماً كلياً لعلوم الإنسان واللسان. السؤال المدرسي هو السؤال الذي ينتظر جواباً متوافقاً عليه، على اعتبار أننا لا نقدم في المدرسة المعلومات الجديدة المختلف فيها، أو التي لم يطلع عليها المعلمون بعد. الذي يصدمني في الندوات التي تُتناول فيها البلاغة، خاصة في الشرق العربي، هو أننا نجد أنفسنا نتحدث عن أشياء مختلفة. مازالت الكلمة الفصل للسكاكي وملخصيه وشراحه، في حين أن هؤلاء جميعاً لا يملكون أكثر من جزء من الجواب.

• في الفصل الأول من كتاب (البلاغة الجديدة) حددت مفهوم البلاغة عند العرب، على أساس أنها تهتم بالتخييل والتداول، وحددتها عند الغرب

بثلاثة مفاهيم: المفهوم الأرسطي الذي يختص بالإقناع وآلياته، والمفهوم الأدبي التخييلي الذي يبحث في صور الأسلوب، والمفهوم النسقي الذي يرى البلاغة علماً أعلى يشمل التخييل والحجاج. هل يعني هذا أن البلاغة الجديدة عند الأوروبيين انتهت إلى ما توصلت إليه البلاغة العربية؟

• • التراث الإنساني متداخل ومتفاعل، ولحظاتُ تداخله وتفاعله ليست ماثلة حية أمامنا. وقد أعدتُ أصول البلاغة العربية، كما تعلم، إلى خمسة أصول، اثنان منها على الأقل شديدا التأثر بالتراث الأرسطي واليوناني عامة. أولهما: القراءة العربية لكتابي فن الشعر والخطابة. وقد امتد أثر قراءة هذين الكتابين وما يتصل بموضوعيهما من كتب أرسطو وأفلاطون إلى أهم كتابين في البلاغة العربية، وهما: أسرار البلاغة، ومنهاج البلغاء، وغيرهما. والثاني هو نظرية المعرفة والبيان التي تأسست في إطار الصراع بين الفرق، وظهرت آثارها في كتابي البيان والتبيين والبرهان في وجوه البيان. .الخ، وللبلاغة العربية، إلى ذلك، أصول محلية شعرية ونحوية وعقدية متأثرة، إلى هذا الحد أو ذاك، بالتراث المنطقي والمعرفي اليوناني.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية نحن نعلم أن البلاغة الغربية الحديثة قامت على إعادة قراءة التراث القديم قراءة فاحصة في أصوله اليونانية واللاتينية، وفي ما نقل إلى اللاتينية أو العبرية من أعمال العلماء والفلاسفة المسلمين. فالتأثر والتأثير سنة حضارية مستمرة. المشكل يكمن في أنهم انتبهوا إلى غنى التراث القديم فقاموا بإعادة قراءته وتقويمه وبنوا عليه نظريات حديثة ثم جئنا نحن متأخرين نعيد اكتشاف غنى تراثنا من خلال ما يقدمونه لنا من تصورات جديدة وأدوات بحث فعالة. وبعضنا يأكل النعمة ويسب الملة.

• النسق البلاغي العام والمشترك بين بلاغة التخييل وبلاغة التداول هو (الاحتمال). ألا يقترب هذا النسق من نسق علم البيان، ومن نسق الإنشاء في علم المعاني، بينما يبتعد عن بقية أنساق المظاهر البلاغية التي عرفت في باقي علوم البلاغة كـ(الخبر) على سبيل المثال؟

• • (أسايركَ لحظةً قصيرةً في طرح المسألة، فأسألك عن تعريف الخبر؟ لا شك أنك ستقول: «الخبر: كلام يحتمل الصدق والكذب». أقول لك احذف

المتضادين لأنهما مجرد محتوى (الصدق والكذب)، فماذا بقي؟ بقي: «الخبر: كلام يحتمل..». ولو سألتك: «ما الإنشاء؟» لقلت:«الإنشاء كلام لا يحتمل الصدق والكذب». فهذا بعكس ما قلتَ. نسد القوس ونعود إلى الجوهر.)

المسألة دقيقة، ولذلك نقول باختصار: مسألة الاحتمال تهم «عوالم الكلام» و«مقاماته». فعالم الشعر هو عالم المُتخيل الذي لا يتطلب إقامة حجة من الخارج، بل حجته فيه، كما قال عبد القادر الجرجاني. لا أعتقد أن أحدا على مدى ألف سنة طالب أبا الطيب المتنبي بإقامة حجة على قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

ولا شهرزاد على حكاياتها المتعاقبة.

و«مقامات» الخطاب التداولي (الخطابة) ترتبط بأهواء الناس ورغباتهم وقبولهم ورفضهم. فنحن نراعي في الخطاب الحجاجي أحوال المُستمعَات (على وزن مجتمعات)، لا الحقائق الرياضية أو المخبرية. هذا مَكمن الاحتمال حتى ولو استعملنا حججاً منطقية قطعية.

وقد بسَّطنا فقلنا : الشعر (التخييل) كذب يحتمل الصدق، والخطابة (التصديق) صدق يحتمل الكذب. يمكن أن يستعمل الخطيب حججاً منطقية ولكنها تظل احتمالية بسبب أحوال المتلقين.

• لقد فهمت الاحتمال على أنه الانفتاح الدلالي.

• • وهو من ذلك: الشاعر يفتح، (أو يدعي أنه يفتح) والمتلقي يحاولُ أن يُغلق باحثا عن معنى محدد، والخطيب يُغلق (أو يوهم بأنه يُغلق) ولكن المستمَع (المتلقي) يفتح مُعترضا على الادعاء بادعاء آخر.

• إذا كانت البلاغة العربية والبلاغة الجديدة قد استوعبتا التخييل والإقناع والتأويل، فكيف يقول (بول ريكور): إنه ليس من الممكن قيام علم يستوعب الشعرية والخطابية والتأويلية؛ أي التخييل والإقناع والتأويل؟

• • هذه وجهة نظره، وأنا أتبنى، كما ترى، وجهة نظر أوليفيي روبول المعارضة لها، أدعمها بواقع البلاغة العربية التي تمد الجسور بين المجالين. أنا لم أُدخل التأويلية أصلاً في النقاش، لأني لا أعتبرها في نفس السلم المنطقي الذي

تتقابل فيه البلاغة (بالمفهوم الأرسطي، أي الخطابية) والشعرية. الاتجاه الحديث، نحو «علم الخطاب»، يقتضي استغلال المنطقة الواسعة التي تتقاطع فيها الشعرية والخطابية لإنتاج علم يقف نداً لعلم الطبيعة والرياضيات، علم الاحتمال. وبهذا الأفق تتطلع البلاغة إلى أن تصير فلسفة العصر الحديث. العلم الذي تتقاطع فيه كل العلوم وتستقي منه ما يمد الجسور بينها وبين الإنسان. ومن حق فيلسوف، مثل ريكور ألا يوافق على هذا الطموح الإمبراطوري الزاحف للاستيلاء على أراضي الفلسفة.

وعموما فقد بسطنا المسألة حين قلنا بأن الشعر كذب يحتمل الصدق، والخطابة صدق يحتمل الكذب، كذب وصدق على وجه الادعاء.

• إذا كان (بول ريكور) قد توصل إلى أن هناك «خطابة في الشعر وشعراً في الخطابة (...)، وأن الشاعر لا يحاجج بمعنى الكلمة؛ حتى وإن كانت شخصياته تحاجج. فالحجاج يساهم في حدود تنمية الحبكة»، هل ينطبق قوله هذا على الشعر العربي الذي عرف من المحاجحات أفناناً كثيرة؟

• تداخل الخطابة والشعر (التصديق والتخييل) ليس مما توصل إليه بول ريكور، بل تحدث عنه حازم القرطاجني قبله بجلاء ووضوح أكبر، وقد استشهدنا برأيه مراراً، وينبغي العودة إلى تأمله في منهاج البلغاء. اعتقد أنه لكي يسهل فهم كلام بول ريكور ينبغي استحضار الحجاج في الشعر المسرحي، فهذا هو العالم الشعري الذي يفكر فيه، وتلك هي الشخصيات التي يقصدها. أما الكلام المنظوم الذي لا يدخل في عالم المتخيل فلا يُستحضر في سياق التنظير وإن وقع استيعابُه وتفسيره كظاهرة تاريخية، فهناك من يعتبر الشعر القديم، ما قبل الرومانسية، شعراً خطابياً لم يع نفسه بعد. وقد قيل للكميت: ما أنت بشاعر بل أنت خطيب. وذلك لاحتواء شعره على مرافعات. وقد عرضنا لهذا في أكثر من سياق.

• كأنك بدراستك لمختارات أبي تمام تريد- وإن كان ذلك بشكل غير مصرح به - أن تدعم أطروحة إدريس بلمليح للدكتوراه أو تعدلها. فإذا كان كلاكما قد اتخذ من التلقي منهجاً للمعالجة، فإنك انتهيت إلى أن عمل أبي تمام نقدي قرائي وعمل شارحه المرزوقي تأويلي؛ أي أنه تمكن من اكتشاف الأسس التي قام اختيار

أبي تمام عليها، بينما انتهي بلمليح إلى أن عمل أبي تمام تغريضي وعمل المرزوقي تأويلي، فيا ترى أين - بالضبط - أردت أن تمسك بتلابيب الأستاذ بلمليح؟

• • ساهمتُ في فحص ومناقشة أطروحة الأستاذ بلمليح حين تقدم بها لنيل الدكتوراه بكلية الآداب بالرباط، وكانت لي وجهةُ نظر مخالفة في الكثير من موادها، عبرتُ عنها في حينها، وكنتُ قد كتبت في الموضوع قبل ذلك بكثير، ولا أتذكر الآن أين التقينا ولا أين اختلفنا. ومن عادتي، كما تُلاحظ في مجمل أعمالي، ألا أدخل في لجاجة مع مَن أختلفُ معهم، بل أُقدم البديل الذي أراه مناسباً وأترك التقدير والحكم للقارئ. ولو عرضتُ كل وجهات النظر التي أختلف معها، أو اعتبرها غير وجيهة في مجموع القضايا التي عالجتها في كتاب: البلاغة العربية، لتضاعف حجمه، ولكنت شوشتُ على القارئ بما لا طائل منه. إن الكتاب يُفكك مثلا قضية التفاعل مع التراث اليوناني دون أن يقف لوضع الإصبع على تهافت حجج القائلين بعدم التأثر ولا القائلين بالتبعية المطلقة يقيناً مني بأن الخطابين فاسدان من الأساس (التأثير والتأثر سنة كونية)، وأن القارئ سيكشف ذلك تلقائياً من خلال المعطيات.

• لقد رأيتَ أن المقصدات من المختارات (الرواية) ترتبط بالتقاليد بينما ذهب أبو ديب في الرؤى المقنعة إلى غير هذا الرأي حينما درس المفضليات وغيرها من المختارات. لقد وقعتُ في إشكال بينكما فكيف تخرجني من هذا المزلق؟

• • لم أطلع على وجهة نظر الأستاذ كمال أبو ديب لكي أعلق عليها. اِعْتبرْني مخطئاً، وتوكل على الله، ما جعلَ عليك في العلم من حرج.

• ما رأيُك في النتيجة التي تقول: إن المقصدات تؤسس لثقافة جماهيرية شعبية بينما المقتطفات أو المقطعات تؤسس لثقافة نخبوية؟

• • هذا كلام غامض، لم أفهم المقصود منه.

• أقصد أن المختارات التي تتبنى القصائد تسعى إلى تأسيس أُفقِ تَلقٍّ واسع النطاق بينما التي تتبنى المقتطفات الشعرية تؤسس لأفق تلق محصور في النخبة.

• • في هذه الحالة أنا سأفترض العكس، وهو أن المختارات أكثرُ حظًّا في الوصول إلى أوسع جمهور. فالاختيار يتجه إلى الأبيات والمقاطع الأقرب إلى

لغة العاطفة والعقل بعيدا عن الخصوصيات البيئية المرتبطة بعصر بعينه، يتجه إلى الحِكم والأمثال والتشبيهات الموفقة ...الخ. وهذه هي النصوص التي يحفظها النَاس ويتداولَونها، أما النصوص الكاملة فلا يتجشم عناءها غيرُ الباحثين المختصين. ما الذي نحفظه ونتداوله اليوم من معلقتي زهير وطرفة مثلا؟ ما يتعلق بالحكمة والتأمل في الكون، وقل نفس الشيء عن شعر أبي الطيب المتنبي. كل عصر يختار من الشعر القديم، والتراث عامة، ما يراه قابلا للرواج على أوسع نطاق، وهو ما يوافق ذوق العصر ويترك ما سوى ذلك من خصوصيات البيئة والبنية الفنية للدارسين، أي للنخبة. هذا ما أراه، والله أعلم.

ترجمات

• لقد كان هنريش بليث في كتابه الذي ترجمته له (البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص) أقرب إلى الأسلوبية منه إلى السيميائية، خاصة أنه لم يكمل مشروعه بالجانب الدلالي ولا بالجانب التداولي. فتركيزه على كيفيات التشكل اللغوي للأدب عطل عليه كيفيات إنتاج الدلالة؛ أي أنه نظر إلى البلاغة نظرة تهتم بكيفيات اشتغال اللغة من زاوية محايثة وتقنية فقط، فكيف نقول عن عمله بأنه سيميائي؟

• • تلك الدراسة ملخصٌ لعمل ضخم، وقد نُشرت ضمن كتاب جماعي حول نظرية الأدب. وقيمة الدراسة كبيرة جداً بالنسبة للباحث في البلاغة العربية، فهي ترسم خريطة طريق. قامت بتقديم مكونات البلاغة القديمة وتوجهات الأسلوبية الحديثة مبينة غيابَ البعد التداولي في الأخيرة، مناقشةً تهمة المعيارية في الأولى. وقد ترجمتها بدافعين: الدافع الأول تقديم نموذج نقدي لقراءة البلاغة والأسلوبية، وهو نموذج مفتَقد في العالم العربي. والثاني: تقديم منظومة مصطلحية مقارنة بين البلاغتين. أما القول بقربها من الأسلوبية أكثر من السميائيات فيتجاهل أمرين: أولهما افتقار الأسلوبية إلى البعد التداولي الذي استعان الباحث بالبلاغة القديمة لتداركه، والثاني التركيز على العنوان الثانوي، فالعنوان هو: البلاغة والأسلوبية، ثم تحته بخط رقيق: نحو تحليل سميائي... الخ، فلكلمة «نحو» قيمة ودلالة، إنها إشارة إلى بداية الطريق وليس في نهايته.

وهذا العنوان الثانوي من اقتراح المترجم، وعليه وزره إن كان فيه وزر، هو ترجمة للقسم الثالث من الكتاب الذي عنوانه: «نموذج أسلوبي جديد: التحليل السميائي». (ص65).

• ولكن إسقاطه للبعدين الدلالي والتداولي من التحليل هو ما جعلنا نفترض ذلك.

• • تحدث عن «الصور الدلالية (أو الميطادلالة)» (ص80_95) مُنطلقا من تصور ياكوبسون قائلا: «ونتيجة هذه العمليات هي: مجازات التشابه، أي الاستعارات، ومجازات التجاور، أي الكنايات، وجميع المجازات الأخرى تابعة لهذين الصنفين الأساسيين». وقد قارنا في الحاشية هذا التصور بتصوُّر لعبد القاهر الجرجاني أورده في الدلائل. وتحدث عن «الصور التداولية..»[353] قائلا: «لقد حددت الصور التداولية باعتبارها انزياحا بالقياس إلى معيار التواصل اللساني..». الكتاب اجتهاد في نقد البلاغة والأسلوبية، وتقديم نموذج أسلوبي جديد سماه: التحليل السيميائي.

• كيف تقيم ترجمة أحمد درويش لكتاب جان كوهين (بنية اللغة الشعرية) مقارنة بترجمتك أنت والأستاذ محمد الولي للكتاب نفسه بعد هذه السنوات؟

• • سمعنا بترجمة الأستاذ أحمد درويش بعد الانتهاء من ترجمتنا لكتاب بنية اللغة الشعرية الذي حصلتْ دار توبقال للنشر على حقوق نشر ترجمته العربية. وكان من المنتظر أن يقوم الدارسون بالمقارنة بين الترجمتين لصالح القارئ. وقد نفذتْ الطبعةُ الأولى من الكتاب منذ سنوات. لعلَّ المقارنة بين الترجمات من أحسن الموضوعات التي يمكن أن تُتخذ بحثا للدكتوراه، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون.

مُهمٌّ جدا أن يكون المُترجم عالما بنسق القضية التي يُترجمها. هذا ما ساعدني كثيراً في ترجمة القسم الأول من كتاب بنية اللغة الشعرية، المتعلق بالانزياح في البنية الصوتية، إذ كُنتُ بصدد إنجاز دكتوراه الدولة في نفس الموضوع، فكنتُ على علم بمراجع كوهن وخلفياته العروضية واللسانية. وكان الأمرُ كذلك بالنسبة

353 ـ البلاغة والأسلوبية ص 99ــ105.

للأستاذ محمد الولي الذي ترجم القسم الثاني المتعلق بالانزياح الدلالي؛ إذ كان قد قرأ كثيراً في الموضوع في إطار إنجاز دبلوم الدراسات العليا في موضوع الصورة الأدبية، وقد بذل فيه جهداً كبيراً. ثم راجع كل منا عمل صاحبه مراجعة دقيقة فيها الكثير من الحماس والتحدي، إذ كنا في بداية إثبات الذات. فإن وفقنا فالحمد لله.

• لك مقترحات اصطلاحية لاقى بعضها حظه من القبول والتداول كمصطلح (انزياح)، وبعضُها الآخر لم يلق قبولاً ولا تداولاً كمصطلح (مسْتَمَع). ترى كيف يتخلق المصطلح؟ وكيف تتم صناعته لديك؟

• • «الانزياح» واحد من عدة ألفاظ (مثل: العدول والفجوة والبعد...) اقترحها الباحثون العرب لترجمة لفظ écart الذي قدمته الشعرية البنيوية اللسانية لتفسير الشعرية، كما في كتاب بنية اللغة الشعرية لكوهن. حلّ هذا المفهوم محل مفهوم «المحاكاة» الأرسطية، وبُنيت عليه نظرية كاملة لتفسير الشعرية في مفهومها الواسع، وكان الوجهَ الآخر لعملية الانزياح هو مفهومُ الغرابة étrangeté. وقد ساهمنا نحن، (في مجلة دراسات سميائية، وفي ترجمة كتاب كوهن المذكور، وترجمة هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، وغيرهما،) في ترجيح هذا اللفظ وتكريسه حتى نفى الألفاظ الأخرى من الميدان. وقد كانت مجلة دراسات أدبية قد خصصت محوراً لنظرية الانزياح كان له أثر. لقد شاع المصطلح وترسخ لأن النظرية توضَّحت وشاعت. أما مُصطلح «مُستمَع» فشأنهُ شأن مصطلحِ «خطابية» ومصطلحات أخرى، مازالت في حاجة إلى وقت لكي تستقرَّ، أو يحل محلها ما سيُعتبر أصلحَ منها. لماذا؟ المغاربة يقولون: «لا يعرف ما في المزود إلا من ضرب به». هناك تشقيقٌ لمجال دلالي دقيق تتنازعه عدة ألفاظ في اللغة التي بنيت فيها النظرية، وهي بالنسبة إلينا الفرنسية ثم الإنجليزية. هذه الألفاظ هي: situation وcontexte وauditoire. الأول يترجم عادة، أو إجماعاً بـ «مقام»، والثاني بـ «سياق». فبماذا نترجم الثالث؟. البعض يقول: المستِمع (بالكسر) وجمعه المستمعون، والمقابل لهذين اللفظين في الفرنسية التي أُحاورها هو: auditeur(s). فكيفَ أصنع حين يَرِد اللفظان في جملة واحدة؟ (الخبازون يقولون: الأمرُ هين اخبزها في إناء واحد). وهناك من يقول: الجمهور، وهذا لا يستحق التعليق، لأنه

خرج عن مجال اشتقاق اللفظ. هناك من لا يفرق بين situation وauditoire ونحن لا نعتقد أن العلماء الفحول، من طينة بيرلمان، كانوا يعبثون حين فرقوا بينهما. لن نفكر في الحل حتى نحس بالسؤال، لن ينتشر هذا المصطلح أو ما يحل محله حتى يتم الوعي العميق بنظرية الحجاج. كلمة «مستمَع»، مثل auditoire، تجمع بين الأصوات التي تدل على السمع، وبين الصيغة الصرفية التي تعني المكان، والاستماع في مكان يستدعي الزمن. فالمستمع ببساطة مُخلة هو جمهور يستمع في سياق زمني ومكاني محددين، على درجات من العمومية والخصوصية. وهنا بحث عن المستمع الكوني حيثُ يُهيمن العقل ويسود المنطق بدل هيمنة السيكولوجية والانفعالات: الإيطوس والباطوس.

مصطلح «الخطابية» لا مفر منه لمن ينقل لفظ «rhétorique» للغة العربية. لأن هذا اللفظ لا يعني ما تعنيه كلمة بلاغة في اللغة العربية في جميع سياقاته. فهو يعني في السياق الأرسطي فن الخطابة في مقابل فن الشعر. وذلك ما فهمه المترجم العربي القديم. ولذلك فمن الدقة أن نفعل مع ريطورية أرسطو ما فعلناه مع شعريته دفعاً لكل غموض: فنقول شعرية وخطابية. الفرانكوفونيون والأنكلوفونيون لا يجدون صعوبة في الانتقال من معنى إلى معنى حسب السياق، ونحن نخبط خبطَ عشواء. فمنا من يترجمها «بلاغة»، ومنا من يتحرَّج فيترجمها «خطابة» فيزيد المعنى عماء، ومنا من يقول «بلاغة الخطاب الإقناعي»، ومنا من يقول «بلاغة الحجاج» . .إلخ. ما لم يُدرك النسق لن يدرك الغرض من المصطلح ونحن متسرعون نفضل الانتقاء والقشور.

• هل لك أن توضح لنا الفارق بين سكك لمصطلح (الإنشائية)، الذي يعني عندك (الشعرية)، وبين سَكِّ الدكتور فهد عكام للمصطلح نفسه في ترجمته لمفهوم (الأدبية) حينما نقل كتاب جان لوي كابانس (النقد الأدبي والعلوم الإنسانية) إلى العربية؟

• • الذي قمتُ به أنا هو مجرد إعادة الاعتبار لمصطلح قديم أصابه شيء من الابتذال حين استُعمل في المجال البيداغوجي: تمرين التلاميذ على التعبير الكتابي. فحين نبحثُ عن بلاغة عامة نحتاج إلى لفظ عام يدل على ما يقوم به الشاعر والكاتب والخطيب، . فنحن نقول: الشاعر والخطيب والكاتب والروائي

والسيناريست وكاتب النص المسرحي. . .الخ، ثم نحتاج إلى اللفظ الذي يجمع كلَّ هذه الممارسات، ويدل عليها، لكي نصوغ حوله بلاغة عامة. الفرنسيون يستعملون لفظ «إنتاج»: إنتاج النص la production du texte، ويستعملون لفظ المؤلف: auteur للدلالة على الذي يقوم بهذا الإنتاج. ووضعنا في العربية أحسنُ لأننا سنشتق الفاعل من الفعل نفسه، فنقول: الإنشاء والمنشئ. ولذلك فإنني لم استعمل الإنشاء مقابلا للشعرية، بل الإنشاء يضم الشعرية والخطابية وكل إنتاج بلاغي. وهكذا يقترب لفظ «إنشاء» من المعنى الفلسفي للبوتيكا عند أرسطو في نظر من يجعلونها قسماً من الأقسام الكبرى في نظريته المعرفية، وليست تلك البويتيكا التي تحدث فيها عن الشعر الملحمي غيرَ جزء منها، فانتبه إلى هذا الفرق.

أما جعل الإنشائية مقابلا للشعرية فوجهةُ نظر لا مشاحَّة فيها. قد تصطدم بالمفهوم الدقيق للأدبية الذي يعني جوهر الشعرية. وقد نبه بعض الدارسين إلى عدم دقة الترجمة الفرنسية والإنجليزية للكلمة الروسية التي ترجموها بلفظ littérarité، وترجمناها نحن حرفيا بالأدبية. وليس لدي ما يسمح بالحسم في الموضوع، ولكن السياق العام لعمل الشكلانيين ينصرف إلى الخصوصيات الشعرية، وأنا أريد من الإنشاء أن يدل، كما سبق، على كل إنتاج بلاغي قبل الدخول في الخصوصيات الشعرية والسياقية وغيرها. فاستبقوا الخيرات.

• التعصب للمصطلحات المسكوكة في المغرب العربي كـ(السيمياء)، ما مسوغاته؟

• • لا علم لي بأي تعصُّب في هذا الميدان: مَن المتعصب وضد من؟. هناك فراغٌ يجتهد الباحثون في مَلئه، والبقاءُ للأصلح. الذي أعلمُه هو أن المغاربة استعملوا لفظ السميائيات (وأنا أحذف الياء الأولى تخفيفاً، كما في عنوان مجلة: دراسات سميائية) قياساً على اللسانيات والتداوليات. . .الخ. فمن المفيد أن تكون الصيغ الصرفية للعلوم المتجاورة متقاربة. وحين يقتضي المقام استعمال اللفظ الآخر المنافس فإنه يُستعمل بدون حرج، كما وقع حين ترجمنا دراسة لِمارسيلو داسكال تحت عنوان: الاتجاهات السِّميولوجية المعاصرة. فقد احتفظنا بَاللفظ الذي استعمله المؤلف. واستعمال السميائيات بدل السميولوجيا قد يكون مبرراً باتجاه دولي بدأ أواخر الستينيات، لا يتسع المجال للخوض فيه.

• أنا أشير بذلك إلى ورود هذا المصطلح عند ابن خلدون. أما عن صلاحية مصطلح السيمياء فهناك من يتهمه بالعجز عن الإشارة إلى الفارق بين السيميولوجيا والسيميوطيقا.

• • ربما.

• كيف تختار ما يجب أن يترجم؟

• • كل ما ترجمتُه داخلٌ في أسئلة حارقة في وقتها: **البحثُ عن المنهج**. وكانت المناهج تمر بسرعة خارقة في الجامعة المغربية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي. أترجم لأتعلم أولاً، لأدخل في حوار جدي مع الآخر. اقتنعتُ مبكراً بأن القراءة العابرة لن تعطي شيئاً بالنسبة لمعرَّب مثلي مُشبع بثقافة عربية وإسلامية منغلقة على نفسها. فأنا خريج معهد إسلاميٍّ كانت نوافذه كلها إما مغلقة أو مفتوحة نحو رطوبة الداخل ودهاليزه. كان علي أن أقوم بثورة على نفسي أولاً. بذلت جهداً كبيراً في تملك لغة أخرى ثم الحوار معها عن طريق الترجمة. عن طريق الترجمة اكتشفتُ قيمةَ الفكر النسقي، واكتشفتُ أني لم أكن مخطئاً في عدم اقتناعي بالكثير مما يُكتب في النقد الأدبي العربي الحديث. أسيرُ نحو هدف، استغل وقتي كله، ولا أهتم بالزمن.

من وحي مؤلفاتك:

• كثير من الكتاب المغاربة، وأنت واحد منهم، متأثرون بنظرية غرامشي عن المثقف العضوي، فما هو السر وراء هذا الزخم المعرفي الذي يلامس معظم العلوم، إنسانية كانت أم طبيعية، كما يلامس الواقع من خلال حراككم الثقافي والسياسي الفاعلين في الحياة والناس؟

• • هناك سياق تاريخي معقد أدى إلى حدوث شرخ بين ما نسميه في المغرب المخزن وبين القوات الحية التي قادها القوميون السلفيون (مثل علال الفاسي) قبل أن يتسلم زمامها القوميون الاشتراكيون (مثل المهدي بن بركة والفقيه البصري). كان رجال التعليم من الابتدائي إلى الجامعة يشكلون العمود الفقري لقوى المعارضة. هذه هي البيئة التي تشبعنا فيها بالفكر الثوري الجماهيري والوجودي التحرري. وليس غرامشي غير تفصيل من تفاصيل هذا

التوجه. أنا شخصياً انبهرت في المرحلة الجامعية بلينين وسارتر وإينجلز، ولم استطع أن أنسِّبهم (أي أضعهم في سياق التطور التاريخي) إلا في مراحل متأخرة.

وأنا أفضل الآن أن أنسب إلى فئة من العلماء القدماء، عرف المغرب نموذجاً رائعاً منهم، على أن أنسب إلى غرامشي أو غيره ممن في سياقه. تلك الفئة من العلماء التي تجمع بين صفتين: الدراية والعمل. أفضل أن أكون عالماً عاملاً، وأميل إلى الدراية والنقد بدل الرواية وتركيم المعارف. العالم الذي أشرت إليه هو أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، فقيه متصوف، كأن أنبغ معاصريه، عاصر السلطان إسماعيل وقارع جبروته في رسالتين مشهورتين. وقد كان هذا العالم سندي في فترة الاعتقال والتوقيف عن العمل. لم تكن صورته تفارقني. وقد احتفلت بهذا العالم في مناسبات عدة.

• هل لك أن تحدثنا عن ملابسات هذا الاعتقال والمدة الزمنية التي قضيتها في السجن؟

• وقعَ الاعتقال والمحاكمة في إطار إضراب رجال التعليم سنة 1979. كنتُ عضوا في المجلس الإقليمي للنقابة الوطنية للتعليم بالدار البيضاء. كان يهيمن عليها مناضلو الاتحاد الاشتراكي وفلول الجبهة الماركسية الذين أفلتوا من اعتقالات سابقة، كانت الوضعية حرجة. قضيتُ ثلاثة أشهر في السجن المدني بالدار البيضاء، وتم توقيفي عن العمل مدة سنتين. وقد أعيد إلي الاعتبار سنة 2000 ضمن ملف الإنصاف والمصالحة.

• ألا يذكرك غيابُ الجزء الأول من كتاب حازم القرطاجني بغياب الجزء الخاص بالشعر الغنائي عن كتاب أرسطو؟ وهل يعني هذا أن للأعمال العظيمة مصائر متشابهة؟

• • هذه ملاحظة لطيفة، تدعو إلى التأمل: كيف يحدُث أن تُبتر كُتب بهذه القيمة ويتناسخ الناس مئات، بل آلافاً من الصفحات من كتب أقلَّ قيمة، بل من كتب سخيفة؟! هل هي كتبٌ صدرت قبل أوانها، وكان عليها أن تنتظر قروناً لكي تجد من ينتبه إليها ويحفظ ما بقي منها، أم هناك أسباب أخرى؟ لست أدري. إنها، على كل حال، كتبُ دراية، وليست كتب رواية تستهوي الجمهور.

أضف إلى هذه الحالة الطريقةَ التي وصل بها كتابان مؤسِّسان للنحو القديم واللسانيات الحديثة، هما: الكتاب لسيبويه، واللسانيات العامة لدو سوسير.

• في خضم النظريات والمناهج والمصطلحات الكثيرة والمتلاحقة لم نعد نستطيع تمييز الخط الفاصل بينها؛ بسبب تداخلها وتعانقها، هذا إذا لم نقل تصالبها، وليس هناك من دليل على ذلك أوضح مما قدمته أنت عن العلم الشامل للخطاب، الذي وجدناه في علم النص وسيميائيات النص والبلاغة الجديدة. من وجهة نظرك كيف نستطيع الخروج من بلبلتها وتشابهها الذي يصل إلى حد التماهي؟

• • لا بد من الاعتراف بأن النظريات الأدبية والبلاغية قد تطورت في الغرب في ظل نظريات علمية (سوسيولوجية ولسانية ونفسية ومنطقية... الخ) وتوجهات أيديولوجية (يمينية ويسارية)، قد نستحضر جوانبَ منها وقد لا نستحضرها، الكل يحاول أن يبسط نفوذه على مجال الخطاب. ومع ذلك فإن العلم يجتهد دائماً للخروج من إسار الضرورات والإكراهات الخارجية والاتجاه نحو خصوصياته الذاتية؛ قد يفعل ذلك بشكل متشنج فينتقل من النقيض إلى النقيض: فقد نشأت الشكلانية في روسيا معتمدة اللسانيات كرد فعل على الهيمنة السوسيولجية الماركسية، وقد يفعل ذلك بشكل هادئ، وتلك هي القاعدة. وبذلك تسافر المذاهب بين البيئات المختلفة، فتتعانق الشكلانية مع الأنطروبولوجية مثلا (ياكوبسون وليفي ستراوس).

ولكي نميز المنهج الإجرائي ينبغي مبدئياً تحديد خصوصية الموضوع، وهذا ما يجعلني أعودُ في آخر المطاف إلى تعريف البلاغة مشيراً إلى معناها الأول كصفة لخطاب محدد، أي للإنشاء، ومعناها الثاني كعلم يتخذ الإنشاء موضوعاً له. حين نحدد الموضوع بهذا الشكل سنجد أن سميائيات النص وعلم النص لا يقفان عند الخطاب البلاغي الذي يتصف بصفتي «الاحتمال» و»التأثير»، بل يخوضان في قضايا لسانية وسميائية عامة، وهذا يشوش على الوظيفة البلاغية.

علم النص امتداد لساني إلى المجال البلاغي وسميائيات النص امتداد سميائي، وكلاهما يعتبر المجال البلاغي هامشاً ملحقاً بمجال اختصاصه. من حقهما ذلك، ولكن البلاغة شيء أكبر من ذلك. إنها علم الخطاب الاحتمالي المؤثر تخييلاً أو تصديقاً، إنها علم قائم الذات.

• إن كتابك بلاغة الخطاب الإقناعي يثير في نفسي تساؤلاً لم يتطرق إليه الكتاب، هذا التساؤل يقول: ما الذي جعل الخطابة اليوم غير مقنعة، رغم أنها تتوسل بكل أدوات الإقناع التي عرفت في الخطابة القديمة وبغيرها من الأدوات الإقناعية التي استجدت؟

• • العالم اليوم ضحيةُ الخطابة! الشعبُ الأمريكي كله مُضلَّل بالخطابة الدعائية الصهيونية (اليهودية والمسيحية). العالم يبكي على جندي معتد من جنود الاحتلال اسمه شاليط ولا يلتفتُ بتاتاً إلى أكثر من عشرة آلاف من المواطنين الفلسطينين المعتقلين في إسرائيل بفعل تلك الدعاية. الرأي العام يُصنع اليوم صنعاً بفعل الخطابة. ولو لم يكن للخطابة تأثيرٌ لما أنفقت عليها كبريات الشركات العالمية ملايير الدولارات. الدعاية الخطابية الإشهارية التي تضرب على رأس المواطن العربي ليل نهار هي التي تجعله لا يثق في شيء، حتى في نفسه. إننا في عصر الخطابة.

• أنا أنظر إلى الخطابة على أنها جزء من الدعاية، كما أنني قصدت الخطابة في بعدها الشفوي وفي نطاقها العربي.

• • الدعاية تتم من خلال الخطاب، الدعاية وظيفة من وظائف الخطابة. الخطابة العربية الحديثة فعالة في التضليل.

• هل يمكن القول: إن الخطابة تعد نتاجاً يتلاءم مع المجتمعات الديمقراطية، وإن الشعر ـ وبالذات الغنائي ـ يعد من الإفرازات التي تتواءم مع المجتمعات الديكتاتورية؟

• • ضع السؤال على التاريخ وسيجيبك بأنْ ليست هناك قاعدة مطردة في هذا المجال. ربما ارتبطت الخطابة القضائية بظروف سيادة القانون والحوار، كما وقع عند اليونان بعد انهزام الطغاة، ولكن قد تزدهر خطابة سياسية قائمة على المنافرة في ظرف سياسي غير ديموقراطي كما وقع في العصر الأموي، العصر الذهبي للخطابة العربية. وقد تزدهر خطابة استهوائية في جميع البيئات كما هو الحال اليوم، خطابة الإشهار، الخطابة حاجة اجتماعية.

أما الشعر فحاجة نفسية مثل الموسيقى والرقص يفيض في كل بيئة بلون. ولا أعتقد أن الشعراء الذين أنتجوا الموشحات الأندلسية كانوا يستحضرون أية دكتاتورية. . .الخ ونفس الشعر يقال في الأراجيز والرعويات الأموية: ذو الرمة

والعجاج . . . الخ. عندما مدح ذو الرمة عبد الملك بن مروان بقصيدة انشغل فيها بناقته إلى البيت ما قبل الأخير حيث أشار إلى أنها بلغته إلى الخليفة، اسأل علم النفس عن هذا السلوك، وعن غضب الخليفة وقوله: «ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك، فخذ منها الثواب».

• لقد وجدتُ تطابقاً يكاد يكون شبه تام بين عمل إدريس بلمليح في كتاب الرؤية البيانية عند الجاحظ وبين عمل محمد الصغير بناني في كتابه الموسوم بالنظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، ورغم تقدم الأخير على الأول إلا أننا وجدناه لم يشر إليه بتاتاً.

• • ليس لدي تعليق. يحسن أن يُسأل المعنيان بالأمر. ربما وقع الحافر على الحافر! اللهم لا توقع حافرنا على حافر غيرنا

• لقد ظلم السكاكي كثيراً حينما حملوه إثم تجزيء البلاغة العربية، ولكنه في الحقيقة كان صاحب مشروع متكامل، قدم من خلاله الأدوات التي يجب على الناقد أن يتسلح بها حينما يأتي إلى تحليل أي نص. هذا ما يستوحى من كلامك عن السكاكي فما مدى تأكيدك لهذا الرأي؟

• • الذي وضَّحتُه في كتاب البلاغة العربية، ومازلت أعتقده، هو أن السكاكي قرأ عمل الجرجاني في الأسرار والدلائل من آخره، أي ابتداء مما استقر عليه الجرجاني في الدلائل، وهو موضح في الكتاب. وقد وضحتُ أيضاً أن بلاغة السكاكي جاءت ضمن سؤال بسط في المقدمة، وهو البحث عن «علمٍ للأدب». ونحن نعلم اليوم من استقصاء تاريخ البلاغة العربية أن هناك مشروعاً بلاغياً آخر كان ينطلق من نقطة مضادة لنقطة انطلاق الجرجاني هو مشروع ابن سنان الخفاجي الذي سيستوعبه حازم القرطاجني في منهاجه. مشروع الجرجاني ينطلق من المعنى، ومشروع ابن سنان ينطلق من الأصوات، الأول من خلفيات أشعرية تتبنى قدم القرآن وإعجازه والثانية تقول بخلقه وتتبنى الصَّرْفَة، إلى غير ذلك من الفروق المذكورة في الكتاب المذكور. معنى هذا أن السكاكي يمثل رافداً واحداً من روافد البلاغة العربية، رافد الشعر والإعجاز القرآني، في حين يبقى الرافد الآخر الممتد من الجاحظ إلى ابن سنان إلى حازم خارج التغطية. إن استعمال الدارسين اليوم لمصطلحات السكاكي يشوش على التصور العام

للبلاغة: فالبيان مصطلح يعني شيئاً آخر عند الجاحظ، والبديع يعني شيئاً آخر عند ابن المعتز ومن سار في طريقه من أصحاب البديعيات.

• لم تلتفت كثيراً في كتاباتك البلاغية إلى البلاغيين المغاربة، كابن البناء المراكشي والولالي والسجلماسي. واكتفيت بالإفراني. فما السر الكامن وراء غيابهم عن كتاباتك البلاغية؟

• • ليست لدي استراتيجية إقليمية في أي عمل إلا ما شاب اختيار المسلك السهل من رغبة في إبراز نموذج متفرد من البلاغة التطبيقية. التقتْ قيمتُه البلاغية مع رغبة أستاذي الدكتور عزت حسن، متعه الله بالصحة، فقد كان يرى أن من واجبنا نحن الطلبةَ المغاربة الباحثين تحقيقُ تراثنا المحلي الذي كان ما يزال مطموراً. أما بقية الكتب فقد أنتجت داخل استراتيجية تنظيرية وتطبيقية تُعطي الكلمة لمن رفع إصبعه عالياً. ففي كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، لا تجد حضوراً لكتاب مشهور في البلاغة العربية، وهو العمدة لابن رشيق، لأن كتاب العمدة كتاب رواية وتراكم، وليس كتاب دراية: ليس هناك مشروع ومنجز كما في البيان والتبيين للجاحظ، ونقد الشعر لقدامة، والأسرار والدلائل للجرجاني، وسر الفصاحة لابن سنان، والمفتاح للسكاكي، والمنهاج لحازم. وقل مثل ذلك عن كتاب المثل السائر، لابن الأثير... الخ.

أما السجلماسي وابن البناء فقد وضعتهما في مكانهما من تطور البديع: محاولة تنسيق البديع بعد الفوضى العارمة التي وقع فيها نتيجة غياب النسق الجامع بين الصور. إلا أن النسق الذي اقترحاه كان قسرياً، لا ينطلق من جوهر البلاغة وأسئلتها الأساسية، كما فعل الجرجاني مثلاً. والنسق البنائي الرائع لصور البلاغة هو الذي وضعه ابن رشد في تلخيص فن الشعر، وقد أبرزناه في مكانه. أما الولالي فواحد من الشراح يصدق عليه ما يصدق عليهم مما سجلته في مبحث البلاغة المأسورة. أنا أسعد بكل فكرة جميلة ولست مستعداً للي عنق الحقائق لكي استسمن ورم أحد لأسباب غير علمية.

• لم يخضع كتاب حازم القرطاجني ـ كما قلت أنت ـ للشروحات والإيضاحات والتماتن. هل لفكرة الهامش والمركز في الثقافة العربية دور في إهمال صنيع حازم؟

• • إذا قارنا بين مصيري المنهاج والمفتاح، وهما كتابان نسقيان، ربما توضحت لنا الأمور قليلا: لماذا نال أحدُهما عناية منقطعة النظير، وأصاب الثاني إهمال مريب؟

أفترضُ، كبداية للتفكير في الموضوع، أن كتاب حازم عانى من عدة عوائق:

أولُها، صرامته المنطقية التي انعكست على صياغة جمله التي بلغت أحياناً حداً من التعقيد يثبط همة القارئ.

وثانيها، خلوه من الأمثلة الموضحة التي تتكامل مع الصياغة النظرية في إبراز المقصود. وقد سبق لعبض متلقيه تسجيل هذه الملاحظة.

ثالثها، بالمقارنة مع المفتاح، كون المفتاح امتداداً للبحث في نظرية الإعجاز التي برز فيها عمل عبد القاهر، في حين أن عمل حازم سار في مسار ابن سنان بعيداً عن هذه النظرية، بل مناوئا لها.

ويمكن أن نضيف عنصراً رابعاً ما دام الأمر يتعلق بالمقارنة، وهو كون المنهاج اعتمد المنطق أساساً والسكاكي اعتمد النحو. والله أعلم.

• هل يمكن لنا الحديث عن بلاغة كونية، أي هل بالإمكان الحديث عن سيمياء لبلاغة الكون والحياة والطبيعة والمجتمع والأديان... الخ؟

• • سأتحدث بعيداً عن كلمة «سيمياء» لأني أعتقد أن البلاغة مكتفية بنفسها. نعم هناك نزوع نحو بلاغة كونية، هي البلاغة نفسها التي قصدها ابن رشد حين بحث في عمل أرسطو عن المشترك بين الأمم أو أكثرها متخلصا مما هو محلي يوناني. وهي البلاغة نفسها التي تحدث عنها حازم صراحة وسماها «العلم الكلي» لعلوم الإنسان واللسان. البلاغة الكونية هي التي تقدم تفسيراً بنيوياً نسقياً للظاهرة الخطابية في كليتها، أو في جانب من جوانبها، مثل نظرية المحاكاة، ونظرية الانزياح.. ونظرية المقامات الخطابية... الخ

والبلاغة الجديدة عند بيرلمان ومدرسته وعند منظرين آخرين في امتداده، مثل ماير، تكاد تكون فلسفة للعصر الحديث. إنها علم ترتيب القيم، علم تقنين المرونة الإنسانية في الحوار والفن، قبول الاختلاف واللعب والمجاز. لذلك يخشاها المستبدون والأصوليون.

• كيف ترى استثمار كمال أبي ديب لمباحث البيان في دراسة الشعر الحديث والمعاصر في بحثه أنهاج التصور والتشكيل؟

• • مع الأسف لم أطلع عليه، وسأسعى إلى ذلك. وبالقياس إلى اجتهادات الرجل السابقة، فظني هو أن العمل سيكون مفيداً.

• سؤال يلح عليَّ بقوة ولم أجد له إجابة، لماذا أخرج الجرجاني الكناية من أسرار البلاغة وأوردها في دلائل الإعجاز، أو بالأحرى لماذا أخرجها عن البيان وأدخلها في المعاني؟

• • الوجه الثاني للسؤال غيرُ وجيه، في نظري، لأن كتاب الدلائل استرجع مادة الأسرار وكمَّلها بمبحث الكناية قبل أن يدخل في الحديث عن النظم، وقد بينا هذا بوضوح في كتاب البلاغة العربية.

أما لماذا لم يتناول الكناية في الأسرار فراجع في يقيني - والله أعلم - إلى أن عمله في الأسرار قائم، كما بينا في المرجع المذكور، على صياغة نظرية المحاكاة كما تأولها الفلاسفة المسلمون: التشبيه والتمثيل والاستعارة.

• هل يمكن أن ندرس تلقي كتاب فن الشعر لأرسطو من خلال الترجمات العربية القديمة والحديثة؟ وكيف؟

• • «دراسة تلقي» كتاب فن الشعر من خلال ترجماته أمرٌ مشروع وعادي، كدراسة تلقي أي كتاب آخر. فالترجمةُ نوعٌ من التأويل تتناسب قوتُه مع مدى التباس العمل المترجم سواء كان عملاً تخييلياً أو نظرياً. وللتأويل سياقه وبيئاته؛ فكل مؤول محكوم بخلفيته المعرفية الشخصية والإمكانية التي تقدمها الثقافة التي ينقل إليها. ونحن نعرف مدى الجدل الذي أثارته الترجمة العربية للتراجيديا والكوميديا، ونعلم كيف سعى الملخصون، فيما بعد ـ والتلخيص نوع من الترجمة ـ إلى تخليص الكتاب من المحليات اليونانية وإحلال محليات عربية محلها. هذه قضايا عالجناها في فصل خاص من كتاب: البلاغة العربية، قمنا فيه ببيان كيف حول القارئ العربي مركز الكتاب من المحاكاة إلى التخييل. وحين تقرأ بعض الترجمات الفرنسية الحديثة للكتاب تجدها تحككه لفظاً لفظاً، لكل لفظ حاشية تبين الاحتمالات الممكنة للمعنى. حتى لفظ محاكاة اقترحت إحدى الترجمات استبداله بلفظ «تمثيل» représentation.

بل الأمر يعدو «دراسة القراءة» إلى «فهم الكتاب»، فحتى لو كنتَ تعرف اللغة اليونانية، فإنك لا تستطيع أن تستغني بقراءة أصل الكتاب ــ كما يعتقد البعض ــ عن ترجماته وتلخيصاته. فالكتاب ينتمي إلى نسق فلسفي منطقي وبيئة علمية معقدة أكثر من انتمائه إلى اللغة باعتبارها معجماً وتركيباً... الخ.

• من التحقيق إلى الترجمة إلى الدراسات البلاغية إلى التحرير كيف استطعت اكتسابَ كل هذه المهارات؟ وكيف استطعت المزاوجة بين كل هذه الحقول؟

• • سبق ما يُلقي بعضَ الضوء على الظروف التي أَنتجتْ بعضَ أعمالي، وهي تتعلّق في الغالب بظروف التعُّلم والاطلاع وتحقيق الذات، خاصة الترجمة والتحقيق. وبعدَ ذلك بدأ يتوضَّح ما ينبغي عمله من أجل مد الجسور بين تراثنا وحاضر المعرفة الإنسانية. أعتقدُ أن الجزء الثاني من سيرتي الذاتية يجيبُ عن هذا السؤال من زاوية أخرى، من خلال العوائق والعراقل التي كان يجب اجتيازُها لإنجاز كل عمل. لقد كنتُ أيضا حيواناً سياسياً مجروحاً، كنتُ من الذين يعتبرون أن الاستقلال قد سُرق منا، ولم نكدْ نُنهي معركتنا مع نظام الحكم العتيق (القروسطي) حتى ظهرت الحركة الأصولية ساعية لإزاحتنا عن الساحة. كان الجو مشحوناً بالتحدي ولذلك سارتْ جهودي في عدة واجهات، بين البحث الأكاديمي والكتابة الصحفية السياسية والاجتماعية بالإضافة إلى التنشيط العلمي والثقافي (مجلات وجمعيات وندوات)..الخ. رغم أني كنت أعلم أني أتحرك داخل منطقة الخطاب فقد كنتُ أخشى أن أكون «كالمُنبث، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، ولكن شاء الله أن يصُب كل ذلك (الأكاديمي والثقافي) في هذا العلم الكلي: البلاغة... قلَّ أن أُبدي احتفالاً بشيء يتعلقُ بالمال والوجاهة ولكن عندما جاء الاعتراف بمجهودي البلاغي من خلال الحصول على جائزة الملك فيصل العالمية (2007) لم أستطع أن أكتم فرحي، سعدتُ بهذا الاعتراف كثيراً. وقبل ذلك وقع الاعتراف بكتاب تحليل الخطاب البنية الصوتية بتحليته بجائزة المغرب (1990).

• ما الانطباع الذي خرجت به من تجربتك الواسعة في مجال التدريس في مختلف الجامعات (فاس- الرباط- الملك سعود)؟

• • أعتقد أني خُلقت معلماً، فلا أتصور الآن أني أصلح لحرفة أخرى غير التعليم. وقد مارست التعليم بحيوية في المدارس الثانوية قبل الالتحاق بالجامعة. ولكن اللعبة لا تمارس من طرف واحد. فالحيوية التي كانت تعيشها الجامعة في السبعينيات والثمانينيات قد انتقلت إلى المعاهد والمدارس العليا العلمية والتقنية، في التعليم الرسمي والحر. ولا يبقى للكليات المفتوحة ذات الاستقطاب العام (وعلى رأسها كليات الآداب) غيرُ الطلبة الذين أخطأهم الانتقاء، وهم يشعرون أن مستقبلهم العملي (الوظيفي) بين قوسين. لذلك صار العمل في هذا الجو صعباً، فغادرتُ الجامعة مع أول فرصة حفاظاً على رصيدي. هذا عن المغرب.

• وماذا عن المشرق؟

• • أهل مكة أدرى بشعابها. وإن شئت قلتَ: كلنا في الهم شرقُ.

• لا كرامة لنبي في بلده، جائزة واحدة من بلدك وأخرى من السعودية، أشعر أن الأستاذ محمد العمري لم يعط حقه بعد من قبل القائمين على تثمين الأفكار والرجال، وأرجو أن أكون مخطئاً.

حصلتُ على جائزة المغرب للكتاب سنة 1990، ولم أكن أعلم أني مرشح لها، ولذلك اعتبرتها ثمينة، وفي سنة 1992 أقصي كتاب: الإفراني وقضايا الثقافة والأدب، في المرحلة الأخيرة من المداولات بسبب قانوني لا علمي: عدم مرور خمس سنوات على الجائزة الأولى، ولذلك اعتبره حاصلاً عليها. وبعد ذلك أُقصي كتاب البلاغة العربية، بطريقة متعمدة مُتعسفة، إذ بلغني أنه ظل يتنقل بين لجنة النقد الأدبي ولجنة العلوم الإنسانية: لم يقترح للقراءة أصلاً. اعتبر الحصول على جائزة الملك فيصل إنصافاً كبيراً، لمصداقيتها.

• هل كانت تسعة أشهر كافية لأن تكره بلدان المشرق العربي؟

• • لا يتعلقُ الأمر بالكره والحب بتاتاً. إنني لم أعش في وسط جامعي مهادن ومحتضن مثل الذي عشتُه مع الزملاء في شعبة اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، على اختلاف ألوانهم ومشاربهم الفكرية. أحس أنني كنت مقبولاً، على علاتي، من الغالبية، إن لم أكن محبوباً. تأكّد لي هذا من خلال استمرار علاقة الود مع الكثير منهم، ومن الاستقبال الحار الذي خصصوه لي عندما عدت إلى الرياض سنة 2008، للاحتفال بالذكرى الثلاثين لجائزة الملك فيصل.

• فأين يكمن المشكل إذن؟

• • يكمن المشكل في أنني، كما قلتُ سابقاً، حيوانٌ سياسي مشاغب، كثير الانتقاد للأوضاع التي تبدو لي غير منطقية، وهي كثيرة في واقعنا العربي. ويزيد من تعقيد المسألة أن المتنفس الذي اعتدنا عليه في شمال إفريقيا ـ عدا ليبيا ـ وهو اشتراك المثقفين من أوطان مختلفة في انتقاد المجتمعات والحكام غيرُ مستساغ في منطقة الخليج، فتلك شؤون داخلية يتحدث فيها أبناء البلد فيما بينهم. لقد أحسستُ بضياع الجزء المهم من شخصيتي، وهو المساهمة في تقويم المحيط الذي أتحرك فيه. لدي الكثير مما يمكن قوله ولكني اتخذت قرارا بعدم الخوض في شؤون الآخرين إلا ضمن الحديث العام عن القيم الإنسانية. وأتمنى أن يخوض أبناء المنطقة أنفسهم في الكثير من الأسئلة التي يطرحها استقبال الأجنبي في المنطقة، الأمر أحْوجُ إلى دراسات سيكولوجية وسوسيولوجية قد تتحمل الرواية جزءا من تقديمها.

• كنت أحب أن استدرجك بأسئلتي إلى منطقة ملغومة، ولكنك قطعتَ علي الطريق.

• • الأجدر بكل منا أن يبدأ بإصلاح نفسه ومحيطه.

تجربة إصدار المجلات:

• كانت مجلة دراسات أدبية لسانية، ومن ثم مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية اللتين كنت مسؤولاً عنهما، وسائل لردم الهوة القائمة بين التراث والحداثة. فلماذا لم تستمرا ؟ وهل هما امتداد لبعض؟ وما قصة العنونة الملبسة بينهما؟

نشأت مجلة دراسات من مجهود مجموعة من قدماء طلبة كلية الآداب بفاس (1972_1973)، عادوا إلى الكلية أساتذة مساعدين بعد عشر سنوات من تخرجهم (1980_1983). هم محمد العمري وحميد لحميداني ومحمد الولي ومحمد أوراغ. وكان العمل قد بدأ قبل ذلك بلقاءات علمية بحضور زملاء آخرين لم يسايروا المشروع إلى نهايته. كانت المجلة فصلية أكاديمية. وبعد صدور ستة أعداد ظهر شبه فتور من بعض الأعضاء (في تقدير الآخرين)، فقرر محمد العمري وحميد لحميداني ومحمد الولي توقيف المجلة وإصدار مجلة أخرى باسم الثلاثة. في

الأخير انسحب محمد الولي دون إبداء سبب، بعد أن اتفق مع الآخرين على كل الإجراءات ومن ضمنها الاسم.

صدرت مجلة دراسات سميائية باسم محمد العمري مديراً، وحميد لحميداني رئيس تحرير (وأمين مال، كما كان في دراسات أدبية). الشيء الوحيد الذي أضيف هو كلمة «سميائيات» كإجراء قانوني للتميز عن العنوان القديم الذي احتفظنا بجميع ألفاظه. وكنت شديد التحفظ على الكلمة إشفاقاً على نفسي من أن يظن من يراني مديراً لها أني اسم على مسمى، أحد أعلام السميائيات.

توقفت مجلة دراسات بسبب غباء الحكومة المغربية المتأصل، فبجرة قلم فرضوا الضريبة على المجلات الثقافية التي تعيش من تطوع الكاتب والمحرر والمشرف على الطبع ..الخ. أوقف الموزعُ حصة المجلة من المبيعات مطالباً بتكوين مجلس إداري، ورقم ضريبي (الباطانت)..الخ. لم يكن من سبيل لذلك. لقد كان يلزم أن تتحول المجلة، بعد صدور منشوراتها، إلى مؤسسة بجهاز إداري، ولو صغير، يسهر على تدبير مرجوعاتها ومتابعة حساباتها، ولكننا لم نبادر إلى ذلك، فتوسع الخرق على الراقع. بصعوبة استطعنا استخلاص المستحقات المادية وتوقفنا.

وأنا أرجح اليوم أن هذا القرار ــ وقد تم التراجع عنه فيما بعد ــ كان إجراء أمنياً لا اقتصادياً، وقد سبقه قرار أكثر تغليفاً، وإن كان بدوره قاتلاً، حين بادر الموزع إلى رفع حصته من ثمن المبيعات من طرف واحد: من 35 في المائة إلى 45، مرة واحدة. وقصة قمع ما ينشره المثقفون، وهم محسوبون على اليسار، تعودُ إلى سنة قبل منتصف الثمانينيات حين أوقفت الداخلية ثماني مجلات ثقافية وعلمية باعتبارها منشورات تحريضية. كان صدور مجلة دراسات سنة بعد ذلك تحدياً اقتضى استدعاء وتحقيقاً من الجهات الأمنية.

معارك أدبية:

• معركة أدبية طاحنة تلك التي ناجزتَ فيها زميلك ورفيقك وصديقك الأستاذ حميد لحمداني بالمنطق والحجاج العلمي، ترى ما خلفياتها، وهل من معارك غيرها، معه أو مع غيره؟

• • النقاش الذي دار بيني وبين الأستاذ لحميداني محكوم بالمعطيات النصية الموجودة في متنه، وما يخصني من ذلك المتن موجود على الأنتيرنيت. وربطها بأي خلاف آخر لن يلقي عليها الضوء في أي مستوى. وقد أشارَ هو في أحد ردوده إلى أن الكل يعلم أن بيننا خلافاً، أو سوء تفاهم، فوضعتُ أنا في مقالي اللاحق نقطة نظام، ودعوته إلى البقاء فيما يمكن أن يسايرنا الناس فيه، أي الأفكار البلاغية والنقدية.

سيقرأ الناس في الجزء الثاني من سيرتي الذاتية تفصيل تلك الملابسات. وسيجدون، على غير توقع، أنني أشكر الأستاذ لحميداني جزيل الشكر على دفعي بقوة، بل بعنف، إلى تأسيس «وحدة التواصل وتحليل الخطاب»، ثم «وحدة البلاغة الجديدة والنقد الأدبي»، وما ترتب عن ذلك من نعم. لقد منع مائي من المرور في جدول صغير هامشي بوحدة النقد الحديث التي كان سيشرف عليها، بعد عودتي من الرياض، فنَحَتُّ مَجراي الواسعَ في السفح الآخر من الجبل، كونوا كالماء.

هناك حوار آخر مع إبراهيم بن منصور التركي استمر زمناً في جريدة الرياض إلى أن غادرتُها، دار حول وظيفة النقد. وكان المحاوِرُ عاقلاً ومُنصفاً.

أما غير ذلك فإني لا أجد، في الغالب، من يرد عَليَ الصدى، خاصة في الموضوعات الاجتماعية والسياسية حيث أوظف السخرية في الحجاج. أمثلة كثيرة من ذلك في كتاب: دائرة الحوار، وفي كتاب: منطق المخزن وأوهام الأصوليين.

ختام

• دعني أمارس معك لعبة الأسئلة العبثية وأقول: ما الأسئلة التي ما زالت بدون إجابة لديك؟ وما الأسئلة التي لم تسألها بعد؟

• • الأسئلة التي طرحتَها ناتجة عن قراءة ذكية مستوعبة، ولذلك وجدتني مستغرقا في الجواب عنها دون الانشغال بالتفكير في غيرها. ولم أشعُر في أية لحظة ـ وهذا نادر الوقوع ـ أن هناك وجها آخرَ أنسبَ لطرح السؤال. من الأكيد أن استراتيجية أخرى في الحوار ستثير أسئلة أخرى، لا مناسبة لإقحامها هنا.

المصادر والمراجع

أ- مراجع بالعربية

أرسطو (أرسطوطاليس).

أ - الخطابة: ترجمة عبد الرحمن بدوي. وزارة الثقافة. بغداد. 1986.

ب - فن الشعر. ترجمة عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة. بيروت.

- **أفلاطون**. أطفرون. من محاورات أفلاطون.
- **ابن رشد**. تلخيص الخطابة . ت. عبد الرحمن بدوي . دار العلم بيروت.
- **ابن السراج**، أبو بكر البغدادي. الأصول في النحو. ت. عبد الحسي الفتلي. مؤسسة الرسالة. سوريا. 1988.
- **ابن وهب**، أبو الحسن. البرهان في وجوه البيان. تح حفني محمد شرف. مطبعة الرسالة. 1969.
- **ابن البناء**. الروض المريع في صناعة البديع. تحقيق رضوان بنشقرون. الدار البيضاء. 1985.
- **بنيس محمد**. ظاهرة الشعر المغربي المعاصر. دار العودة. 1979.
- **البوشيخي** الشاهد.

أ ـــ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ. دار الآفاق الجديدة. بيروت. 1982.

ب ـــ مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين. دار القلم. 1993.

- التجديتي نزار. «**نظرية الانزياح عند جان كوهن**». **مجلة دراسات سميائية. ع 1. خريف** 1987. ص. 41 ـ 72.
- **جابر عصفور**. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. دار المعارف. القاهرة. 1980.
- **لجابري محمد عابد. بنية العقل العربي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء.**
- **الجاحظ** أبو عثمان. البيان والتبيين. تح عبد السلام هارون. ط4. بيروت.
- **الجرجاني** عبد القاهر

أ - أسرار البلاغة. ت. محمد رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. 1981.

ب - دلائل الإعجاز. ت. محمد رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. 1987.

- **خرماش محمد**. **اتجاهات النقد المغربي. أطروحة دكتوراه**.

- **راجع عبد الله**. **القصيدة المغربية المعاصرة. ج1 . عيون المقالات**. 1987.

- **راضي عبد الحكيم**. نظرية اللغة في النقد العربي. مكتبة الخانجي. القاهرة.

- **الراضي**. رشيد. «الحجاج والبرهان». ضمن كتاب الحجاج. نشر عالم الكتب الحديث. أربد الأردن. الجزء3. الصفحة 185.

- **رؤبة بن العجاج**. مجموع أشعار العرب. سلسلة ذخائر العرب. تحقيق وليم بن الورد. بيروت 1979.

- **رويول أوليفي**: «هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي»؟ ترجمه محمد العمري. **مجلة علامات**. جدة 1996. وقد ألحق بكتابه: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول.

- **السجلماسي**. أبو محمد. المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع. ت. علال الغازي. مكتبة المعارف. الرباط. 1980.

- **السكاكي**، أبو يعقوب. مفتاح العلوم. تح. نعيم زرزور. دار الكتب العلمية. بيروت. 1983.

- **صولة عبد الله**. فكرة «العدول» في الأسلوبية المعاصرة. **مجلة دراسات سميائية**. ع 1. **خريف** 1987. ص. 73 ـ 101.

- العسكري، أبو هلال. الصناعتين؛ الكتابة والشعر. دار الكتب العلمية. تح. مفيد قميحة. بيروت1981.

العمري. محمد.

أ - **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2000. [1989].

ب - «**الحجاج مبحث بلاغي**. فما البلاغة؟». ضمن كتاب: الحجاج موضوعه ومجالاته. إشراف حافظ إسماعيلي علوي. عالم الكتب. الأردن. 2010. (ج1/17-27).

ج - «**الصناعتان**، أو البحث عن بلاغة عامة». ضمن: حوليات كلية اللغة العربية. العدد7. 1996. 101-117. وهو موجود بموقعنا على النيت.

د- «البلاغة المأسورة». نشر ضمن سلسلة مقالات بعنوان: مراصد الخطاب، ظهرت بجريدة الرياض سنة 1996.

هـ- في بلاغة الخطاب الإقناعي. ط2. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء 2002.

و - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء 1999.

ز- دائرة الحوار ومزالق العنف. (في أساليب الإعنات والمغالطة؛ مساهمة في تخليق الخطاب السياسي)، إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2002.

ح - بلاغة الحوار، المجال والحدود. فكر ونقد، العدد 61 سبتمبر 2004.

ط ـ «التشبيه بين البيان والتخييل». ضمن كتاب: تكوين المعارف، دور القياس التمثيلي. الآداب والعلوم الإنسانية. بالرباط. سلسلة الندوات. رقم 117. 2005.

ك ـ «القارئ وإنتاج المعنى». مجلة فكر ونقد. العدد 17. 1999.

– **العوفـــي نجيب**. درجة الوعي في الكتابة. دار النشر المغربية. 1980.

– **عونــــي حامد**. المنهاج الواضح. المكتبة الأهلية للتراث.

– **الغذامي عبد الله**. المشاكلة والاختلاف. قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء 1994.

– فان ديك. **«النص بنياته ووظائفه». مدخل أولي إلى علم النص. ترجمة محمد العمري. إفريقيا الشرق. ط2. الدار البيضاء. 2005.**

– **القرطاجني حازم**. منهاج البلغاء. تحقيق محمد الحبيب بلخوجة. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1986.

– **لحمداني حميد**. الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم (العصر الجاهلي). الدار البيضاء. 1997.

– **المسدي عبد السلام**. الأسلوبية والأسلوب. نحو بديل ألسني في نقد الأدب. الدار العربية للكتاب. 1977.

– **الناقوري إدريس**.

أ ـ المصطلح المشترك. دار النشر المغربية. 1977.

ب ـ المصطلح النقدي في «نقد الشعر»، دار النشر المغربية. 1982.

– **هبريش بليت**. البلاغة والأسلوبية. ترجمة محمد العمري. ط2. إفريقيا الشرق الدار البيضاء. 1999.

ب ـ مراجع بغير العربية

- **Amossy** Ruth.

a- L'argumentation dans le discours. Discours politique, littérature d'idées, fiction. Nathan. Paris. 2000.

b- Amossy Ruth et Roselyne Koren. «Rhétorique et argumentation : approches croisées», Argumentation et Analyse du Discours, n° 2|2009, [En ligne], mis en ligne le 01 avril 2009. URL :(19 et 20eme paragraphe http://aad.revues.org/index561.html. (Consulté le 18 mars 2010)

Barthe Rolland. « L'ancienne rhétorique», communication, n° 16. Seuil. Paris

- **Ducrot** O. Le dire et le dit. Ed. Minuit. Paris.
- **Eagleton** Terry. Litterary Theory. An Introduction. Basil Blackwell. England. 1988.
- **Fontanier** Pierre. Les figures du discours. Flammarion. Paris 1977
- **Genette** Gérard.
  a- Rhétorique et enseignement. Figure 2. Edition du Seuil. 1969.
  b- Rhétorique restreinte. Figure 3. Edition du Seuil, Paris.1972.
- **Jauss H**. Robert. Pour une Herméneutique littéraire. Traduit de l'allemand par Maurice Jacob. Editions Gallimard. Paris. 1988.
- **Orecchionnie** *Kerbra*. L'énonciation et la subjectivité dans la langue. Armand Colin. 1980. P.200
- **Mayaffere** Damon. « Dire son identité. Etude du discours politique français aux XX[ème] siècle ». Cahier de la Méditerranée. Vol 66. L'autre et l'image de soi. WWW.cdlm.revues.org/document.htm?id=119
- **Meyer** Michel.
  a- Questions de rhétorique. Langage, raison et séduction. Le livre de poche. La librairie générale de France. Paris. 1993.
  b- "Conclusion: y a-t-il un fondement possible à l'unité de la rhétorique?. in figure et conflit rhétorique. bruxelles. 1990.
- **Perelman**. Ch
  a- L'empire rhétorique, rhétorique de l'argumentation. Librairie philosophique. J. Vrin. Paris. 1977.
  b- Le champ de l'argumentation. P.U. de Bruxelles. 1970.
- **Perelman**. Ch. Et Olbrechts-Tyteca
  Traité de L'argumentation. La nouvelle rhétorique. 5[e] édition. Bruxelles. 2000.
- **Reboul** Olivier.
  a - La rhétorique. Que sais-je? Coll. puf. Paris.1984
  b - "La figure et l'argument". in de la métaphysique à la Rhétorique. Bruxelles. 1986.
- **Ricœur**. *Paul. « Rhétorique- Poétique, Herméneutique ». in De la métaphysique à la rhétorique. Bruxelles. 1986.*

- **Tindale** Christopher W. « L'argumentation rhétorique et le problème de l'auditoire complexe », *Argumentation et Analyse du Discours*, n° 2, 2009, [En ligne], mis en ligne le 01 avril 2009. URL : http://aad.revues.org/index493.html. Consulté le 14 février 2010.
- **Todorov** = Oswald Ducrot et Tzevtan Todorov. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. Seuil. Paris. 1972.
- **Varga** Kibédi. « Rhétorique et production du texte». Dans: Marc Angenot, e. a,. théorie littéraire. Paris. Presses Universitaires de France, 1989, 219-234.
- **Walton** Douglas. « Types de dialogues et glissement dialectique en argumentation ». In Figures et conflits rhétorique. Ed de l'Université de Bruxelles. 1990.

فهرس الموضوعات

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2013
159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور ، الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس : 20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني :54 / 53 67 29 0522
الدار البيضاء

أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة

هذا الكتاب مساهمة جديدة للمؤلف، ذ. محمد العمري، في سبيل بناء نظرية بلاغية حديثة. وهو يتغذى من معرفته الواسعة بخريطة البلاغة القديمة والحديثة التي جاس خلال دروبها طوال أربعة عقود، أصدر خلالها مجموعة من الكتب والدراسات في بلاغة الشعر (الشعرية)، وبلاغة الخطابة (الخطابية)، وقرأ خلالها تاريخ البلاغة العربية قراءة نسقية. هذا فضلا عن تمرسه بالتحقيق والترجمة والتطبيق على الخطابين الشعري والخطابي. وهو يتكامل في منحاه النسقي مع كتاب صدر للمؤلف منذ أكثر من عشر سنوات بعنوان : البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول . .

هذا التصور الشمولي الغائب في الدرس البلاغي العربي الحديث مدعومٌ في هذا الكتاب نظريا (الفصل الأول)، وتاريخيا (الفصل الثاني)، وقرائيا/ حواريا (الفصل الثالث). وهو يستحضر المسار العام للبلاغة من أفلاطون وأرسطو إلى الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني إلى ياكوبسون وبيرلمان.

وقد اعتمد المؤلف في هذا الكتاب، أساليب بيداغوجية متنوعة في تقديم المادة وتقليبها على أوجه مختلفة مستحضرا جمهورا واسعا من القراء : من المثقف المتيقظ، إلى الصحفي والمحامي العصاميين المتطلعين لتطوير كفاءتهما النقدية التحليلية الحجاجية، إلى الطلبة الباحثين في كل التخصصات، إلى ذوي الاختصاص من طلبة البلاغة وأساتذتها المتطلعين لبناء نموذج بلاغي حديث وفعال.



الدكتور محمد العمري. من مواليد 1945 بمنطقة سكورة/ ورزازات. جنوب المغرب.
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعتي محمد بن عبد الله بفاس، ومحمد الخامس بالرباط، وجامعة الملك سعود بالرياض.
مدير مجلتي دراسات أدبية ولسانية. ودراسات سميائية أدبية لسانية. له عدة مؤلفات ودراسات في البلاغة وتحليل الخطاب، تأليفا وتحقيقا وترجمة.
يمكن الوقوف على مجمل أعماله في موقعه على الأنتيرنيت.
www. medelomari. net
حاصل على جائزة المغرب الكبرى للكتاب سنة 1990 وعلى جائزة الملك فيصل العالمية في البحث البلاغي سنة 2007.

ISBN 9981-25-898-3
9 789981 250970



KARL SHMIDT-ROTTLUFF : Conversation sur la mort. 1920.
Munich. Staatsgalerie Moderner Kunst